ساحر الكتب

الطبعة الأولى

رواية
Novel

أيمن العتوم

أَهلُ الإنجيل

الجزء الثالث من ثلاثية المسيح

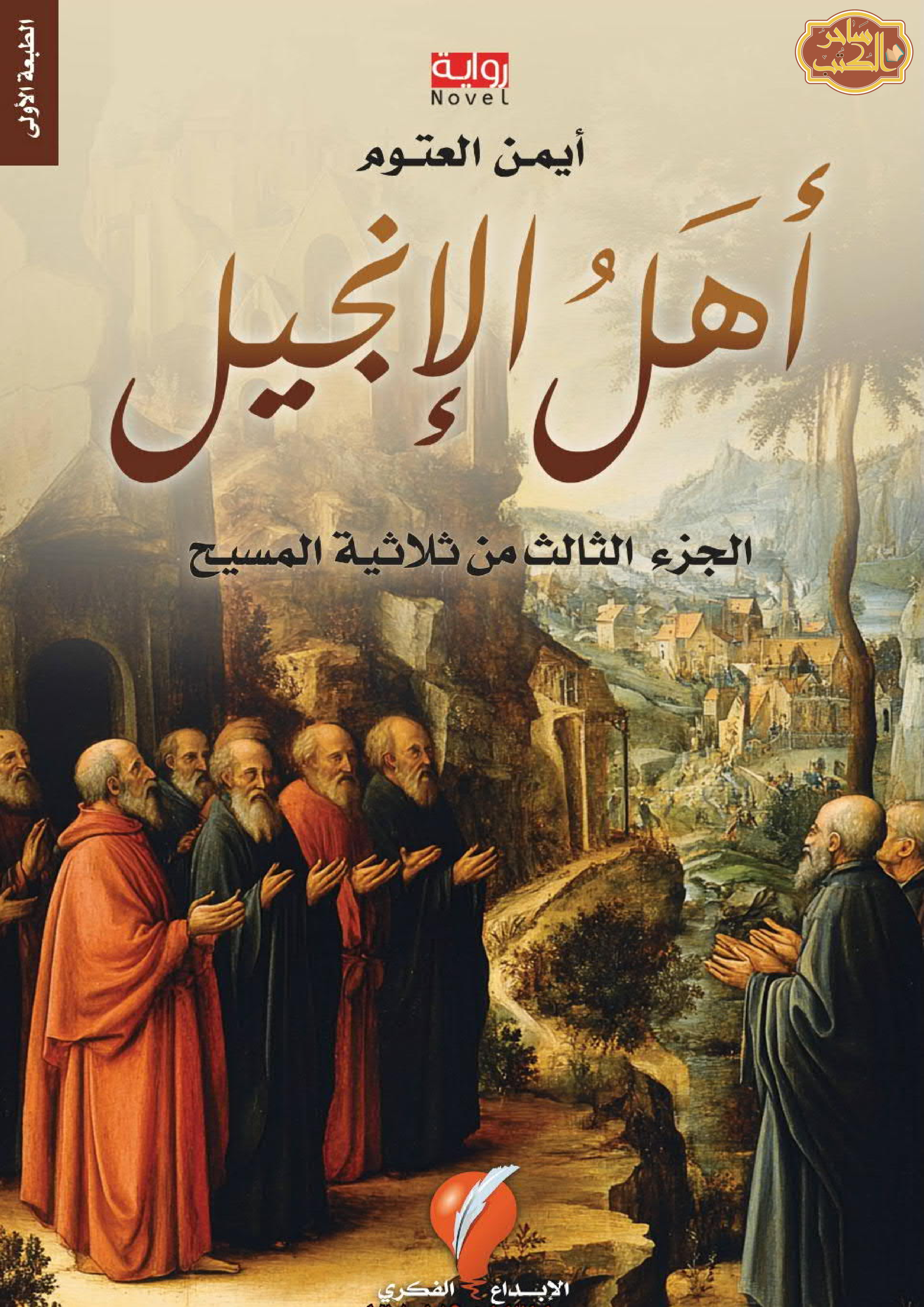

الإبداع الفكري

أَهْلُ الإنجيل

الجزء الثالث من ثلاثيّة المسيح

المؤلف: أيمن العتوم

الناشر: الإبداع الفكري للنشر والتوزيع - الكويت

رقم الإيداع: 2024-2668

الترقيم الدولي: 1-82-714-9921-978

العنوان: حولي - شارع بيروت - برج الصفاة- الدور الثالث

للتواصل: 0096597209021

الإبــداع الفكري

للنشر والتوزيع

ebdaafekry

www.ebdaafekry.com

هاتف: 22675321 - فاكس: 22675365

ص.ب 28589 الصفاة 13146 الكويت

تصميم وإخراج: 6Y4

جميع الحقوق محفوظة للناشر: (شركة الإبداع الفكري) يمنع النسخ أو التصوير أو النقل أو النشر في موقع الشبكة الإلكترونية أو الاقتباس من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر. (ومن يخالف ذلك يقع تحت طائلة الملاحقة القانونية)

٨١

الموتَى يَعُودون!

تلثَّمَ حتّى لا يُعرَف، وتنكَّر حتّى يُنكَر، خرجَ بعدَ العشاء الأخيرة، كانت حركةُ القاطِنين قد خفَت، والطّرقات قد خلت إلاّ من بعضِ الهَوام، خلعَ رداءَه الأرجوانيَ، ولبسَ جلبابًا ضافِيًا شديدَ السّواد ليُساعِده على أن يذوب في سوادِ اللّيل. عبرَ المُنعرَج الّذي يدورُ حول البناء العالِي، دخل البوّابة الّتي ركعَ عندها الحارِسُ حينَ سَمِعَ صوتَه وكشفَ له عن وجهه. صعدَ الدّرجات الّتي تذهبُ بصاحبها إلى شُرفة غالامائيل، توقّفَ عندَ العَتَبة، كان غالامائيل جالِسًا بخشوعٍ طاغٍ، وغارِقًا في طُقوسه. سُكُونُ اللّحظة، وعتمةُ اللّيل المجروحةِ بقنديلٍ يتيمٍ يسقُطُ ضوؤه من عَلٍ في القبّة الّتي يجثمُ العابِدُ تحتها فاقمًا من رَهبةِ المشهد. كانتِ الدّرجات قد سلبتْ بعضَ أنفاسِ الحبر الأعظم، فلم يكنْ من شيءٍ ليُسمَع حينَها إلاّ تلكَ الأنفاس، ومع ذلك لم يتزحزح غالامائيل من جلسته بشيء. ظلّ بردائه الأرجوانيّ الّذي يُغشّي جسده السّمين يبدو كأنّه كوكبٌ درّيّ هائمٌ في المَلَكوت. أزاحَ شاؤول اللّثامَ بهدوءٍ عن وجهه، وبسطه على كَتِفيه، ثُمّ رفعَ ذقنه إلى الأعلى قليلاً مُتهيِّئًا لإنهاءِ الصّمتِ ولو بكلمةٍ، تنحنحَ لكي يستدير إليه الكاهن قبلَ أن يَفُوه بحرفٍ، لكنّ غالامائيل كان يبدو مُنخطِفًا في عالَمه الخاصّ. لم ينتظرْ شاؤول بعدَها طويلاً ليقول بخضوع يليقُ في حضرة الرّبّ: «إنّ روحكَ نادَتْني». أجابه دون أنْ يلتفت: «حقًّا؟!». «أنا وحيدٌ». «وستبقَى لثلاثةِ قرونٍ كذلك». «أشعرُ بأنّ قلبي كُتلةٌ من القَيح والصّديد». «ستتخلّص منه عندما

تُنهِي رسالَتَك». «وما رِسالتي؟!». «القَتل». «تعبتُ من القَتل». «لو عرفتَ المنزلةَ الّتي يرفعُكَ بها القتل عندَ ربّ موسَى لَما تعبت؛ هل يتعبُ المُرتحِلُ إلى الله!». «يتعبُ يا سيّدي... يتعب». «أتعرفُ لماذا نُعجّل بقتلِ هؤلاء... لماذا نسوقُهم إلى المذبح؟!». «لأنّهم قرابينُ للربّ». «وأيُّ ربٍّ هذا الّذي لا يشبعُ من الدّماء؟!». «لقد ناداني إليك». «أتعرفه؟!». «كلاّ؛ ولكنّني أحسّ به... أحسّ به في روحي». «كلّما نفَذْتَ مشيئته قرّبك إليه». «مَنْ هذا يا سيّدي الّذي له كُلُّ هذا الجَبَروت؟!». «إنّه واحدٌ في كثيرين، ربّما تكونُه أنتَ في مرحلةٍ ما». « أهُوَ المُخلّص؟!». «بلى؛ المَسِيّا المُخلّص». «وَمَنْ يكون؟!». «أصغِ لروحِكَ تُجِبْكَ». «أيكونُ يهوذا؟!». «يهوذا أحد الحجارةِ المرصوفةِ في طريقه، إنّه أقلّ من أن يكونَ هو، لكنّ المَسِيّا رُبّما أعطاهُ روحَه لفترةٍ ما». «أيكونُ هو سبقَ زمنَه المقدور ببعضِ الظّهور... إنْ لم يكنْ هُوَ فأينَ يهوذا اليوم...؟! هل شنقَ نفسه... كلاّ... هل تَرَدّى من رأسِ جبلٍ وقتلَ نفسه؟! كلاّ... هل أُلقِيَ عليه شبه المسيح فَصُلِبَ بدلاً منه؟! هل... هل يا سيّدي...؟!». «لِمَ تُتعِبُ روحَكَ بأسئلةٍ دُفِنَتْ مع أهل الحِكمة؟!». «فهل سيظهر من جديد؟!». «بلى». «أليسَ هذا تجديفًا؟!». «أثُقال كلمة التجديفُ لأهلِ العلم أيّها الجاهل... إنّما تُقال للحمقَى والمُغفّلين وأصحابِ القلوب الضّعيفة!!».

حينذاكَ كانتْ أصواتُ العشرةِ تتصاعدُ من أسفلِ الغُرف صادِحةً بالنّشيد، نشيدًا جماعيًّا حنُونًا صافِيًا هادِئًا هائِبًا: «يومَ تأتي سوفَ ينهدُّ الظّلامْ... يا أميرًا للسّلامْ... وستجتاحُ خُطاكَ الخاطِئين... وستقتادُ لنا من كلّ أفّاكٍ لَعِينْ... مَنْ مَضى في غير دربِ الأنقِياءِ المُخلَصِينْ... وستعلو رايةُ المجدِ لإسرائيلَ فوقَ العالَمين». أخذا

نَفَسًا عميقًا يَتشمّمان الكلماتِ المُغرِية، عَبَرهمُ النّشيدُ مُشكّلاً سحابةً من الطّمأنينة في قلبَيهما. استدار غالامائيل، وقفَ دون أنْ يقول كلمةً واحدةً، خطفَ المسافةَ بينهما، وأخذ بيدِ شاؤول إلى غرفةٍ لم يُفتَح بابُها من قبلُ له قَطّ.

مُعتِمةٌ تمامًا، كَسَرَ النّورُ الضّئيل القادِمُ من الشّرفة جلالَ عتمَتها، لكنّه كان لا يكادُ يُظهِرُ شيئًا، ظلّت يدُ غالامائيل مُعلّقةً بيد شاؤول تقودُه، كانَ الأوّل يمشي بثقةٍ كأن الغرفةَ مُضاءَة، أمّا شاؤول ذو العينَين نِصفِ العمياوَين فقد اكتملَ عماه في تلك اللّحظة وغرِقَ في لُجّة الظّلام، كانَ هواءُ الغرفةِ حالِكًا مُوغِلاً في السّواد، رَطْبًا كأنّ كَبِدًا حيّةً تُغذّيه، بارِدًا كأنّ الغرفة دُفِنَت تحت الأرضِ في الظّلّ لقرونٍ طويلة. وقفا بعد خُطوةٍ أماميّة وثلاثِ خُطواتٍ جانبيّة، قال غالامائيل: «جِئتُكَ بالمُنتَظَر». وتوقّفَ كأنّه ينتظرُ رَدًّا، لكنّ الصّمتَ العميق هو الّذي ابتلعَ الكلمتَين وغَرِقَ المكان في السّكون من جديد. كانَ العَجَبُ يمضغُ قلبَ شاؤول، تحوّل في الحال بعد هدوءٍ وظلامٍ كثيفَين إلى غضبٍ داخليّ، كادَ بركانه يتفجّر لولا أنّه ضغطَ عليه ليُسكِتَه. انتظرَ غالامائيل بضعَ لَحظاتٍ قبلَ أنْ يقول مرّةً أخرى: «يُمكِنكَ أن تُخبِره بكلّ شيء... إنّه أفضلُ روحٍ على وجهِ الأرضِ يُمكنُها أن تُنفّذَ مشيئةَ الرّبّ». ثُمّ سكتَ. لكنّ الصّمتَ سادَ من جديد. بدأ الغَلَيان يتعاظَم في صدر شاؤول، كتمه ما استطاع، لكنّ نُثارةً منه خرجت من هناك فعبرتْ جِذعه ثُمّ سقطتْ على يَدِه اليُمنى فارتجفتْ. أحسّ بها غالامائيل الّذي كان لا يزال يُمسِك بها، شَدّ عليها لِتَهدأ، ثُمّ مسحَ ظاهِرَها بإبهامِه بحنوّ كأنّما يقول له: «انتظرْ؛ ستعرفُ كُلّ شيءٍ بعدَ قليلٍ». ارتخَتْ أوصالُ شاؤول، عبرتْ لمسةُ غالامائيل

مثلَ نسمةٍ خفيفةٍ تعبرُ سَطح بركة هادِئة فتموّجه. تموّج قلبُه. رجفتْ عينُه اليُسرَى. انثنتْ رُكبتاه انثِناءةً خفيفةً. علا صَدرُه ساحِبًا هواءً داكِنًا. وانبسطتْ شفتاه في نصفِ ابتِسامة. سحبَ غالامائيل يده من يده بهدوء، ثُمّ رَكزَ كفّيه على كتفَيه، وأدارَه نِصفَ دورةً وضغطَ بالكفّينِ على الكتِفَين في إشارةٍ طقوسيّة ليجلس. جلسَ شاؤول، حدّقَ لِيرَى مَنْ يقبع هناكَ مقابِلَه في الظّلام، لكنّه عَمِي. لَمْ يَرَ أيّ شيءٍ، فقط سحاباتٌ مُتراكِمة من الظّلمة المُعتقة. اتّخذ غالامائيل مكانه إلى جانبِ شاؤول، جاءَهما صوتٌ بدا مألوفًا من أوّل نُطقِه: «الآنَ أنتَ في الذّروة، على جبل الهيكل». «شيمون؟!!» صاحَ شاؤول شاهِقًا. «سيبسُطُ الله لكَ الممالك لا كما بسطها لشيطان يَسُوع». تابَعَ الصّوتُ بهدوء كأنّ الشّهقةَ المُفاجِئة لم تُؤثّر شيئًا على استرسالِه في الكلام: «لا يُمكن أن تُسيطرَ على العالَم إلاّ بثلاث: شَكّكْهُ في إيمانه، وَامتهِنه في شَرَفه، وأوجِد له بديلاً لإيمانه المُتشكّك ولشرفه المُمتهَن. أنتم سبعةٌ لأنكم أبوابُ جهنّم، سِلمٌ لبنِي جنسكم، حربٌ لأعدائكم. ستُضحّون بكلّ شيءٍ من أجلِ رغبة الرّبّ في الاختِيار: يهوذا المُتجدد، وأنتَ الفادي، وملك الرّوم في العصر الرّابع، وابن صائد في الأمّيّين، وابنُ سبأ حيث بدأ تَمكينُ يهود، وغريغوري السابع، والمَسِيّا الخاتَم حيث سيكونُ تتويجًا لمسيرتكم عبرَ آلافِ السّنين وسيتبعكم جنودٌ صِغارٌ في كلّ عصرٍ، ليسوا مِنّا، لكنّهم أدواتٌ لَنا. لا تسأل عن شيءٍ حتّى تُؤتاه، ولا تنتظرْ أحدًا حتّى يأتيك. واعملْ لمجدِ الرّبّ يُمجّدِ الرّبّ اسمَكَ إلى أبدِ الآبدِين، كما مجّد أورشليم عاصِمةً لإسرائيل حتّى تَنكدِرَ النّجوم». ثُمّ صمت، وابتلَعَ أنفاسه فلم يعدْ يُسمَعُ له حِسّ. ثمّ ازداد شاؤول عمًى إلى عماه، قامَ غالامائيل،

أمسَكَ بيدِ شاؤول، وقادَه كطفلٍ إلى بابِ الغرفة، فتحَ البابَ فتسلّلَ النّورُ هذه المرّة أكثرَ جلاءً إليها، سقطَ على زاويةٍ مُعتِمَة، فأضاءَ كقمرٍ حزينٍ، حانتْ من شاؤول التِفاتةٌ إلى الخلف، حاوَل باستعادةِ الخُطُواتِ في ذِهنه أنْ يسترجع المكانَ الّذي كانَ يصدرُ منه الصّوتُ، سقطتْ عيناهُ على كُرسيّ، كان الضّوءُ بالكادِ يكشفُ النّصفَ السّفليّ منه، حدّقَ في لحظةٍ خاطِفَة ليعرفَ مَنْ يجلسُ إلى الكرسيّ لكنْ عينَيه - لعنَ عينَيه حينَها - خانَتاه، لمَحَ نصفَ رَجُلٍ مُفرِّجًا ما بينَ ساقَيه، بدا انفراجهما مُشبِهًا انفراجة ساقَي صاحِبه، لكنْ ضَخامتهما الّتي بدتْ من خلال الرّداء الكَهَنُوتيّ الأحمر ضَعّفتا ذلك الخاطِر... شَدّه غالامائيل من يده: «هَيّا، لا وقتَ لدينا». نتقَ شاؤول غَضَبه في خُطاه فأسرع، التفتَ إلى غالامائيل، أرادَ أنْ يهوي بقبضةٍ يده على رأسِهِ فيحطّمَ جُمجُمَتَه، لكنّه حوّلها إلى قبضةٍ من الكلام المحموم: «مَنْ هذا الإله الّذي كان يُملي عليّ نبوءاتِه ووصاياه في تلك الغرفةِ اللّعينة». «لقد قال لك لا تسأل عن شيءٍ حتّى تُؤتاه، تعالَ معي ستعرفُ كُلّ شيءٍ». صارَا في الشّرفة، انعطفا يسارًا ليتّخذا الدّرجات الهابِطة، نزلتِ الكُرة السّمينةُ في المقدّمة، وتَبِعَها المُصارِع العِملاق من الخلف، كانتِ الدّرجاتُ تَئِنُّ تحتَ الوطأتَين، صارا في الطّابقِ السّفليّ حيثُ غُرفُ العشرة بالإضافةِ إلى غرفَتَي المُتَجَدّدَين، قال له غالامائيل: «ستأخذُ معك نُسخةَ التّوارة الصّحيحة». «وَمَنْ أدراني أينَ تكون؟!». «لا تتغابَ، مَنْ أخفَى سِرًّا على أخيه قُتِلَ به». ابتلعَ رِيقه. أدارَ مِقبَض الباب، دخلاَ، كانتْ هذه غرفتَه قبلَ ما يقرب من ربع قرن، شَمّ فيها رائحة الحليبِ الذّئبيّ، استيقظتْ فيه الغريزة، نمتْ في أعماقه أنيابٌ ومخالِب، سعادةٌ لا تُوصَف، عبرتْه صُوَرُ الغابَةِ

كطيور مُهاجِرة، قطَعَ عليه غالامائيل أفكاره وهما يجلِسان على مِقعَدَين مُتقابِلَين: «أيّ نوعٍ من السُمّ قتلت به قَيافا؟!». أدركَ أنّه لم يعد لديه موضعٌ للإنكار، بدا أنّهم يعرفون عنه كلّ شيءٍ، وربّما هُمْ مَنْ وضعوه في هذه الطّريق، ولم يفعلْ شيئًا سِوى أنْ يسيرَ فيها كما رُسِمَتْ له... توقّفَ عن تدفّق أفكاره ليسأل نفسه: «هُم؟! مَنْ هُم؟!». أيقنَ أنّ عليه أنْ يقذفَ بكلّ ما في دواخله من هَواجس دُفعةً واحدةً، وأنْ يتبرّأ من عذاباته بتقيُّئِها، ردّ مُصطَنِعًا الفَخر: «بالسّمّ الّذي لا يظهر أثره بعدَ الموت». «كان يبدو نائِمًا». «تمامًا». لكنْ قُلْ لي يا شاؤول: «أقتلتَه بالسُمّ وحيًا أمْ رغبةً؟!». «بل وَحيًا!!». «تبارَكَ الّذي أوحى لكَ بذلك». «إنْ أخطأ أحدُ المُنخَطِفين في التّعاليم؟!». «يُعاقَب». «بأيّ لونٍ؟!». «يُوضَع مَقلوبَ الرأس في قِدر الدّم حتّى يختنق». «فإنْ أفشى سِرًّا؟!». «يُقتَل هو ومَنْ أُفشِيَ إليه به». «مِن أجل هذا قتلتَ قَيافا؟!». «بَلى». «وأنتَ مِن بعده». «مَتى سيحينُ حَيني؟!». «سيقدّر الرّبّ ذلك، لكنّني أستطيع أن أقول لكَ إنّه ليسَ في هذه الأرض، ربّما في الأرضِ الّتي جِئتَ منها، الخُطّة تقتضي ذلك». «أيّة خُطّة؟!». «غدًا ستعرف. الآن نَم».

طال اللّيلُ حتّى انجلى قُبَيل حشرجة الرّوح. صَلّى مع العشرةِ الصّلاةَ الأولى. واتّكأ في مُصلّاه ينتظر ظهور غالامائيل. فكّر أن يوافِيَه في شرفته، لكنّه تذكّر ما سَمِعَه من الّذي تكلّمَ كإله: «لا تنتظر أحدًا حتّى يأتيك». وافاه غالامائيل في الصّلاةِ الثّانية، أصعده معه إلى الشّرفة، قال له: «نحنُ أحبّاءُ الله، فلا يختارُ لنا إلاّ ما يختاره الحبيبُ للحبيب». «ومتَى سيتمّ اختياري؟». «في اللّيلِ في طقوسِ دخولِكَ السّلك. الآنَ يجب أن نأكل». هَبَطا من جديدٍ، قطَعا الممرّ

الّذي يُؤدّي إلى الحديقة المكشوفة، كانتْ تبدو قد اكتستْ بكلّ ما يُمكن أن يُساعِدَ في طقوس الخُطّة. أعشتِ الشّمسُ عينَيه، سترَها بظاهر يده، مشَى خلفَ غالامائيل، صارَ بابُ المطبخ قُبالَتهما، عبراه، كانتِ القُدور السّتّ تتربّع في مكانها إيّاه، قال لغالامائيل: «ما يهمّني هو القِدْر السّادِسة، أشعرُ بعطشٍ شديد». «لا تخفْ، لكَ ذلك، الآنَ اخترْ ما تشتهي من اللّحوم».

انحنَى لهما رئيسُ التّشريفات، مَشى أمامه عابِرًا الجهةَ المقابِلة للمطبخ، لأوّل مرّة يعرفُ شاؤول أنّ هناكَ غرفةً لطعامِ الكِبار هنا، مَشَيا حتّى بَلَغا قاعةَ المنحوتات واللّوحات، كانتِ هذه تسبقُ قاعةَ الطّعام. «لمْ أكنْ أعرفُ أنّكَ تهتمّ بالفنّ من قبلُ». «كلّ شيءٍ في الحياةِ فَنّ، إنْ لم يؤسّس الفنّ أرواحَ الموجودات لم تكنْ أكثرَ من خواء». وقفَا أمام تِمثالٍ لهوميرس، حدّثَ شاؤول نفسه: «أمُؤمِنٌ ووثنيٌ!! أيّ سماءٍ هذه الّتي تسود هُنا». قال له غالامائيل: «إنّهم عادةً ما يقولون إنّ الجنونَ فنون. بالنّسبة لي أنا مؤمنٌ بذلك، انظرْ في أيّامنا هذه إلى كاليغولا، لولا جُنونه لما عرفناه». «لكنّ جنونه جعلَنا نغطسُ في مستنقع الوثنيّة أيّها العزيز؛ انظر إلى تماثيله الّتي تملأ الحامِيات، وترتفعُ فوقَ أسوار المعبد؛ أكنّا نعبدُ اللهَ أم نعبده؟!». «الوثنُ صورةُ الإله». «أيّها العزيز؛ الإله لا يكونُ مجنونًا». «إنّه يَسعَى إلى الخُلود، لا يهزأ بالموتِ مثلُ الفنّ». «الموتُ فَنّ». «حينَ تختارُه لا حينَ يختارُك». خَطَوَا خُطواتٍ أخرى في القاعةِ الفسيحة، توقّفَ شاؤول عندَ تمثالٍ لإلهٍ يبدو مطعونًا برمحٍ في يَدِ كاهنٍ: «ومَنْ هذا يا عزيزي؟». «هذا تمثال نبوخَذ نصّر، والّذي يطعنه هو أحدُ كهنتنا الشُّجعان، لقد قالوا إنّ الجنون هو الآخَر أصاب الملك مدّة سبع

سنوات كان يتخيّل فيها نفسه ثورًا، ويخرج كالدّابة يرعَى في الحقول، هذا الوجه المُعلَن للحكاية، أمّا الوجه المُستتِر فيرجع إلى السّمّ الّذي حمله رمح الكاهن وسرى في جسده، وأعاشه سبع سنوات من بعدها يُعاني آلامًا فظيعة تُسبّب له تهيّؤات بأنّه وحش أو ثورٌ أو حيوان فيمشي على أربع مثلها!!». «لكنّ الحقيقةَ تقول إنّ نبوخذ نصّر هُو مَنْ ذبَحنا وسبَى نِساءَنا وقادَهنّ مع أطفالِنا وخيرةِ شبابِنا عبيدًا إلى بابل... الحقيقةُ تقول ذلك». «الحقيقة!! هناكَ حقيقتان يا عزيزي، الحقيقية الّتي كتبتْها يدُ الدّهر، والحقيقةُ الّتي كتبتْها يدُنا، نحنُ نكتبُ الحقائق يا عزيزي، نحن نصنعها ونُصدّرها للآخرين، والحقيقةُ المصنوعة أخلدُ وأبقَى، لأنّنا نُجري عليها كُلّ مُقدّراتِنا، ونُفني من أجلِها كُلّ ذواتِنا، ونُعيدُ صِياغتَها حتّى لا يعودَ في الكونِ سِواها... ابتَغِني». دَلَفا من القاعةِ الفسيحة إلى ممرّ مُغطّى تمتدّ على جانِبَيه أحواضٌ من الورودِ ذاتِ العبقِ الشّذيّ، كانَ السّجّادِ الأحمر الفاخر يُغطّيه، أمّا رئيس التّشريفات فكان ينتظرهم هُناك، فتحَ الباب بانحناءةِ الخادِمِ الخبير، تلقّتْهُم رائحة اللّحم المشويّ تفوحُ في الأجواء، أبخرةُ الخُضَر المطبوخة كانتْ تتصاعَد من أطباقٍ مرصوفةٍ بانتظامٍ فائقٍ على طاولةٍ مُستديرة، وأنواعُ اللّحومُ كانتْ تتكتّلُ فوقَ صَحفاتٍ من الأرزّ الأبيض المُبهّر. والشّورَبات كانتْ تتوزّع على ستّة أقداحٍ مرتسمةٍ على هيئةٍ دائرة. وإلى جانبِ الطّاولةِ المُستديرة استقرّتْ طاوِلةٌ صغيرةٌ عن يَمِينها تحملُ فوقَها أجودَ أنواعِ الفاكِهة وأشهاها، أمّا عن يسارِ الطّاولة، فاستقرّتْ أربعُ قوارير من الشّراب، كلّ قارورةٍ يأوي إلى ظِلّها كأسانِ زُجاجِيّان لامِعان، مدّ شاؤول أوّلَ ما جلسَ يده إلى إحدى القوارير وسكبَ ما فيها إلى كأسه، فتصاعَدَ

الدّمُ أوّل الانِسكاب كأنّه يفور، ثُمّ استقرّ مالِئًا نصفَ الكأسِ الّتي كشفَ بَلّورُها النّقيّ الشّفّاف اللّونَ الأحمرَ القاني للدّم، رفعها شاؤول إلى فمه، وأفرغها مرّةً واحدةً في جوفِه، قال وهو يمسحُ ما سالَ منها عندَ شِدقَيه: «ما زلتُ ظامِئًا، أحتاجُ إلى كأسٍ أخرى». ملأها، وسكبَها مثلَ أختها فاندلقتْ إلى أعماقه، فانتَشى، قال وهو يهتزّ وقد ملأ بعضُ الدّمِ ثوبَه الأسود: «الآنَ أستطيعُ أنْ آكُل». هتفَ به غالامائيل: «بَدِّلْ ثوبَك، لا يكنْ ثوبُكَ كقلبِك». «نحنُ نلبسُ ما اختاره الله لنا». «لقد اختار لكَ أن تكونَ أنتَ صانِعَ الثّياب، ستفصّلها على مَقاسِ البشريّة، البشريّة المُتعطّشة إلى دينٍ جديد، الدّين الّذي هو شرابُها المُسكِر، تأكلُ باسمه، وتشرب باسمه، وتهذي باسمه، وتقتلُ باسمه، وتفعل الموبِقات والصّالحات باسمه».

ساقَه غالامائيل إلى غرفته الّتي كانَ ينامُ فيها قبلَ عقودٍ طويلة، كانَ يبدو أنّه أثقلَ من الطّعامِ والشّراب، أضجعه على السّرير، قال له، وهو يُغطّيه: «إنّه طعامُكَ الأخير، وسريرُكَ الأخير، اليومَ خمرٌ وشِبَع، وغدًا ماءٌ وجوعٌ. اليومَ نومٌ وحُلُم، وغدًا سهرٌ وكَدّ».

في النّوم رأى قَيافا، كان قد قامَ من قبرِه الّذي رقدَ فيه رَقدته الأخيرة، أقبلَ نحوه بعدَ أن نفضَ غُبارَ القبور عن جسدِه النّحيل، كانَ عارِيًا تمامًا، قالَ له: «جِئنا غُزاة وسنرحل غُزاة». «هل ستُسامِحني؟!». «أسامِحك على ماذا أيّها الأبله، لم أكنْ أتوقّع من مُختارٍ مثلك أنْ يأسفَ على شيءٍ فَعَله. كُنْ كما أرادَ اللهُ لكَ أن تكون، نحنُ سلسلةٌ من الأنبياءِ لا تنقطع، أنتَ نبيُّنا الجديد، ستُشكّلُ حياتُكَ مصدرَ إلهامٍ لكثيرين؛ أوّلهم أنا». «كيفَ وأنتَ ميّت؟». «الموتَى يعودون». «هل تعني ما تقول؟!». «وإلاّ كيفَ تُفسّر انتظارَنا في

كلّ عصرٍ لمُخلّصِنا؟! إنّه يتشكّلُ كلّ مرّةٍ في واحدٍ يُمهّدُ لظهوره». «ولِماذا لم تكنْ أنتَ؟!». «لديكَ استِعدادٌ لأنْ تكونَه أفضلَ مِنّي؛ من أجلِ ذلك سَهُلَ عليّ قتلُكَ لي؛ مُستعدّ أنْ أموتَ إذا كنتُ مُطمئنًا إلى أنّ مَنْ سيأتي بعدي سيكونُ قادِرًا على إكمال الطّريق». «أريدُ أن أسألك!!». «أعرفُ ماذا ستسألني؛ ستطلبُ منّي أن أدلّك على نُسَخِ التّوراة الصّحيحة، ليسَ بمقدوري أن أدلّكَ إلاّ على نُسختي». «أنتَ كذّاب». أنتَ الصّادق؟!! دَعكَ من الولوغِ في الاتّهامات، اللّيلةَ سيقول لكَ غالامائيل كُلّ شيء». غابَ فجأةً كأنّه كانَ بقعةً من ضوءٍ فانطفأ.

٨٢

سأحدّثكم بكلّ ما رأيت!

استيقظَ مخطوفَ الرّوح، كأنّ شياطين العالَم السّفليّ قد أنشبت أظفارها فيه. شَعَرَ بِثِقَلٍ في كلّ جوانب جِسمه، نهض. قعدَ على السّرير. شعرَ أنّه بنومته هذه قد انتقلَ إلى الطّرفِ الآخَر من العالَم، هَمّ بأنْ يلعنَ كُلّ شيءٍ على عادته، لكنّه تراجَعَ حينَ سَمِعَ طَرْقًا على الباب، دخلَ أحدُ العشرةِ كان يلبسُ رداءَ الكَهَنةِ ويُغطّي وجهه بالقُلنسوة ذات الطّرف الغُلويّ المُدبّب، بدا شابًا في أوّل العشرينيّات من خلال صوته: «سيّدي في الشّرفة ينتظرك».

جثا على رُكبتَيه، وجلسَ جِلسةَ التّلميذِ أمام أستاذه، ووضعَ يدَيه على فَخِذَيه، ونَظَر على ضوءِ القناديل المزروعة في الثّلث الأخير من الجُدران إلى عَينَي غالامائيل، كان وجهه وجهَ قِدّيسٍ يُساقُ إلى الجنّة، هادِئًا، ناعِمًا، بَضًّا، تشوبُ خدّيه حُمرةٌ فاتِحة، ومُوشًّى بابتِسامةٍ أخّاذة. أمّا عَينَاه الصّغيرتان فكانَتا مُغمَضَتَين إغماضةً خفيفةً كَرَاءٍ يُعايِنُ حُلُمًا في صَحو، وأمّا يداه فكانتا مُطبَقَتَين بشكل عموديّ، وقد ركَزَ أصابِعَهما تحتَ ذَقنِهِ البارزة ذات الشّعرات القلائل، قال له وهو يهزّ رأسَه بشكلٍ بطيء: «لقد حانَ وقتُكَ أيّها النّبيّ، أيّها الرّسول المُبجّل، أتعرف: لقد انتظرَكَ العالَم اليهوديّ منذُ السّبي البابليّ، ستّة قرون من الانتظار الأليم، وها قد حان الوقت، إنّها لحظةٌ كونيّةٌ مُقدّسة، وستشكّل انعِطافةً خالِدةً في التّاريخ. اليوم ستصنع ما لم يصنعه آلافُ الأحبار والكَهَنةِ اليهود عبرَ مئاتِ السّنين، اليوم ستخدمُ إسرائيل بما لم يخدمنا به إسرائيلُ نفسه

حينَ صنعَ مِنّا شعبًا مُختارًا. وسينسَى العالَم أنّكَ يهوديّ، وسينسَى أنّكَ قاتِلٌ مُحترف، وسينسَى أنّكَ أجرأ مَنْ خَطّط لقتل المسيح، وسَحلِ حوارِيّيه من بعده، وتمزيقِ أوصال أوليائه وإجبارهم على الهروب إلى رؤوس الجِبال. اليومَ ستكون المسيحيّ الجديد بالنّسبة للمسيحيّين، سيقولون إنّكَ أهمّ شخصيّة عرفَها التّاريخُ المسيحيّ بعدَ يسوع، سيقولون: كان الدّين الّذي جاءَ به المسيح وصايا بسيطة، فصار على يديكَ نورًا ومنهاجًا، وسنعمل على أنْ يُذكَرَ اسمُكَ في المعابِد أكثرَ مِمّا يُذكر اسمُ يسوع، وسيُقدّسون اسمكَ أكثرَ منه، وسيتوسّلون إلى مجدكَ، وسيُقبّلون الأرضَ الّتي حملتْك، وسيصنعون لكَ التّماثيل الّتي ستدوم إلى ظهور المَسِيّا، ستُدمّر تماثيل الأباطرة والفراعنة والقياصرة والتّبابِعة، وستبقَى تماثيلُكَ كأنّها الدّهر الّذي لا يفنى، والموت الّذي لا يموت. اليوم ستكونُ ربّهم بعدِ موتِ ربّهم، وستكونَ مُلهِمَهم بعدَ أن تكتُبَ لهم ما سيتّخذونه نِبراسًا يُجادِلون به كُلّ مَنْ لم يعرف ما هو دينُ يسوع، أنتَ الدّين، والمعبدُ والكنيسةُ والفادي والإله، والصّخرة، والأبد. أنتَ ثاني سبعةٍ سيظلّهم الله في عرشِه، سَبَقكَ يهوذا، وأنتَ تلحقُ به. وسيظلّ نهرُ الفجيعةِ مُمتدًّا حتّى يخرجَ رسول السّلام. نحنُ وأنبياؤنا وأولياؤنا وعُلماؤنا وأبناؤنا ونِساؤنا وذرارينا خَدَمٌ للتّراب الّذي يُعفّر به قَدَمَيه، ولنْ نتوانَى عنْ التّعجيلِ بظهوره، وسنفنَى من أجلِ حُبّه، ونبقَى أوفياءَ ليومِه حتّى ولو لم يكنْ ذلك على عَهدِنا، فأحفادُنا، وخَلَفُنا سيظلّون أُمناءَ على الشّعلةِ حتّى تصلَ إليهِ في عَليائِه فيأخُذها من أيدينا وينطلقُ بها طائِفًا العالَم كي تكتمل مملكتُه الأبديّة... يا شاؤول، هنيئًا للماسونيّة الّتي اخترتَها، وهنيئًا لكَ أنِ اختارَتْك،

جُنديًا مُتفانِيًا، سيكون تسليمُه لروحِه من أجلِ إتمامِ رسالَتِنا علامةً على صِدقه ووفائه». ثُمّ صمتَ فصمتَ المكانُ كأنّ يدًا علويّةً سحبتْ عليه غلالةً من الهُدوء. لم تُسمَع نأمة. كانتْ شياطينُ الأرض مُجتمعةً كلُّها هُناك؛ ترقدُ بسكينةٍ على الحوافّ، تُلقي رؤوسها على صدورها بانشِداهٍ وقد أذهلَها الخِطابُ الكَهنوتيّ التّاريخيّ، فابتعلتْ ألسِنتَها، وأوقفتْ أنفاسَها، وطلبتْ من دقّاتِ قلوبها أنْ تنبض برتابةٍ بحيثُ لا تُسمَع. موقفٌ سجدتْ لهيبته الأبالِسةُ؛ فما عَساهُ يكون!! لكنّ البُركانَ الّذي يعوزُ في أعماقِ شاؤول، لا يُمكنُ أن يظلّ ساكِنًا كُلّ هذا الوقت، حرّك شِقّيه أمام سيّده، ثُمّ هتفَ باسم صائد الذّئاب لا باسم الحبر الأعظم: «أدركتُ ما ينتظرني؛ فما العمل؟!». بدا الاهتِمامُ جَليًا على وجه غالامائيل أكثرَ من ذلك الّذي بدا عليه وهو يُسمِعه خطابَه الآنِف، تنحنحَ، ثُمّ حنى جذعه إلى الأمام، ونظر إلى أرضيّة الشّرفة الفاصِلة بينه وبين شاؤول، استعادَ انحناءَته، ثُمّ استلّ خِنجرًا من جيبِ ردائِه، أزالَ غِمده الصّغير، فالتمعَ، فالتمعَ لالتِماعته قلبُ شاؤول، ثُمّ رسمَ بالخنجر على الأرضِ الحجريّة البُنّيّة خارطةَ الأزمان، رسمَ دِمَشق، والبادية، وأورشليم، والبحر، وتسالونيك، وكورنث، وغلاطية، وأفسس، وفيلبي... كانَ الخنجر يسير في خُطوطٍ متّصلة، حتّى إذا وصلَ إلى الأخيرة، توقّف، وقال: «هُنا يتّخذ الله روحَكَ قُربانًا!!» ثُمّ حدّدَ روما. تركَ الخِنجرَ من بين يدَيه، رفع رأسه إلى شاؤول: «مِنَ اليومِ أنتَ بولس، خُطوتُكَ الأولى إلى دِمشق، شيمون سيخلُفُكَ على الكرسيّ، كرسيّكَ من اليومِ بيدِ المَسِيّا، أنتَ قلبُه، لقد اصطفاك!! رتّبتُ كُلّ شيء، الكَهَنةُ هناك يعرفون التّفاصيل، ستأخذ الكتبَ إليهم، وفيها البقيّة. في الطّريق

حيثُ تكونُ الشّمسُ كأنّما اختلطَتْ أشعّتها بذرّات الرّمل، سيظهر لكَ المسيح». صعدَ الدّمُ إلى رأسِ شاؤول، قالتْ حرارةُ الـرّأس: «حقًّا؟!». «لا تُقاطِعني، الملائكةُ لا تسيرُ في طريقِ الشّياطين، ستقول إنّه ظهر، وإنّه عاتَبَكَ عِتابَ المُحبّ، وقالَ لك: إلامَ تضطهدني؟! بالطّبع ستتخيّل أنّه قال لك ذلك، وحينَها ستنظر إلى الأفق، والرّفاق الّذين معك سينظرون في تلك اللّحظةِ إلى الأفق مثلك، لقد رتّبتُ معهم ذلك أيضًا، وسيسمعونَكَ تقول: مَنْ أنتَ أيّها السّيّد الّذي أسمعُ صوتَه آتِيًا من السّماء؟! وسيُجيبُك، وستُكمِلُ المسرحيّة... يُمكنُكَ أن ترتجلَ ما شِئتَ حينَها». صَمَت، مَدّ يده إلى جيبه الأخرى، وأخرجَ منها لُفافةً من الجلد، وقال: «بعضُ التّفاصيل الأخرى ستجدها في هذا الكتاب، لا تُؤخّر ذلك، خروجُكَ إلى دمشق، وإتقان الدّور المطلوب منك ليسَ صعبًا، الصّعب هو ترويض قلبِ بطرس وبرنابا». ثُمّ مَدّ إليه باللُّفافة، دَسّها في جيبِه بدوره، ونهضَ على قَدَمَيه: «الآنَ أعرفُ ما معنى النّبوّة». «وستُدعَى بولس الرّسول». «لأوّل مرّة أُحسّ أنّ لحياتي معنًى». إنّه أجلّ معنًى يُؤدّيه بشريّ كائنٌ إلى اليوم!!».

في الصّباح، كان عشرون فارِسًا بانتظاره خارجَ القنطرةِ الّتي على السّور الشّماليّ من المعبد، حَيّوه بالرّكوع حينَ رأوه قادِمًا، ركبَ حِصانَه المُطهّم الّذي أُعِدّ له، دار به نصفَ دورة حتّى صار قُبالَتهم، كانوا قد اعتلَوا ظُهورَ الخيل: «نحنُ ذاهِبون إلى دمشق، سنستلّ أتباعَ المسيح الهارِبين من وجه العدالة، ونُسوقهم سَوقَ النّعاجِ إلى هُنا لكي يُحاكَموا، الرّبّ لا يقبلُ الكفرةَ ولا المُشركين ولا عُبّادَ الأوثان، وهؤلاء كانوا قد ارتكبوا هذه المُوبِقات جميعها، مَنْ وجدْناه في طريقنا من نسائهم أو أطفالهم سبَيناه، ومن رجالهم قَتَلْناه، ما يُهمّني

هم المُبشّرون، الّذين تَلَقّوا عن رسل المسيح مباشرةً، هؤلاء سنقيّدهم من خِلافٍ وسنعودُ بهم إلى هنا أذِلّاء... هل أنتم مُستعِدّون للقيّامِ بواجبكم على أكمل وجه؟!». هتفوا بصوتٍ واحدٍ: «بَلَى... بلَى... مرحَى... مرحَى». عَوَى بصوتٍ حادٍّ شقّ رَهافةَ الجوّ: «المجدُ للرّبّ... المجدُ للرّبّ...». فهتفوا من بعده: «المجدُ للرّبّ... المجدُ للرّبّ...». وسارَ الموكبُ!!

مرّ زمنٌ؛ الشّمس توسّطتِ المسافةَ والنّهار، صارت باديةُ الشّامِ بادية، طلبَ قائدُ الجنود من شاؤول أنْ يسمحَ لهم بأن يرتاحُوا، فأجابه: «حينَ أسقُطُ سترتاحونَ بقيّة النّهار واللّيل. الآنَ سِيرُوا». رضخَ للأمر. صار الرّمل الأصفر يُحيطُ بهم من كلّ جِهة، أصبحوا في قلبِ البادِية، كانتِ الحرارةُ قد أذِنَتْ للحَصَى المُتناثِرِ فوق الرّمال اللاّهِبة أن يحمرّ ثمّ يَسودّ، حتّى الخُيُول حمحمتْ تستجيرُ من الرّمضاء، أمّا الجُنودُ المُدرّبون على تقلّبات الطّقس، والتّحمّل، فقد جأروا إلى قائدهم أن يُنقِذهم من هذا المجنون، فأطرقَ برأسِه ليقول دون أن يقول: «إنّه لا يستطيع، وإنّهم تحتَ إمرةِ الربّ، وما شاؤول إلاّ ظِلّهُ على الأرض». فَمَشَوا يتلمّسون ثِيابهم ألاّ تحترق بهم، كانَ الماءُ الّذي تبادَلوه ليُخفّفوا أُوامهم يغلي، فزادَ من عَطَشِهم، ولمْ يُطفِئ ولو قليلاً من الظّمَأ، أتربةٌ كانتْ تُغطّي مُقدّمة اللّسان فيزدادُ جفافُه، ثمّ يتيبّس كأنّه قِطعةُ حجرٍ. قال لهم شاؤول: «الرّبّ يقول لي إنّنا قد اقتربنا من حِماه». وسارَ فساروا. توهّجَتْ عَينا شاؤول، نفَرَتا كأنّهما حبّتا تينٍ ناضِجَتَين تقطُران سائِلاً أحمر، وتضرّجتْ أجفانه كأنّها تُرُوسٌ مُحمّاة، فاقَمَ ذلك من ضعفِ بصره. أصبحتِ الشّمسُ في عَينَيه، فصرخَ: «آآآآه...». توقّفوا، هُرِعَ إليه قائدُ الجُند،

أشارَ إليه حينَ تماثَل له قادِمًا نحوه في مدى الرّؤية: «استمرّوا أيّها الكِلاب... استمرّوا لم يَحِنِ الوقتُ بعد». تراجعَ القائد. وصرخَ بالجُندِ أن يُتابِعوا مسيرهم. سَمِعتْ أصواتُ فرقعةٍ، كانتْ حَصى يفور تحتَ حوافر الخيول. رَفَعَ رأسَه المُتصبّبِ عرقًا باتّجاه الشّمس، كانَ اللّثام ما زالَ يحمي وجهه من أن يُشوَى، أزالَه في اللّحظةِ الّتي لا يُمكنِ لعاقلٍ أن يفعلها، وصرخَ من جديد: «آآآآه...». تريّثَ قائِدُ الجُندِ قبلَ أنْ يسأله ما إذا كانَ بحاجةٍ إلى المُساعَدة، لكنّه آثَر ألاّ يُشتَم كالمرّة السّابِقة فدلّى رأسَه المقليّ تحتَ الخُوذة، ولعنَ الأمر الإلهيّ الّذي يُجرّده من كلّ سُلطةٍ، ويجعله تابِعًا كالفأر لبطشِ الكَهَنوت، انقطَعَ حبلُ أفكاره على صوتِ شاؤول، يصرخ: «أيّتها الأرواحُ اللّعينة، أكانَ عليّ أن أحتملَ كُلّ هذا من أجلِ رؤىً شيطانيّة؟! أعتقيني أيّتها الأرواحُ الخبيثة». همسَ قائدُ الجُندِ لنفسِه: «لا بُدّ أنّه يهذي». كانَ يتقدّمه. جذبَ لِجامَ فرسِه الّتي صارَ ضُباحُها يبعثُ على الشّفقة، وأوقفَها. حتّى إذا مرّ شاؤول بحصانه المُتأخّر فصار إلى جانبه صرخَ في وجهه بكلّ بذاءة: «ألم أقلْ لكَ أيّها القوّاد أن تستمرّ في السّير، لِمَ تتوقّفُ مثلَ كلبٍ يبولُ على نفسِه!؟». تابَعوا المسير... صارَ الموتُ يرقُصُ على هيئةِ شبحٍ يقطرُ وِشاحهُ ماءً ثلجِيًا، ركضَ بعضُ الجنودِ تحت تأثيرِ العطشِ والحرّ ليظفروا به، فسقطوا في خيبتهم، حينَ ساروا أكثرَ النّهار كانَ نِصفُهم قد فقدَ صوابه، والنّصفُ الآخر قد غَرِقَ في هذَياناتٍ محمومةٍ يُحدّثُ بها الفراغَ النّاريّ الّذي يستحوذُ على كلّ شيء.

«إنّه مجنون؛ لماذا عليّ أن أُطيعَه؟!». قال قائدُ الجُندِ لِنفسه. «أنا نبيّ ولستُ مجنونًا أيّها اللّعين» صاحَ شاؤول به. «أنا لم أقُلْ شيئًا يا

سيّدي. أرجوك لا تُسِئ الظّنّ بي». لم يكد يُكمِلُ عبارته الأخيرة، حتّى صهلَ حِصانُ شاؤول صَهيلاً عالِيًا مُتتابِعًا، ثُمّ رَفَعَ قائِمَيه الأمامِيّين إلى الأعلى، وراح يُدَولِبهما في الهواء، سَقَط شاؤول عن ظهرِهِ، وكادتْ عُنُقُه أن تُدَقّ. كانَ الفَضاء قد تحوّل حينَها إلى فراغٍ أحمر، أنّ شاؤول من أثرِ السّقطةِ أنينًا مسموعًا، عرفَ أنّها لحظتُه المُناسِبة، تحوّل ألمه إلى صَرَخاتٍ عالِية كانَ يُمكن أن تتفجّر لولا أنّه حَبَسَها هُناك من أجل الخُطوةِ القادِمة، صَمَتَ لَحظاتٍ، أسرعَ إليه قائدُ الجند وآخَرون، ظلّ صامِتًا، هَبَط القائِد إلى الرّمل، فسرتْ حرارةُ الأرضِ في ثِيابه وانسربتْ هُناكَ فلسعتْ جِلدَه، كادَ أن ينبح، لولا أنّه حوّل نُباحه إلى التّظاهر بالاهتِمام بشاؤول، قال له: «هل أنتَ بخيرٍ يا سيّدي؟!». ظلّ صامِتًا، غيرَ أنّ يَدَه ارتفعتْ بصعوبةٍ من على جانِبه، وأشارتْ إلى القائدِ أن يصمت، وقف، وتابعَ النّظر إليه من عُلوّه. ظلّ شاؤول صامِتًا، عبرتْ لَحظَاتٌ رهيبةٌ من التّرقّب، قبلَ أن يسمعَ القائِدُ شاؤول يهتفُ بألم: «وَمَنْ أنتَ يا سيّدي؟!». «.....». نظر شاؤول إلى الأفق، فنظرَ القائدُ إلى الأفق كذلك، ونظر مثله بقيّة الجُند، صاحَ القائد: «انظروا إلى النّور المُنبعث من هناك». تلفّتَ الجنود إلى حيثُ أشارَ قائدُهم، لم يكنْ ثَمّةَ غيرُ الشّمسِ اللاّهِبة وألسنتُها ترقص بفجور، غَطّوا عُيونَهم بأيديهم من شدّة وهجها، وتابَع القائد: «إنّنا لا يُمكن أنْ نُطيلَ النّظر إليه لِشدّته». أيقنَ الجُنودُ أنّ قائدهم إمّا أنّه يكذب، وإمّا أنّه يَهذي. كانت عينا شاؤول قَدِ انطفأتا تمامًا، بَدَتا كُرَتَين زُجاجِيّتَين خَضراوَين تحيطُ بهما هالاتٌ حمراء تنضح عرقًا أو دمًا لا أحد يدري، كانتا مُرعِبتَين كأنّ الموتَ نزعَ منهما النّور والحياة، هتفَ بصوتٍ مبحوحٍ شاكٍ: «إنّه المسيح، وهو يَدعونني إليه». ولم

ينطِق بعدَها بكلمةٍ. ظلّ على هذه الحال بعض الوقت، وظلّ الجنودُ ينتظرون وهم في حالةٍ من الإعياء لا تسمحُ لهم بأن ينبِسوا بكلمة، أو أن يأتوا بحركة، حِينَها نَهَضَ شاوُول، كانَ قد عَمِيَ تمامًا، تلمّسَ الهواء بيدَيه، تلقّاه القائد، ساعَدَه على أنْ يرتقي حِصانه، وسارَ الرّكب... ظلّ القائدُ ينظرُ بينَ حينٍ وآخَر إلى شاوُول، كانَ يبدو أنّه غارِقٌ في بُحيرةٍ من الحيرة، حثّه أكثرَ من مرّة على أن يقول ولو كلمةً واحِدةً، لكنّه كان كمن لا يسمعُ شيئًا، ولا يدري بأحدٍ من حوله. سمعه في لحظةِ صمتٍ تُشبه لحظة الصّمت في مجلس عزاء يجلس فيه الموعودون بالموت: «سأحدّثكم بما رأيت... سأحدّثكم بكلّ ما رأيت!».

٨٣

إذا مررتُم به فأسرِعوا!

نظر إلى الصّليب، صاروا ثلاثةَ لصوص، أشفقَ على الجنديّ الرّومانيّ الّذي ألقَى عليهِ جسَدَه، كانَ يؤدّي وظيفته في الحياة، فأدّى عنه وظيفته في الموت. تحوّلت شفقته عليه إلى سُخرية، ثُمّ تحولّتِ السّخريةُ إلى قهقهاتٍ عاصِفة، سَمِعت أصوات ارتِطامات بعيدة، كُلّ المعابد في فلسطين تزلزلت أركانُها. ملأتِ الزّمجراتُ الّتي لا يعرفُ أحدٌ مصدرها فضاءَ ذلك المساء، وتحوّلت إلى دمدماتٍ مُرعِبة، ابتسم، إنّه يبدأ مشوارًا طويلاً، فكّر في المُتجدّدين، رَقْصَةُ الحُلم الأبديّ فدار حولَ نفسِه. ازدادت ابتِسامته غُمُوضًا واتّساعًا، في التّاسِعة كانتِ ابتِسامتُه تكتمل بعدَ أن غَطّى الظّلامُ كُلّ شيءٍ!!

حدّثَ نفسَه: «لا بُدّ أنْ ألتقيه في بادية الشّام، وأُعلّمه الحِكمة». ثُمّ تراجع: «ليسَ الآن، بيني وبينَ البادِية كُهُوف قُمران، حيثُ كان يحيى، رحل، وتركَ المكان هو وأساتذته خالِيًا، في المكان الّذي التفتت فيه زوجةُ لوط، ستبدأ اللقاءات، وسأتعلّم من الشّيطان ما أطلَعَه الله عليه من أنباءِ الغيب». مَشَى، حتّى صار اللّيل قاسِيًا، مدّ يده في الظّلام فرأى أصابعه كأنّها ثعابينُ من نار، لم يكنْ يُحِسُّ بحرْقِها، كانت تتراقصُ له طربًا، كأنّما تقول له: «بدأتَ العَهدَ، هذا يومُ ميلادِ المسيح الحقيقيّ». ابتسمَ لها، وواصلَ المسير. حَفّتْهُ في اللّيلِ البَهيم أصواتٌ كأنّها قادِمةٌ من غَور الأرضِ العميق، كانت تَئِزُ أزيزًا مُرعِبًا، طلبَ من الشّيطان أنْ يُظهِرَ له أصحابَ الأصوات، ففعل. انكشفَتْ له آلافٌ مُؤلّفة من الشّياطين، تصطفُ على جانِبَي الطّريق

الّتي يسيرُ فيها، وهي تنظُرُ إليه مُرحّبةً، كانت تُغنّي كأنّها مراجلُ تَفور، كانَ ذلك التّفسير الوحيد للأزيز الّذي سَمِعَه، أعدادٌ لا حصرَ لها نبتت من باطنِ الأرض، كانت تتقافزُ على سيقانٍ مُعوجّة وهي تتلهّفُ للسّلامِ عليه كلّما مرّ أمام جمعٍ منها، فلمّا رفعَ يدَيه مُحيّيًا الجماهير الغفيرة حيّته بزعيقٍ ارتجّت له جوانبُ الطّريق حتّى كادت صخوره تتقلّع، لم تُصدّق الدّهماء من الأبالسةِ الصّغار أنّ سيّدها أخيرًا تكرّم عليها بالتّحيّة الشّيطانيّة المُقدّسَة. سأله: «أتريدُ أن ترافقكَ هذه الأعدادِ إلى مُستقرّك؟». «كلاّ. اصرفْها. سأمشي الطّريق وحدي». «نخافُ عليك». «لا يُخافُ على الشّيطان من الشّياطين». «نخافُ عليكَ من ورثةِ المسيح». «أنا أعرفُ النّاسِ بهم، إنّهم لا يصمدون أمامي فلا تَخَفْ، سأقطع الطريق إلى بحيرةِ لوطٍ وحدي، إلاّ إذا أردتَ أن تُرافقني». «لي الشّرف، أيّها العظيم. وهؤلاء؟!». «قلتُ لك اصرفهم، لا أريدُ مزيدًا من الغوغاء». صفّقَ الشّيطان الأكبر بيديه، فانمحى المشهد، كأنّهم كانوا طُيوفًا من خيالٍ طارق.

اتّخذَ يهوذا له كهفًا على أعلى التّلّة المُطلّة على البحر الميّت، في المكانِ ذاتِه الّتي مُسِخت فيه زوجةُ لوطٍ حجرًا. تحوّل جسدها الجميل إلى تمثالٍ قبيح، بشرتُها النّاعمة البيضاء تبدّلت صخرًا خَشِنًا أسود، وعنقها المُخمليّ صارَ جِذعًا صغيرًا من الشّوكِ الّذي تحمله القنافذ على جلودها، وأصابعها الّتي كانت شُموعًا بلّوريّة تحوّلت إلى أظافر كالِحة ينزّ من تحتها الصّديد. ركزَ يَدَيه عندَ رِجلَيها، كان التّمثالُ قِطعةً من صخر الجبال العنيدة لا يُمكن لقُوّةٍ بشريّةٍ أن تزحزحه عن مكانه ولو بمقدار إصبعٍ. لكنّه لم يَكَد يشدّ عليه من الأسفل بِكفّيه، حتّى انفصلَ عن الجبلِ كأنّما تفصلُ شعرةً

عن العجين!! حملَ التمثال الأثير كما يحملُ طِفلٌ لعبةً، وخبّأه في الزّاوية البعيدة للكهفِ العميق الّذي يقطنه، قال لها وهو يركزها هناك: «مِن اليومِ سأستمع إلى أسرارك، لا أريد ما ظلّ يردّده العوامّ طَوالَ قرونٍ سحيقة من هُراء، أريدُ أنْ أسمعَ الخفايا الّتي كانتْ تتمّ بينَكِ وبينَ فُرسانِ المَسِيّا، لكِ شرفُ السّبقِ أيّتها العَجوز، أنا جئتُ في زمنٍ لاحقٍ، أمّا أنتِ فمن أوائل الّذين أسّسوا لفرسان المعبد، ولفكرة الانتِقام الجميلة، ومهّدوا لظهور المُخلِّص الحقيقيّ. لا تقولي لي ما ردّدته الثّوارة، وما كتَبَه الشّذّجُ عنكِ، بل أريدُ ما كتبْتِه أنتِ بأفعالٍ لا يجرؤ على ارتِكابِها أشدّ الرّجال شجاعةً، أريدُ أنْ أسمع كيفَ كنتِ تُغوينَ الرّجال بكِ، كيفَ كنتِ تدلّينهم على مواطنِ اللّذّة، اللّذّة المُحرّمة، أنا مُغرَمٌ بالتّفاصيل، ولدينا هنا في هذا الكهفِ عشرُ سنواتٍ على الأقلّ لنعيشَها معًا قبلَ أن يتمّ تدريبي على أنباء الأوّلينَ والآخِرين على يَدَي بِلْعام، سيّد علماء الأبالسةِ أجمعين. إنّها سَنَواتٌ طويلة، وفي ليالي الشّتاءِ المُتطاولةِ لا يُمكن أنْ أقطَع اللّيل بعدَ رحيلِ بِلعام وأنا ألعبُ بالحَصَى، بل عليّ أنْ أتسلّى بأخبار الثُّفّاحات المُحرّمة، ولا أحدَ يُمكنُ أن يقُصّها خيرٌ منك». تنهّدَ، ثُمّ أخرجَ هواءً حارًّا من صدره، قبلَ أنْ يطبعَ على جبينِها الحجريّ المُعفّر قبلةً عميقة، ثُمّ يحضنها، وهو يهمّ بالبُكاءِ على المساكينِ الّذين لم يحظَوا بها!!

جلَسَ يتأمّل الشّمسَ في الغروب وهي تسقُطُ في البُحيرة، كانتْ حمراءَ تمامًا، خطرَ بباله أنّها تعكسُ أفعالَ البشر، إنّ الذّبح المُستمرّ فيهم يصعدُ إلى هذه الشّمسِ في عليائها فيصبغها باللّونِ القاني، قد يكذبُ البشر، يخونون، يغدرون، يتملّقون، يقولون شيئًا ويفعلونَ

شيئًا آخر، أمّا هي وسائر الموجودات فلا تجد في قاموسِها معنًى لكلّ هذه الأشياءِ الوضيعة!!

بدأتْ تستحمّ بالماءِ، بدا الماءُ وهو يستقبلها غاطِسةً فيه وادِعًا مُستسلِمًا لوهجها الّذي صارَ خفيفًا في ذلك المساء الأرجوانيّ الشّفيف، صار نِصفُها تحتَ الماء، رأى على نصفها العلويّ صورةَ قرينِه، بدا بكامل هيبته، يبتسم في وجهه من ذلك الأفق البعيد، التقتْ ما بينهما علائقُ المودّة، وانصهرتْ في فؤادَيهما مشاعرُ من الألفة لا يُدرِك كُنهَها سِواهُما، هتفَ كأنّما يُريدُ منه أنْ يسمعه: «أيّها المُخلّصُ المُنتظَر لا تُطِلْ غيبَتَكَ كثيرًا، لستُ وحدي الّذي ينتظرُك، البشريّة كلّها تجثو بين يدَيك لكي تُنقِذها... لا تقلْ إنّ مجيئي سيكونُ في آخر الزّمان، ألسنا نحن اليومَ في آخِر الزّمان؟! هل ستتعاقَبُ عصورٌ أخرى على هذه البشريّة البائسة، هل يريدُ الله أنْ يُعذّبَها أكثرَ مِن العذاب الّذي هي فيه...؟!» سكتَ فازدادتْ بسمةُ القرين المُتمثّل على صفحة الشّمس الغارِبة اتّساعًا... عَنّ ببالِه أنْ يسأله، فسأله بصوتٍ ارتجّتْ له جَنَباتُ الجبل، وتداعتْ من تردّداته بعضُ الصّخور الذّبذابَة: «أيّها المُخلّصُ العظيم: مَنْ أكونُ بالنّسبةِ لك؟!». «حجرٌ من حجارةِ الطّريقِ المرصوفة». سَمِعه يُجيبُه، ثمّ عاجَلَه بسؤال آخر قبلَ أنْ يغيب: «وكم هي حجارةُ الطّريق؟!». «سبعة». «وأنتَ؟!». رأسُ الهَرم فيها، إليّ تنتهون». ثمّ ألقتِ الشّمسُ آخر وترٍ لها في جوفِ الماء، وانساحَ وجه القرينِ هُناك.

شعرَ براحةٍ غريبةٍ، قامَ إلى زوجة لوط، سألها: «هل رأيتِ ما رأيتُ؟!». ظلّ التّمثال الحجريّ صامِتًا، نظر إلى عَينَيها كان يبدو أنّهما قد تَسمّرَتا على اتّساعٍ كافٍ ليُشير إلى مدى الرّعب الّذي عايَنَته

حينما التفتتْ وراءَها، اقتربَ منها أكثر، حدّقَ في عينَيها من جديد، كانتا تقولان بلسانٍ بليغ: «لقد رأيتُ ما هو أكثرُ هولاً مِمّا رأيتَ أيّها الغِرّ».

نفثَ المُخلّصُ في رُوعِه في إحدى جَلَسات التّعليم الغيبيّ: «كلّ سابقٍ يذوب في اللاّحق، أنتَ بدايةُ الطريق، وحينَ تهوي إلى القاع، سيكونُ شاؤول قد تلقّى روحَك، وحينَ يأتي الثّالث سيكونُ فيه من رُوحَيكما، فإذا وصلتمْ إلى السّابع، تكونُ أرواحُكم جميعًا بكلّ ما فيه من قُوّى كونيّةٍ قد حلّتْ فِيّ؛ فحينئذٍ يأذن الرّبُّ لي بالظّهور، من أجل الخلاصِ الأكبر». «فما يكونُ السّامريّ أيّها المُعلّم؟!». «أحدُ المنادِين باسمِنا، وهم كُثرٌ من قبلُ وكثرٌ من بعدُ، أمّا أنتَ والسّلسةَ الباقِية فمن المُتجدّدين، ائتُمِنتم على الأسرار، وخُصِصتم بخفيّ الأخبار». نهضَ من عنده، فابتسمتْ زوجةُ لوط، سَمِعها تقول: «لو علمتُ هذه الأسرار لَما أصابني ما أصابني. العِلمُ بالقادِم يقي مزالقَ الطّريق ويُعفِي السّائر من الحَدْسِ بالمصير». اقتربَ منها، قبّلها على جبينِها: «لا تحزني يا أمّاه، لن يَمَسّكِ هُنا أحدٌ بسوء، سأعملُ على أنْ تعيشي في كنفي خيرَ معيشةٍ ما دُمتُ هنا، فإن ارتحلتُ فسأتركُكِ لغابرٍ آخَر يعبرُ الطّريقَ المكتوبةَ فيقيكِ غرْيَ السّنين». ثُمّ هوى، فمدّدَ جسده، ونامَ بينَ رِجلَيها!!

مرّ صيفٌ تِلوَ صيفٌ، وشِتاءٌ خَلَفَ شِتاءً، وليالٍ أعقبتْ نهاراتٍ، ونجومٌ استُبدِلتْ بشموس، كانَ الكهفُ يقع في الثّلث الأخير من الجبل الشّرقيّ المُطلّ على البحيرة، وعلى امتداد البُحيرة الوادِعة، مرّتْ مِئاتٌ من القوافل في الطّريق المشقوقةِ ما بين البحر والجبل، وعبرَ آلافٌ من البشر من هناك، بعضُهم كانَ يستريح في تلكِ الطّريق،

وبعضهم كانَ يصعدُ الجبل، ويقفُ على باب الكهف الّذي ينزلُ فيه يهوذا، ويتعجّب من سعة الكهفِ ومن وجودِ حجرٍ في زاويته العميقة، لكنّه لم يكنْ يَرى بشريًا نازِلاً فيه، كان يهوذا ينظر إليهم وهو يضحك في أعماقه منهم: «لقد أُعطوا عيونًا لا تَرى، وقلوبًا عميًا. لقد أصبحتْ كفتيةِ أهل الكهفِ أولئكِ الّذين توقّفَ أمام الوصيد على بوّابته عددٌ لا يُحصَى من البشرِ والدّوابّ ولكنْ أحدًا منهم لم يكنْ ليُدرِكَ أنّ هذا الكهفَ يعيشُ فيه سبعةٌ من الفِتيان النّاضِجين، مُمدّين في نومهم اللّذيذ ما يقربُ من ثلاثة قُرون. وأنا الآنَ شابهتُهم». كانَ أحيانًا يصيحُ فيهم: «ألا ترونني أيّها الحمقَى، ألا تشعرون بوجودي، انظروا إليّ جيّدًا، هل انطفأ النّور من عيونكم؟! لماذا تُحدّقون فِيّ كأنّما تُحدّقون في الفراغ، لماذا أراكم دونَ أن ترونني...؟! أيّها المُغفّلون العُمي؛ إنْ كنتم لا ترونني فَلِمَ تمرّون بكهفي، ولم تَستَظِلّون بظلّي، وترتاحون في كنفي...؟! اغربوا عن وجهي أيّها البُلَهاء، لا أريدُ لمجموعةٍ من المُغفّلين أن تطأ أعتابي... ثمّ يقومُ بالرّقص، ويمرّ بين رِحالهم، ويتشمّم طعامَهم، وقد يسرقُ منه شيئًا، فيأكلُ لقمةً أو اثنتَين فلا يجدُ له طعمًا، فيرميه، وكانَ أحيانًا، يقذف ببعضِ أمتعتهم في مُنعرجاتِ الجبل أو في البحر، وحينَ يهمّون بالرّحيل، تبدأ بينهم التّساؤلات، وتنهال الاتّهامات، كُلٌّ يتّهم المُرتحِلَ معه بسرقةِ متاعه، وحينَ يتنامَى الشّقاق بينهم، ويكادُ بعضُهم يقتُلُ الآخَر، يرمي يهوذا بمزيدٍ من الأمتعة في شِعاب الجبل وقلبُه يرقُصُ فرحًا. حتّى إذا نزلَ المُرتحِلون إلى الطّريق ليُتابِعوا مسيرَهم، وجدوا بعضَ أمتعتهم وهم هابِطون، فيبدأ بعضُهم يلومُ الآخَر: «اتّهمتَني بسرقةِ متاعِك، وأنتَ كما يبدو قد تركتَه هُنا حينَ أردتَ أنْ ترتاحَ من تعبِ

الصّعود». لكنّ الآخَر تزداد على وجهه علائم التّعجّب، ويُقسِم أنّ متاعه ظلّ على ظهره حتّى أناخَ به في فَمِ الكهف وليسَ هُنا، لكنّ مُؤنّبه يسأله بتشكّك جارح: «أتريدُني أنْ أصدّقَ كلامَكَ أم أُصدِّقَ عيني؟! لو اتّهمتَني مرّةً أخرى بذلك فسوف أقتلعُ عينَيكَ العَمياوَين».
ويتداعَى المارّون إلى رِحالهم في أسفل الجبل، ويُتابِعون رحلتهم، وقد نَقَبَ الخوفُ والشّكّ والخَبال قُلُوبَهم وعقولَهم، حتّى تناقلتِ القوافل المارّة في الطّريق أسفلَ ذلك الكهف أنّ هذا الكهفَ مسكونٌ بالشّياطين، ومَلعون، ويُصيبُ المُرتاح فيه بالهَذَيان، وبرؤية أشياء من عالَم الخَيال؛ فإذا مررتُم به فأسرِعوا ما استطعتم، قبلَ أن تركبكم جِنّيات الأرضِ والسّماء!!

لنْ ينسَى العالَم اسمي

ها هي دمشقُ يا سيّدي، قديمةٌ كالدّهر، عميقةٌ كالبحر، مُنبسِطةٌ كالرّبّ، غامِضةٌ كالسّحر، قريبةٌ كالرّوح، بعيدةٌ كالسّرّ، طاهرةٌ كالغمام، ظاهرةٌ كالشّمس، خَفيّةٌ كاللّيل، ضاحِكةٌ كالربيع، حزينةٌ كبرتقالة مَعصورةٍ. وأنا حللتُ فيها في أولى مراحلِ نُبوءَتي.

كانَت المدينةُ تغطُّ في سُباتٍ طويلٍ، بعد نهارٍ ضاحٍ، وليلٍ قاسٍ، حينَ وصلَها شاؤول مع مجموعته من جنودِ المعبد، قال لهم: «سنبحث عن رجلٍ يُدعَى (حنانيّا)، قال لي الرّبّ في الطّريق: «اذهبْ إلى حنانيا جهةَ بابِ كيسان، وهو سيأخذ بيدكَ إلى النّور». «ومَن الرّبّ الّذي قال ذلك لكَ يا سيّدي؟!» سأله قائدُ الجُند. أجابه: «المسيح». فبدتْ أماراتُ العَجَبِ على وجه القائد، عاجله شاؤول بقولِه: «أترى كلّ هذه الكتب الّتي أتينا بها من أجل القبض على أتباع المسيح؛ أوقِدْ عليها نارًا فما عادتْ لنا بها حاجة؟!». ركبوا رَواحِلَهم في طريقٍ مُعبّدٍ بالحجارةِ البيضاءِ يُفضي إلى السّوق القديمة، استخدمَ قائدُ الجُندِ قَدومًا كان يتدلّى على طرفه ليقتطعَ بعضَ الحطب من جذوع الأشجار الّتي نبتتْ على الجانِبَين، وفي لحظاتٍ كان يُوقِدُ نارًا صغيرةً أحاطَها بسياجٍ من الحجارةِ على هيئةِ دائرة، انحنَى شاؤول الّذي بدا أعمَى، مدّ يده ليتحسّس موضع النّار، ثُمّ سحبَ يده سريعًا، قدّر المسافَة بين حرارة النّار وبينه، ثُمّ ألقمَ الكتب للنّار واحِدًا واحِدًا، بعدَ أنْ رَمَى عددًا منها ازداد شُبوبُ النّار، قامَ مُسرِعًا قبلَ أن تصله الألسنةُ المُتصاعِدة، وراحَ يُراقِبُ تداعي

الكتب المركومةِ وهو يبتسم، قال لهم: «هذه كتبُ الشّيطان، تخلّصتُ منها من أجل أن أتخلّصَ منه». قال له قائدُ الجندِ الّذي كان يُراقِبُ المشهد: «هل عادَ إليكَ بَصَرُكَ يا سيّدي؟!». أدار رأسه قليلاً جهته، ثُمّ صرخَ في وجهه بغضبٍ: «ألا تَرَى أنّني فَقدتُه منذ أنْ هبطَ عليَّ النّور في البادية يا كلب؟!». خنسَ القائد. تابع شاؤول: «لا يُمكن أنْ يُعيدَ إليّ بصري غيرُ حنانيّا. لا بُدّ أن نَجِده قبلَ الصّباح». «ولكنّ النّاسَ نِيامٌ». «أيقِظْ أوّل الحيّ، واسأل سكّانه واحِدًا واحِدًا عنه». «لعلّه من المُناسِبِ يا سيّدي أنْ نبحثَ عن خانٍ هنا لكي تبيتَ فيه الدّوابّ، ونبحثَ لنا عن نُزُلٍ لكي نقضي فيه بقيّة اللّيل، وغدًا في الصّباح، حينَ تعودُ إلى هذه السّوق الميّتةِ حياتُها سيُجيبُنا ألفُ واحدٍ عن مكانِ حنانيّا». «لن أنتظرَ إلى الصّباح. قلتُ لك اطرُقِ الأبوابَ الآن يا جَرْو». ثُمّ تقدّمَ إليه، وأحكم قبضته على عنقِه، وقال له وهو يكزُّ على أسنانه: «لم أطلبْ مشورةَ أحدٍ في حياتي أيّها القِزْمُ الحقير، لي قلبُ ذئبٍ ونابُ وحشٍ، لو أنشبتُ أنيابي في رقبتك فلنْ يُمكّنَكَ الموتُ حتّى من الصُّراخ. لديكَ المَجانُ، ولديكَ قُوّة الدّولةِ الرّومانيّة، وبقائم السّيوف اقرع الأبواب، هيّا».

استيقظَ نصفُ أهلِ الحيّ مذعورِين، ساقَ القائدُ بعضَهم إلى شاؤول لكي يستجوبهم بنفسِه، جُلِدَ في تلك اللّيلة بضعةُ رجال، وبُصِقَ في وجه آخرين، لكنّ أحدًا منهم لم يكنْ يعرفُ لحنانيّا اليهوديّ مكانًا على وجه التّقريب، بعضُهم قال: «إنّ آخرَ مرّةٍ رآهُ فيه كانت قبلَ شهرٍ». آخرون قالوا: «إنّه اختفى منذ أنْ صار مَسيحيًّا». وغيرُهم قال: «إنّه رآه قبلَ أسبوعٍ يدخُل زُقاقَ العَطّارين من الجهةِ الشّماليّة للسّوق، لكنّه ليسَ مُتأكّدًا». كانَ خبر البحثِ عن حنانيا

قد صارَ حديثَ السّوق في صبيحةِ اليومِ التّالي. لم ينمْ شاؤول ومجموعته في نُزُلٍ، أراحوا أجسادَهم إلى سروجِ الخيلِ بعد أنْ أنزلوها عن ظهورها.

في ظهر اليوم الثّاني جاءَ أحدُ الجزّارين إلى شاؤول، كانَ ثوبُ العمل الّذي يلبسه مُلطّخًا بالدّم، وتتناثر من تحتِ يَدَيه نُتَفُ لحمٍ صَغِيرة وما عَلِقَ بها من شُحوم، مد شاؤول عُنُقَه كذئب، وشَمَّ الرّائحةَ طويلاً، أعادت له الرّائحةُ عهدَ الغابة، ورائحةَ الدّم النّافرةِ من أعناقِ الذّئاب. قال له قَيافا ذاتَ مرّة: «لماذا تُصِرّ على أنْ تُشرِفَ على تقديمِ القرابينِ في المعبد بنفسِك؟! الوقوفُ بينَ يدَي الذّبائح لا يليقُ بمقامِكَ أيّها العزيز». فيردّ عليه: «أنا لا أستطيعُ أن أُقاوِمَ رائِحةَ الدّماءِ يا سيّدي». تقدّمَ الفتى الجزّارُ خُطُواتٍ باتّجاه شاؤول، مسحَ أكمامَ ردائه بيدَيه، وحاول أنْ يتنحنح قبلَ أنْ يُبادِئَه شاؤول: «كم حيوانًا تذبحُ في اليوم أيّها الحَيَوان؟!». ظنّ الفتى أنّ الصّوتَ الّذي سَمِعَه ليس للحَبرِ الأعظم، تجاهَله كما لو أنّ طِفلاً عابِثًا هُوَ مَنْ تفوّه به؛ لم يُصدّقْ أنّ مثل هذه الكلمات تصدر عن رأسِ الهرم في السّلطةِ الكَهَنوتيّة، نفضَ رأسه مُتجاهِلاً سؤالَه، ثُمّ قال بحياءٍ: «أنا أعرفُ مكانه يا سيّدي، وهو طلبَ منّي أن أدلّكَ عليه».

ظلّ يسيرُ بهم رَكضًا، في آخر السّوق الّطويلة انعطفَ بهم شِمالاً، دخلَ زُقاقًا ضيّقًا، كانت أحواضُ الأضاليا تنبسطُ أمام البيوت الّتي تقومُ على جانِبَي الزّقاق، لم تُخفّفِ الرّائحةُ العطريّة من وَخَمِ العَرَق جرّاء المسير في الظّهيرة تحتَ أشعّة الشّمس. وصلَ الدّليلُ بهم إلى نهايةِ الزُّقاق، كانت النّهايةُ تُفضي إلى الجهة الشّرقيّة الجنوبيّة الّتي تنقطعُ بعدها الدُّور، زَفَرَ شاؤول هو ومجموعته، كادَ يفتك

بالفتى لولا أنّه تذكّر أنّ الخُطّةَ تحتاجُ إلى صَبْرٍ وأناةٍ. اصطدمت نهاية الزّقاق بجدارٍ حجريّ عالٍ، صاحَ شاؤول: «إلى أينَ تأخذنا أيّها اللّعين؟!». نزلَ القائدُ بسرعةٍ عن جَواده، وتسلّقَ الجدار، نظر إلى البعيد، كانتِ الأرض الجرداء سيّدة المشهد، هتف: «لا شيءَ بعدُ يا سيّدي». لم ينتبهْ أحدٌ إلى الدّرج الحديديّ الضّيّق الّذي يصعدُ عن يسارِهم، ناداهم الصّبيّ: «من هُنا أيّها السّادة». تركَ القائد اثنَين مع الخُيول، وتَبِعوا الصّبيّ على أقدامهم، تلوّى الدّرج في صعوده كأفعى، في نهايته، شمخَ في وجههم جدارٌ آخَر يُفضي عن اليمين إلى ممرّ قصير، في نهايته بابٌ خشبيّ مُتآكِل، وقفَ الصّبيّ أمامه، وهو ينتظرهم، حتّى إذا ظهرَ له أوّل القادِمين، هتفَ به: «هذا بيتُه». ثُمّ هوى الدّرجَ عائِدًا، في نزوله أمسكه شاؤول من ذراعه: «إلى أينَ أيّها الشّقيّ؟!». «مَهمّتي أن أدلّكم على بيته، سأعودُ إلى عملي، وإلاّ طردني صاحبُ المتجر». نفضَه من يده فكادَ يسقط، وقفَ القائد في أعلى الدّرج ينظر إلى الباب الخشبيّ تارةً، وإلى شاؤول تارةً أخرى وهو يصعدُ الدّرجات المُتبقّيات، حدّث نفسَه: «إمّا أنّه شُفِيَ من ذهابِ بصره، وإمّا أنّه مُمثّلٌ بارعٌ». طردَ الخاطر حينَ لم يعدْ يفصِلُ بينهما شيءٌ، طرَقَا الباب، خرجَ لهم رجلٌ سِتّينيّ، استرقَ النّظر إلى الواقفين، عرفَ شاؤول من أوصافه، قال له: «تدخل وحدَك. الآخَرون بإمكانهم أن ينصرِفوا».

في غرفةٍ يطلّ أحد بابَيها على حديقةٍ واسِعة تتربّع فيما يبدو على قمّة الهضبة الّتي ينامُ الحيّ على كَتِفها، أشارَ حنانيّا لشاؤول أنْ يجلِس: «رأيتُه في الباديةِ قبلَ الشّام». «أعرف». «قال لي اذهبْ إلى حنانيّا وستجدُ عنده ما تريد». «أعرف». «لقد كادتْ عُنُقي

تُدقّ لولا أنّه حال بيني وبين الموت». «هو رحيمٌ بعباده». «أريدُ أنْ أعرفَ الحقيقة». «سيُرسِلُكَ الرّبُّ إلى الصّحراء مرّة أخرى». «ولِمَ؟!». «لتتفقّه في العقيدة. أسرار المسيحيّة لا يعرفُها أحدٌ. هي في طريقِها إلى أنْ تؤولَ إليك. سترى ما لم يرَ غيرُك. سيكونُ لكَ إنجيلُك. إنجيلُكَ الّذي سيتبعه العالَم، المسيحيّة الّتي لا ينتمي إليها المسيح هي وَقفٌ على ما ستكتبه أنت». «أليسَ هذا كثيرًا عليّ؟!». «ليسَ إذا عرفتَ ما ينتظرك». «منذ سنواتٍ وأنتم تتحدثون بالألغاز، لماذا لا تقول لي ما هو دوري بشكلٍ صريح؟!». «أنتَ لغزٌ بالنّسبةِ لنا، وستكونُ لغزًا بالنّسبةِ للبشريّة القادِمة، ومن الخير ألاّ تتواضَع، العِلم الّذي لديكَ يُمكنه أن يُضلّ المجاميع البشريّة حتّى مجيئه». «ومَنْ أنت؟!». «مَنْ سيُعيدُ النورَ إلى عينَيك؛ هذه مَهمّتي». «هل هذا كلّ شيءٍ؟!». «بلى. اقتربْ». اقتربَ أكثرَ، مسَحَ على عينَيه، فنزلَ منهما زُجاجٌ رقيقٌ جِدًّا، قال له: «الآنَ زالتِ الغِشاوةُ عن عينَيك، منذ اليوم أنتَ البصير الّذي سيقودُ العُميان جميعًا». «هل من شيءٍ آخَر؟!». «بلى؛ ستلتقي في البادية الحجرَ الأوّل في الطّريق المرصوفةِ أمامَ المُخلِّص». «إذًا حانَ خُروجي من هنا». «ليسَ قبلَ أن تخرجَ من دمشق بمشهديّة تليقُ بالتّاريخ الحافل الّذي سيلتصقُ بك». «ماذا تعني؟!». «ستمكثُ عندي ثلاثةَ أيّامٍ، وسأُشيعُ أنّ رجال اليهودِ يبحثونَ عنكَ بعدَ أنْ صِرتَ مسيحيًا وآمنتَ بالرّبّ، وسأجعلهم بالفِعل ينبشون الأرضَ بحثًا عنكَ وعلى مرأى من النّاس، وسأُدلّيكَ من هذه النّافذة على السّور حتّى تصلَ إلى الأرض وتهربُ من هنا إلى البادية». قامَ شاؤول، مشى باتّجاه النّافذة، نظر من خلالها إلى الأسفل، فبدا السّور الحجريّ الّذي ينهضُ من هناكَ شاهِقًا مُخيفًا

فانخطفَ للهُوّة العميقةِ قلبُه، سأله وهو يبلغ ريقه: «ستُدلّيني من هنا؟!!». «لا تخفْ، سيكون معك أربعةٌ آخرون من الأشدّاء، يُمسِكونَ بالحبل الغليظ الّذي تنعقدُ في آخره سلّةٌ تتّسع لجسمكَ مُضطجعًا، يُمكنك أن تهنأ بنومٍ عميقٍ إنْ شئتَ وهم يُهبِطونكَ من هنا». قال ذلك ضاحِكًا، ثُمّ تابع: «وسيكونُ في أسفلِ هذا السّور العالي، أربعةٌ آخرون بخيولهم وكامل عتادهم، وسيرافقونك حتّى تصلَ بسلامٍ إلى البادية». صمتَ قليلاً، ثُمّ استطرد: «الآنَ دَعْنِي أبثّ في السّوق رجالَ الكهنةِ وهم يُفتّشون كلّ زاويةٍ في دمشقَ بحثًا عنكَ ليقتلوك لأنّكَ خُنتَ أمانتهم في القبضِ على أتباعِ المسيح، وألقمتَ كُتُبَهم للنّار». «أريدُ أن تسمع الشّامُ كلُّها عن وجودي وإيماني، وانقلُوا على لِساني: لقد أشرقَ قلبي بالنّور بعدما رأيتُ الرّبّ، الرّبّ يدعونا جميعًا إلى مَلَكُوته، يا حسرةً للّذين لم يروا مثلَ النّور الّذي رأيت... ثُمّ أريدُكم أن تُشِيعُوا أنّني أبارِكُ الدّاخلين في دينِ المسيح، وأمسحُ على رؤوسهم بصلاةِ الشّفاء كما كان يفعل الرّبّ... أريدُ أن تتمّ الأمور بسرعةٍ وبدقّة وباحترافيّة يا حنانيا... وليُصبّرني إلهُ مُوسَى على القادم... هَيّا يا أخي... هيّا».

في اليومِ الثّالث صارتِ الشّياه والخِراف والأرانب والبِغال والحمير والشّجر والحجر والطّرقات ناهيكَ بالبشر تعرفُ أنّ شاؤول الّذي تحوّل اسمه إلى بولس الطّرسوسيّ هُوَ المطلوبُ الأوّل لدى سلطةِ الكَهَنوت في دمشق إضافةً إلى سُلطةِ القيصر فِيها؛ حتّى إنّ جنودًا رومانيّين ساهَموا في تفتيش البيوت والمنازل والأزقّة بحثًا عن هذا المُهرطِق!!

قال له حنانِيَا وهو يودّعه هابِطًا في السّلّة: «سنقيم لكَ كنيسةً هنا

في باب كيسان، وتأكّد أنّني سأسمّيها كنيسة بولس، وسأظلّ أمينًا على اسمها ما حَييت، وأرجو أن يعيشَ اسمُكَ خالِدًا بخلودها، أمّا إذا جاءتْ أجيالٌ من بعدي وغيّرتِ الاسمَ فليسَ بمقدوري أن أقومَ من قبري وأعودَ حيًّا من أجل أنْ أنقشَ على القوس المركوز فوقَ بوّابتها اسمكَ الخالدَ من جديد». «لا تخفْ لنْ ينسَى العالَم اسمي، وليستْ دمشقُ إلاّ نقطةً في بحر هذا العالَم، فلنْ تنسَى هي الأخرى».

سجدَ له الأربعةُ الّذين انتظروه أسفلَ الجدار، ثمّ ركبَ جوادَه، وساروا معه حتّى غابوا جميعًا في لُجّة اللّيل، وعلى أوّل الصّحراء في أوّل النّهار تركوه وعادُوا!!!

٨٥

الأســـرار السّبْعــةُ!

نظرَ يهوذا وهو واقفٌ بباب الكهفِ إلى الفجر المنبعِث من شجُفات الأفق، ابتسم. اختلجتْ عيناه. رقص قلبُه، هتفَ: «اليوم يوم تسليم الرّسالة». عادَ إلى الدّاخل، ألقَى برأسه على صدر التّمثال الحجريّ، سألها: «أهو اليومُ حقًّا...؟! لقد عَبَرَتْني شهورٌ طويلةٌ هُنا، رأيتُ ما لم يرَ البشر وما لم يَرَ الجنّ!! هل حانَ وقتُ فراقِك الأليم يا أختاه؟!». بَكَى. سقطتْ دموعه على خَدّيه. تحدرتْ من هناك حتّى مَسّتِ الصدرَ الحجريّ للزّوجة. سالَ الدّمعُ على الحجر فشعر أنّه تحرّك، بدا أنّه أيقظَ فيها حياةً كامِنةً، علا صدرُها في شِبه تنهيدةٍ أو هَكَذا خُيّلِ إليه. سَمِعَ صوتًا جنائزيًا قادِمًا من قلبِها. كذّبَ سَمْعه. رفع رأسَه لينظرَ في عَينَيها. كانَتا حَيّتَين. دامِعَتَين. ارتجفتْ أوصاله. أيقنَ أنّه يحلم أو يهذي. لكنْ مَنْ يهتمّ، إنّه وحده هُنا منذ ذلك الإبعادِ الأوّل!! أحدّ النّظر في العينَين؛ رأى لوطًا ونفرًا قليلاً من المؤمنين يصعدونَ ذات الجبلِ الّذي عاشَ فيه لوط أكثرَ من عشرِ سنين. تابَعهم في صُعودهم. رأى زوجةَ لوطٍ تركضُ خلفهم وهي تصيح وتنكشُ شعرَها. في أسفلِ الجبل كانت السّماء مُغطّاة بغيومٍ سوداء. دقّق النّظر أكثرَ فرأى طُيورًا تقذفُ بحصىً صغيرةٍ فتسقطُ على البحيرة فتشتعل. أجالَ طرفَه في عينَيها فرأى لوطًا وأتباعَه من جديدٍ يُواصِلون مسيرهم إلى قِمّة الجبل، ومن هناك رأى ملائِكةً تحملهم على أجنحتها، وتطير بهم بعيدًا. شهقَ لأنّه سَمِعَ خَفْقَ الأجنحةِ يَطِنُّ في أذُنَيه حتّى كادَ يفجّرها. في وسط الجبل كانت الزوجة لا تزال

تحاول اللّحاقَ بهم لاهثةً، حتّى إذا رأت زوجها والنّفر الّذين معه يصعدون على أجنحة الملائكة علا زعيقُها لكنّ حفيف الأجنحةِ أذابَه. لم تكدِ الملائكة تطير حتّى سَمِعتْ دَمدماتٌ ترتجّ لها الجبال، كانَ الصّوتُ آتِيًا مِن خَلفها، نظرتْ نحوَ مصدر الصّوت، وكانتْ تلكَ نظرتَها الأخيرة. تحوّلتْ في لمح البرق إلى حجرٍ على هيئتها. شعرَ يهوذا أنّ روحَه حلّقتْ بعيدًا، سألها وهو يرتجِفُ من ارتجافِ الجبل الّذي يقطنه: «أينَ سألتقيه يا أختي... قولي لي قبلَ أن يتزلزلَ الجبل فتنهار الصّخور على رؤوسنا جميعًا... أرجوكِ يا أختي... قُولي أينَ هو الآن؟!». سَمِعَها تقول: «توجّهْ شمالاً إلى طبريّة، ثُمّ واصلْ صعودَك بما في الكِتاب من مَقدور، فإذا سَبَق عليكَ الكتاب فتوجّه إلى الشّرقِ قليلاً، هناكَ في وسطِ البادية ستلقاه بانتِظارك». طبَعَ على جبينها قبلةَ الوداع، وتركها لمصيرها.

كانتِ الأرضُ تُطوَى طيًّا من تحتِ أقدامِه، شعر أنّ قوّة غريبةً تدفعه باتّجاه المكان الّذي خُيّلَ إليه أنّ زوجةَ لوط قد أخبرته به قبل أن تتهاوَى الصّخور من أعلى الجبل فتتراكمَ أمام باب الكهفِ فتغلقه إلى الأبد. لم تَكدِ الشّمسُ تبلغُ وسطَ القُبّة السّماويّة حتّى كانَ في وسطِ البادية. نظرَ في المساحةِ المُمتدّة امتدادَ الأفق، فرأى نقطةً سوداءَ في أبعدِ مدىً مُمكِنٍ للرّؤية تتحرّكُ من بعيد، صرخَ بصوتٍ مُزمجرٍ كصوتِ الرّعد: «شاؤووووول». أجابتْه النّقطة الّتي بدأتْ تقترب: «يهووووووذا». سقطَ على رُكبتَيه من الفَرح، هتفَ وعيناه تنسكبان بالدّمع الحارّ على وَجنتَيه: «أخيرًا سأتحرّر، أخيرًا ستفارقُ هذه الرّوحُ سجنَها المَقِيت إلى عالَم الغيب، ها أنتَ يا شاؤول اقتربْ... اقتربْ... لم يعدْ بإمكاني أنْ أحتملَ أكثر... ها أنتَ... ها أنتَ

أيُها الحبيب». ثُمَ رَكَضَا كُلٌ إلى مَولاه، والتَقَيا حيث لا أحدَ يعلم إلاّ الله كيفَ سيكونُ شكلُ التّاريخِ مِنْ بعدِ التقائهما.

«لقد مرّ وقتٌ طويلٌ عليكَ أيّها الحبيب» قال يهوذا لشاؤول وهو يحتضنه، ثُمّ تابَع وهو يشدّ على صدره، ويربّت بكفّين من حَنانٍ على ظهره: «كم عذَّبَ الشوقُ منّي كُلّ جارحةٍ، ومرّغَ البينُ في الإذلالِ أعماقِي، روحِي لروحِكَ ما حنّت لعاشِقها، لكنّها أنتَ في أثوابِ مُشتاقٍ، لو كنتُ أملكُ أمري، والهَوَى قَدَرٌ، ما كنتُ إلّاكَ يا صُبحي وإشراقِي». «إنّه دربٌ طويلٌ يا أخي، وعلى المُتجدّدين أنْ يصبِروا كثيرًا، لأنّ الثّمرةَ الّتي نُفني عُمرَنا كُلّه فيها تحتاج إلى أناةٍ وتلطُّف». «أدري؛ لقد تركتَ كرسيّ الحبر الأعظم من أجل هذه الثّمرة». «وأنتَ رفعتَ نفسَكَ على الصّليب من أجلها». «قُلْ لي كيفَ هي حالُ أورشليم هذه الأيّام؟!». «ألا تأتيكَ أخبارُها عبرَ الجَسّاسة؟!». «الجسّاسةُ لم يأتِ أوانُها بعدُ يا أخي». «قَدَرُ الله ماضٍ. النّهايات مرسومةٌ منذُ البدايات، وما نحنُ إلاّ أدوات». «أدري، ولكنْ لنا الشّرف العَظيمُ أنّنا كُنّا أدواتِ اللهِ في قَدَره».

مَضَيا، كانتْ رِجلاهُما تأخذانهما إلى مُستقرّهما كأنّهما تَنوبانِ عنهما في معرفةِ الطّريق. رَأيَا غُرابًا. استغربا أنْ يكونَ في الصّحراءِ مِثلُه. حلّقَ فوقَ رأسَيهما طَوال الوقت. مَشَيا على هُداةٍ نهارًا كامِلاً. حتّى إذا بانتْ سِلسِلةٌ من الجبال على الطّرفِ الغربيّ من الصّحراء، أصعَدَهما جبل (كانوس)، كانَ أجردَ، ذا صُخُورٍ سوداءَ وحمراءَ صغيرة ناتِئة، ظلّتِ الرّؤوس المُدبّبة للصّخور تغوصُ في باطِنِ أقدامِهما عبر أخفافهما المُتقطّعة، حتّى إذا دارا نصفَ دورةٍ حولَ الجبلَ، واستقبَلا الجهةَ الجنوبيّة، تراءى لهم كهفٌ مثلَ فمٍ مَفغور

لوحشٍ مُفترِس كان قد فتحَ شِدقَيه على اتسّاعهما، دخل الغُرابُ الكهفَ أمامَهما، واختفَى في داخله، ودخلوا هُم من بعده، مرّ اللّيل، واللّيلَان، واللّيالي، والأسابيعُ والشّهور، ولم يخرجِ الغُرابُ من هُناك، ربّما خرجَ من جهةٍ أخرى لا يعلمها أحدٌ... لكنْ حدثَ ما هو غريبٌ فِعلاً!! بعدَ عامَين من تلكَ الحادِثة، عادَ إليهم وفي أقدامه رسائل تفيضُ بالحبّ والعاطِفة. لم يكونا مُتأكّدَين على وجه الدّقّة ما إذا كانَ ذلك الغراب الّذي يأتيهم بالرّسائل هو ذاتَ الغراب الّذي دلّهم على الكَهف!!!

إنّها اللّيلةُ الأربَعون، وفيها سيبدأ يهوذا وشاؤول بِرَسْمِ الأسرار السّبعة، قال يهوذا: «بالأسرار السّبعة سينالون النّعَم غير المَنظورة في صُورة نِعَمٍ منظورة، ويجب أنْ يُبارِكَها الرّبّ، الرّبّ لا يهبطُ إلى الأرضِ بعدَ أنْ صعد، فيجب أن يُبارِكَها ظِلُّه على الأرض؛ فماذا نُسمّيه؟!». «الكاهِن» أجابَ شاؤول. «التّسمية ليستْ هي الأساس، دَعِ الاسمَ يتغيّر مع الزّمن، مَنْ سَمّاه الرّاهب أو القِسّ أو الأب فلا ضير، المهمّ ألاّ يتغيّر المعنى والهدف». «اكتب الأسرار السّبعة حتّى نتّفق على طُقُوسِها». «التّعميد، والتّثبيت، والعَشاء، والاعتِراف، والزّواج، والمِسحة، والكَهَنوت». «التّعميدُ يكونُ عَقِبَ الولادة، يُغطّس المولود في الماء، أو يُرَشُّ به مثلما فُعِلَ بالرّبّ في نهر الأردن». «والتّثبيتُ يكونُ بمَسْحِ الأعضاء في ستّةٍ وثلاثينَ موضِعًا، ويقومُ بها صاحبُ السّرّ المُقدّس». «والعَشاء أنْ يغمِسَ قِطَع الخُبزِ الجافّ بالخمر فيأكُلها». «وما الهدفُ منها يا شاؤول؟!». «أتسألني وأنتَ الأعلم!!». «قُلْ يا شاؤول دون أن تزدّ عليّ سؤالي». «الخمر دمُ المسيح، والخُبزُ جسده، وبغَمسِ الخُبزِ بالخمر يمتزج الدّم بالجسد،

فإذا أكله المسيحيّ المؤمن فكأنّما مزج المسيح في روحه، فدخلَ في تعالِيمه، واهتدى بِهَديِه». «والاعتِراف، الإفضاء إلى قلبٍ يسمع، ويوصِلُ الكلمةَ إلى الرّبّ، ولا قلبَ يسمع كقلبِ الكاهن لأنّه أقربُ القلوب في الأرض إلى قلبِ الربّ في السّماء». «والزّواج لا يكونُ إلاّ بواحِدة». «فإنْ كانت شيطانًا». «الرّبّ لا يختار للمسيحيّ إلاّ ما يُناسِبه، فإنْ كانت شيطانةً فهو إبليس، وحياتُهما طيّبةٌ معًا». «والمِسْحَةُ لا تكونُ إلاّ لِمَنِ امتلأَ قلبُه بنِعمة المسيح، فتمتلِئ يدُه بالمُعجِزات، فيكون قادِرًا على أنْ يَشفِيَ المَرضَى بِمِسْحَةٍ من يده، وسنجعلها في البدايةِ هِبَةَ القدير للتّلاميذ أو لِمَنْ بَقِيَ منهم، فإذا هَلَكُوا جعلناها لكلّ أحدٍ من الكَهَنةِ والقَساوِسة، ثُمّ لأيِ أحدٍ مِمّن اتّبعَ دينَنا». «والكَهَنوت، هو نِعمَةُ المسيح بأنْ تكونَ مُمَثّلاً عنه في الكَرازة والتّبشير، فتطوفُ البلدان لتبَشّرَ بدَعوته». «فما أهمّ أسُسِ دعوته؟!». «أجّلْ هذا إلى حينٍ يا يهوذا فقد تَعِبنا، قُمْ فنَمْ». «إنّ عُيُونَ الرّبّ لا تنام يا شاؤول، وما لم نُؤسّس لكلّ شيءٍ قبلَ أن تبدأ رِسالتَك، فستضيعُ الأمم من بينِ أيدينا!!».

نامَا، في اللّيل، فتَحَ شاؤول إحدَى عَينَيه، رأى الغراب الّذي قادَهما إلى هُنا يحطّ على باب الكهف، حدّثَ نفسه: «لا بُدّ أنّه في مَهمّة». قامَ من فِراشِه، كانا قَدِ اتّخذا بعضَ التّراب موطِئًا ينامَان فوقه، وشيئًا من الجلود والثّياب وِسادةً يُريحان رأسَيهما فوقَها من بعدِ طولِ عناءٍ وتفكير... صارَ على باب الكهف، كان الغراب أسود كبيرًا، أحدّ النّظرَ فيه، رأى عينَيه تَلمَعان، الخُطوط الّتي تهوي في تَعرُّجاتٍ بسيطةٍ إلى بؤبؤ العين كانتْ صفراء مُلتهِبة، غاصَ في تلك الخُطوط فرأى نيرانًا تحرق مُدُنًا بأكملها، نَفَضَ رأسَه كي لا يستمرّ

في تخيّلاته... تأمّلَ مِنقاره المعقوف، كان رمادِيًا كأنّما هو مَقدودٌ من أظلاف دابّة جهنّميّة، ربّما من أظلافِ الشّيطانِ نفسه، رأى المنقار ينفتح بحركةٍ سريعةٍ وينقضّ على ممالك فيهشّمَ دوْرَها، ويحفرَ طُرقاتِها... ابتسمَ في داخله لِسَعةِ خياله، جاءَه صوتٌ يهوذا من ورائه: «ليسَ خيالاً يا شاؤول، كُلُّ هذا سيحدث، وفي حياتِك، لكنْ ما هو أعظم وأكثرَ رُعبًا وهَولاً لن يحدُثَ في حياتِنا، بل في حياته». «تقصد المُنتَظَر؟!». «ومَنْ غيرُه». كانتِ النّجومُ تتلألأ في البعيد، بدا أنّها مُتخَمةٌ بالحُزنِ، لونُها المائلِ إلى الصُّفرةِ الخفيفةِ قال ذلك. أمّا قلباهُما فقد كانَ يخفقُ بالتّرقّب. قال له شاؤول: «كم سيدوم مكوثي بينَ يديكَ وأنتَ تُعلّمني؟!». «ثلاث سنوات أيّها العزيز، تمامًا كسنواتِ الرّبّ بينَ يدي البشر». «ما أشدّ توقي إلى ما بعدَها». «بعدها ستكونُ عيونُ العالَم الشّرقيّ والغربيّ شاخصةً نحوك، لقد وُهِبْتَ من المُخلّصِ الأكبر منزلةً لا يُمكن أن تحلم بها أو يحلُمَ بها أحدٌ». «لكنّني سأُقتَل». «وهل الخُلودُ بلا ثمنٍ أيّها الرّفيق؟!». «الموت؟!». «بلى، لكنْ بطريقةٍ تليقُ بعظمتِك، وعظمةِ دَورك؛ لو لَمْ يكنْ المُنتَظَر يُحبّك لجعلكَ تموت مثلَ قَيافا، وما معنى أن تكونَ الحبر الأعظم في اليهوديّة، وتنقضي حياتُك بعدها كأنّك لم تكنْ. الخُلود يحتاجُ أمرًا أكبر، وغايةً أسمَى». «لقد تَعِبَ قلبي من الهروب إليه». «سيأكلُ قلبَكَ مِسمار الصّليب». «مثلما أكلَ قلبَ المسيح». «لا تهذِ يا شاؤول، كِلانا يعرف أنّ المسيح لم يكنْ موجودًا لحظةَ الصّلب، وكلانا عاشَ الموقفَ بكلّ تفاصِيله، وجسدي هذا الّذي سيأكله الدّود هو الّذي رُفِعَ على الصّليب في ذلك المساء الفارق، وحياتي لم تنتهِ يومئذٍ؛ أتريدُ أكثرَ من هذا دليلاً على عَظَمتِنا!!». «أعرفُ أيّها الجليل، أنا الآن

أتحدّث بلسانِ المسيحيّين الّذين سنكتبُ دينَهم». «إنْ كانَ الأمر كذلك فنعم؛ ذلك كائنٌ، لكنْ لن نبحثَه اللّيلة، إنّه يحتاج إلى جلسةٍ من جَلَسَاتِ التّجلّي». نعقَ الغراب في فم الكهف، خفقَ بجناحيه، وطارَ بعيدًا. قامَ شاؤول. أوى إلى فِراشه. كان التّاريخ يُصنَع يومَها!!

٨٦

العَجَلةُ تورِثُ النّدم والأناة تورثُ السّرور

بدويٌ مُلثّم، قاسٍ كالصّحراء، قليلُ الكلام، غليظُ الصّوت كأنّه صدًى لا نهائيّ في فلاةٍ مُوحِشة، أسمرُ الوجنتَين فيما بدا منهما، عريضُ الجبهة، حادُ العينَين يبرزُ في بُؤبُئِهما لونٌ أصفر كأنّ نارًا تتّقدُ في غَورَيهما، مَنْ نظرَ فيهما غاصَ وتاه، ما نظر إلاّ أذاب، لم يَرَيا وجهه طوال بقائهما هنا، لِثامُه الأسود نادِرًا ما كان يتذبذبُ على فَمِه من رَهَق، كانَ يصعدُ الجبلَ وعلى ظهره الرّحل، كأنّما يُصعِده الجبل على بِساطٍ من راحةٍ، فلا يُحسّ بأيّ تعبٍ حينَ يبلغُ كهفَهما، ولا يبدو عليه أيّ نَفَسٍ مخطوفٍ لحظةَ لقائِه بهما، كانَ يأتيهما بالماء، واللّبن، ولحم النّوق، والجُلود، والحَطَب، وكثيرٍ من التّمر، يفعل ذلك كلّ عشرةِ أيّام، وقد يغيبُ شهرًا، فيلحبان، وينهشهما الجُوعُ والعطَش، قال شاؤول مرّة ليهوذا: «لو أنّه غابَ ولم يعدْ، فمنْ سيأتينا بخيطِ الحياة؟! هل سيكونُ الموتُ قابِعًا على فمِ هذا الكهفِ ينتظرُ تلك اللّحظةَ لافتِراسِنا». «أينَ إيمانُكَ يا شاؤول؟!» ردّ عليه يهوذا بعتبٍ شديد، ثُمّ تابَع: «لَنْ تموتَ قبلَ أنْ تُبلِّغَ الرّسالة، ما كُتِبَ لك لا يُمكن للموتِ أن يُوقِفه». «حقًّا؟! وأنتَ ألا تخافُ أنْ يُنشِبَ الموتُ خِنجره في عُنُقِك؟!». «لم أمتْ على الصّليب لأموت هنا أيّها العارِف!!». «فمتى يحينُ موتُك؟!». « يومَ تتركُ أنتَ هذه الصّحراء، وسأهبُكَ حينَها روحي».

اللّيلُ مُقمِر، والسّماء فضّيّة، والنّجومُ غائرة، لم يبدُ منهنّ إلاّ من استطاعت أن تقهرَ نورَ القمر الطّاغي، أوقَدَا نارًا على رأسِ الجبل،

فبدتْ من بعيدٍ كوكبًا آخَرَ مُلتهِبًا في السّديم اللاّمنتهي. شَوَيا ما عِندَهما من لَحمٍ، فاحتْ رائحةٌ شهيّة، ملأت الصّدور بتوقٍ عارمٍ، توقُ المُفترِس إلى اللّحم، قال شاؤول: «إنّها تُذكّرني بليالي الغابة». «الحياةُ غابة» ردّ يهوذا، ثُمّ أردف: «ونحنُ وحوشُها». «لو ماتَ الرّاعي؟!» سأله شاؤول. «لماذا أنتَ مسكونٌ بالموت؟!». «أنا أسألُ فحسب!!». «لنْ يموت». «لماذا؟ كُلُّ بشريٍّ يموت!!». «ليسَ بشريًّا». «أنتَ تُخيفُني». قهقه يهوذا حتّى ارتجّتْ جَنَباتُ الجبل في ذلك اللّيل الهادئ هُدوء القُبور، والخالي من كلّ شيءٍ إلاّ منهما، ثُمّ قال وهو يُقطّع الكلماتِ بقهقهاته: «انظُروا... انظروا مَنْ يتكلّم؟! أوّاه لو أنّ غيرَكَ قالَها... أنتَ تخاف...!!». ثمّ أطلقَ ضَحِكاتٍ مُتتابِعات، فلمّا ابتلَعَ آخرها، نظرَ إليه بجِدّيّةٍ، وهتف: «غدًا موعِدُه فاسأله ما أنتَ مسكونٌ به؛ اسأله مَنْ يكونُ هذا الرّاعي؟!». في الدّفءِ نامًا، كانتْ ليلةٌ من ليالي الصّيف.

في الصّباح سَمِعُوا صوتَه، تردّد صداه كالعادةِ في أُذنَيهما، أغفل يهوذا النّداء، كان الرّاعي يقفُ في فم الكهف، نظر نحوه شاؤول، كانَ رمحًا مُشرعًا، لم يبدُ منه شيءٌ سِوى عينَيه، لم يتبيّنْ في أوّل استِيقاظِه منه شيئًا، كانَ النّعاس ما يزال جاثِمًا على حرَكتِه، هتفَ به: «ادخُلْ». تزحزح الرّاعي عن مكانِه فسقطتِ الشّمسُ في عينَي شاؤول، كانَ ضوؤُها الباهر الوسيلةَ الأنجع في القَضاءِ على ما تبقّى عنده من نُعاس، نهضَ بسرعةٍ، نهبَ الخُطوات الباقِيات، وصارَ في مواجهته: «مَنْ أنت؟!». سأله بحِدّة. «أنا راعٍ» أجابه بهدوء. «أعرفُ أيّها الأحمق، أسألكَ مَنْ تكون؟!». أغضبتِ الكلمات الرّاعي، فامتلأ!! لكنّه أجابَ وهو يزفُر: «ومَاذا يهمُّكَ أن تعرفَني أو تجهلني،

ألا يكفِي أنّني آتيكَ بالطّعامِ والشّراب!!». «مَنْ يبعثُ معكَ الطّعام أيّها البليد؟!». فازداد غَضَبه، لكنّه غالبَ انتِفاخَه، وفرّغَ شيئًا من ذلك الانتِفاخ بالكلمات: «سيّدي، ولا تسألْني أكثرَ من ذلك». «وهل سيّدُكَ بليدٌ مِثلُك؟!». آنئذٍ كان الانفِجارُ وشيكًا، مرّتْ لحظاتُ صمتٍ مُرعِبة كانَ خلالَها جِسمُ الرّاعي النّحيل يتمدّدُ عَرضًا حتّى غطّى فَمَ الكَهفِ بالكامل وصارَ كثيرَ الشّعر، تراجَعَ شاؤول إلى الخلفِ مُنبهِرًا، وراحتْ أنفاسُهُ تتلاحَق، قال له الرّاعي الّذي تحوّل إلى مَسخ: «أعرفُ أنّكَ جَبانٌ، ولا تستطيعُ أن تتحمّل مَعرفةَ مَنْ أكون، هل سمعتَ بداثان؛ هل جاء في الصّحف المخطوطة أنّه مُنظَرٌ إلى يوم الدّين ويتّخذ مُختارين له؟! أتريدُ أنْ تعرفَ أكثر؟! لا بأس؛ قليلٌ من المعرفة النّادرة يورثُ كثيرًا من الحِكمة العميقة؛ أنا الّذي قبضتُ قبضةً من أثَرِ الرّسول السّماويّ أيّها الجاهل». ازدادَتْ أنفاسُهُ رَكضًا، وظلّ يرمقه بعينَين جاحِظَتين، تابَعَ المَسخ بازدِراء: «تحلَّ ببعضِ الشّجاعةِ أيّها الرّسول، فالطّريقُ أمامَك طويلةٌ». ثمّ ذابَ كأنّه وَهم، وتركَ عندَ الباب رَحلَه الّذي كان يمتلئ بالماء واللّبن واللّحم والجُلود والتّمر والحطب. زحفَ شاؤول باتّجاه يهوذا، حرّكه من كَتِفِه بعُنف، وصرخَ به مذعورًا، قال له يهوذا الّذي فتحَ عينه اليُسرَى بهدوء، وحَدّجه بزاويتها اليُسرَى: «لا تُصرِخْ كالنّساء يا شاؤول... لا تُصرخْ... لقد رأيتُ وسمعتُ كُلّ شيء... أعرفتَ لماذا قلتُ لكَ إنّه لا يموت».

في المساء جلَسَا مُتقابِلَين، كانَ عليهما أنْ يفعَلا وعلى وجه السّرعة ما جاءا إلى هذه الصّحراء من أجله. قال له يهوذا: «ما الله؟!». «ثلاثة». «هذا كُفْر». «وهو الدّين الّذي سنؤسّس له». «فاكتبْ ما نقول». «سأكتبُ الكثير». صارَ الغُرابُ ثالِثَهما، قال له يهوذا:

«سيأتِيكَ بالأخبارِ العظيمة مَنْ تظنّ أنّه أضعفُ خلقِ الله، حِكمةُ هذا الغُراب، وصبرُه، وقُدرته على النّظر إلى العالَمِ مِنْ عَلٍ ستُعلِّمُكَ الكثير يا شاؤول». «ما الخُطوةُ القادمةُ يا يهوذا؟!». «التّأسيسُ للتّجسيد. كتبنَا أوّل الحرفِ في الرّسالة، وستتابع الحروف حتّى تكتملَ الرّسالة». صمت، ثمّ جالَ ببصره من مكانهم المُشرِف على الأفق الفسيح، وتابَعَ: «انظر إلى هذا المدى الّذي تختبئ خلفَه الأمم كلُّها، إنّها منذ اليوم شعبُك، وأنتَ مَنْ سيصنع لها الدّينَ والتّاريخ، ستجدُ معارضَةً من تلاميذ المسيح، ذلكَ أمرٌ طبيعيّ، حين ننتهي هُنا من كلّ شيءٍ ستعودُ إليهم، ومهمّتك الأصعب ستبدأ معهم؛ عليكَ أن تقبّلَ الأرضَ بينَ أيديهم إذا أقبلْتَ نحوهم، أبسُط لهم قلبَك وجسدكَ وروحَك، وتظاهرْ بأنّكَ عبدٌ صغيرٌ من عبيدهم حتّى تُصبِحَ سيّدَهم وسيّدَ العالَم... هُمْ في الحقيقة لن يصمدوا أمامَكَ طوال الوقت... أتعرفُ لماذا... لأنّ العِلم الّذي عندك ليسَ عندَ أيّ أحدٍ منهم، باستثناءِ برنابا، هذا الّذي يثقون به هو وبطرس، إذا استطعتَ أن تُميلَ إليكَ قلبَ برنابا فقد قطعتَ نصفَ الطّريق، سيكونُ عليكَ أن تُكمِلَها بما تملك من مهارات في المعرفة والحِوار والعلم والفلسفة». «هل سنكتبُ اليومَ عقيدةَ التّجسيد؟!». «العَجَلةُ تورِثُ النّدم. والأناة تورثُ السّرور. الصّواب ليسَ وليدَ الخطأ بحالٍ. وفي العقائدِ الكُبرَى يحكم الإلهامُ. ولديّ شياطين كثيرة في عقلي تحاورني وأريدُ أنْ أنتقي أقربَها إلى سيرة المسيح وسيرورته». «فمتى يكونُ ذلك؟!». «سيكونُ حينَ يشاءُ القدرُ أن يكون، فلا تسبِقْ ما هو كائنٌ؛ فلن يسبقك إليه إلاّ الله، والله كتب، ونحنُ ننصاعُ لِما كتب».

٨٧

كانَ الحَقُّ وكانَ الطّريق

على الشّاطِئ بعيدًا عن أعيُنِ النّاس، في كوخٍ مُتواضِعٍ اتخَذتْ لها بيتًا. كانت تنزلُ منذ الصّباح إلى السّوق، تبشّرهم بدعوةِ المسيح، أنا تلميذته الأقربُ إلى قلبِه، وأنا أوّل مَنْ رأيته بعدَ صُعودِه، نزلَ من جديدٍ ليُثبّتَنا نحن الّذين تقبَ الحُزنُ قلوبَنا، قال لنا: «لا تَحزَنوا وأبشِروا». وأنا أقول لكم ما قال لنا: «لا تَحزَنوا وأبشِروا». ثُمّ تجلِس على الشّاطِئ في المساء، ويجتمع حولَها الصّيادون وعائلاتُهم، الصّغار والكِبار، الأطفال والشّيوخ، وتُحدّثهم حديثَ المسيح، ولم يكنْ معها هُنا في الإسكندريّة أحدٌ من أورشليم، أورشليم الّتي صارتْ ذِكرَى بعيدة، ذكرَى تَعِزُّ على القلب. بعدَ أنْ تُنهِيَ موعِظتَها، يقومُ النّاس إلى بيوتهم، ويأوون من تعبٍ إلى أسرّتهم، ووحدَها تبقَى جالِسَةً على الشّاطِئ تنظُر في الماء المترامي الأطراف، وتتوقُ إلى أنْ تبلغَ دعوةُ المسيح ما وراء الأنهار. ويأخذُها البحر في خيالاتِها بعيدًا، ترى ممالكَ كُلّها تقومُ على المحبّة والسّلام، ترى شعوبًا لا تحتاجُ أنْ تحملَ سِلاحًا، ولا تضطرّ أن تُحارِبَ من أجل أنْ تعيش، ترى أوطانًا تشكرُ الله فيُغدِقُ الله عليها من عطاياه فيُغرِقُها في فضله ونِعَمه، ترى أنّ الإنسانَ لا يُمكنُ أن يتحوّلَ وحشًا يُكشِّرُ عن أنيابِه إلاّ إذا غابَ اللهُ عن قلبِه... إنّها ليستِ ابنةَ اليوم؛ لقد عاشتْ حياةً متناقِضة، مُتفاوِتة، عجيبة... باعتْ جَسَدَها حينَ لم تكنْ تعرفُ الله، لكنّها وهبتْ هذا الجسد لخدمةِ الله حينَ عَرَفَته، أبصرتِ النّور يومَ فتحَ لها المسيحُ قلبَه، وأنقذَها من الموتِ المُحتّم

على يدَي (باراباس) بحِكمةٍ لا يُمكن أن تتأتّى لأيٍّ من البشر!! واليوم هي مَدينةٌ لتلك الرّوح الّتي أنقذتْها أن تظلّ كذلك حيّةً في قلوب البشر. هتفتْ في أعماقِها: «مساكين أولئك الّذين لم يعرفوك أيّها المسيح... يا لَخسارتهم إذا لم يُدرِكوا عَظمةَ الإنسانيّة المُتجلّيةِ فِيك، أيّها القلبُ الّذي يَسَعُ العالَم، سأعمل كلّ حياتي من أجلِ أنْ يعرفكَ العالَم». ثُمّ تنهضُ من مكانِها، وتظلّ تمشي على الشّاطِئ، تتجاوز الأحياء المسكونة لتأوي بعدَ ساعاتٍ من المشيِ إلى كُوخِها الصّغير القائم بعيدًا. وحينَ تهمّ بالدّخول إليه، تتذكّر البيتَ الواسِع الفَخم الّذي كان يُؤويها ويُؤوي المسيحَ والحوارِيّين، ثُمّ تبتسم: «أفعلُ هذا من أجلك؛ من أجلِ اللّحاق بك، كُلُّ نعمةٍ دونَ صُحبتِك لهوٌ وعبث، أسيرُ في الشّوك من أجل أنْ أحظى بلقائِك في المَلَكوت، كُلُّ حياةٍ دونَ الحياةِ معك ليستْ إلاّ فَناءً مُؤقّتًا... أيّها الجليلُ في عُلاك؛ لقد برّحني الشّوقُ ليوم النّور المُنبعِث من وجهك». ثُمّ تدخل الكوخ المصنوع من قصبٍ، وتأوي إلى طاولةٍ مركونةٍ في زاويةٍ قربَ سريرها الخشبيّ البالي، ثُمّ تكتُب رسائِلَها إلى الحوارِيّين، وتحتفظُ بها في كُوخِها لعلّ أحدًا في يومٍ ما في زمنٍ مقدور، يدلّها على أثرٍ لأيّ واحدٍ منهم فترسلَ له ما كتَبَتْه، أو لعلّ أحدهم مِمّنْ ساحَ في الأرض يأتيه خبرٌ عن مكانِها فيزورَها هنا، وحدها رسائلها إلى يهوذا كانت تبعثُها بطريقةٍ استدلّتْ عليها في أحدِ المنامات!! يهوذا حوارِيُّها الأثير؛ كانت ترى فيه وريثًا للمسيح، رغمَ زياراته المُتباعِدة أيّامَ أورشليم، ورغم غرابته أحيانًا، لكنّها كانت تشعُر أنّ الوصايا الّتي أطلقَها المسيح لا يُمكن أن يقومَ على تنفيذها بقلبٍ قويّ، وروحٍ شُجاعَة أحدٌ أفضلَ منه؛ كانَ مُحاوِرًا من طِرازٍ فريد، وكانَ واثِقًا من

إرادته بشكلٍ استثنائيّ، واليوم؛ أينَ هُو؟! تتحسّر على فِراقِه الّذي لم يُكتَبْ له أنْ ينتهي رغمَ مرور كلّ هذه السّنوات العِجاف الطِّوال!!

رسائلُها أسرارُها وذكرياتُها، وهي إنجيلُها الّذي تتمنّى أن يعيشَ عمرًا طويلاً. هِيَ ذاتُها الضّائعة بعدَ الرّحيل، عاشتْ أحلى أيّامها في حضرةِ المسيحِ بينَ ضياعَين؛ ضياعِها في مستنقع اللّذائذ المُحرّمة، وضياعِها في بلادِ الله الواسِعة، وما بينَهما كانتْ ترى أنّها حازتِ الدّنيا بكلّ نِعَمِها، وإنْ كانَ ذلك في الزمَن لا يتجاوز سنةً واحدةً، لكنّها سنةٌ تُعادِلُ العُمرَ كُلّه!!

تناولتِ القرطاس، وخَطّتْ رسالَتَها الّتي لم تعد تعرفُ رقمها: «عرفتُ بطرس منذُ أنْ كانَ صغيرًا، كانَ والدُه صديقَ والدي، كَبِرَا معًا، وكانَ حقلاهما مُتجاوِرَين، وكم سهرْنا في ليالي الصّيف على تلّةٍ صغيرةٍ مُطلّةٍ على كروم العنب، نأكلُ ونشربُ ونضحك؛ كُنّا يومَها طِفلَين لم نعرفْ من الحياةِ إلاّ وجهَها المُسالِم. هل كان يُمكن لِطفلَينِ بريئَينِ مثلِنا أنْ يَعرِفا ماذا يُخبّئُ لنا الزّمن؟! أنتَ لم يُعجِبْكَ أنْ تعملَ كَرّامًا فذهبتَ شمالاً حيثُ البحيرة لتعملَ في الصّيد، وأنا أيضًا حينَ كبرتُ قليلاً تمرّدتُ على المجتمع، فخطَفتْني المواخير!! لم أكنْ سيّئةً بالأساس يا بُطرُس، في الحقيقة ما كنتُ أراه من أبي وهو يُؤوي بعضَ الفَتَيات اللّعوباتِ إلى غرفته النّائية في الحقل هو ما جعلني أتمرّد، وحينَ عرفَ أبي بالأمر طَرَدَني من البيت؛ لقدْ عاقَبَني على فِعْلٍ تعلّمْته أوّلَ ما تعلّمْته منه؛ كانتْ تلكَ الطّفولة الّتي لم تنضُج بعد قدْ رَمَتْني في أحضانِ الباحِثينَ عن المتعة، مِمّن لم يجدوها عندَ زوجاتهم، لكنّني كثيرًا ما كنتُ أعرفُ أنّ دربي ليسَ اختيارًا منّي بقدر ما كانَ رَدّةَ فعلٍ غاضِبةٍ على مُجتمعٍ يُحلّلُ لواحدٍ منه ما يُحرّمه على

الآخَر. تسألني الآن: ما إذا كنتُ نادِمةً على ذلك؟! أقول لك: أشعرُ بالنّدمِ أحيانًا؛ لكنّ ما يُعزّيني أنّه كانت هُناكَ دائِمًا فُرصة للعودة إلى طريق الصّواب، كنتُ أبحثُ عنها في كلّ مرّة، لكنّ الظّلامَ كانَ يُغطّي كلّ شيءٍ، حتّى جاء المسيح فانتشلني من أعماق الضّياع ليضعني من جديدٍ على طريقِ الحقّ، كانَ الحقَّ وكانَ الطّريق، وعلى هُدًى من رِضاه أكتبُ اليوم. أتعرف يا بُطرُس أنّنا لم نقلْ لأيّ أحدٍ من قبلُ كيفَ التقينا!! هل تذكرُ بالفعل أوّلَ مرةٍ رأيتُكَ فيها أينَ كانت؟! لقد كانت في المعبدِ الّذي يترددُ عليه البائِسون، ومَهدُورُو الأمل في (كفر ناحوم)، كنّا صغيرَين، لكنّ شيئًا ما خرجَ من المعبدِ لينزرعَ في القلبِ، لقد أحسسنا به دونَ أن نعرفَ كُنهه!! وكبرنا يا بُطرُس، وكانَ شقيقي يصغرُكَ بعامٍ، صارَ صديقَكَ بعدَ ذلك اللّقاء التاريخيّ في المعبد، كم لهوتُما على الشّاطِئ معًا، وكنتُ ثالثَكما، كنتَ تتّخذ من صداقةِ أخي سِتارًا لكي تراني، وكنتُ أتّخذ من صداقَتِكَ له سِتارًا لكي أراك، وكنتَ جديرًا باهتِمامي، على الأقلّ في ناحِيتَين: جسدُكَ الّذي بدا أكبرَ من جسدِ فتًى في عُمرِ العاشِرة، وتحمُّلكَ للمسؤوليّة في عَمَلِك. اليوم؛ لا تقلْ إنّ المسيحَ اختارَنا عبثًا، كُلُّ شيءٍ يمضي على حسبِ قَدَرِ الله، ونحنُ كُنّا سطورًا لم تُقرَأ بعدُ في كِتابِ ذلك القَدر، لكنّ الجميل أنّ المسيح هو أوّل مَنْ قرأنا!!

العزيز بطرُس: إذا وصلتكَ رِسالتي هذه فتأكّد أنّني أعيشُ في نِعمةِ الله، ليتقدّسِ اسمُ الّذي دَلّنا عليه، ولعلّ في كتابِ القدر ما هو مسطورٌ أنّنا سنلتقي من جديد، لكنْ وا أسفاه؛ هل لنا بمثل المسيح كي يقرأ ما كانَ مكتوبًا!!

مريم المجدليّة

الإسكندريّة

السّنة السادسة والثّلاثين لميلاد المسيح، الشّهر الرّابع.

حطّت حمامةٌ على القائم القصير الّذي يقف أمام الباب عن يمين الكوخ الصّغير الّذي تعيشُ فيه المجدليّة، بيضاء كالثّلج، ليس هُناكَ مِنْ لونٍ آخَر يُقاسِمها هذا البياض سِوى ثلاثِ نُقاطٍ سودٍ لا يظهرْنَ من بعيدٍ إلاّ إذا استقرّتِ الحمامةُ على كتفِ المجدليّة الأيمن، فبرزْنَ من هُناك على شكل مُثلّثٍ وسطَ العنق من الجهة اليُسرَى. عيناها كانتا خضراوَين لامِعتَين، ورأسُها لا يستقرّ في مكانه لحظةً إلاّ ريثما يتحرّك في كلّ اتّجاه، لكنّها كانت مرفوعةَ الرّأسِ في حركتها اللّولبيّة، لا تنظر إلاّ إلى الأعلى، لفّتِ المجدليّة الرّسالَةَ، وربطتْها بقدمَي الحمامة، ورفعتْها إلى أعلى جهةَ الشّرق، ودفعتْها بذلك الاتّجاه فحلّقتْ في السّماء، ظلّتْ تعلو حتّى غابتْ في ضباب الفضاء المترامي.

في بادية الشّام، استراحتِ الحمامة من تعبها الطّويل عندَ بئرٍ قديمةٍ مهجورةٍ. كان جُرنُها الصّغير يمتلئُ بالماء في اللّحظةِ الّتي تقفُ الحمامةُ على حافّته، تشربُ منه في نقراتٍ مُتتابِعة، رافِعةً رأسَها في كلّ مرّة، ثُمّ تطير من جديدٍ، فيجفّ الجرن مرّة أخرى، ويبدو لمن يراه كأنّما غطّته الأتربةُ والغُبار لمئاتٍ خلتْ من السّنين. في منتصفِ البادية، تكبر الحمامة فجأة، تظلّ تتعاظَم حتّى تُصبِحَ أربعةَ أضعافِ حجمِها الأصليّ، ثُمّ ينقلبُ لونُها الأبيض إلى السّواد، وتتغيّر هيئتُها إلى غُرابِ الكهف؛ نعم غُرابِ الكهف؛ الّذي لازَمَ يهوذا وشاؤول كصديقٍ حميم، على الباب في المساءات السّاكنة سكونَ

الموت كان يحطّ على حجرٍ صغيرٍ مركوزٍ على بُعدِ نصفِ خطوةٍ عن عتبة الباب، كان شاؤول ويهوذا من العُلماء الفَقِهين، أوّل رسالةٍ قرأها شاؤول باعتباره أعلى درجةً في مرتبة العلم الكَهَنوتيّ من يهوذا، ومن بعدُ صارَ كُلُّ واحدٍ يقرأ الرّسالةَ الّتي يأتي بها الغراب إليهما بالتّناوب. فتحها شاؤول للمرّة الأولى، كان يهوذا قد أخبره أنّ رسائلَ عديدة سوفَ تَصِلُ إليه من المجدليّة في منفاها الاختِياريّ، كان يريدُ أن يعرفَ من خلالها أشياء كثيرة، ستتكشّف لاحِقًا. جلسَ شاؤول على الفُسحة الممتدّة أمام الكهفِ جهةَ الفضاء المُطلَق، وأجلسَ يهوذا بجانبه، كانَ الشّفق الأحمر الّذي يختلطُ لونُه القاني بسوادِ اللّيل يُنتج مزيجًا عجيبًا يستمعُ إليهما هو الآخَر، قرأ بصوتٍ عالٍ: «عرفتُك يا يهوذا في بيت عَنْيا لأوّل مرّة، أعني عرفتُ طبائِعك، وكنتُ قد رأيتُكَ قبلَها غيرَ مرّة، لكنّني لم أرَ وجهَكَ الّذي لا يُمكنُ أن أنساه إلاّ في ذلك اليومِ الّذي طهّرني فيه المسيح، لم يكنْ أحدٌ يدري بوجودكَ غيري، كنتُ أنا في الحُفرةِ أنتظر الموت رجمًا بحجارةِ الخاطِئين، وكنتَ أنتَ تُتابِعُ المشهدَ من خلفِ جذع شجرةٍ، وقد أعطيتَها وأعطيتَنا ظهرك، لكنّكَ كنتَ تسترقُ النّظر بينَ فترةٍ وأخرَى لِما يحدث، تابعتَ بصمتٍ وهدوء مُجرَياتِ الأمور، وتابعتُ أنا بصمتٍ وهلع مُجرَيات الأمور كذلك، كان باراباس يزعق ويهدّد ويُطلِق الأحكام، ويقضي عليّ بالموت، ولم تكنْ لِتُحرّكَ ساكِنًا، توقّعتُ من رجلٍ أراهُ لأوّل مرّةٍ يتابِعُ من بعيدٍ ما يجري أنْ يفعلَ شيئًا لأجلي؛ أو هكذا تمنّيت، لكنّ هدوءَكَ القاتِل ظلّ سائِدًا، حاولتُ أن أستغيثَ بِكَ، لكنّ النّظرات اللامُبالية والقَسَمات الجامِدة الّتي رسمَها وجهُكَ يومئذٍ جعلتْني أتراجعُ عن استصراخِك، فلمّا جاءَ المسيح، وصنعَ

ما صنع، خرجتَ عن عالَمِكَ الخاصّ، كأنّكَ تريدُ أنْ تستعيدَ بعضَ ما فاتَك، ولطمتَ باراباس وبصقتَ في وجهه، كانَ ثمنَ هذه اللّطمة الفِراقُ الأليمُ بينَكَ وبينَه، والحرّيّة الكامِلة لي، لا أدري أأشكُرُكَ على ذلك الموقف أم لا!! كان يُمكن أنْ أقبّلَ قدمَيك على الحقيقة، لو أنّكَ استبقتَ المسيحَ بذلك العفو الملائكيّ والانتصار الرّجوليّ لامرأةٍ تائهة، لقد سبقكَ المسيح إلى النّبوّة فهل من المُستغربِ بعدَئذٍ أن يسبقكَ إلى كلّ شيءٍ... كنتُ أراكَ تُنافِسه؛ واحدٌ أنتَ من أولئكِ الّذين يأتي بهم حظُّهم العاثِر ليعيشوا في الزّمن الّذي يُبشّرُ بظهورِ نبيّ حقيقيّ جديدٍ فيأمُلُ أن يكونَ هُو، فلمّا تظهر الآياتُ على يدِ سِواه، يقفُ حائِرًا بينَ أنْ يكونَ صادِقًا معَ نفسِه فيتّبعَه، أو يحسدُه على أنّه سبقه إلى النّبوّة فيكيدُ له المكائد... إلى اليوم يا يهوذا لا أعرفُ من أيّ الصّنفَين أنت، وإلى أيّ الرّجلَين انحزتَ!! إلاّ أنّ حُبّي لكَ وغُفراني تلكُّؤكَ حينَ كانتْ روحي تتأرجح على كفّ صديقكَ التّاريخيّ (باراباس) يجعلني إلى اليوم أرى فيكَ وريثًا حقيقيًا للمسيح... أعرفُ أنّ كثيرًا من إخوتنا لا يُحبّونَك، ويعدّونَك بائِعًا للمسيح، لكنّني على العكس منهم أو على العكس من كثيرٍ منهم أراكَ قويّ القلب، حاضِرَ الرّؤية، واضح المسيرة، وكانَ يُمكنُ أن تقودَنا بعدَ أن غادَرَنا المسيح، فما الّذي حدث؟! أتمنّى بحقّ المسيح أنْ أعرفَ ما الّذي حدث؟! لِمَ اخترتَ الاختباء، والرّحيلَ بعيدًا بعيدًا!!

أيّها المُؤمنُ بالطّريق، القابِض على جمر الحقيقة، أعرفُ أنّها الحقيقة، وأنّها الجمر، وأنّكَ اخترتَ أن تكتوي بها، فما صنعَ بكَ الغيابُ يا أخي!! قُل لي فأنا في كلّ مرّةٍ كنتُ أراكَ فيها، أرى فيكَ النّبوّة وإنْ لم تكتمل، والحقيقة وإن لم تتجلّ، والطّريق وإنْ طالَ

بها الأمد...!! قُلْ لي أيّها المُختار: أكانتْ ليلةُ الفِراق مُؤلمةً إلى هذا الحدّ فاخترتَ ألاّ ترى لنا وجهًا يُذكّرك بها!! أكانتِ المأساةُ أكبرَ من أن تُحتَمل فهربْتَ مِنْ تَبِعاتِها!! أنا أيضًا لم أحتمل أنْ أظلّ في المكانِ الّذي مَشَى على تُرابِه المسيح، كنتُ أخشَى أن يظهرَ لي مثلما ظهرَ لي في ذلك اليوم فأُصعَق، أنا لا أحتمل وجعَ الذِّكرَى مثلك، وها أنا رحلتُ إلى الإسكندريّة، فإلى أيّ الجِهاتِ مضيت، وفي أيّ البِلادِ حططْتَ رِحالَك؟!!

في ذلك المساء الّذي اجتمعْنا فيه وقرّرنا أن نسيحَ في الأرض من أجلِ أن نُبشّرَ بدعوةِ المسيح، كانَ أكثر المُختارين غاضِبًا منك وخاصّةً بُطرُس... لكنْ لا تَحمِلْ عليه يا يهوذا، هو الآخر قلبُه طيّب وإنْ كانَ سريعَ الغضب، حُبُّه للمسيح، وخجلُه من نفسه بعد أن أنكره جعلَ عواطِفَه مُستفَزّة. ذكّروني يومَها بقارورة الطّيب الّتي مسحتُ بها قَدَمَي المسيح، وذكّروني بموقفك يومَ صرختَ بي دون أن تُسمّيني حتّى... لكنّني أيضًا لم أغضبْ منك، ولم أردّ عليكَ يومَها، رأيتُ في ذلك الغضبِ الّذي التمعتْ به عيناك أشياءَ كثيرة مُحبّبة إليّ؛ رأيتُ رُجولَتَك، ورأيتُ حُبّكَ لي، ورأيتُ أمنيةً مكتومةً في غورَيهما تتمنّى أنْ تكونَ القارورةُ قد انسكبتْ على قدمَيك بدل قدمَي المُعلّم، وأنّ شعري مسّ جسدكَ لا جَسَدَه؛ هل كنتَ يا يهوذا تُنافِسُ المسيح في كلّ شيء؟! هل حقًّا أخبرْتَه بما لا نعرفُ نحن، وأخبركَ هو أيضًا بأسرارٍ أخرَى نجهلها؟! هل كنتَ أثيرًا عنده بالفعل، أم أنّه كان يفعل ذلك لكي يمتصّ غضبكَ النّبويّ المُستعِر في أعماقك؟! حقّا يا يهوذا لم أكنْ أدري فيما إذا كانَ المسيحُ يُحبُّكَ أم يخشاك؟! لا تقلق؛ بالنّسبة لي أعترفُ أنّني كنتُ أحبّك!!»

مريم المجدليّة

الإسكندريّة

السّنة السادسة والثّلاثين لميلاد المسيح، الشّهر الثامن.

تنهّدَ شاؤول بعد أنْ أتمّ قراءة الرّسالة، تلفّتَ نحو يهوذا، رآه غارِقًا في الصّمت، لَكزَه بطرف ذراعه: «لم أكنْ أدري أنّها تُحبّك على هذا النّحو، يبدو أنّ التّنافس كانَ بينكما على أشدّه، أعني بينكَ وبينَ المسيح، هُوَ على قلبِها، وهِيَ على قلبِك. ذهبَ هُوَ وبقيتَ أنتَ». ردّ عليه يهوذا: «وسأرحلُ أنا قريبًا، سأهبُكَ قلبي، الحُبّ الّذي يتلخّص في السّيطرة على قلبِ فتاةٍ مسكينةٍ ليسَ حُبًّا، إنّما الحُبّ هو كيفَ تفوز بقلبِ العالَم وتُسيطرُ عليه. مسكينةٌ هذه المجدليّة؛ ماذا تعرفُ من الحياة غير القلوب المَفطورة، والعالَم المُتسامح؛ نحنُ لا ننخدعُ بوردةٍ مزروعةٍ على جانبِ الطّريق، وقد هيأنا أنفُسنَا لأنْ نجمعَ النّجومَ كلّها في سَلّةٍ واحدة. المجدليّة فتاةٌ قلبُها مليءٌ بالعاطِفة لكنّها لا تعرفُ من الحقائق شيئًا، وليسَ بالعاطِفةِ وحدها نستطيعُ أنْ نغيّر المَجرَى، لدينا أهدافٌ كونيّة، تنتظرُنا البشريّة بأكملها من أجلِ أن نُحقّقها، فدعْكَ من الحجارةِ الصّغيرةِ المُتناثرةِ على جوانبِ الطّريق البعيدة».

أشعلَ شاؤول النّار، لم يكنِ الجوّ بارِدًا، كانَ يريدُ فقط أنْ يستمتع بتراقُصِ ألسنتها في المدى المَفتوح على ظلال العَتمةِ الطّاغِية، هَذَيا بكلماتٍ غيرِ مفهومةٍ تحت قُبّةٍ اكتست بطبقةٍ غامقة، وترصّعث بنجومٍ مُبعثرة، ظَلا يهذيان طوال اللّيل، ثُمّ ناما في العَراء!!

٨٨

النّاسوت واللّاهوت

قال لهما الرّاعي ذو اللّثامِ الأسود: «لقد تأخرتُما كثيرًا، سنتان كافِيتان على إتمام التّعاليم». «بقيث سنةٌ أخرَى أيّها الحبيب». ردّ عليه يهوذا، وتابع: «سنةٌ ويكونُ شاؤول قد أتمّ عمله الرّسوليّ الّذي سيستمرّ إلى قِيامِ السّاعة». «البشريّة تنتظر يا يهوذا، والطّريقُ قاسِية، وأنا لم أعذ أحتملُ غواءَ النّاهِشات». «أعرف. هل أتيتَ باللحم واللّبن والماء؟» «الرّحلُ الّذي على ظهري فيه أهمّ من هذه الأعراض، فيه القراطيس. ما تكتبونه عليها يبقى، كلّ شيءٍ قابِلٌ للفناء إلاّ ما يُكتَب، هل يُمكنُ ليدٍ؛ أيّ يدٍ أن تمحوَ ما يُكتَب في اللّوح المحفوظ أيّها العزيز؟! تسألني عن الطّعام والشّراب الّذي يُقيث جسدَك، ولا تسألني عن الّذي سيُقيث جسدَ البشريّة. اكتُبا ما هوَ مقدورٌ قبلَ أنْ يجريَ المحذور». «ماذا تقصد؟!». «لم يعذ لي من العمر عامٌ آخَر، هي ثلاثةُ أشهر وأغادِر إلى مُنتَظَرٍ آخَر، عليكُما أنْ تُنجِزا الأمر خلال هذه الأشهر الثّلاثةِ القادِمة؛ هل ستقطَعان الصّحراء دونَ راحِلة؟!». «كلاّ». «لن يأتِيَكما بالرّواحل سِواي، أنا أمَلُكما بالنّجاة، أنا خيطُ الحياةِ الّذي سيمتدّ بكم إلى الأمم». تركَ الرّحل بما فيه، وأعطَى ظهره ليهوذا ونزل بسرعة، كان يقفزُ فوقَ الصّخور النّاتِئة كأنّه مِعزاء من معازي الجبال، في لَحظاتٍ كان جسده يختفي في الوادي الأسود المشقوقِ أسفلَ الجبل.

«اكتب يا يهوذا: الله ثلاثة». «كتبث، هذا مَتنٌ أم حاشِية؟!». «بل مَتن». «فما الحاشِية؟!». «الآبُ مالِك كُلّ شيءٍ، وصانِعُ ما يُرى وما

لا يُرَى». «أهذه فلسفة؟!». «وماذا تكونُ إذًا!!». «ماذا أكتبُ أيضًا؟!». «اكتُبْ: المسيحُ ابنُ الله البكر والأوحد، وهو أوّلُ ما خُلِق، بَدْؤه قبلَ بدء الخليقة، أنظرَه ليُكفِّرَ به عن خطيئة مخلوقٍ لاحقٍ بدأ البشريّةَ وبدأها بمعصية. فازَ مَنْ عَبَدَه. أمّا روحُ القُدُس الّذي حَلَّ في مريمَ حينَ بُشِّرت، وعلى الابن حينَ امتلأ بالحِكمة، والّذي لا يزال موجودًا وينزلُ باسمِ الآبِ والابنِ على آباءِ الكنيسة، وعلى القِدّيسين فهو ليسَ إلاّ روح الله وحياته؛ إلهٌ حَقٌّ من إلهٍ حقٍّ. والثّلاثة أقانيمُ لا تنفصل إلاّ لغاية». أرسلَ شاؤول طرفَه في البعيد، عاجَلَه يهوذا بسؤال: «آلله الّذي رُفِعَ على الصّليب؟». «بل ابنُ الإنسان، سنؤسّس لهذا المفهوم يا يهوذا». «أنا أكتبُ يا سيّدي». «الابنُ أحدُ الأقانيم، وهو إله مثل الله، لكنّه حينَ صُلِبَ صُلِبَ الإنسان وليسَ الإله». «لم أفهم أيّها الحكيم!!». «الإله له طبيعتان، ناسوتٌ ولاهوتٌ، صُلِبَ النّاسوت ورُفِعَ اللاهوت، لو صلبناهما معًا يا يهوذا، لكان جزءٌ من الله قد فُقِد، وإذا حدثَ ذلك، فإنّ جزءًا من نِظامِ الكونِ سيختلّ». «أنا أرى أن تجعل للإله الابن، وهو مِحورُ كلّ الإيمان الّذي سنحمله إلى البشريّة، ثلاثَ طبائع: النّاسوت واللاهوت والنّابوت». ثُمّ أطلقَ قهقهةً ارتجّتْ لها طبقاتُ السّماء، كانتِ الشّياطين ترقص، لكنْ شاؤول بدا عليه الاهتِمام والجِدّية، سأله: «ماذا تقصد بالنّابوت؟!». أجابَه بضحكةٍ مُجلجِلةٍ أكثر: «الجزء النّبويّ أيّها العزيز... كنتُ أمزح... لكنّني قصدتُ الجزءَ النّبويّ بالفعل». «ليسَ هذا وقت المزاح يا يهوذا، نريدُ أن ننتهي من عملنا قريبًا، وسيكونُ علينا من بعدُ أنْ نُغادِرَ إلى حياةٍ أُخرَى». «اكتبْ أيضًا: المسيح الإله الابن المرفوع على الصّليب أُنزِلَ ودُفِنَ، وعانَى الموتَ من أجلنا ثلاثةَ أيّامٍ، ثُمّ قام،

وارتقى إلى المَلَكُوتِ الأعلى، وجلسَ عن يمين الرّبّ، ليُساعِدَه في الحساب يومَ يقومُ النّاس من قُبورِهم في السّاهرة». «فإنْ شئِلنا كيفَ كان الكونُ يجري في غيابِ الإله المدفونِ في التّراب؟!». «أينَ إيمانُكَ يا يهوذا، ألم نقل إنّ الآب هُوَ كلّيّ القُدرة، وصانِعُ ما يُرى وما لا يُرَى، فهو الّذي تولّى كُلّ شيءٍ في غياب الابن». «فلماذا يحتاجُ إليه الآبُ في الدّينونة؟!». «لِيُساعِده على مُحاسبة البشر، لأنّ فيه النّاسوت الّذي يفهم عليهم يومَ عاشَ بينهم». «واه.. واه... فهمتُ الآن؛ تولّى الآب مكانه في الدّنيا، وسيتولّى الابن مكانَ الآب في الآخرة». «أنا لم أقلْ ذلك؛ أنا قلتُ: سيُساعِده في تولّي الدّينونة والحُكمِ على مَنْ يستحقّ الخلود والنّعيم». «أينَ نضع مريم من كلّ هذا؟!». «نقولُ مرّةً إنّها جزءٌ من الله لأنّها ولدتْه وبالتّالي على المسيحيّين أنْ يعبدوها ويتوجّهوا إليها بالصّلاة، ونقول مرّة إنّها والِدةُ الله، ولم يتسرّبْ منه إليها إلاّ الجزء النّاسوتيّ؛ فهي بشريّة مَحضة». «لِمَ لمْ تحسِمْ أمرَها؟!». «لأنّني أريد ذلك؛ أريدُ أن يختلفَ النّاس فيها». «فَلِمَ لمْ تجعلْهم يختلفون في المسيح؟!». «ومَنْ قال إنّني لم أفعل!! الاعتِراف بالنّاسوت سيُقيم الجدل حولَ اللاّهوت، والاعتراف باللاّهوت سيُقيم الجدل حول النّاسوت، وسيقتتل الفريقان... ولئن طالَ بِكَ العُمر فسينشعبُ المسيحيّون في المسيح إلى أكثرَ مِن سبعين فِرقة؛ كلّ فرقةٍ ترى أنّها على الحقّ، وأنّها النّاجية، وأنّها وحدها تستحقّ رحمةَ الله، ولئنْ طالَ بك العُمر لتجدنّ طوائفَ منهم تذهبُ باختلافاتِها في المسيح كُلّ مذهب، سيقول بعضُهم إنّه الله، وسيقول آخَرون إنّه ابنُ الله، وسيقول ثالِثون إنّه نبيّ ورسول، وسيقولُ رابِعون إنّه مجرّد رجلٍ صالح، وسيقول

خامِسون إنّ المسيح كذبةٌ تاريخيّة فليسَ هُناكَ مسيح، وسيقول سادِسون إنّه موجودٌ؛ لكنّه لم يأتِ بعدُ، وسيقول سابِعون إنّ المسيحَ نفسه لم يكنْ مسيحيًا، لأنّ أيًا مِن المُعتَقَدات الّتي سيَدينُ بها أتباعهُ مِن بعدِه لم تكنْ على عَهْدِه ألبتّة؛ بل إنّه لم يتطرّق إلى مجرّد ذِكرها، وستصبح هذه الخُرافات عقائدَ مكينةً عندهم». «مثل ماذا يا شاؤول؟!». «مِنَ اليوم نادِني بولس». «مثل ماذا يا بولس؟!». «مثل الصّلب، والفِداء، والاعتِراف، والرّهبانيّة، وتقديس الآباء، والخِتان». «تمهّلْ يا شاؤول». قلتُ لكَ نادِني بولس». «ماذا تقصدُ بالخِتان يا بُولس؛ فِعلَه أم تَركَه؟!». «بل تركَه يا يهوذا». «ولكنْ ألم يُختَنِ المسيحُ نفسه في اليوم الثّامن؟!». «بلى، ولكنّني أؤسّس للخِلاف، ألم تعرفْ بعدُ أنّني أضعُ الشّيءَ ونقيضَه، وسأجعل هذا الموضوع - الّذي قد يتحرّج بعضهم لمجرّد ذِكره - عقيدةً، أتعرفُ لماذا يا يهوذا؛ لكي أُقرّبهم مِنّي حتّى أصبِحَ رَسولَهم». «وكيفَ يكونُ إلغاءُ الخِتان قُربةً لكَ عندهم». «إنّني أخالِفُ بذلك عقيدةَ اليهود والفرّيسيّين الّذين كنتُ أنا واحِدًا منهم، وبمخالفتهم يتبيّن صِدقُ تحوّلي إلى المسيحيّة، فيثقون بي ويطمئنّون إليّ، ويبدأ معي عهدُ مُؤمِنيهم الجديد».

كانتْ كُلّ الشّياطين قد تركتْ أعماقَ البحار، وبواطنَ الأرض المُنصهِرة، وتحلّقت بأعداد مَهولة كأسراب الطّيور المُتراكِمة حول الجبل تستمعُ إلى الحِكمة يَفوه بها صانِعُ اللاهوتِ بأكمله. وكانَ الغُراب الأسود ما يزال واقِفًا على الحجر المركوز عند العتبة، ينتظر دورَه في تبليغ الرّسالة. وكانتْ قُوى الشّرّ قد غلّبتْ فلسفةَ بولس الشّيطانيّة على كلّ مُعتقَد صحيح، وغطّتْ على كلّ حقيقةٍ. لقدْ

أُعطِيَ قُوّةً في تثبيت تعاليمه لا يعلم أحدٌ غير الله من أينَ جاءتْه. ها هو بُطرُس وبرنابا يتهاويان أمام الضّربات الّتي سيوجّهها لهم بولس عن قريب، وشيئًا فشيئًا ستزول قدما كُلٍّ منهما، وسينهارُ مع انهيارهما كُلّ صفاءٍ في العقيدةِ المسيحيّة، ولن يرقُصَ قلبُ الشّيطانَ بأكثرَ مِمّا سيرقُصُ يومَ تسودُ تعاليمُ بولسَ الكنائسَ كُلّها شرقًا وغربًا، الكنائس الّتي كانَ أباها الحقيقيّ، وصانِعَها، ومُبتدِعَها، ومُوطّدَ أركانِها إلى أجلٍ غيرِ مُسمّى!!

قال له يهوذا: «في اللّيل سنُغادِر، أعني كِلَينا». «بَقِيَ لديّ تعاليمُ أخرَى يجبُ أن أؤسّسَ لَها». حينَ تعودُ إلى أورشليم، ستُكمِلُ القراطيسُ كُلُّها تتهيّأ للحروفِ الّتي ستكتُبها».

جاءَهما الغُراب، برسالةٍ جديدةٍ: «العزيز يهوذا؛ تريدُ أن تعرفَ ماذا حلّ بفيلبُّس، أنا سأقول لك. لقد حرصتُ منذ البداية أنْ أُعيدَ جمعَ الحواريّين، وأنْ أوثّقَ العلاقةَ بينهم، وكم تمنّيتُ أنْ نسيرَ في الأرضِ معًا لا يفترقُ أحدُنا عن الآخر، لكنّها مشيئة الله يا يَهوذا، أضِفْ إلى أنْ نفوسَنا لم تكنْ صافِيةً تمامًا، وتلك هِيَ المُصيبة، لا تُصدّقْ أنْ مَنْ فرّقنا سوطُ اليهود وسيفُ الرّومان، هذان لا يُمكن لهما إلاّ أنْ يُوحّدانا؛ أرأيتَ كيفَ ينكمشُ المُهاجَمُ على نفسه، كُنّا سنفعل، وكُنّا سنكون أقوى لو فعلْنا، لكنّها النّفوس، محلّ الشّيطان المُمرِع، من هناك استطاع أنْ يغتالَ وحدتَنا!! لا أريدُ أنْ أجمعَ عليكَ الهَمّ أيّها المُبارَك، وأسأل العالي أنْ يُديمَ عليكَ حِفظَه أنّى سِرت. أعودُ لأخبركَ عن فيلبُّس؛ كان شَخصًا غامِضًا، يتمتّع بالنُّبل والعِلم، تعرفُ قَدْرَه إذا تكلّم، مع أنّه كانَ نادِرًا ما يتكلّم، (صَيدا) هي مَسقطُ رأسِه، رحلَ عنها إلى قُمران، والتقى يحيى، وصارَ من أتباعه، كان من عائلةٍ غنيّةٍ غِنًى

فاحِشًا، لكنّه تركَ كلّ مفاتنِ الدّنيا في (صَيدَا) وحياةَ النّبلاء الباذخة، وآثرَ أنْ يعيشَ حياةَ البَساطة، تخيّلْ أنّه صارَ ينامُ في الكهوفِ مع يحيى بعد أنْ كانَ ينامُ في القُصور مع الجَواري، ويأكل الجَراد مع نبيّه بعدَ أنْ كانَ اللحمُ لا يخلو من أيّ وجبةٍ تُقدّم له في أيّ قتٍ، ويمشي مع العبيد مع أنّ رُؤساءَ (صَيدا) كانوا يُقبّلون يده إذا مرّ بهم، وينحنونَ لعَظَمِته!! أتعرفُ لماذا تركَ كلّ ذلك؟! لأنّه أرادَ أنْ يعيشَ خالِدًا، كان يُدرِك تمامًا أنّ كلّ نعيمِ الدّنيا إنّما هو عَرَضٌ زائلٌ، وفِتنةٌ يزيّنها لكَ الشّيطان إبّانَ شَبابِكَ وقُوّتِك، حتّى إذا سلبَ منكَ الدّهرُ فُتوّتَك سلبَ مِنكَ مُتَعَك وألقاكَ سقطًا في مُستنقَعات الحياة الزّائلة، لم يكنْ أحدٌ أكثرَ منه يُدرِك أنّ الخلود في اتّصال القلبِ بالسّماء، لا في انغماسِ الجسدِ في الطّين. ظلّ صارِمًا مع نفسِه طَوالَ حياته، كثيرًا ما كان يتناقَشُ مع بُطرُس وأندراوس؛ يقول لهما: ويحكما تأكُلانِ السّمكَ وأنتما تعلمان أنّه يتعذّب حينَ تنشبُ الصّنّارةُ ذات الطّرف الحادّ المُدبّب في حلقه الطّريّ، كيفَ تُطوّع لكم أنفسُكم فِعل لك، فيُجيبان كأنّما يُناكِفانه: انظر إلى المُعلّم؛ إنّه لم ينتهِ بعدُ من أكلِ السّمكةِ الّتي بينَ يدَيه. لم يأكل بعدَ أنِ التحقَ بيحيى لُقمةَ لحمٍ واحدةً، لم يكنْ يتخيّل أنّ هذا اللّحم إنّما كانَ حَيَوانًا وديعًا لطيفًا، اصطيدَ أو اقتيدَ للذّبح، ثُمّ جرتِ المُديةُ في عنقه، فخار، فسال منه الدّم، فرفس، فظلّ يرفس حتّى سكنتْ حركتُه، ثُمّ سُلِخَ جلده، ثُمّ قُطّع إربًا إربًا، ثُمّ شُوِي بالنّار... لم يكنْ ليقبلَ عقلُه ذلك أبدًا، كانَ ذلك بالطّبع بتأثير يحيى وتعاليم الأسينيّين. أنا نفسي كنتُ أختلفُ معه حولَ صرامته هذه، لكنّني حينَ كنتُ أخلو إلى نفسي أحيانًا، كنتُ أجدُ أنّه مُحِقٌّ في ذلك، وأحيانًا ما أُصابُ بالغثيان وأنا أتخيّل ما كان

يُصوّره بكلماته الرّقيقةِ الحانِية من ذبح الحيوان الأليم فأتقيّأ. رُبّما زُهدُه الّذي رافقه حتّى غادَرنا إلى غيرِ إيابٍ كانَ أحدَ أسباب إعجابي بشخصيّته، إنْ لم يكنْ أهمّ هذه الأسباب. لقد كنتُ أشعرُ أنّ فيلُبُس يُشبِه من كان يُحبّ من تلك المخلوقات المأنوسةِ الّتي لا حول ولا قُوّة لَها أمام بطشِ الإنسان!!

حينَ استحرّ القتل في أتباع المسيح، وطالَ عددًا مِنّا، لم أعدْ ألتقِيه إلاّ نادِرًا، لكنّه أخبرني ذاتَ ليلةٍ أنّه دبّر هُوَ وبُطرُس وبرنابا أمر الرّحيل من أورشليم، وحينَ سألتُه عن وُجهتهم، قال لي: إنّها الإسكندريّة، عبرَ البحر جنوبًا، أو أفسس عبرَ البحر شمالاً. وغابَ في الظُّلمات. تركتُ أنا أورشليم بالفعل بعدَ تلك الحادِثة بستّة أشهر وقد اتّخذتُ لي دليلاً من الرّومان قدّمتُ له مالاً كثيرًا ليُخرِجَني من السّجنِ الكبير؛ فلسطين. لكنّني منذ ذلك اليومِ لم أعرفْ عن فيلُبُس شيئًا، كان ذلك آخر عهدي به. لكنّني ظللتُ أتسقّطُ أخباره، وكانتِ الأخبار الّتي تأتي عنه عجيبةً مثلَ حياتِه العجيبة، بعضُهم قال لي: إنّه توجّه شرقًا إلى بلاد فارس، وبعضُهم قال لي إنّ شاؤول قتله، وبعضُهم قال لي إنّه ولّى وجهه جنوبَ فلسطين إلى حيثُ صحراء النّقب، واتّخذ من أحدِ الكهوف المخفيّة فيها محرابًا له وعاشَ هناك بعيدًا عن النّاسِ والحياة ووحيدًا مع الله، وبعضُهم قال إنّه ارتحل إلى (فريجيا) هو و(بَرثُولَمَاوُس) ليكرزا هُناك، ولا أحدَ يعلم إنْ بقوا أحياء أمْ قُتِلوا، وبعضُهم قال لي إنّ عددًا من الجنودِ الرّومان عثروا على جُثّته في الصّحراء، وسلّموها إلى شاؤول الّذي أمرَ بحرقِها، واحتفظَ برمادِها في قارورةٍ في غرفته بالمعبد. غيرَ أنّه يُمكنني القول إنّ هذا الحواريّ الّذي ملأ الدُّنيا بزهده وعلمه آثرَ أنْ ينسحبَ

من حياةِ البشر بهدوء تارِكًا خلفَه خُيوطًا من دُخان الشَّك والحيرة.

العزيز يهوذا: سمعتُ أنَّ فتًى مسيحيًا جديدًا يُدعَى مرقس سيأتي لِيُبشِّر بدعوة المسيح في الإسكندريّة، أتمنّى أنْ أراه قبلَ أنْ أرحل إلى أفسس، لقد عقدتُ العزم على ذلك. كانتْ إحدَى وجهات فيلُبّس لو أنَّ الله قدّر لنا أنْ نرافِقه. أشعر أنَّ روحه تدفعني لأفعلَ ذلك. إذا جاءَ مرقُس إلى هُنا فسيخبرني بعضُ الإخوة الّذين آمنوا بالمسيح معي. هل تعرفُ شيئًا عن مرقس هذا؟! يقولون: إنّه ينوي كتابة حياة المسيح، وإنّه عازمٌ على ذلك بالفعل، الغريب في الأمر أنْ يتحمّس واحِدٌ مثله لعملٍ عظيمٍ مثل هذا وهو لم يَرَ المسيح!! هل يُمكنُ أنْ يكونَ صادِقًا مثل أولئكَ الّذينَ رأوه؟! أنا أتساءَلُ فقط.

أيّها العزيز: لِيُجلّلكَ الله بالنّعمة، وليملأكَ بالحِكمة... وللحديثِ بقيّة.

مريم المجدليّة

الإسكندريّة

السّنة السادسة والثّلاثين لميلاد المسيح، الشّهر الحادي عشر.

٨٩

وماذا لو لم تكنْ روما؛ هل كانَ بولس؟!

كان (الفوروم) يعجّ بالنّاس الّذين يروحون ويجيئون بينَ صفوف الأعمدة الإسطوانيّة العالِية في وقت العصر، حينَ خفّت حِدّةُ الشّمسِ كان يتمشّى عددٌ كبيرٌ منهم هُناك؛ حُكَماء وفلاسفة وشعراء وتُجّار وسائِقو عَرَبات وقُضاة ومُحارِبون ونُبَلاء... لم تشهد السّاحة الفسيحة المحفوفة بالأعمدة الشّامخة والّتي تتناثر حولها مباني الدّولة الضّخمة خليطًا عجيبًا من الشّعب الرّوماني مثلَ ذلك الخليط، كانتْ مجموعات صغيرة منهم تجلِس في ظلال عددٍ مربّع من الأعمدة؛ هذه مجموعةٌ تُناقِش مسرحيّة أوديب الملك، وهذه مجموعةٌ أخرى تُصغِي باهتِمام إلى ملحمة طروادة يرويها جُنديٌّ مُتقاعِدٌ من الحرب أحبَّ أنْ يتحوّل إلى حكَواتي ليكسبَ بعضَ المال، وتلكَ مجموعةٌ ثالثةٌ تترنّم على إيقاعِ لحنٍ يتصاعدُ من قيثارةٍ يعزِفُ عليها هاوٍ يُريحُ رأسَه على قائمها الأعلى، ويُغمِضُ عينَيه كلّما حرّكَ أصابِعه على الأوتار الفضّيّة. مجموعةٌ أخرى تستمِعُ إلى شاعرٍ شابٍّ يُلقِي قصيدةً من ورقةٍ جِلديّة تتدلّى من أسفلِ أصابِعه مُغطّيةً جزءًا من كُمّه المُتهدّل حولَ مِعصمه، كانَ قد دبّجَ القصيدةَ طوال ليلةٍ سابِقة علّه يَحظَى بحبيبته في جمهور المُستمِعين الصّغير الّذي كان ينجذبُ إليه ببلاهة، لكنّها لم تكنْ هُناك فبدا صوتُه ضعيفًا بليدًا؛ حشرجةٌ ما أصابتْ حلقَه حينَ وصلَ إلى المقطع الثّالث الّذي يقول: «حُضورُكِ يعني اكتمالَ القمر... فإنْ غِبتِ أظلمتِ الكائِنات، وجفَّ المطر، وذابَ رواءُ الحياةِ، وغاضتْ ينابيعُ روحي، وناحَ الوترُ» نَشَقَ

قبل أن يُكمِل، توقّفَ قليلاً، وهو يمسح خدّه، سَخِرَ منه عددٌ منَ الّذين يسمعونه، قال له أحدهم: «تمالَكْ نفسَكَ أيّها الأبله، الحبّ ليسَ نُواحًا». لم يكنْ ليسمعَ غيرَ صوتِها يَعلقُ بقلبِه الطّريّ، فتابَعَ نشيده بعدَ أنِ ابتلعَ ريقَه.

عادةً ما يتمشّى الرّومانيّون في (الفوروم) وهم يتهامَسون حولَ شؤونِ حياتِهم، ويتناقَلون الأخبار عن حروب روما في الشّرق والغرب، وتأخذ أعمال الإمبراطور وأسفاره ومشاريعه نصيبًا من ذلك الحديث الدّائر. كانت مظاهر الحياة تتمزج في ساحة (الفوروم) هذه؛ إذ تنتشرُ هنا وهناك المكتبات، ومحلاّت الصّرافة، ومتاجر الأدوات النّحاسيّة وأعمال النّحت ومصنوعات الخزف، والمطاعم المُتبايِنة في مستويات خدماتِها وطبقاتِ مُرتادِيها، بل إنّ السّاحةَ المُمتدّة لم تكنْ تخلو من وِرَش السّباكة كذلك؛ تلك الوِرَش الّتي عادةً ما يكونُ فيها مُلحَقٌ لحوذيّ مُنهمِكٍ في إنعال حصانٍ أو فرسٍ حذوةً جديدةً تدور على الحافر بشكلٍ أنيقٍ تتخلّلها ثقوبٌ دائريّة مُتناسِقةٌ ومُتساوِية الأعدادِ على الجانبين إنْ أنتَ اتّخذتَ أعلى ثقبٍ نقطةً لتمدّ منها خطًّا فاصِلاً فسيقسمُ الثّقوبَ إلى نِصفَين مُتناظِرَين. كانَ الضّجيجُ عالِيًا؛ بدا أنّ الشّعبَ الرّومانيّ، والهجين كذلك جائعٌ إلى الكلام، نِصفُه الّذي يأخذ استراحةً من حربٍ لا تنتهي، كأنّ روما تتغذّى على الحروب، فرّغ هذا النّصفُ طاقته وخوفَه، ومشاهد الرّعب الّتي سكنتْ عينَيه أثناء المعركةِ في الحديث عن بطولاتٍ خارقةٍ لم يصنعها في الواقع، وإنّما صنعها في الخيال ومن خلالِ حديثٍ مجّاني في تلك السّاحة الشّهيرة؛ وماذا على المُحارِب إذا كذبَ قليلاً بشأنِ بطولاته؛ فالكلامُ لا ثمنَ له!! ثُمّ ألا يكفيه أنّه يُغامِرُ

بروحه في سبيل مجد روما!! مَجْدِ روما؟! كم يعنيه ذلك المجدُ يا ثرى، وهو لا يحلمُ بأكثرَ من حفنةٍ من الشّعير تُساوِي تلك الّتي تُلقَى للخُيول في المخالي بعدَ كُلّ عودةٍ من مذبحة!! مجدُ روما الّذي يصيحُ به القادةُ العسكريّون في كلّ حربٍ يُشعِلها قيصرٌ مجنونٌ أو إمبراطورٌ مَعتوه!! لكنْ مع كلّ المآسي والويلاتِ الّتي تجرّها الحروب، هناكَ جانبٌ مُشرِقٌ فيها؛ لقد تعلّم نصفُ الأمّيّين الفلسفة من الحرب، كان السّيفُ يقول لهم: «أنا الموتُ وأنا الحياةُ». وكانَ صوتُ النّجاةِ من الذّبح يقول لهم: الرّمح المُنطلِق من يدِ رامِيه لا بُدّ أنْ يقتلَ شيئًا؛ لا يهمّ بعدَ أنْ يُفارِقَ الرّمح تلك اليد مَنْ سيقتل، المهمّ أنّ هناكَ مقتولاً سيقع؛ والاحتِمالاتُ كثيرة، أوّلها الرّامي، الّذي قتلَ كلّ إنسانيّةٍ فيه من أجلِ أنْ يرَى نصلاً حديديًا يخترقُ كلّ شيءٍ في الإنسانِ الّذي يُقابِله؛ يخترقُ دِرعَه، وجسده، ولحمَه، وأطفالَه، ومُستقبَله، وفي النّهايةِ يخترقُ أحلامَه!! أحلامَه الّتي انتهتْ على يدِ حالِمٍ مثلِه؛ لكنْ على الطّرفِ الآخَر؛ تُرَى بِم يحلم الّذين يُواجِهون الموت، وبِمَ يشعر أولئكَ الّذين يتّخذون منه رفيقًا!!

في الجهةِ العُليا من (الفوروم)، تقع هضبةٌ صغيرة، تنتشر فوقَها الاستراحاتُ والمطاعم، كانَ يُمكنك في تلك الاستِراحات أن تتناول أيّ وجبةٍ، وأن تشتري أيّ صنفٍ من الشّراب، فالحرب الّتي تُراكِمُ الجُثثَ في ساحاتها، هِيَ ذاتُها الّتي تُراكِمُ الزّبائن التّائقين إلى تجريبِ حياةٍ بعيدةٍ عن الموت، وسَماعٍ موسيقَى تُنسيهم ولو إلى حينٍ حمحمات الخيول، وصليل السّيوف، وصرخات المخطوفين إلى الطّرفِ الآخَر من النّهر، إلى الأبديّة.

لم تكنِ الأعمدةُ الإسطوانيّة الضّخمة هي وحدها الّتي ترتفع

بشموخٍ نحو السّماء، بل إنّ نصفَ مساحة الفوروم الشّاسِعة كانت تضجّ بالأشجار العالية الّتي تمدّ ظِلالَها فتحمي النّاس من لسعاتِ الشّمس حتّى في أوقاتِ الظّهيرة، وحينَ تودّع الشّمسُ بقيّة النّهار، كانَ الخدمُ والعبيدُ يعمدون إلى إيقادِ الضّوء من شُعَلٍ خاصّة ترتكزُ وسط تيجانِ الأعمدة، فتضيء المكانَ بأضواء تتقاطَع مع سيقان الأشجار وتسقطُ ظِلالُها على السّاحاتِ الرّخاميّة البيضاء فتلمع، فيبدو المشهدُ أسطوريًا مصنوعًا في خيالٍ عبقريّ مسكونٍ بالدّهشة. ناهيكَ عن البُسُط الخضراء المُوشّاة بالزّهور متعدّدة الألوان والّتي تكفّلت بها الطّبيعة، تلك الطّبيعة الّتي كفرت بالحرب والموت، فراحت تنثر ألوانَها الصّفراء والحمراء والبيضاء لتقول إنّ الحياةَ هي الّتي تنتصر في النّهاية!!

على ساحات الرّخام البيضاء كانت تَحُطّ أسرابٌ كبيرةٌ من الحمام تلتقطُ الحَبَّ مِنْ يَدَي عجوزٍ قتلَ في الحربِ أكثرَ من مئةِ فارسٍ، ثُمّ جاءَ هنا بعدَ الهَرم ليرتاحَ من لونِ الدّماء فينثرُ الحَبّ بين هذه الأسراب التّوّاقة؛ جاءَ ليُريحَ أذنه من أصواتِ الاستِغاثات والصّرخات الّتي تسبقُ الموتَ الوشيك في الحرب ويُشنِّفَ أذنه بأصواتِ الهديل الوادِعة، ورفرفات الأجنحة السّاحِرة، عددٌ لا يُحصَى من هذه الحمائم كان يحطّ على كَتِفَي هذا العجوز بالتّناوب، فيرفعُ لها يدَيه بالحياة، فتنقُرُ هناك منه ما شاءت وتطيرُ بعيدًا لتُفسِحَ المجال لأسرابٍ جديدةٍ تفعل فِعل أخواتِها، هذه الكتِفُ الّتي تحملُ الوداعةَ والسّلام هي ذاتُها الّتي كانت تجرّ الجُثَث من القتلى لترميها في حفرةٍ واحدةٍ تشكّل مثوًى جماعيًا أخيرًا لِمَنْ خانهم طائرُ الأمل في أنْ يُبقِيَ على حياتهم ولو يومًا واحِدًا من أجل أن يروا فيه أطفالَهم!!

أمّا تلكَ الكفّ الّتي تهبُ الحياةَ للحمامات البيضاء في هذه السّاحة فقد كانتِ الكفّ ذاتَها الّتي تهبُ الموتَ لكثيرٍ من المحاربين في طعنةٍ أخيرةٍ تنفذُ الأحشاءَ فيرتسمُ الموتُ على شكلِ سحابةِ استِجداءٍ يائِسٍ في عينَي الذّبيح قبلَ أن يُفارق الحياة، كان استِجداءً بعدَ فواتِ الأوان، فالموتُ لا يعرفُ التّأخير، والحياةُ أكثرُ حياءً من أن تستمْهله زمنًا مهما كانَ بسيطًا!! مَنْ رأى ذلك العَجوز وفي وجهه كُلّ براءةِ الأطفال وهو يُطعِم الحمامات، ومَنْ شاهده وقد بكتْ عيناه سعادةً وهو جذلٌ بالمئات من الحمامات المُتجمّعة بين قدمَيه لا يُمكن أنْ يُصدّقَ أنّه كان قبلَ أن ترتجفَ يدُه قاتِلاً على نحوٍ فريد، ومُفترِسًا على نحوٍ استثنائيّ؛ إنّه المشهدُ الشّورياليّ الّذي لا تتقن رَسمَه وحشيّةٌ مثلَ وحشيّة الإنسان، مع كلّ تناقضاته، وفِصاماته، وغرائبه!!

ولكنّكَ إذا اقتربتَ منه قليلاً فستسمعه يهمسُ في أذنَيك: إنّها الحربُ يا بُنيّ، الحربُ الّتي تغيّرنا جميعًا، الحرب الّتي تفرض قوانينَها علينا دون أنْ نستطيع لها دفعًا، أو من تَبِعاتِها هُروبًا، يا بُنيّ كُلُّ واحدٍ مِنّا يملك في أعماقِه وحشًا وقِدّيسًا، الحربُ تدفعُ بالوحشِ الكامنِ في الأعماق لكي يصعدَ، يصعدَ عالِيًا عالِيًا حتّى يستحوذ على الإنسان فلا يعودُ لإنسانيّته منه شيءٌ. والموتُ ليس إلاّ ظِلالاً مُعتِمة لا يبدو خلفَها شيء، تجتذب قوافل من البشر المخطوفين، وواحِدًا تِلو الآخَر نغرقُ في تلك الظّلال دون عودة. التّجاريبُ علّمتْني يا بُنيّ، وسأقول لك واحدةً من الفلسفات الّتي تعلّمتُها هُناكَ بعيدًا عن هذا الوطن: السّلامُ أصلٌ، والحرب عَرَض، في الأساس لم يكنْ يعرفُ الإنسانُ الموت، اكتشفهُ مُختبِئًا في حدّ السّيف، وفي نصل الرّمح،

فتفنّنَ في قذفه في أرواحِ إخوته؛ لكنّ السّيفَ مادّةٌ تبلَى، والإنسانُ روحٌ لا تبلَى، الخلودُ للرّوح، والفناء للمادّة، وحينَ يتخلّصُ الإنسانُ من توقِهِ إلى رائحة الدّماء فسوفَ يخلُد!!

كان الفوروم الممتدّ امتدادًا شاسِعًا، والمرتاح بينَ كفَّتي هضبتَين خفيفتَين هما (الكابيتولين) و(البالاتين) يضمّ أكثرَ مرافق الدّولةِ أهمّيّة، كان هناك مجلس الشّيوخ حيثُ تُسَنّ قوانين الدّولة وبنود المُعاهَدات، وهناك المحكمة العُليا الّتي تقضي في أمور النّزاعات على اختلاف مستوياتها بدءًا من النّزاعات الكُبرَى النّاشِئة عن الحروب وانتهاءً بالمُشاجَرات الصّغيرة بين الأفرادِ العاديّين، وهناك معبد إلهة المواقد (فيستا) الّذي كان وردةً حمراء، فلم تنطفِئ النّار المُقدّسَة المُشتعلةُ الّتي تعني سَطوة روما وقوّتها في وسطه لقرونٍ طويلة؛ بفضل العذراوات السّتّ الطّاهرات اللّواتي يقُمن على حماية هذه الشّعلة!!

أمّا المبنَى الأهمّ والأخطر فكانَ يقعُ إلى الشّرق من الفوروم وهو مبنى (الكولوسيوم)، المبنى الّذي بدأ مُدرّجًا بسيطًا جدًّا، لكنّه في سنواتٍ لاحقةٍ تعملقَ حتّى أصبح رمزًا لانتصار روما العظيمة، وأمجادها الخالِدة في الشّرق والغرب، لكنّه أيضًا كان يعشقُ أن ينتزع الأرواحَ من الأجساد فأُطلِق عليه مدرّج الموت!!

كانَ هُناك بشرٌ من كلّ صنفٍ في روما، هكذا تفعل الإمبراطوريّات العُظمَى؛ إنّها قادرةٌ على أنْ تُذيبَ في بوتَقتِها كُلّ لِسنٍ وأُمّةٍ، مَنْ كان يُصدّقُ أنّ هذا الخليط سيجتمعُ في هذه المدينة الأسطوريّة لولا أنّها روما، روما التي استوعبتِ الإغريق المُنحدِرين من الجزر البعيدة،

أصحابِ الآلهة الجبّارة كما استوعبت العبيد ذوي الأجساد الضّخمة والبشرةِ السّوداء والآذان المثقوبة المجلوبين عبر البحار من أفريقيا القديمة، عددٌ غيرُ قليلٍ من هؤلاء العبيد أنقذوا أنفسهم من الفقر المُدقِع بانضمامهم إلى (لودس ماغنوس) المدرسة الّتي كانت تُخرّج المُصارِعين الأشدّاء، وأصحاب العروض المُشوّقة في القِتال.

وإلى ذلك كانَ يُمكنُ أن تُشاهِدَ في ساحات الفوروم الممتدّة الكَهَنَة الجوّالين، والرّاقِصات الشّرقيّات يُقدّمنَ وَصلاتهنّ في حالات الجوع ولو دون مسرحٍ أو تحتَ أشعّة الشّمسِ الّتي تنعكسُ على أوساطهنّ القَمحيّة المدهونةِ بشيءٍ من الزّيت فتزداد التِماعًا. وهناك المُتسكّعون الّذين يقضون جزءًا من أوقاتهم في الحاناتِ الفقيرة، أو أمام بيوتِ الأغنياء ينتظرون ما يرمونه من فُتاتِ الموائد وقايةً من ضُراخ المعدة الّذي لا يتوقّف. وكانَ يُمكنُ أن تُشاهدَ تحتَ الأعمدة الأسطوانيّة بعضَ السّحرةِ يُقرفِصون مُلصقينَ ظهورهم المُتقوّسة السّمراء إلى الجدار يحملون النّايات ويُرقّصون الأفاعي وهي تُطِلّ برؤوسها من داخل سِلالٍ من القشّ يغيبُ جوفُها في الظّلامِ الأسطوريّ. وأخيرًا كان بإمكانك أن تُشاهِدَ هذا المنظر يتكرّر كلّ بضع خُطوات: اثنَينِ يتشاجَران أو يتعارَكان دونما سبب ظاهر، ربّما الفراغ المُضجِر، وربّما هدوء الحرب، وربّما ليسَ أيًّا من ذلك!!

وعلى هضبةٍ مرتفعةٍ بشكلٍ ملحوظ تحتلّ الجزء الشّرقيّ من روما، قامت مخازن الحبوب العِملاقة ضمنَ (الكاسترا) الموقع الأكثر تحصينًا في روما، في هذا الحصن كانت الصوامع الإسطوانيّة المبنيّة من الحجر الجيري ترتفعُ في الفضاء ارتفاعًا يوازي ارتفاع القلاع ومراكز المراقبة، ثماني عشرةَ فتحةً من فتحات التّهوية

انتشرت على محيط الصومعة في الثلث الأوّل والثاني والثالث، كان (الكاسترا) يضمّ أربع صوامع في كلّ زاوية من زواياه، وأربعًا أخرى على جوانبه. معظم الصّوامع خُصّصت لتخزين القمح والشّعير والشّوفان، غير أنّه كانت هُناك صوامع يُخزّنُ فيها العدس والفول والفاصولياء والأرز... كانت مخازن الحبوب في ذلك العهد أكثرَ أهمّيّة من مخازن الأسلحة، ولذا حرصتِ الدّولة على أنْ تُحيطَها بحراسةٍ مُشدّدة، ولم يكنْ أحدٌ يملك أمر توزيع ما فيها من غذاءٍ على الشّعب باستثناء الإمبراطور نفسه. وكانَ يُمكن تفويض بعضِ الصّلاحيّات السّياسيّة لعددٍ من الوزراء في الحكومة، أو النّبلاء والأمراء في بعضِ الأمور، باستثناء مفاتيح الغذاء هذه؛ فقد كانت مربوطةً بإصبع الرّأسِ الأعلى في الدّولة!!

أكانَ الفوروم في النّصفِ الأوّل من القرنِ الأوّل للميلاد بحرًا ذا غَورٍ بعيدٍ يضمّ ألوانًا من الأسماكِ الصّغيرةِ والكبيرة، أمْ فضاءً تتراقصُ فيه الفراشاتُ الملوّنة، أم أرضًا تنبسطُ عليها الزّهور من كلّ لونٍ وصنف؟! ولِمَ يفعل القيصر ذلك؟! هل كانَ يُحاوِلُ أنْ يكونَ إلهًا يجمع تحتَ رحمته كلّ عبيده ومخلوقاته؟! أمْ أنّه النّزوعُ إلى السّيطرة على النّاسِ والموجودات واعتبارها أدواتٍ تحتَ تصرّف المالكِ الأكبر؟! أمْ أنّه التّنافس بين ممالكِ الأرضِ والسّماء؟! وماذا لو لم تكنْ روما؛ هل كانَ بولس؟! وماذا لو لم يحدث كلّ هذا هل كان بطرس؟! وأينَ يقع القيصر من هذين؟! أينَ تُراه يكون كاليجولا إذًا؟! هل من المعقول أنْ تنبتَ وردةٌ أو شوكةٌ دونَ تُراب، فمن كان الورد، ومن كان الشّوك، ومن كانَ التّراب!!

٩٠

مَكتوبٌ أن تعبدَ الرّبّ إلهَك

«العزيز يهوذا: كيفَ يُمكنُ لامرأةٍ وحيدةٍ مثلي أن تكتبَ عن هذا العصر الجديد؛ العصر الّذي سيُغيّر العالَم، العصر الّذي كنّا نحنُ شهُودَه والفاعِلين فيه، إنّه عصرُ الانبِعاث؛ هل يُمكن أنْ نكونَ نحن النّور القادم بعد كلّ هذه الظّلمات الّتي تراكمتْ على قلوبِ البشر. أنا عشتُ هذه الظّلمات، ورأيتُها في صحوي ومنامي، لا يُمكنكَ أنْ تتحدّثَ عن الرّعب ما لم تعشْه، أنا عشتُ الفزَع من أوّل يومٍ سلكتُ فيه قدماي ذلك الطّريق ذا الوديان السّحيقة الذّاهبة بعيدًا في الضّياع؛ كنتُ أشعر أنّني لن أعودَ ثانيةً، كنتُ أظنّ أنّه عليّ أنْ أتعايشَ مع الخوف، وأعدّه جزءًا من الحياة، هل كان أبي سببًا في ذلك؟! لم أعد أرى أنّ ذلك مهمًّا، المهمّ ما صرتُ عليه اليوم؛ المهمّ أنْ يُدركَ الواحدُ منّا أنّه يصنعُ مصيره بنفسه، ويرسم مستقبله بأعماله... كنتُ قد نسيتُ ذلك كلّه مع ميلادِ الحياة في اليومِ الّذي رأيتُ فيه المسيح، لكنّ مستوًى من الحُزن والفزع عادَ من جديدٍ بعد رحيلِ المسيح، أعرفُ كم تعرّض المسيح للأذى، وكم سلكوا من طرقٍ للتخلّص منه وقَتْلِه، ربّما كنتُ سأكون واحدةً من أولئك الّذين تسبّبوا له بالأذى في يوم إقامة الحدّ عليّ، لكنّ عهدَ اللّيل ولّى مع الفجر الّذي انبثقَ من بينِ أصابِعه، المسيح نفسُه غفرَ لكلّ مَنْ آذاه، وسأل الله لهم المغفرة، لكنْ هل نعفو نحن عن الّذين أساؤوا لنا مِن بَعده أم لا؟! هل يُمكنُ أن ننسَى؟! هل يكون العفو سبيلَ النّسيان؟! أم أنّنا لا يمكن أن نحملَ قلبَ المسيح في أعماقنا فنكون مُحبّينَ لأعدائنا كما كان؟!

أيّها العزيز: لقد تشكّلت إرساليّةٌ طيّبةٌ من الّذين بشّرتُهم بدعوة المسيح في الإسكندريّة، اخترتُ منهم عشرينَ تلميذًا نجيبًا، وطلبتُ منهم أنْ يذهبوا إلى (كورنثوس)، كنتُ أشعر أنّ المسيح أرادَ لهذا الدّين أنْ يمتدّ شمالاً بعيدًا عن مواطن اليهود الّذين كفروا بكلّ شريعةٍ، أعرفُ أنّ كورنثوس بعيدة، لكنّ بلادَ الله كلُّها قريبةٌ من القلبِ المؤمن، لقد عاهدتُ المسيح أنْ أكلّم بشأنه كلَّ أحدٍ حتّى الحجر.

العزيز يهوذا؛ لا أدري متى تُدرِكني المنيّة، أردتُ أن أقولَ لكَ إنّني كنتُ مؤمنةً بِكَ، كان عهدي بِكَ وطيدًا، وقلبي يرى فيكَ سِرًّا وسِحرًا، لستُ أدري هل تغيّرنا الأيّام أم لا؟! لستُ أدري مَنْ سيلحقُ بالمسيح قبلَ الآخَر؟! لكنْ أرجوكَ لا تَنسَ أنّنا مشينا هذه الطّريقَ معًا، ولم تكنْ كلّها مرصوفةً، ولا مُجمّلةً بالرّياحين، لكنّنا عشناها معًا، فلا تتنكّبْها حتّى ولو تخطّفتكَ الطّيرُ من السّماء، أو تناهشتكَ الذّئاب في الصّحراء.

العزيز يهوذا: سمعتُ أنّ طائِفةً من النّاس في أورشليم، كانوا يعتنقون اليهوديّة، ثُمّ تركوها، وقالوا إنّهم أتباعُ المسيح، وإنّ المسيح ذا طبيعةٍ إلهيّة، وإنّه يجبُ أن يُعبَد، وتُرفَع الصّلواتُ باسمه في المعابِد، هذا ما وصلني أيّها العزيز من بعضِ أحبابنا الّذين لحقوا بي إلى الإسكندريّة، لكنّني - وأنتَ العارف - أهيبُ بِكَ أن تتصدّى لهذه الدّعوات الهدّامة الّتي ستحطّم الفكرة الّتي جاءَ المسيحُ ليبعثَها فينا، لقد قلتُ لهم: إيّاكم أنْ ينتفخ الشّرّ في أرواحكم، أو أنْ يتكلّم الشّيطانُ بلسانكم. كان المسيح بشرًا، وأخلصَه الله إليه في السّماءِ بشرًا، وإنّه قال في أكثرَ من مناسبة: «مكتوبٌ أن تعبدَ الرّبّ إلهَك»،

وظلّ أمينًا لها، ومن أجلها لم يسلمْ من أذى البعيد والقريب. يا يهوذا: إنّهم يتّخذون الدّينَ فَخّارًا وخَزفًا يحملونه بين أيديهم ويسيرون به في الطّرقات؛ حتّى إذا ما أتعبهم السّير وكلّث أيديهم سقطَ فانكسر وتحوّل إلى شظايا، ذلك أنّ الدّين روح، ويحمله القلب، وهم جعلوه مادّة وحملوه باليد، فمن الطّبيعيّ أنْ يُجهِدَهم، ويتحوّلوا من حامِليه إلى مُحطّميه.

العزيز يهوذا: أنا في طريقي إلى (أفسس)، منذُ طفولتي كنتُ مسكونةً بالرّحيل، ومأخوذةً بالبحثِ عن الأسرار، ربّما ستجدُ روحُ المسيح في (أفسس) أنصارًا، هو يعرفُ أنّ دعوته ستنداحُ كالطّوفان حتّى لا تُبقي فوقَ الأرضِ شِبرًا إلاّ غَمَرَتْه، وأنتَ إلى أينَ تمضي؟! هل تقرأ رسائلي إليك؟! هل هذه الحمامة الّتي تلازمني أحيانًا كظلّي توصِلُ حروفي المشتاقة إليك؟! لِمَ كُلُّ هذا الرّحيل الأليم يا يهوذا؟! أهي الأسرار الّتي تجعلك تختفي عن الأنظار؟! أكنتَ تحملُ هَمًّا لا يُمكن أنْ يزول إلاّ بالبُعد؟! أمْ كُنتَ تُخفِي غيبيّات تجعل كُلّ حامِلٍ لها يغيبُ عن الوجود، وعن كلّ ما يمتّ إلى عالَم البشر بِصِلة... هل من المعقول أنْ يُسفِرَ الصُّبحُ عن وجهه ذات نهار وأجِدُكَ على باب بيتي تطرقه، وتُفاجِئني بوجهك القاسي والحنونِ معًا؟! إذا كان اللّقاء صعبًا لأنّ عالَمكَ صار يختلفُ عن عالَمنا؛ أفلا تُبرّدُ قلبي ولو بكلماتٍ تُحمّلها لهذه الحمامة المسكينة الّتي تعودُ في كلّ مرةٍ إليّ ورِجلاها خالِيتان... على أيّة حالٍ سأظلّ أكتبُ لك ما دامت هذه الحمامة تظهر لي، فإن توقّفتْ عن الظّهور كتبتُ لكَ حتّى يجيءَ الوقتُ والزّمانُ المُناسِبَين لأبعثَها لك؛ ربّما تصلكَ هذه الرّسالة وأنا في أفسس، أو في البحر أذرع ماءه البعيد مرتحلةً من الإسكندريّة

الحبيبة. كُنْ بخيرٍ ما استطعت. الأحزان ستنقضي، والفرح لم يعد يحتمل التّأجيل. ولا فرحةَ أعظمَ من تلك الّتي يصنعها لقاءُ حميميّ بعد غربةٍ سحيقة!!».

مريم المجدليّة

البحر الكبير المُتوسّط

السّنة السّابعة والثّلاثين لميلاد المسيح، الشّهر العاشر.

قال له بولس: «هذه المسكينة لا تفتر عن مراسلتك، لقد بدأتُ أشكُّ في أنّ بينكما شيئًا». «ليس بيني وبينَ أيّ بشريٍّ على هذه الأرض شيءٌ باستثناء المُنتظَر، وفِيّ شيءٌ منه، هل تتوقّع مِن الّذي تنتظره البشريّةُ أن ينتظرَ أحدًا؟! أو يتوقّع منه شيئًا؟! هؤلاء البشر مساكين، حماقة الحُبّ عندهم ليسَ لها شِفاء، لم يعلموا بعدُ أنّ الكونَ برمّته قائمٌ على الأخطاء، خطأ آدم في الأكل، وخطأ قابيل في القتل، وخطأ حوّاء في الرّأي، وخطأ هابيل في الاستسلام؛ إذا كانَ الكونُ كلّه قد بدأ بخطايا، خطايا يخجل منها الشّيطانُ نفسه فماذا تتوقّع من هذه الكائِنات الهُلاميّة الّتي جاءت في آخر الزّمان لتتغنّى بالحبّ، وتتوقّع أن تجدَ من ورائه فائدة؛ أنا بالفعل مملوءٌ عجبًا من هذا الصّنف من النّاس... ولكنْ يا أخي لماذا ألومهم؛ إنّه الجهل؛ والجهل يغفر للبسطاءِ ضلالَهم... دَعْنا من التّفكير بهم، لدينا ما هو أعظم، الصّحراء تكادُ تتلاشى، والأرضُ الطّيّبة على بُعد أيّامٍ قليلةٍ من هُنا؛ فما الخُطوةُ القادِمة؟!».

كانا لا يزالان يقطعان الأرض القاسية، أناخَا راحِلَتَيهما، كانا مُجهَدَين على نحوٍ كبير، أنزلَ يهوذا الرّحل عن ناقته، ثُمّ ضربَها على

كِفلِها، وصاحَ بها أن تنطلق، تنبّه لفِعلته بولس، كادَ يصرخُ من الفزع، هتفَ به بشفتَين راجِفتَينِ رُعبًا: «لقد أفلتَّ من بينِ يدَيك سببَ نجاتِك، كيفَ ستواصلُ سيرَك في هذه الصّحراء دونَ راحِلة!!». «ليسَ الأمر كما تظنّ يا بولس». «ماذا تعني؟!». «هُنا سينتهي عهدي بآخِرِ بشريّ قبلَ أنْ يُبعَثَ ولدُ إسماعيل، وعليّ اليومَ أنْ أهبكَ شيئًا من روحي، لتعيشَ بها وتواصلَ المسيرة، أمّا أنا فمقدورٌ لي أنْ أختفي حتّى يحينَ اليومُ المعلوم». كانت نظراتُ الرّعبُ ما تزال مُرتسِمةً على وجه بولِس، الّذي لم ينجح في ابتِلاع ريقه، قال وهو يبعثر كلماتٍ لم يستطِعْ ضمّ حروفها لتخرج مفهومةً بشكلٍ تامّ: «وأنا؟!». «اليوم سأقول لكَ كُلّ شيءٍ. انظر إلى تلكَ الشّجرة». أشار بيده إلى شجرةٍ صفراء، أكلتِ الصّحراء منها كُلّ لونٍ أخضر، شوكيّة الأغصان، متربة السّاق، عاريةٍ من أيّ صنفٍ من الأوراق، سارًا إليها، مَشى يهوذا، وظلّ بولس راكِبًا. أراحا تحتها، ظهرهما إلى الجذع البُنّي، قال يهوذا: «ستعود إلى أورشليم». «ثُمّ؟!». «ستدخلها مثلَ الفقراء المساكين، ولو قدرتَ أنْ تدخلَها حافِيًا أشعثَ الرّأس أغبرَ الوجه فافعل. واقصِدْ أوّل ما تقصد بيتَ بطرس، إنّه يلجأ هذه الأيّام إلى بيتِ (مرقس)، عليكَ أنْ تكسبَ قلبَ بطرس بأي وسيلةٍ مُمكِنة». «لكنّني حاولتُ من قبلُ فلم أفلِحْ». «لم تحاولْ؛ كُلّ ما فعلتَه أنّكَ بعثتَ بحرسِكَ البُلَهاء إليه ومعهم رِسالة، هذه ليستْ محاولة، هذه فِعلةٌ تنمّ عن كبرياءَ زائِفة، أنا أريدُكَ أنْ تدخلَ عليه راكِعًا باكِيًا مُستجدِيًا، قبّلْ قدمَيه، بلْ وامسح بخدّيك نعلَيه، عليكَ أنْ تتخلّى عن كبريائِكَ قليلاً لتُحقّقَ هدفَك... حتّى إذا جلستَ بينَ يدَيه، فقُصّ عليه قِصّة بادية الشّام وظهور المسيح لكَ، وأنّكَ أبتَ من

ضلالِك، وأنّك تضع نفسَكَ بينَ يدَيه رَهنَ إشارته». «لكنْ يا يهوذا، لماذا بُطرُس بالذّات؛ لماذا عليّ أنْ أُهينَ نفسي أمامه بهذه الطّريقة المُقزِّزة». «لو أنّك خرسْتَ لكانَ خيرًا لكَ، لكنّكَ لا تفتأ يُعاوِدُكَ حُمقُ الوحوش الّتي لا تُفكّر إلاّ بأنيابِها... ولكنْ مع ذلك سأقول لكَ لماذا بُطرُس بالذّات... لأنّه صخرةُ المسيح الّتي سيبني المسيحيّون عليها كنيستهم، فإذا أنتَ قصدتَ الصّخرة فحطّمتَها فقد حطّمتَ كُلّ بِناءٍ يقومُ فوقَها». «لكنّ عقلَ بُطرُس لا يستوعبُ أنْ يقبلني ولو أرقتُ دمي أمامه على الحقيقة، إنّ عقلَه لا يُفكّرُ بأكثرَ من شيءٍ واحدٍ، إنّه الشّيء الّذي قاله له المسيح قبلَ أنْ يفارقه». «ولذلك طلبَ منه أن يرعَى خِرافه، إنّ المسيح لا يحتاج إلى عقل قبلَ أن يحتاجَ إلى صخرة، إلى مرجعيّة ثابتةٍ قويّة؛ نحن سندعه يفعل ذلك، ليكنْ هُوَ الصّخرة، وكُنْ أنتَ الفِكرة؛ كُلُّ ما كتبْناه هُناك في الكهف هو ما سيشكّلُ رؤيةَ المسيح في المُعتقَد نفسِه، أنتَ مُؤسّسه، وأنتَ مُعلِي رايته». «لكنّك قلتَ إنّ عقلَ بطرس مثل الصّخرة الصّلداء فكيف سيقبلني في أخَويّته». «لا تستعجِلْ قَبولَه لك، كُنِ الماء الّذي يهبطُ قطرةً قطرةً على الصّخرة، أليسَ الزّمنُ كفيلاً بأنْ يفلقَها؟! بلى. وسيُساعِدُكَ على ذلك شخصٌ آخَر». «مَنْ هو؟!». «برنابا». «برنابا؟!». «نعم؛ إنّ بطرس يثقُ به، وعقلُه مُختلِف، وقلبُه قادرٌ على امتصاصِ الفكرةِ السّوداء لتونع في مائه؛ إنْ عييتَ مع بُطرس، فعليكَ ببرنابا، لكنْ برنابا لن يكونَ الخُطوةَ الثّانية، سيكون الخُطوةَ الأخيرة، قبلَ ذلك إنْ أُتيحَتْ لكَ الفُرصَة أنْ تنامَ تحت أقدام بطرس ليتحنّنَ عليكَ فافْعل، وإنِ استطعتَ أنْ تغسل ظاهر قدمَيه بيدَيك، وتقبّل باطنهما بشفتَيكَ فافْعل. كُلُّ أمرٍ نفعله في سبيلِ غايتنا الكُبرَى مهما

بدا مُستعظمًا فهو فديةٌ لها... والآنَ صارَ عليَ أنْ أذهبَ في طريقي، لم يرني منذُ أنْ غادر المسيحُ الأرضَ سِواك، ولن يراني بعدَكَ أحدٌ؛ الغرابُ أطولُ عمرًا منّي ومنك، وسيظلّ يأتيني بما يدور على الأرض من أحداث، والبدويّ المُلثّم الّذي كان يأتينا بالطّعام ليسَ بشريًا، سأراه على هيئته الحقيقيّة في مُستقرّي الطّويل، وسيأتيني كذلك بالطّعام والأخبار، أمّا أنتَ فلو حِدتَ عن الّذي كانَ مكتوبًا في اللّوح أن تفعله فستهبِطُ عليكَ صاعِقةٌ قبلَ أن تبلَغَ أورشليم وتُحوّلك إلى رمادٍ في لَحظاتٍ... الآنَ اذهبْ إلى أورشليم، وأنكِرْ شيمون وغالامائيل فهما يعرفان ما سيفعلان. اقطَعْ كُلّ صِلَةٍ لكَ باليَهود، والخُطّة ستبلغُ منتهاها ولن يستطيعَ أحدٌ إيقافَها... الآنَ سأذهبُ بالاتّجاه الآخَر، لا تنظرَ إليّ، لأنّكَ لن تحتمل ما ستراه إنْ فعلتَ... هذا تحذيرٌ حقيقيّ، ها هي أورشليم، ستطوي ناقتُكَ الأرضَ وأنتَ تُولّي وجهكَ شَطرَها... منذ أنْ هبطَ الملاكُ الأكبرُ ساحتَها قال لها الله أن تكونَ موطنَ كلّ الأحداث الكُبرَى، وغايةَ كُلّ نبيّ، ومثوى كلّ مُعجِزة، ومن مائِها تفجّرتِ الحضارة، وفي ساحِها سيقضي الربّ بمعركته الأخيرة بين كُلّ جيوش الكون... اذهب يا بولس، ها أنتَ تحملُ إلى المسيحيّين في الزّقوق دينَهم، وها أنتَ مَنْ سيرفعكَ الخاطِئون منارةً لتاريخهم... ها أنتَ... ها أنت». أعطاه ظهره، مشى، مرّتْ لحظاتٌ بطيئةٌ كأنّما هي دهورٌ سحيقة، سَمِعَ صوتَ صرخةٍ عالية جثا لها بولس على رُكبتَيه، تصبّبَ العرق من جبينه خوفًا، استغرقَ الأمرُ وقتًا قبلَ أنْ ينهضَ، ويمتطي ناقته، ويُولّي وجهه صوبَ المدينة المُقدّسة.

٩١

مَاذَا يَنْتَفِعُ الإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ الْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟!

أحرقَ حطبًا على حجارةٍ سوداء لمْ يكنْ أحدٌ ليشكّ بأنّها خارِجةٌ من الجحيم، رقصَ الشُّواظ. سكبَ الماءَ فانطفأت النّار، نفخَ على الجمر فالتهبَ وتتطاير منه الشّرر. تركَ الجمرَ ليبردَ. انحنَى. ملأ راحتَيه رمادًا كثيرًا. عفّرَ وَجهه. خلطَه بعنايةٍ مع الشّعر المنسدل من جانِبَي رأسه، ولوّن الصّحراء الّتي تعلو قمّة ذلك الرأس. نظر إلى الأفق، هتف بروحٍ مُشبعةٍ بالرُّؤى: ولّى عهدُ النّومِ يا أورشليم، ستكونين مدينةَ الآلهةِ المُنتصِرة، وسأكونُ عرّاب التّاريخ الّذي يقودُ إلى ذلك النّصر العظيم. تفجّرتْ أعماقُه بالأمل. امتطَى النّاقةَ من جديد، ومَضى. في الطّريق الغائرة، كانتِ الجبال والوِهاد تكتنفه من كلّ جهة، حتّى إذا رأى قُبّةَ المعبدِ الذّهبيّة تتلألأ على أشعّة الشّمس النّاعمة صعدَ بُخارٌ من قلبه إلى حنجرته، ودَمِعَتْ عيناه فرحًا وشوقًا. انحازَ قبل الغروب بساعةٍ إلى فَلّاحٍ مَنسيٍّ في سفح جبلِ الزّيتون يأوي إلى خيمةٍ مُمزّقة، وشاةٍ عجفاء، وحمارةٍ عرجاء. وقفَ أمامه بهيئته المُزرِية، فسقطَ قلبُ الفَلّاحِ بينَ رِجلَيه، هتفَ به: «لا تخفْ؛ جئتُكَ بالخير». نهضَ الفَلّاح على عَقِبَيه مُتعثّرًا، وتراجَعَ إلى الوراء قبلَ أنْ ترجُفَ شفتاه، ناطِقةً بالهلع: «أرجوك لا تؤذِني». «لا تخفْ أيّها الأخ... لا تخفْ... أنا عابِرُ سبيلٍ، حسبي من العمر ما هو منذورٌ لليومِ الموعود». لم يفهم الفلّاح شيئًا، لكنّه ظلّ ينظرُ بعينَين مُتوسّلَتَين إلى بولس، رآه ينظرُ بطمعٍ إلى الحمارة العرجاء، كانت

تقفُ رافِعةً إحدَى قدَمَيها الأماميّتَين، والذّبابُ يلهو بعينَيها، فتتحرّك على ثلاثةِ أقدامٍ وهي تشكو إلى صاحبٍ ربّما يحتاجُ هُوَ إلى أحدٍ يشكو إليهِ هَمّه. رأى الفَلاّحُ التِماعةً في عينَي بولس بدث جليّةً من خلفِ جَفنَيه الحمراويَن، فعاوده الخوفُ من جديد: «لديكَ ناقةٌ ضخمةٌ مُكتنِزةٌ تساوي قطيعًا من الحُمُر أيّها الغريب، فَلِمَ تُفكّر بأخذ حمارتي العرجاء!!». «سأعطيكَ النّاقةَ مُقابِلَ هذه الحمارة». «لا تسخر منّي فأنا وحيدٌ هنا، دَعْنِي وهمومي». اقتربَ منه، أمسكَه من جيبِ ثوبِهِ المُمَزّق، رفَعه إلى الأعلى، ثُمّ شدّ على الحروف وهو ينظر في عَينَيه: «لم أُخلَق لأكونَ ساخِرًا أيّها التّافِه». رماه بعيدًا فسقط الفلاّح بعظامه الرّقيقة على الأرضِ القاسِية فتأوّه، امتطَى بولس ظهر الحمارةِ العرجاء، أدارَ وجهها جهةَ المعبَد، مُتخلّيًا عن ناقته للفلاّح المسكين، وتاركًا خلفه عاصِفةً من الدّهشة والإنكار!!

كانَ الغُروبُ يرسمُ مع التّلال المنبسطةِ خلفَ المعبدِ لوحةً مُدهِشة. لا أحدَ يعرفُ أورشليم مثلَ بولس، قضى فيها ما يزيد عن ربع قرن، يعرفُ كلّ حواريها، ومساكنها، وناسَها، وعوامّها، وخواصّها، وشجرَها، وحجرَها، حتّى ذلك الجزء المخفيّ تحتَ الأرض من سجونٍ وأقبيةٍ ودهاليز والّتي لا يعرفها إلاّ القليل من الكَهَنَة، كانَ هُوَ واحِدًا من هذا القليل؛ عرفَ ما فوقَ أورشليم وما تحتها، فلن يُعجِزه أن يعرفَ بيتَ مُرقس، هذا الشّاب الّذي قفزَ إلى الواجهةِ سريعًا، فَكّرَ: «دِماءُ الشّباب ذوي الخِبرة البسيطة سهلٌ أنْ تحرّكها على النّحو الّذي تشاء»، «مِن الممكن أنْ نحرفَ البوصلةَ لقلبِ هذا الشّابّ بسهولة» قال لنفسه، ثُمّ مضى. طرقَ بابَه، مع أولَى خيوطِ الشّفق، كانَ البيثُ يضجّ بالمُؤمنين، لم يخلُ البيتُ في كلّ يومٍ من

وفودٍ جديدةٍ جعلتْها صِفاتُ المسيح الرّحيمة تهربُ إليه من قسوةِ الرّومان من جهة، وظُلمِ اليهودِ بجباية الضّرائب من جهةٍ أخرى. خرجَ إليه أحدُ الحاضرين، أنكره، قال بولس له: «هل سيّدكَ في البيت؟!». بدتْ علائمُ الخوفِ على وجه الفتى، أخافَه المنظرُ أكثرَ من السّؤال، لم يسمعْ منه جوابًا، كانَ مرقُس قد خرج، هتفَ به: «أنا بولُس يا مرقس؛ هل تسمحُ لي بمقابلة بُطرس». كانَ الشّكُ والصّدمة قد ابتلَعا لِسان مرقس، لكنّه تفرّسَ في وجهه جيّدًا، وركّزَ نظره على الجفنَين المُنتفخَين الحمراوَين: «أنتَ شاؤول؟!». قالَها باستِنكار، ثُمّ أتبع: «ما الّذي جاءَ بِكَ، ماذا تريد، لقد ارتَحنا من شرّكَ ثلاثَ سنين، كانَ غيابُكَ بلسمًا على قلوبِنا، فلماذا غدتَ للظّهور مرّةً أخرى!!». «غدتُ تائِبًا». «تائِبًا؟!». «نعم؛ ألم يقبلِ المسيح توبةَ الزّناةِ والعُصاةِ والخَطأة واللّصوص، عُدّنِي أحدَ هذه الأصناف، وأنا جئتُ لأفتحَ لكم وللمسيحِ قلبي». «لا أدري يا شاؤول...». «صار اسمي بولُس أيّها الأخ الحبيب... ألا يُمكن أن تدعُوَني للانضِمام إليكم؟!». «هذا الأمر يُقرّره المعلّم». كانَ بُطرُس قد خرجَ يستطلعُ الأمر بعدَ أن انتظر عودة مُرقُس، ظهر من خلفِ أكتافِه، ضَيّقَ عينَيه حينَ وقعتْ عيناه على بولس، اندفعَ نحوه يُريدُ أن يُوقِعَ به: «ها أنتَ أيّها الشّيطانُ من جديد». جثا بولس على قدمَيه، تلقّى اندِفاعةَ بطرس بصدره، وأحاطَ ساقَيه بذراعَيه، وهتف: «لقد أتيتُ نادِمًا». ثُمّ راحَ يبكي بصوتٍ عالٍ. امتصّ فِعلُه هذا غضبَ بطرس فوقفَ مُحتارًا، مرّتْ بباله أيّام الاضطِهاد والسّجن والتّعذيب الّتي نكّل بها شاؤول بأتباع المسيح، فزفر: «تبدُو كأنّكَ قادِمٌ من الجحيم يا شاؤول، ما الّذي ذكّركَ بِنا؟!». «المسيح أيّها المُعلّم، لقد ملأَ قلبي بالرّحمة». «وهل

الرّحمةُ عندَكَ تعني قَطْعَ الرّؤوس، وحَرقَ الأجساد، ودفنَ الأسرى وهم أحياء أيّها الخبيث؟!!». «كلاّ يا أخي... لقد كانَ هذا فيما مضى. لكنّني..» ثُمّ غلبه البُكاء فتوقّف، كانَتْ ذراعاه لا تزالان تُحيطانِ بساقَي بطرس في تذلُّلٍ وانكِسار. عاودَ الحديث: «لكنّني اليومَ إنسانٌ آخَر. لقد ظهرَ لي المسيح وأنا في طريقي إلى الشّام و...». قاطَعه بُطرُس: «توقّف أيّها الأفّاك، هل تعني ما تقول.. كيفَ يظهرُ الملاك لشيطانٍ مثلك؟!». «أُقسِمُ بربّ المسيح أنّي رأيتُه..» ثُمّ أحنى بوجهه وراحَ يُقبّلُ قدَمَي بطرس وهو يشهقُ بالبكاء. كانت الدّموع تنهمر على ظاهر القدم، فتسري فيها الحرارة، نفضَ بُطرُس قدمَيه، ابتعدَ إلى الوراء، تطلّعَ إليه شاؤول من الأسفل. قال له بُطرس وهو يُعطيه ظهره: «تعالَ، يُمكنني أنْ أسمعَ بقيّةَ القِصّةِ منكَ في الدّاخل».

في الليلِ خلا البيتُ من التّلاميذ، نامَ بولس في حجرةٍ، ونامَ بطرس ومرقس في حجرةٍ أخرى، قال له مرقس: «كيفَ تُصدّقهُ أيّها المُعلّم، هل نسيتَ ما فعله بكَ وبالآخرين؟!». «لم أُصدِّقه يا مرقس؛ تبدو قِصّته مُختلَقة، من المُؤكّد أنّه تدرّب على سَردِها بشكلٍ جيّدٍ، ولكنْ ماذا نفعل مع إنسانٍ كانَ أعلى شلطةٍ دينيّة عندَ اليهود، وتركَ اليهوديّة المُنحرِفة، وجاءَ ليُؤمنَ بالمسيح، هل نستطيعُ أنْ نردّ إنسانًا كهذا؛ لو كانَ المسيحُ بيننا فهل تُراه سيردّ إنسانًا مثلَه؟!». «لو كانَ المسيحُ حاضِرًا لَما استطاعَ هذا الدّعيّ أنْ يختلقَ هذه الأكاذيب أمامه يا سيّدي». «دَعْنا نقبله يا مرقس، لكنْ على أنْ نكونَ حَذِرين». «بالنّسبة لي أيّها المُعلّم أنا مُتأكّدٌ أنّه جاءَ لغايةٍ ما». «ماذا يُمكن أن تكونَ يا مرقس؟!». «لا أدري؛ قد يكونُ جاءَ لقتلِك، أو لتسميم أفكار المسيح، أو لمعرفةِ مَنْ يُؤمن من النّاس ليسهُلَ عليه إلقاء القبضِ

عليهم». «لن يغيبَ عن المدينة ثلاث سنوات ويأتي بعدها ليلقي القبضَ على المؤمنين، غير معقولٍ هذا! دَعْنا نراقبه يا مرقس، أقواله ستكشفه، الإنسانُ لا يُمكن أن يختبِئَ خلفَ لسانِه طويلاً، لا يُظهِر الخبايا وما انطوتْ عليه النفوس من طبائع مثلُ اللّسان». هَزَّ مرقس كتفَيه علامة عدمِ الرّضا، لكنّه سكَتَ أمام مُعلّمه. طال أوانُ العتمة. قالت لهم اللّحظات الأخيرة: «ناما؛ في الصّباح ينجلي غُبار اللّيل».

استيقظَ بُطرس فوجد بولس تحتَ قدَمَيه مُقرفِصًا بهيئة الخادم وفي يده إناءٌ مملوءٌ ماءً، نهضَ بطرس فاستوى في الفراش، قال له بولس: «اسمح لي يا سيّدي». ثُمّ رفع الرِّدَاءَ عن رِجلَيه وراحَ يُغسِّلُ قَدَمَيه، هَمّ بطرس أنْ يتراجَع، لكنْ بولس شدّ على قدمه اليُمنَى ونظر في عينَيه مُتوسّلاً: «ألمْ يفعل المسيح لكم ذلك في العشاء الأخير؟! امنحْني هذا الشّرفَ يا سيّدي». جمجمَ بُطرُس لكنّه استسلَم للأمر، حينَ لبسَ ثيابَه هو ومرقس، كانت حجرةُ الطّعام الصّغيرة قد أُعِدّتْ بأصنافٍ شَتّى مِمّا يُشتَهَى، قال بولس: «أعددتُها لكم بنفسي، شعوري وأنا أخدمُ رُسُلَ الرّب لا يوصَف، أنا ممتنٌّ لكم إذا جعلتموني ثالثَكم، أخدمكم وأبشّر بدعوةِ المسيح معكم». نَظَرَ بطرس إلى مرقس، ظَلاّ صامِتَين، كانت طُيُور الشّك ما زالت تواصل التّحليق في سماءِ قلبَيهما!!

سأله بطرس: «يا بولس، ما أخبارُ غالامائيل؟!». أجابه: «هذا الكافر اللّعين، الّذي يُجدّفُ على الرّبّ، ويعدّ المسيح يهوديًا ضالاً، لا تنطق اسمَه أمامي، لقد قطعتُ كُلّ صِلَةٍ لي به». «ولكنّه ظلّ معلّمك لسنواتٍ طويلةٍ يا بولس!!». «إنّها سنوات الضّلالِ يا سيّدي، ومُذ ظهر لي المسيح في بادية الشّام عرفتُ الحقّ من الباطل، لقد

ملأ المسيح قلبي بالحكمة، وتعلّمتُ منه في ذلك اليوم ما لم أتعلّمْ من غالامائيل في عشرات السنين». «ماذا تقصد يا بولس؟!». «لقد تلقّيتُ عنه إنجيلاً». «حقًّا؟!». «إنجيلاً يدعوني أن أكرزَ ببشارته إلى أناسٍ يعيشون خلفَ البحار». «وهل جلسَ إليكَ وحدّثَكَ وعلّمكَ الإنجيل يا بولس!!». «كلاّ يا سيّدي، لقد وعيتُه بقلبي». همسَ مرقس في أذن بطرس: «قلبُه ظلّ أسودَ فاحِمًا طوال المدّة الّتي عرفناه بها، ولا ندري كيفَ نشأ، قل بالله عليك يا معلّمي كيفَ ينفتح قلبُه لتعاليم السّماء؛ إنّه مُخادِع، أنا لستُ مرتاحًا إليهِ أبدًا». نظرَ إليهما بولس نظرةً سابرة، زَمّ شفتَيه سريعًا، ثُمّ فردهما في ابتِسامةٍ هادِئة، وهتف: «تَفَضّلا يا سيّدي، لقد أعددتُ لكما هذا الطّعامَ الشّهيّ بنفسي، استيقظتُ من الفجر ونزلتُ إلى السّوق، وابتعتُ كُلّ ما يُعينُكما على أنْ تُكمِلا مَهَمّتكما الرّسوليّة، تفضّلا يا سيّدي؛ حتّى لا يبردَ الحليبُ الّذي حلبتُه بيديّ هاتَين من إحدى معاز الفلاّحين لكي أحظَى بشرفِ خِدمتكما... تفضّلا». جلس ثلاثتهم إلى المائدة، كان قلبُ بطرس مثل حبّة خوخٍ ناضِجة ينقرها ألفُ عصفورٍ في اللّحظةِ نفسِها، قال له: «كيفَ تركتَ كرسيّ الحبر الأعظم يا بولس؟!». «كرسيّ خِدمة الربّ أعظم يا سيّدي». «وجبال الأموال الّي كان يُدرّها عليكَ ذلك المنصب؟!». «خسرتُها لأربحَ نفسي، وبِعتُها في سبيل أنْ أحظَى بالملكوت مع المسيح، ألم يقلْ: إِنّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي يَجِدُهَا. لأَنّهُ مَاذَا يَنْتَفِعُ الإِنْسَانُ لَوْ رَبحَ الْعَالَمَ كُلّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ» مالَ بطرس إلى مرقس، وهمسَ في أذنه: «كيفَ يعرفُ هذا القولَ للمسيح ولم يره ولم يصحبه ولم يجلس إلى أيٍّ من تلاميذه؟! إنّه أمرٌ محيّرٌ يا مرقس». «كلاّ يا سيّدي، أعتقدُ أنّه

كان يعرفُ بأمر المسيح منذُ بدأ دعوته لكنّه كان مُتوارِيًا عن الأنظار، ثُمّ إذا كان أمرُ المسيح يهمّه فستجده يتسقّط خلفَه كلّ مقولةٍ يقولُها فيسجّلها، ثُمّ إنّه يفعل ذلك من أجلِ أنْ يُقنِعنا بُحبّه للمسيح!!».

اعتدلَ بطرس بقامته، وظهرتِ الجدّيّة على ملامحه، قال: «اسمع يا بولس؛ تاريخُكَ مع تلاميذ المسيح يجعل أيّ مسيحيّ ترتجفُ أوصاله لمجرّد ذِكر اسمِكَ أمامه، وأنا واحِدٌ من هؤلاء، وحتّى أكونَ معكَ واضِحًا أنا لستُ مرتاحًا لكَ ولا إلى التّعامل معك، صحيحٌ أنّ المسيحَ قال لنا أحبّوا أعداءَكم وبارِكوا لاعِنيكُم، ولكنّ المسيح الّذي قال هذه المقولة الخالِدة هو نفسه المسيح الّذي أراه يقول لي: احذر من هذا الرّجل، إنّه ذئبٌ في هيئةِ إنسانٍ... أنا واضحٌ معكَ يا بولس، قلبي يقول إنّكَ أفعى تحاول أن تتسلّل إلى حضنِ الدّعوة المسيحيّة حتّى إذا أحاطَكَ دِفئُها وحنانُها من كلّ جهة نهشتَها بأنيابِك ونفثتَ فيها من سُمّك... صدّقْني يا بولس إنّني أحاول أنْ أتفهمَ موقفك، أحاول بكلّ صدقٍ أن أفتحَ قلبي لكَ... لكنّني لم أنجح في ذلك... ولهذا اسمعْني جيّدًا: أنا لا أحملُ ضِدّكَ أيّ ضغينةٍ، لكنّني لا أستطيعُ أنْ أجعلكَ ترافقنا في مسيرتنا، ولا أن تعيشَ بينَنا، بلادُ الله واسِعة، اذهبْ وصاحبْ من شئت، وسافر إلى أيّ مكانٍ أردت؛ في بيتي وفي قلبي لا مَكانَ لك». ثُمّ جلس بعدَ أنْ قال العبارةَ الأخيرة بشكلٍ مُؤثّر.

أطرقَ بولس برأسه، كان يبدو مُنهارًا تمامًا، ثُمّ رفع رأسَه قليلاً دونَ أنْ ينظرَ في عينَي بطرس: «أنا حزينٌ جِدًّا يا سيّدي أنْ أسمعَ هذا الكلام، كانَ المسيحُ أوسعَ قلبًا منكم، تظنّون أنّكم تعرفونه؟! ربّما؛ لكنّني أعرفُه أكثرَ منكم، بل أكثر من كلّ حوارِيّيه، أنتَ يا سيّدي أكثرُ تلامذته الّذين تعرّضوا للومِه وتأنيبه، لو عِشتُ بينَكم لكنتُ أقربَكم

إليه، لكنّ الرّبّ لم يفتح قلبي للإيمان به إلاّ بعدَ حينٍ، ليسَ ذنبي يا سيّدي؛ المواقيث كُلّها بيده وحده، أنا الآنَ أحاول أنْ أسبقكم إلى رِضوانه، وإلى محبّته، وإلى الفوز بصحبته يومَ يهبط ويومَ يقوم ويومَ يفتح الله مملكته الأبديّة للمؤمنين؛ ماذا أقول لك يا سيّدي، أنا أحبّكَ وأحبّ التّلاميذ كُلّهم، وقلبي يقطر أسًى على اليومِ الّذي قتلتُ فيه إستِفانوس ويعقوب واستعنتُ بسلطة الرّومان على ذلك، لكنّ الله الّذي خلقنا جميعًا فتحَ لنا باب العودة والأمان، أمّا البشر الّذين يزعمون أنّهم يملكون مفاتيح الرّحمة، فإنّهم لا يرحمون بعضَهم بعضًا، بل ينتظرون الفرصة المُناسِبَة لإنشابِ النّاب في جسدِ الأخ والشّقيق، وأنا لا ألومهم؛ لماذا ألومهم وقد كنتُ في يومٍ من الأيّامِ أحدَ هؤلاءِ القُساة، لكنّني لو كنتُ مُتنوّرًا ومملوءًا بحكمةِ الرّبّ، لفتحتُ الباب للرّاجعين إلى الله ولم أغلقه أبدًا؛ ماذا أفعلُ لكَ يا سيّدي إذا كانَ مِفتاحُ قلبِكَ ليس بيدي ولا بيدك ولا بيدِ أيّ أحدٍ من البشر؛ لكنّني سأصلّي لله كي يمنحكَ الرّحمةَ فتفتحَ قلبَك لي وأدخل إليه، ونصبحَ إخوةً نعملُ معًا لهدفٍ واحدٍ، ويشدُّ بعضُنا أزرَ بعضٍ حتّى تبلغَ دعوةُ المسيح ما بينَ المشرقَين». قال عباراته الأخيرة بحنوّ وبصدقٍ حتّى إنّ عينَي بطرس دَمِعَتا، أمّا مرقس، فكان يهزّ رأسه يمينًا وشِمالاً مُنكِرًا أن يكونَ بولس يتكلّم بلسانِ قلبِه، بل إنّ الشّيطان هو الّذي يُلقّنه الكَلِمات.

على الباب قال له مرقس: «لو كانَ في قلبِكَ إيمانٌ فلا تُرِنا وجهَكَ بعدَ اليوم». ردّ عليه: «مسكينٌ أنتَ أيّها الفتى، لو اتّبعتَني لنقشتُ اسمَكَ في الخالِدين. هل رأيتَ المسيحَ في حياتِك؟! كلاّ؛ أنا رأيتُه، وسمِعتُ منه دونَ أنْ يعرف أو يعرفَ أحدٌ من تلامذته. هل عرفتَ

علم الأوّلين والآخرين؟! كلّا؛ كم عمرك؟! عشرون عامًا. حسنًا أنا قضيت أكثرَ من هذا العُمر فقط وأنا أتلقّى العِلم عن الأساطين. ومَن أساتذتي؟! إنّه يفوقون النّبيّين في المعرفة؛ كانَ المسيحُ أحدَهم، لكنّهم كثيرون، بعضُهم لا ينتمون إلى عالَم البشر يا صغيري؛ لا تكنْ أحمقَ يا مرقُس، ما لديّ من العِلم يُخلّدني ويستبقي ذِكري؛ إنْ أردتَ أنْ تتخلّى عن طفولتِك وتعرفَ معنى أنْ يؤثّر الدّين في الشّعوب فاتبعني». ثُمّ تركه دونَ أن يسمعَ منه رَدًّا!!

٩٢

ستكونُ أنتَ الصَّخرة، وأنتَ الكنيسة، وأنـــتَ الدِّيـن، وأنـــتَ التّــاريـــخ كُلّـه

في الخارج كانَ الصّباحُ في أوّله، لم يتقاطر التّلاميذ إلى بيت مرقس بعدُ، والنّسماتُ أرقّ ما يكون، ولم تكنِ الشّمسُ قد اعتلتْ عرشَها بالكامل، بل كانتْ في أوّلِ زَحْفِها إليه، تنفّسَ هواءَ أورشليم فامتلأ بالحبور، نَظَرَ جهةَ المعبَد، هَمّ بأنْ يذهبَ إليه ويلتقي سيّدَ المعبدِ الأوّل شيمون، تذكّر ما قاله له يهوذا من أنّ عليه أنْ يُنكِرَ الجميع، ويتنكّبَ لماضِيه فقطّبَ جبينَه، أدركَ أنّ تحقيق الأمنيات يتعارض مع الانصِياع للرّغبات، فأزالَ تقطيبَته، سَمِعَ صوتَ يهوذا يُنادِيه، كان الصّوتُ أقربَ إلى الصّدى كأنّه آتٍ من الجهةِ الشّماليّة، تلفّتَ إلى تلكَ الجِهة فلم يرَ شيئًا، لكنّ الصّوتَ ناداه من جديدٍ، وافِني في المكانِ الّذي تركتُكَ فيه.

مرّ النّهار، حتّى إذا وَفَدَ اللّيل، وكانَ القمرُ يُسقِطُ أشعّته الفضّية النّاعِمة على ذرّات الصّحراء الجامِدة، الخالِية من كلّ شيءٍ، وجدَ نفسَه وحيدًا، انتظَر برهةً، جالَ ببصره في المكانِ الفسيح، تخيّل أنّ الدّنيا كلّها قامتْ في هذا المكان ثمّ طافَ بها الموتُ فعصفَ بأهلِها، فالتقمهم التقام الحوت ليونان، فلم تعد ترى لهم من باقِية. أغمضَ عينَيه، ومدّ أنفَه، تخيّلَ الغابةَ، والذّئاب، والصّيّاد، والثّلج، والأشجار العالِية، والعواصف، ثمّ هتف: «مَنْ صنع ذاك صنع هذا». تشمّم بأنفِه الذّرات، ارتسمتْ في مخيّلته هيئة يهوذا، مرّتْ نسمةٌ عابرةٌ بقربه، أحسّ بالفعل أنّه هو، فتح عينَيه فصُعِق. رأى مخلوقًا لم يرَ مثلَه

في حياتِه، كانَ أقربَ إلى ذئبٍ عِملاق، اتسعت حدَقَتا عَينَيه وهو يراه يفتح فمه في حركةٍ ترحيبيّة أبرزتْ أنيابًا بطول كفّه تُشبه أنيابَ الفيل، تراجَعَ إلى الوراء. سقط على مؤخّرته، زحفَ أكثر على راحةِ يدَيه، حفر الأرض وهو يتّكِئ بقوّة على كفّيه ويضرب الأرضَ بقدَمَيه في حركةٍ تبادليّة ليستمرّ في الرّجوع إلى الوراء. لكنّه بعد مسافةٍ كافيةٍ توقّف. اقتربَ منه الّذي يُشبه عشرةَ دِبَبة مُجتمعين، كانَ يمشي على ساقَين تُشبِهان ساقَي البشر، لكنّ الأقدام كانت تُشبِه أخفاف الإبل، وأيّةُ إبلٍ لها أخفاف بهذا الحجم، إنّها أكبر من رأسِ الثّور... حينَ فصلت بينَهما مسافةٌ قليلةٌ، عاينَ بنفسِه كيفَ يُمكنُ للشّعر أنْ يكونَ غابةً كثيفةً يُغطّي كلّ صدره، ويتكاثَف مُنسدِلاً عندَ عورته، ويُخفي كلّ ظهره، ولا يُبدي من ذراعَيه سوى الأكفّ، كان الشّعر كثيفًا وناعِمًا، ويتأرجح فوقَ أعضاءِ جسده كلّما تقدّمَ خابِطًا الأرضَ بخُطواته، أو تحرّكَ في مكانه. عاودَ بولس التّقهقر إلى الوراء، ظلّ الخوفُ حاضِرًا، لكنّه بدأ يتراجع، شيءٌ ما قال له إنّه أحدُ المُتجدّدين، وإنّه رَسول؛ وكلّ رسولٍ آتٍ برسالة، وصادِرٌ عن مركزٍ؛ فما رِسالةُ هذا المخلوق، وما مركزه!! كانت أقدامُ الأنفاسِ اللاهثة في صدر بولس قد بدأت تتباطأ، ووقْعُها بدأ يخفّ. قال المخلوق وهو لا يَزالُ قائِمًا: «لا تخفْ، أنا رَسولُ يَهوذا إليك». حطّمتِ المفاجأة صُدغَ بولس، هتفَ في أعماقه: «إنّ هذه الدّابّة تتكلّم». ازداد حيرةً. أعادت على مسامعه: «الوقتُ عدوُّ الغاية. تخلّص من مخاوفك بالنّظر إلى شَرَفِ الغاية». حاول أن يقفَ على قدَمَيه فلم يُطاوِعاه، كانتا قد ارتختا بالكامل من هول المُفاجأة، هتفَ من جديدٍ في سِرّه: «إنّها مُتحدّثة، وتمتلك الحكمة». هبطت الدّابّةُ من عليائها، وصارَ وجهها

ذو الجلدِ الأسودِ السّميك في مستوى وجه بولس، عاوده الرّعب من جديد، لكنّه حينَ التقتْ عيناهُ بعينَيها أحسّ براحةٍ غريبة، شعر بهما؛ إنّهما تُشبِهانه، إنّهما تقولان كثيرًا دونَ أن تنطِقا، وتحمِلانِ أسرارًا وخَبايا. حدّثَ نفسه: «لقد رأيتُ هاتين العينَين سابِقًا... نعم، لقد رأيتُهما... تبدوان أليفتَين كأنّهما عيناي، أو كأنّهما قد عاشتا في شِعابِ روحي... أيّ زمنٍ هذا الّذي قذفَ بهما من الأعماقِ إلى السّطح!!». صَمَت. أغمضَ عينَيه لحظة، حاول أنْ يتذكّر. قفزتْ عينا البدويّ الملثّم إلى الذّاكرة في لحظةٍ خاطِفة؛ اتّقدتِ النّارُ البعيدةُ في البُؤبُؤَين، صرخ دونَ وعي: «أنتَ هو!!!». لم يقل المخلوق العملاقُ شيئًا. اكتفى بمحاولة الابتِسام الّتي خرجتْ في شكلِ تكشيرةٍ، قرقَص كأنّه غوريلاّ. طرفتْ عيناه. أدار رأسه جهةً بعيدةً عن بولس. نفثَ نفثةً كأنّها شهيقُ نارٍ مخنوقة. أطرقَ. اقتربَ أكثر. انكمش. قال له: «ظهري مُذلّلٌ لَك، سأذهبُ بكَ إلى يهوذا. بعضُ الأسرار لا يحتملها القلب. يلفظها ليس لأنّه لا يريدُها، بل لأنّ الكأس لا يُمكن أن تتّسع لماء البحر، وإنْ كانَ شيءٌ فيها منه». مرّتْ لحظات صمت. لم يعقّب بولس بشيء. نهضَ هذه المرّة على قدميه. قالتْ له الدّابّة: «سأحملك. هيّا».

على مكانٍ لا يعرفه بولس. ولم يره في حياته. وليسَ متأكّدًا من أنّه فوقَ كوكبِ الأرض، كانت الدّابّة قد وقفتْ على رأسِ قمّة من جبلٍ يرتفع كأنّه شُعَبُ مِذراة، وحوله مئات الجبال الّتي ترتفعُ بالطّريقةِ نفسِها. والفضاء لم يكنْ فيه إلاّ قبّة أرجوانيّة ظنّ بولس أنّها السّماء، لكنّه ليسَ متأكّدًا من شيءٍ ألبتّة. أمّا الوِديان فكانتْ سحيقةً جدًّا، غائرةً أبدًا، ذاهبةً في العمق حتّى لا يُمكنُ لبشريٍ

يملك عينَي صقرٍ أنْ يرى نهايَتها، لم يكنْ يُرى إلا السّواد يُغلّف كلّ وادٍ ينعرج حول مجموعةٍ من الجِبال. أمّا الوقت فلم يكنْ نهارًا ولا ليلاً، لم يكنْ نهارًا لأنّه لم تُرَ فيه شمسٌ، ولم يكنْ ليلاً لأنّه لم يُرَ فيه قمرٌ أو نجمٌ، ولأنّ العينَ كانَ بإمكانِها أنْ ترى في السّديم الّذي يتشكلّ ضبابًا قريبًا من الحمرة بعضَ الموجودات. «أيَن أخذتِني أيّتها الدّابّة؟!» تجرّأ هذه المرّة ليسألها. أجابَته: «ضمِنتُ لكَ العيشَ في الكهفِ ثلاثَ سنين، فأنا أضمنُ لكَ العيشَ خارجَ الزّمانِ والمكانِ إلى الأبدِ هُنا، لكنّ مهمّتي تقتصرُ على شيءٍ واحِدٍ؛ أنْ أوصِلكَ إلى يَهوذا». أعجبتْه الإجابة، وجدَ فيها نوعًا من التّكريم له، هذا المخلوق العجيب بقدراته الفائقة بدا أنّه خادِمَه الّذي يأخذُ أشكالاً متعدّدةً في كلّ مرّة، شجّعه هذا الشّعور على أنْ يسأل: «ألم تكنْ تأتينا بالحليب والتّمر واللّحم والماءِ في الكهف؟!». «بلى!!». «أمّا التّمر والماءُ فمعروفان، لكنّني أسألكَ عن الحليب واللّحم». «عنْ أيّ شيءٍ فيهما تسأل؟!». «عن مصدرهما؟!». «ولِمَ؟!». «لأنّني لم أشربْ منذُ صغري حليبًا طبيعيًّا قَطّ، ولم آكُلْ لحمًا طبيعيًّا كذلك». «وستبقَى على هذه الحال إلى أنْ تفنَى». هَمّ أنْ يُكرّرَ عليه السّؤال، لكنّ عينَي المخلوق أمرتاه بالتّوقف. كتمَ أنفاسَه. وأعادَ التّجوالَ بعينَيه في المكان. هبّتْ رِياحٌ قويّة، شعرَ بأنّها تكادُ تقتلعه من مكانه، نظرَ إلى شَعر الدّابّة فرآه يتطاير مع اتّجاه الرّيح، فينكشفُ عن جسدٍ مُشوّهٍ قبيحٍ ذي جلدٍ زهريٍّ سميك ممتلئٍ ببثورٍ كبيرةٍ. انسحبَ بعينَيه بعيدًا. هدأتِ الرّيح. كلّ شيءٍ هنا يُشعِر بالوحشة. لا أحد. لا شجرَ ولا بشر ولا حيوانَ ولا طير... فقط قِممٌ لا تنتهي تنتصب بعجرفةٍ واضحة. وتصمتُ صمتَ أعماقِ البِحار. مرّتْ لحظَاتٌ ساكِنة. كانت الدّابّة أو البدويّ قد قامَ من

مكانه وانتحى جهةً بعيدةً جلسَ مُقرفِصًا رافِعًا ساقَيه الضّخمتَين إلى صدره ودافِنًا رأسَه الثّوريّ ومُهمهِمًا بكلماتٍ غيرِ مفهومة. اقتربَ منه بولس. كانَتْ هيئة جلوسه تدلّ على شجًى عميق؛ إنّه حُزنٌ من النّوع الّذي يحتلّ مشاعركَ فجأة، جلسَ إلى جانبه، بدا قِطًّا أليفًا يجلسُ بجانبِ سبعٍ متوحّش. قالَ له: «أينَ يهوذا؟!». أجابَه مادًّا إصبعه دون أن يرفع رأسه: «هُناكَ». وأشارَ إلى الوادي. تابعَ: «وسيظهرُ قريبًا. اصمتْ». ظلّ بولس مُحدِقًا في العتمةِ الكثيفة، برزَ له بعدَ فترةٍ من التّحديق رأسٌ يعرفُها حقّ المعرفة، كانتْ تقطرُ ماءً، واصلَ الجسدُ بروزه من وادي العتمة، حتّى استوى واقِفًا أمامهما، قفزَ بولسُ على رجليه، احتضنَ يهوذا بينَ ذراعَيه، كانتْ ثِيابُه كلُّها مُبلّلةً بالماء، بلّلَ بدوره الماءُ ثِيابَه، شعرَ بالرّاحة. ضحك؛ قال: «من أينَ أتيتَ يا أخي؟! هل كنتَ تعيشُ في الماء؟!». أجابَه: «نعم. أنا أعيشُ هناكَ في تلكَ الجزيرة». وأشارَ بأصابِعه جهةَ الجنوب: «هُناكَ يا أخي. هُناكَ حتّى يأتيَ يومِي». التفتَ مرّةً أخرى إلى المخلوق العجيب: «وهذا يأتيني هو والغُراب بالأخبار». وضعَ يده على كتِفه، وجدا لهما مكانًا يجلِسان عليه، سأله يهوذا: «حتّى الآن يا بولس لم تدخل قلبَ بطرس؟!». «حاولتُ، واستخدمتُ كلّ مهاراتي، لكنّني فشلت». ردّ عليه بحِدّة كأنّما يُعلّمه: «مَنْ أيقنَ بالفشلِ باءَ به؛ النّصرُ يُنتزَع ولا يُعطَى، والماضون في الدّربِ لا يعُدّون طُولَها وإلاّ تَعِبوا، والدُّنيا لِمن غَلَب!!». أطرقَ بولُس برأسه، وقال: «ولكنّني نِمتُ تحتَ قدمَيه، وغسلتُهما، وفرشتُ خَدّيّ موطِئًا لهما». «ذلكَ جَيّدٌ ولكنّه غيرُ كافٍ، نحنُ نعملُ لِما بعدَ بطرُس ومرقُس وبرنابا والمجدليّة ويوحنّا... والبقيّة؛ هؤلاء مرحلة عابرة، سرعان ما تنقضي، لكنّهم

مرحلةٌ لا يُمكن الانتِقال إلى ما بعدَها دونَ اجتِيازِها، نحنُ نعملُ حتّى يظهرَ فينا المُخلِّص الأكبر، ولسنا فُرادَى، ولسنا مُجتمِعين، كُلُّ فارسٍ مِنّا يُسلِّمُ الرّايةَ لِمَن بعده، فينا المُتجدِّدون، وفينا خالِدٌ واحِدٌ بدأ القتلَ فوقَ الأرض، ثُمّ وَرِثَه أبناؤه حتّى جاءَ نوح، فلمّا جاءَ الأخير، عَصاهُ أحدُ أبنائه وأحدُ أحفادِه، أغرقَ الله الابنَ وأبقَى على الحفيد، والحفيدُ مِمّن استثناهُم القدير من الموت، لكنّه كانَ كأبيه، وُلِدَ ليتحدّى قدر الصّانِع، فجعله الله مِثالاً لقدرته على هيئةٍ بشريّةٍ، وأعطاهُ القُدرةَ على أنْ يمنحَ شيئًا من روحِه للمؤمنين به، وأنا أحدهم، وسيجيءُ غيري، وحينَ أرحل، يغوصُ جسدي في الثّرى وتعودُ روحي إليه، لقد أبقَى الله إلى اليومِ الموعودِ عددًا من خَلقِه، أنا أعرفُ أنّهم كُثُر، لكنّ الله أخفَى عددهم وأسماءَهم وأعيانَهم عن قلوبِ البشر وعيونهم، إنّما هنالك اثنانِ من الّذين سيعيشون أعمارًا أطولَ من أعمار البشر كلّهم، ويُمثّل كُلّ واحدٍ منهما النّقيضَ للآخر من هؤلاءِ المُنظَرين، وسيتقابَلانِ في آخِرِ الزّمان، وقد أُعطِيَ بعضُ البشر فضيلة أنْ يختارَ إلى أيٍّ منهما سينحاز، وأنا وأنتَ اخترنا أنْ ننحازَ إلى صاحبِ القُوّة، لأنّنا خُلِقنا بقلوبٍ لا تعترفُ بغير القُوّة... أأدركتَ الآنَ يا أخي ما الّذي يجمعنا، وما الّذي جعلني أغرّدُ خارجَ السّربِ الّذي غَرّدَ فيه يسوع النّاصريّ؟!!». سكتَ برهةً، كانَ الصّمتُ يُخيّم على الكونِ بأجمِعه، حتّى الدّابّة المُشعَرة نكّستْ رأسَها وبدتْ حيوانًا يائِسًا. لم ينبِسْ بولس بكلمةٍ بعد أنْ سمع ما قاله يهوذا، شعرَ أنّه لَخّصَ غايتَه في الحياة، ولم يعُدْ لديه من هدفٍ إلاّ أنْ يَبلغ الغاية. تابَع يهوذا توجيهاته: «طريقُكَ طويلةٌ يا أخي، لكنّها ستنتهي بأفضل ما ستنتهي به حياتي، ولذلك اختارَكَ المُخلِّص

الأكبر لتحملَ مَجدَه. أنا سأتركُ الكونَ الصَغير الّذي تقاسمتُ فيه الحياةَ الاستثنائيّة مع يسوع، وسأهبكَ قلبي، وستعودُ روحي إليه، حسبي من حياتي أنّني عِشتُها كما أريد أنا، لا كما يُريدُ يسوع، كلُّ أتباعِه كانوا منزوعي الإرادة عاشوا كما أرادَ هو لهم لا كما أرادوا هم لأنفسهم، كانوا ضعيفي القلوب، خائري العَزم، يُلقون برؤوسهم كالنّعام على صُدروهم وهم يستمعون إليه، لم أُصادِف واحِدًا منهم حاوره، أعني حاوره في المشيئة الإلهية، في الأقدار الكُبرَى، في المُستقبَل الغامض، في النّهايات الوشيكة، لا كما كان يعترض عليه بُطرُس بغباء، ويتصرّف بحماقة، تعرف يا بولس لو طالَ بي الزّمن لقتلتُه، لكنّه الآنَ أهمُّ واحِدٍ فيهم، لأنّه وريثُه الشّرعيّ، تخيّلْ لم يجد يسوع سِواه لينتقيه ويُسمّيه الصّخرة!! أكانَ يسوع أعمى حتّى لا يَرى سِواه!! لا لمْ يكنْ كذلك، لكنّه أرادَ أن يُحرّره، ويُعطيه شيئًا من سُلطتِه المُطلَقة؛ إنّها السّلطةُ المُقدّسة تلكَ الّتي تجعل الوضيع يتبوّأُ مكانًا رفيعًا!! وفي الحقيقة عقلُه أقلّ نضوجًا من عقلِ الصّخرة. وماذا أيضًا!! لقد طلبَ منه أن يرعَى خِرافه، بالطّبع كلّهم خِراف، وكلّهم سيُسَمّنون للذّبح، سيقودون أنفسهم إلى المحرقة فوقَ صخرته!! لا بأسَ يا بولس، وهبتكَ روحي فإيّاكَ من اليأس؛ اليأسُ يعني الهزيمة؛ أمعقولٌ أنْ تنهزم بهذه السهولة أمام أُمّيّ وأنتَ الّذي عندهُ عِلمُ الكتاب؟!! مزيدًا من الصّبر أرجوك، مزيدًا من التّذلّل يا أخي، إنّه صخرتُنا نحنُ أيضًا لِنُنشِئَ فوقَها لهم دينَهم الجديد، ونؤسّس مَسِيحيّتهم القادِمة!!». مرّتْ برهةُ صمتٍ رتيبة قبلَ أن يفوه بولس: «يبدو أنّ مهمّتي ليستْ سَهلة!!». «ومنْ قال لك إنّنا ننتقي رِجالَنا لمهمّاتٍ سَهلة؟!». «وشائِكة؟!». «وربّما أصبحتْ عسيرةً الآن، وتحتاجُ

منكَ إلى تخطيطٍ بقلب جدّ صبور». «لم أفهم!!». أشارَ يهوذا بيده إلى الدّابة إشارةً خاصّة، فاقتربتْ منهما، وناولتْ يهوذا رَقًّا، ناوله بدوره لبولس: «إنّها رسالةٌ من المجدليّة، لا أدري إنْ بعثتْها لي وحدي، أم أنّها بعثتْها إلى الرّسلِ الآخَرين، ستكتشف أنتَ ذلك من خلال علاقتهم بِكَ في قادم الأيّام، لكنِ افترضِ الأسوأ؛ افترض أنّها وصلتْ إليهم، حينَها عليكَ أن تملكَ إجاباتٍ جاهزةً لكلّ أسئلتهم وتشكّكاتهم، وعليكَ أنْ تتحمّل كُرهَهم لكَ، وربّما سلاطةَ ألسنتهم... هَيّا اقرأها؛ إنّها الرّسالةُ الأخيرة الّتي ستصلني؛ بعدها سأغيبُ عن هذا العالَم، لو كتبتِ المجدليّةُ لي أيّ رسالةٍ بعدها، فسيلقيها الغراب إلى المُنتَظِر، في تلك الجزيرة، منْ يعثر عليها في الجزيرةِ ذاتَ يومٍ فسيجد كلّ رسائِلها مُكوّمةً هناك تحتَ قدمَيه، إنّها تكتبُ على رقوقٍ من الجِلد، ولهذا لن يُصيبَها التّلف... وأمّا يسوع نفسه فيعرفُ كلّ هذا، إنّه يُدرك كلّ ما يجري على الأرضِ بعدَ أنْ صارَ في السّماء، أعطاهُ الله قدرةَ المشاهدة، لكنّه نزعَ منه قُدرةَ التّدخّل في الأمر حتّى يحينَ يومُه هُو الآخَر... والآنَ اقرأ الرّسالةَ يا بولس؛ اقرأها...».

«العزيز يهوذا... لقد شاعَ بينَ الرّسل أمرُ هذا الدّعيّ شاؤول، أتعرفه؟! سمعتُ أنّه غيّرَ اسمه إلى بولس ليكسبَ قلوبَنا، أتعرفُ ماذا يمكن أن يكون؛ إنّه أفعى تفشلُ في أنْ تُغيّرَ جِلدَها؛ كلّ محاولاته للتّخلّص من ماضيه تبدو بائسة، هذا القاتِل الّذي لا يشبعُ من لحومِ ضحاياه ومن شُربِ دمائِهم يريدُ أنْ يتوب، يريدُ أنْ يُصبِحَ قِدّيسًا!! أتصدّقُ أنتَ هذا الهُراء!! هل يُمكنُ للحجر أنْ يرقّ قلبُه؛ إنّ قلبَه أقسَى من الصّخرةِ الصّماء!! هل يُمكنُ للذّئب أنْ يتخلّى عن عاداته في الافتِراس؛ إنّه بشريٌّ مُركّبٌ من قطيعٍ من الذّئاب!! هل قلتُ إنّه

بشريّ؛ كلاَّ؛ غِلاظُ البشر لو عايَشوه ساعةً واحدةً لَتبرّؤوا منه، إنّه وحشٌ عليه جلدٌ آدميّ!! لا تُصدِّقْه يا يهوذا إنْ جاءَكَ مُسترحِمًا يطلبُ أن يكونَ واحِدًا مِنّا، لن أُصدّق أنّه بلا أنياب وإنْ أخفاها وراء وجهٍ يصطنع البراءة، ودموعٍ تستجلبُ المغفرة، وتعترفُ بالخطأ، وتطلبُ التّوبة.

العزيز يهوذا: أكتبُ إليكَ هذه الرّسالةَ الخاصّة عن بولس لأحذّركَ منه؛ إنّه شديدُ الخُطورة، يملك لِسانًا ذَرِبًا، وعقلاً واعِيًا، ولغةً بليغة، وقادرٌ على أنْ يجعل المنطق يقفُ على أقدامِ حروفه؛ لكنّه ثعلبٌ مُراوِغٌ وإنْ تظاهرَ بالصّدق، وجبانٌ رِعديد وإنْ تظاهرَ بالشّجاعة. سيكذبُ علينا؛ أعرفُ أنّه سيفعل، لأنّ سيفَه الّذي غاصَ في لحومِ المُختارين مِنّا لم يُثنِنا نحن ولا أتباعَ المسيح عن الطّريق، فشله في السّيف جعله يتحوّل إلى الحرف، لكنّه يحرفُ الحرفَ كما يشاء، فإذا خاطَبَك، فتلقَّ خِطابَه بيدَيك تضعهما على قلبِكَ حتّى لا تنفذَ سمومُه إليكَ فتقتلك!!

العزيز يهوذا: هل مِنْ أوبة؟! هل من لقاءٍ يُطفِئُ ماؤه ظمأَ الشّوق!! لقد طالَ بُعدُكَ يا أخي. لا تقلْ إنّكَ تُبشّر بدعوةِ المسيحِ فوقَ أرضٍ لا نعرفها ولا تنتمي إلى هذا العالَم، لو أُريدَ لنا أن ننتمي لغيرِ عالَمنا، لَما جعلنا الله نلتقي بيسوع فوقَ الأرض؛ وأيةُ أرض؟! إنّها أقدس بلادِ الله، وأقربِها إليه... لا زلتُ أحملُ في قلبي أملاً كبيرًا في أنْ ينزاحَ عمّا بيننا حِجابُ الغِياب، فلا أفتحُ عينيّ حتّى أُبصرك بهما!!

العزيز يهوذا: الدّعيّ بولس - على فرضِ أنّه آمنَ قلبُه، وإنْ كنتُ لا أعتقدُ ذلك بتاتًا - لا يعرفُ ما تعني تعاليم المسيح؛ إنّه يُحاوِلُ أنْ

يغرقَها في الفلسفةِ الّتي تربّى عليها كما سمعتُ؛ إنّه مغرمٌ بأساطير الإغريق، ونحنُ لا أساطيرَ لدينا؛ نحنُ رسلُ المسيح ومختاروه، واضِحون كالشّمس، كانَ المسيحُ بينَنا وواحِدًا مِنّا لكنّ الله اصطفاه دونَ العالَمين ليرفَع مِشعل النّور، وحينَ ارتفعَ صارَ جُلُّ ما نحاوله ألاّ ينطفِئ ذلك المشعل من بعده مهما كلّفنا ذلك من تضحِيات؛ أمّا هذا المدعوّ بولس فأنّى له أنْ يفهمَ النّور الّذي جاءَ به يسوع للمرأة؛ بولس اللّعين يظنّ المرأةَ متاعًا، وأنّها لا يُمكن أن يكونَ لها دورٌ في الطّريق، وأنّها لا تحتملُ تكاليف نقلِ المشعل المُنير إلى الآخرين؛ مثل هذا الرأي لا يصدر عن إنسانٍ فَهِمَ تعاليم المسيحِ حقّ الفَهم، لهذا ولأسبابٍ كثيرةٍ أخرى سأظلّ أحذّركَ منه!! ماذا قلتَ لي يا يهوذا؛ هل تعرفه؟! أينَ كانَ مُختبِئًا هذا الوحش قبلَ أنْ تُعلِنَ الأرضُ بأجمعها جرائِمَه؟!

العزيز يهوذا: أدعو القدير ألاّ يرمي بكَ في طريقٍ تجد في غُرضِها بولس هذا؛ لأنّني واثِقةٌ أنّه مهما تكنْ أنتَ قويًا؛ وأنتَ كذلكَ بالفِعل، فإنّه سيتسرّب إليكَ شيءٌ من شمّه الزُّعاف. لِتَرْعَكَ عينُ الله. سأظلّ على العهد. وتوقي إلى اللّقاء يانِعٌ لا يجفّ. أُصلّي لأجلكَ.

مريم المجدليّة

أفسس

السّنة الثّامنة والثّلاثين لميلاد المسيح، الشّهر الخامس.

نظرَ يهوذا في عَينَي بولس، وجدَ فيهما نيرانًا من الغضبِ تتداعَى، وطوفانًا من الحقد يندلح، قال له: «لا تكنْ أحمق يا بولس؛ ليسَ عليّ أنْ أحذّركَ في كلّ مرّة، إنّها لا تعرفُ بأمري كما ترى، ليسَ

الخطيرُ أنْ تنطقَ بهذه الكلمات، وليسَ الخطيرُ أن تصلَ هذه الرّسالةِ إلى الحواريّين، ما هو أخطر من كلّ ذلك أنْ يُشارِكوها هذا الرّأي، فتكون آنئذٍ محتاجًا إلى عونِ الآلهة لكي يُؤتي الله قلبَكَ الحِكمةَ والكتاب، والصّبر وفصلَ الخِطاب». «ما الخُطوةُ القادِمةُ إذًا أيّها الحكيم؟!» قال ذلك وهو يشدُّ على أسنانه. ردّ عليه يهوذا: «ستعودُ إلى أورشليم، لن تذهبَ هذه المرّة إلى بُطرس، سيتعيّن عليكَ أنْ تبحثَ عن برنابا، برنابا هذا أنهَى إنجيلَه على ما أعتقد، ستسأله أنْ يُعلّمكَ كتلميذ بعد أنْ تكونَ قد تنكّرتَ بهيئتك، أنا متأكّدٌ أنّكَ ستحفظُ إنجيلَه، وستكتبُ منه نُسختَكَ الخاصّة في زمنٍ قِياسيّ لا يزيدُ عن شهرٍ، لازِمه كظلّه، بعدَ أن تحفظَ ما كتب ويسبُرَ أخلاقَك في الانصِياع له والإخباتِ بينَ يدَيه، اكشفْ له عن شخصيّتك؛ سيتفاجأ، وسيُنكِر أوّل الأمر، لكنّه سيقبلك في النّهاية، وسيكونُ حينئذٍ بوّابتك إلى بُطرس العنيد. بعدَ أن تَثِقَ بكَ هذه الصّخرة احرِصْ على أنْ تكونَ معها في أسفارها خادِمًا مُطِيعًا، حتّى إذا سَرَتْ تعاليمُكَ في قلوبِ النّاسِ لأنّكَ رفيقُ وارثِ المسيح فلن يعودَ له عليكَ سُلطانٌ حينها، ومن هُناك ستكونُ أنتَ الصّخرة، وأنتَ الكنيسة، وأنتَ الدّين، وأنتَ التّاريخ كُلّه!!».

٩٣
أنا أرشّح جواد كاليجولا ليصبحَ رئيسًا للمجلس!

على يمين المدخل ارتفع تمثال هرقل الأبيض المقدود من الحجر على قاعدةٍ رخاميّة سوداء، وعلى يساره ارتفع تمثال كاليجولا بكامل تفاصيل الوجه، وثنيات الشّعر، وتجاويف العينَين، وانحناءة الرأس المائلة قليلاً جهة الكتف الأيمن، كانَ هرقل يرمز إلى القوّة والفنّ، وكانَ نصفَ إله، أمّا تمثال كاليجولا فكان يرمز إلى الألوهيّة المُطلَقة، وكان على الدّاخلين من أعضاء مجلس الشّيوخ أو الأمراء إلى القصر أنْ يستديروا رُبعَ استِدارةٍ جهةَ اليَسار فيسلّموا على هرقل برفع اليد، ثمّ كان عليهم بعدها أنْ يستديروا نصفَ استدارةٍ جِهَةَ اليمين قبلَ أنْ يركعوا ويقبّلوا الأرض بين قدمَي تمثال كاليجولا، ثمّ يلِجوا إلى بوّابة ضخمةٍ من خشب الأبنوس ذي اللّون البنّيّ الغامق، وقد نُقِشَت عليها رسومات لفرسانٍ يتدرّعون بترسٍ دائريّ يحملون رماحًا يهوون بها على وحوشٍ ضاريةٍ والدّم يسيل على رقاب هذه الوحوش المُستسلِمة لهزيمتها.

كان كاليجولا مولَعًا بالممرات اللّولبيّة، والضّيّقة، ولهذا كان الوصول إلى غرفة نومه يتطلّب المسير ثلاثة أضعاف المسافة الطبيّعيّة، وكذلك إلى قاعة الاجتِماعات الّتي جعلها في طابقٍ تحتَ الطّابق الّذي ينام فيه، فيما خصّص الطّابق الثّالث من القصر لشرفاتٍ دائريّة يُطلّ أكثرها على (الفوروم) من جهة الغرب، وتبدو الصّوامع (والكاسترا) على الجهةِ المُقابلةِ تمامًا. وكانَ يحلو له من هُناك أنْ يُقيمَ حفلاتِ اللّهو والرّقص والشّرب.

نادَى بأعلَى صوتِه: «يا سِيبون». وافاه سيبون - الفتى الّذي لم يبلغ العشرين، واتّخذه كاليجولا خليلاً ومُستشارًا - على عَجَل إلى الشّرفة، كانَ يُعطيه ظَهرَه، لم يكنْ يلبسُ لِباسَ القَيصَر، كانَ يلبسُ رداءً مُمزّقًا، فَغَرَ سيبون فاه عندما رآه، هَمّ أنْ يسأله عن الأيّام الثّلاثةِ الّتي احتجبَ فيها عن الشّعب احتِجابًا تامًّا، لكنّه أيقنَ أنّ السّؤال قد يكلّفه رأسَه فسكت. كان شعرُ الإمبراطور الذّهبيّ منكوشًا على نحوٍ غيرِ مُتوقّع، وبعضُ الأعواد الصّغيرةِ اليابِسة قد نشبت فيه كأنّما كانَ ينامُ على أرضٍ مُوحِلة في غابةٍ مهجورة ذات خشبٍ مُتقصّف، أدار كاليجولا وجهه إلى سيبون، كانت عيناه ذابِلَتَين، بدتا حَزِينتَين ويائِستَين على نحوٍ فظيع، قوسان أسودان أسفل الجفنَين، وحمرةٌ داكنةٌ في البُؤبُؤين، ونظرةٌ شاردة، ووجه صفيق. ظلّ سيبون جامِدًا مكانه، أتاه صوت كاليجولا، بدا صوتًا مهزومًا: «إنّ الحياةَ ليستْ سهلةً يا سيبون، وإنّني أريدُ أنْ أكونَ رجلاً عادِلاً، ولكنّ الرّعاع الّذين تبعثهم الآلهة الحمقاء لا يتركونني أُحقّق ذلك لشعبي». «أنتَ عادلٌ بالفعل يا سيّدي». «لا تكذبْ يا سيبون. لا تكذب. الكذب عندي سببٌ كافٍ لأجعل رأسكَ يُغادِرُ كتِفَيك». ابتلعَ سيبون ريقَه بصعوبة، قال: «أنتَ تملكُ كلّ ما على الأرضِ يا سيّدي، ومِنْ حقّك أن تفعل ما تشاء». «كنتَ تكذب، والآن صِرتَ تسخرُ منّي أيّها اللّعين، عندما كنتُ في المدرسيّة العسكريّة كانوا جميعًا يسخرون منّي، أتعرفُ لماذا سمّوني كاليجولا، لأنّني لم أكنْ أكثرَ من حِذاءٍ صغيرٍ يلبسونه في أرجلهم، لكنّ قَدَرَهم اللّعين جعلَ هذا الحِذاء الصّغير يُصبِحُ إمبراطورًا وسأدوسُ عليهم جميعًا، أتعرفُ أسماءَهم أولئك الّذي رافقوني في الكلّيّة العسكريّة في صغري، أنا أعرفُ أنّ كثيرًا منهم

صاروا قادةً للجيوش، وصاروا نُبلاء، وصاروا أشرافًا، أنا لا أتذكّر أسماءَهم بالضّبط، ولكنّني أتذكّر أنّهم كانوا حوالي ثلاثمئة مُتدرِّب، أريدُكَ أنْ تعثرَ عليهم جميعًا يا سيبون». «لماذا يا سيّدي؟!». «لكي ينالوا شرفَ الموتِ على يديَّ». «هل أنتَ جادٌ يا سيّدي؟!». بدتْ ملامحُ الغضب الشّديد على وجه كاليجولا، التفتَ إلى سيبون: «وهل تظنّني أمزحُ أيّها الأخرق، إنّهم بدل أن يموتوا في الحرب كالجِيَف المُنتِنة؛ سأمنحهم أنا هذا الموت على يدي، أيّ شرفٍ هذا الّذي أردتُ أنْ أهبهم إيّاه؟ أريدُ أنْ يتحقّق ذلك اليوم».

في اللّيل نام كاليجولا على أصواتِ ضحاياه وهم يهربون من الموت إلى الموت بالصّرخة الأخيرة الّتي تسبقُ سقوط المقصلة الثّقيلة الحادّة على العنق الطّريّ.

قال هيليكون لسيبون: «تركتَه يفعل ذلك؟! أيّ جنونٍ هذا الّذي سيُحيقُ بالإمبراطوريّة الرّومانيّة بعدَ اليوم؟!». «لكنْ لماذا أصابه الجنونُ فجأةً يا هيليكون؟!». «موتُ أخته دروزيلاّ يا سيبون أفقدَه عقلَه». «إنّ كاليجولا مُستعدٌ أنْ يقتلَ أباه وأمّه دونَ أن تطرف له عين؛ فلماذا تأثّر بموتِ أخته؟!». «لأنّها لم تكنْ أختَه فحسب، بل كانت عشيقته كذلك، لم تكنْ تُغادِر فراشَه ليلةً واحِدة!!!». «يا لَروما من هذا الدّنِس، أيّ مصيرٍ تنتظره وهي تقع في قبضةِ هذا المَعتوه؟!». «لا ترفعْ صوتَك يا أخي، الهواء قد يصبح جاسوسًا لصالح كاليجولا، دَعْنا نتدبّر الأمر خارجَ القصر».

نزلَ كاليجولا من سريره، لم يغسلْ وجهه، تلقّاه سائس الإسطبلات على باب الحديقة، قدّمَ له جوادَه، رَكِبَه إلى مجلسِ الشّيوخ، قطعَ

المسافةَ الواصلةَ بين القصر ومبنى المجلس عبرَ الفوروم دونَ حرسٍ، كانَ يهمزُ جوادَه مُسرِعًا كأنّه يهربُ من شيءٍ ما، في الطّريق لم يعرفه الكثيرون من شعبِ روما الّذين ضجّت بهم طرقات الفوروم وساحاته، الّذين عرفوه أفسحوا له الطّريق، وانحنوا يُحيّونه. على باب المجلس، تقدّم أحدُ الحرسِ ليأخذَ منه لِجامَ حِصانه فنَهَره بعينَيه، فأفسحَ الحارسُ له الطّريق، دخل كاليجولا مجلسَ الشّيوخ مختالاً على صهوةِ حصانه، صعدَ به الدّرجات المُؤدّيات إلى قاعةِ الاجتِماعات، كانتِ الطّاولةُ المُستديرة تتوسّط قاعةً فسيحةً، تضمّ ثلاثين مقعدًا، هي مقاعدُ الشّيوخ المسؤولين عن الأقاليم، ويُمثّلون رتبةً أعلى من النّوّاب المُنتَخَبين من قِبَل الشّعب. غضبَ رئيس المجلس وبقيّة الشّيوخ لوجود حصان في قاعة الاجتِماعات للمجلِسِ المُحتَرم وهَمّ الرّئيش أنْ يصرخ بالحُرّاس ليعرفَ ما الّذي أدخلَ هذا المعتوه إلى القاعة، لكنّ غضبهم سرعان ما تحوّل إلى دهشة، ووقفوا جميعًا مُرتعِدين لمّا عَلِموا أنّ هذا الّذي يمتطي صهوةَ الحَصان ليس إلاّ الإمبراطور نفسه، رحّب به رئيس المجلس، وحيّاه بانحناءةٍ طويلة، قبلَ أن يهتف: «كاليجولا العظيمُ هُنا، إنّه لشرفٌ لنا أن تحضر اجتِماعَنا هذا...». صمتَ قليلاً ثُمّ تابَع: «لكنّ الحرسَ يا سيّدي سيتولّون أمرَ حِصانِكَ، فهل أطلبُ من أحدهم أنْ يذهبَ به إلى الإسطبلات؟!» التفتَ إليه كاليجولا بعدَ أنْ نظرَ في وجوه الجميع بلا مبالاة: «أنا لا أدري لماذا تحتقرُ جوادي أيّها الرّئيس!!».
«أنا لا أحتقره يا سيّدي، حاشاي، أنا أطلبُ الرّاحةَ لك يا سيّدي».
«كلاّ، أنتَ تُهينُ جوادي بهذه الكلمات، أتعرفُ ما معنى أن تُهينَ جوادي؟! معناه أنْ تُهينَني أنا». «كلاّ... كلاّ يا سيّدي... أُقسِم...».

قاطَعَه كاليجولا: «أتعرف عقوبةَ مَنْ يُهينني؟!». ثُمّ التفَ إلى أعضاءِ مجلسِ الشّيوخ: «أتعرفون أنتم يا سادة؟! أنا أعرفُ... الموت...». نزلَ كاليجولا عن ظهر جواده، تقدّمَ بخطواتٍ ثابتةٍ تُجاه رئيس المجلس، كان قلبُ الرّئيس يخفقُ بشّدة، أصابه خَدَرُ الرّعب، لم يستطعْ أن يقومَ من كرسّيه، ظلّ يرمق بعينَين تنزفانِ هلعًا كاليجولا الّذي بدا مرتاحًا ومُبتسِمًا، حتّى إذا صار خلفه، استلّ سيفَه، وهوى به على عنقه بحركةٍ سريعةٌ فثعبَ الدّم كأنّه نافورة. علث همهمةٌ سريعةٌ في بقيّة أعضاءِ المجلِس، ثُمّ خمدث لفورها، أشارَ إلى أحدهم أنْ يسحبَ الجُثّة، قال وهو يقودُ لِجامَ جواده: «سيتولّى جوادِي منصبَ رئيس مجلس الشّيوخ ريثما تنتخبون رئيسًا آخَر... وستُوافونني في الظّهر على مائدة الغداء في القاعةِ المُخصّصةِ لذلك». وخرج.

ظلّث رهبةُ الموث مُسيطِرةً على المكان، قبلَ أن تستوعبَ عقول أعضاءِ المجلس ما حدث، بعدَ فترةٍ من الذّهول، هَمهمَ أشجعُهم، وهو ينظرُ بزاويةِ عينَيه في وجوه الآخَرين: «والآن؛ ما العمل أيّها السّادة؟!». «سننتخب رئيسًا جديدًا للمجلس». ردّ أحدهم بكلماتٍ خرجث من فمه بطريقةٍ آلية دون أنْ يدري إنْ كان يعنيها حقيقةً أم لا. سأل أحدهم: «ومَنْ سيُدير عمليّة الانتخاب». «جواد كاليجولا يا سادة، أليسَ هو الرّئيس الحاليّ!!» قال ذلك ساخِرًا، اقتربَ منه زميلُه الجالسُ عن يمينه، همسَ في أذنه: «أترى كُلّ هؤلاء الحرس المزروعين على أطراف القاعة، سينقلون تعابيرَ وجهكَ إلى كاليجولا، فاحفظْ لِسانَكَ يا أخي». ثُمّ اعتدل، أصلح من بِزّته الرّسمية، وهتفَ بصوتٍ جادّ: «أنا أُرشّح جواد كاليجولا ليصبحَ رئيسًا للمجلس». هتف أغلبُ مَنْ في المجلس: «فليُصبِحْ رئيسَنا». قال أحدهم، وقد استبدّ

به الغضب، ولم يصبِر على ما يحدث: «أجُننتم؟! هل فقدتم مروءَتكم أيّها السّادة، أتجعلون حيوانًا يقودُكم؟! لو افترضْنا أنّكم فقدتم مروءَتكم بالفعل، فأينَ هي عقولُكم أيّتها الرُّخم المُتعفّنة!!». ثُمّ خَرَجَ غاضِبًا، على الباب تلقّاه كاليجولا، كان يستمع بنفسِه من خلفِ القاعةِ إلى كلّ شيءٍ ويُراقبه، احتضنَه كصديق، قبّلَه على رأسه، وهتفَ في أذنَيه: «كلّهم مجانين إلاّ أنت، كلّهم أسرَى خوفهم إلاّ أنت؛ أنتَ الوحيد الحُرّ الّذي تمرّد على الخوف، وتصرّف بشجاعةٍ لا مُتناهِية، أنتَ صديقي منذ اليوم، ولهذا أريد أنْ تصحبني إلى مائدةِ الغداء مع هؤلاء الرّعاع بعدَ قليل».

حينَ انسحبَ الأعضاءُ من القاعة باتّجاه مأدبة الطّعام، كان أحدُ الحرس يجذبُ إليه لِجام الحِصان، وآخَر يُنظّف الرّوث والبَول الّذي خلّفه وراءه بعدَ هذه الجلسة المُثيرة!!

كانتِ المائدة الّتي تتسع للأعضاءِ جميعًا خالِيةً من أيّ صنفٍ من الطّعام، جلسَ كاليجولا على رأسِها، قالَ وهو يُشيرُ بيدَيه مُرحّبًا بالجميع لينضمّوا إلى المائدة: «تفضّلوا أيّها السّادة، ولا تستعجلوا رِزْقكم؛ سيأتيكم شَهِيًا بعدَ قليل». ثُمّ إنّه أجلسَ عضو المجلسِ الغاضب عن يمينه. قال للعضو المسؤول عن بلادِ سوريّة وفلسطين: «ما أخبار إمبراطوريّتنا هُناك؟!». أجابه: «إنّ اليَهود هناك يتمرّدون على الدّولة، ويتأخّرون في دَفع الضّرائب، ولا يُقدّمون القرابينَ لآلِهتنا». «ولماذا يفعل هؤلاء الدّود المُنتشِر في إمبراطوريّتي ذلك؟!». «إنّهم يعتقدون أنّنا كفّار، وأنّنا عبدة أوثان، وأنّ الآلهةَ الّتي نقيمُ لها المعابد ليسَتْ إلاّ مجردّ خرافات». «خرافات؟! قد يكونون مُحقّين، ولكنْ هل أنا خُرافة؟!». فاجأ السّؤال أعضاء

المجلس، فهتفوا بصوتٍ واحدٍ: «كلاّ يا سيّدي، كلاّ». طلبَ من عضو المجلس الغاضب: «مسّ جسدي أيّها العزيز؛ هل أنا خُرافة، ألستُ إلهًا حقيقيًا». وجم هذا العُضو، في حين بادر الآخرون: «بل أنتَ إله الآلهةِ كلّها». ضحك كاليجولا: «نعم أنا ملك الأرضِ والسّماء، أيّها البنّاؤون، أيّها الفنّانون، اهدموا معابِدهم في أورشليم وأقيموا بدلاً منها تماثيلَ لي؛ للإله الأعظم، أريدُ أن تملأ تماثيلي العِملاقة كلّ معابد أورشليم لكي تتقدّس بي...» ثُمّ صمتَ فجأة وابتلعَ الكلمات. صفّق بيدَيه. ظهرَ له أحدُ الحرس. أشارَ له إشارةً مفهومةً، فغاب. قال كاليجولا بلهجةٍ مَرِحة: «والآن حانَ وقتُ الطّعام، الآنَ ستأكلون أطيبَ ما رأيتم في حياتكم». ثُمّ صفّق بيده مرّة أخرى، فدخل عددٌ من الطّبّاخين كانوا يحمِلون في أيديهم معالِف وسطَ دهشةِ الأعضاء جميعًا، وُضِعَت المعالِف في وسط المائدة، كانت ملأى بالشّعير والتّبن!! قال كاليجولا وهو يُقهقِه: «إنّها على شَرَفِ رئيس المجلس، هيّا تنعموا... هيّا كُلوا... تقدّموا واحِدًا واحِدًا، لكنْ بالدّور وبشكلٍ مُنظّم؛ لا أريدُ أيّةَ فوضى، تعالَ أنتَ أوّلهم، املأ يدكَ بحفنةٍ من الشّعير وكُلها، امضغها جيّدًا حتّى تستمتع بها أيّها العزيز». ارتجفَ قلبُ الأوّل، جفّ حلقُه. شعرَ بالأرضِ تدورُ من تحتِ رِجلَيه. همّ بأنْ يقوم لكنّه شَعَرَ كأنّ رصاصًا مصبوبًا على قدمَيه يمنعه من التّحرّك. رأى عينَي كاليجولا تلمعان بالموت، فذاب الرّصاص من على قدمَيه. تململَ. قام. تقدّمَ نحو مِعلفَ الشّعير، ملأ راحته المُرتجفة، اهتزّتْ يده في طريقِها إلى فمه، سقطَتْ بعضُ الحبوب، لكنّه نجح في أنْ يُوصِلَ البقيّة إلى فمه، ازدردَها. تقبّضتْ تقاطيعُ وجهه. سارعَ إلى إخفاءِ تلكَ التّقبّضات حتّى لا يلحظها كاليجولا. ملأ يده من جديد بحفنةٍ من

التّبن. تراجَع إلى الوراء وعاد إلى مكانه. ثُمّ قامَ الثّاني والثّالث و... وكاليجولا يُطلِق النّكات من حينٍ إلى آخَر، حتّى إذا هَمّ الأخير الّذي يجلس عن يمين كاليجولا بالقِيام، استبقاه. قال له: «اجلس» فجلس. ثُمّ وجّه خِطابَه إلى الأعضاءِ الآخَرين: «ما مصيرُ مَن يستهزِئُ برئيس المجلس؟!». «الموت». أجابوا بصوتٍ واحدٍ دونَ أدنَى تردّد. «وهل يستحقّ طعامَه؟!». «كلاّ». وقفَ كاليجولا على قدمَيه، مدّ يده إلى جنبه، استلّ من هُناكَ خنجرًا ورفعه أمام عينَيه، لمع حدُّه أمامَ الحاضرين، أداره كاليجولا يمنةً ويسرةً مرّتين أو ثلاثًا، قبلَ أنْ ينفلتَ جهةَ اليمين بحركةٍ عسكريّةٍ ويغرسه في قلبِ الجالسِ هُناك، نظرَ كاليجولا في عينَيه مُبتسِمًا، كان الدّمُ قد بدأ يسيل من أطرفِ فم الضّحيّة، هتفَ بصوتٍ كصوتِ أسدٍ جريح: «لا تخفْ؛ لن تتعذّبَ كثيرًا؛ الخنجرُ مسمومٌ، ستموت سريعًا، ربّما لن تسمع كلماتي الأخيرةِ هذه... لروحِكَ السّلام؛ كنتَ شُجاعًا بما يكفي، لا عزاء للجُبناء؛ فليقضم الموتُ قلوبَهم... أيّتها السّماء؛ تقبّلي هذا الفارسَ العنيد في ملكوتِك الفسيح!!».

٩٤

القاتلُ لا يستطيعُ النّوم!

في اللّيل سَمِعَ صوتَها، كانت هِي، يعرفُ ذلك تمامًا، كلاّ إنّه لا يحلم، إنّ صُورَ الصّبا مطبوعةٌ في ذاكرته كأنّها نقشٌ على حجر. لم يعرف في حياته امرأةً قبلَها، كانت تعني كُلّ شيءٍ بالنّسبةِ له، وحدها استطاعت أنْ تجعلَ منه رجلاً قادِرًا على أنْ يُصبح إمبراطورًا بعد أنْ كانَ مضغةً في أفواه القادة، وألعوبةً في أيديهم، وغرضةً للضّحك منه بمجرّد رؤيته. نعم إنّه صوتُها الصّارخ كأنّه يستغيث بكلّ حيّ أنْ يُنقِذها، لكنّه الآن لا يستطيع أنْ يُعيدَها إلى روما، ليسَ في حياته على الأقلّ، لقد أصبحت امرأةً شوهاء، لم تعد أمّه الّتي رأى فيها تعويذة الهروب من القسوة، وحضنًا دافِئًا يحميه من الغرق في احتِقار النّاسِ له. لا زالَ يذكر اللّعين (تيباروس) الّذي نفاها إلى جزيرةٍ غيرِ معروفةٍ في البحر، لا زال يذكر كيفَ كانَ يأمر بتعذيبها؟! ولِمَ كان يفعل ذلك؟! ألأنّها خانته مع أحدِ أعضاءِ مجلس الشّيوخ كما يدّعي، أم لأنّها لم تقبلْ أنْ تنامَ في فِراشه، أم لأنّها أشعرتْه برجولته النّاقِصة؟! «لِمَ فعلَ الإمبراطور اللّعين كلّ ذلك بأمّي؟!» صرخَ بصوتٍ هادرٍ شقّ جُدران الغرفة، استيقظَ كُلُّ مَن في القصر على صرخته المُرعِبة، تجمّع أمام غرفته الحرس، وكبيرُ الخدم، و(كايزونيا) العشيقة الّتي لم تعد تنامُ معه في سريرٍ واحد، تجرّأتْ كايزونيا على أنْ تفتحَ بابَ الغرفةِ وتطلّ برأسِها من خلفِ الباب، كانَ قائدُ الحرس من خلفها هو ومجموعةُ أخرى ينتصبون كتماثيل في انتظار أوامر الإمبراطور، غيرَ أنّه صَرَفهم جميعًا بنظرةٍ واحدةٍ غاضبةٍ من

عينيه. لم يكنْ هناك في الغرفةِ من ضوءٍ سوى مشعلٍ خافتٍ ينزرع في الزّاويةِ البعيدةِ من الغرفة، كانَ ضوؤه كافِيًا لكي يُلقِي بعضَ الظّلال، ويجعلها تتراقصُ في مدى الرّؤية. حدّق كاليجولا في الفراغ الصّامت، ضيّقَ عينَيه، وكتمَ أنفاسَه، ورآها... ها هي أمّه، يومَ زارَها في سجنها المهجور في قلعةٍ مَنسيّة، كانت القلعةُ مَبنيّةً في جزيرةٍ لا يعرفُ بموقِعها أحدٌ باستثناء حرس الإمبراطور الّذين أحضروا السّجينةَ إلى هُنا، في الشّهور العشرةِ الأولى واظبَ على زيارتها، كان الوصولُ إلى سجنها يستغرقُ أسبوعًا كامِلاً في البحر، ولم يكنْ يصطحبُ معه إلاّ اثنان؛ البحّار والخادم، وعلى مَتن قاربٍ خاصّ. لا يزال يذكر تفاصيل زياراته السّتّ، كانتْ أمّه في كُلّ زيارةٍ تتغيّر حتّى لا تعودَ هِيَ، كانَ يتعجّبُ في كلّ مرّةٍ من فِعل الزّمن بالإنسان؛ ألهذا الحدّ يملكُ الزّمن أدواتٍ للقتلِ لا يملكها البشر!! ها هي تصرخ؛ نعم تصرخ؛ قال له أحدُ السّجانين المُوكّلينَ بتعذيبها: «لقد أمر الإمبراطور بقطعِ أجزاءٍ من ثَديِها هذه المرّة». لم يمتعضْ، لم يبكِ، لم تنزلْ دمعةٌ واحدةٌ من عينَيه، وهو يرى توسّلاتِ أمّه، فقط اقتربَ من الجَلاّد، وقال له: «إنْ صرتُ إمبراطورًا سأجعلك تستمتعُ بحالةٍ كهذه». إنّه أيضًا يذكر؛ لقد أمرَ بتقطِيعِ هذا الجَلاّد إلى ستّين قطعةً قبلَ أقلّ من سِنة. ضَحِكَ الجلاّد في وجهه، قهقه عالِيًا، وبانتْ قهقهته عن أسنانٍ غليظةٍ صفراء كأسنان الحِمار: «أنتَ تُصبحُ إمبراطورًا؟!». ردّ عليه: «وسأجعلك تُقبّل قدمَي، وتتوسّلُ إليّ». «أتوسّلُ إليك؟! أتوسّل إليكَ بماذا؟! ربّما سأسمح لنفسي أنْ أتوسّل إليكَ بأنْ تُقبّلَ مؤخّرتي» ثُمّ تصاعدتْ قهقهته. نظرَ في عينَيه بحقة: «ستتوسّلُ إليّ بأنْ أقتُلكَ قتلاً رحيمًا، لكنّني لن أجعلكَ تَحظَى بهذا، ستموتُ ألفَ

مرّةٍ، وستتمنّى في كلّ مرّةٍ أنْ أُجهِزَ عليك، وستهربُ أمنياتُك هروبَ الأرنب رأى وحشًا مُفترِسًا». وتستمرّ القهقهات. كانت قهقهاتُ الجلاّد تتردّد في قعر جُمجمته إلى اليوم. لكنّه أطفأ كثيرًا منها بتوسّلاته اللّاحقة!!

في المرّة السّادسة، لم تقلْ له أمّه شيئًا، كانت شاحِبةً إلى الحدّ الّذي تغيّر فيه لونُ وجهها، كانَ الموتُ يرسُمُ أكثرَ خطوطه جلاءً على وجه الملكةِ الّذي كانَ يومًا من أنضر الوجوه في الإمبراطوريّة، لم تأكل لقمةً واحدةً منذُ أكثرَ من شهرَين، شِفاهُها مُشقّقة، وجانبا فمها مُمَزّق، ويداها مُجزّفتان من اللّحم حتّى ظهرَ العَظمُ من تحته. سمعها تقول دون أنْ تفتحَ فمَها: «سأموتُ جوعًا، لا تنسَ وصيّتي؛ لن يُبرِّد روحي في الجحيم غيرُ الانتِقام».

ها هي؛ خفتتْ صورتُها في الظّلام على ضوء المشعل البعيد، استلقَى على سريره، هربَ النّوم، هربَ الأمن، هربتْ روحُه من جسدهِ اتّقاءَ فِتنته!! صرخَ بأعلَى صوته: «أغريبينا... أغريبينا... سأقتُلُ كُلّ مَنْ وقعتْ عيناه عليكِ، ولو اضطرّني ذلك إلى أنْ أقتل نصفَ سكّان الإمبراطوريّة... أغريبينا...». ثمّ سقطَ في بحر الإعياء والجنون.

شقّ الضّوء نافذةَ الشّرفةِ المُطلّة على (الكاسترا)، تحسّسَ عينَيه، أحسّهما كعينَي ضفدعة، نهض، أزال السّتارةَ فبدتْ مخازن الحُبوب من بعيد في حصنها الحصين تتكلّم. خطرتْ بباله فِكره، افترّ فمه عن ابتِسامةٍ لم تلحظْها حتّى الآلهة. دخل الحمّام المُعدّ له كُلّ صباح، كانَ فسيحًا بما يكفي لإيواء عشر عائلاتٍ مجتمعةً. نَضَّ عنه ثِيابه، بدأ بحوضِ الحليب؛ غطّسَ نفسَه فيه نِصفَ ساعة، ثُمّ سارَ مزهوًّا

إلى حوضِ الغطور، كانت غطور الياسمين والزّنبق والرّيحان تتكثّف في سائلٍ واحدٍ دافِئٍ يسيل من مِرَشٍّ من أعلى الحمّام، فركَ جسده به جيّدًا حتّى فاضَ الحوض، وانتشرت الرّائحةُ الشّذيّة، لم يكنْ يسمح لجاريةٍ أنْ توافِيه في الحمّام، طقوسُه لا تبدأ بهؤلاء الجواري بل تنتهي بهنّ، تمدّدَ على مصطبةٍ من الخشبِ الطّريّ، مُرتفعةِ الجوانب، تتناثرُ فوقَها أوراق الورد، دَعَكَ صدره بتلك الأوراق، تقلّب على جنبَيه، استلقَى على ظهره، نظرَ في السّقفِ المُزخرَف بنقوشِ الآلهة، خطرتْ ببالِه فكرةٌ جديدةٌ، نهضَ، على البابِ الآخَر من الحمّام استقبلته الجواري بمناشِفَ حمراء.

هبطَ إلى قاعةِ الاجتِماعات، في الطّريق وهو ينزلُ الدّرجات حكّ رأسَه، توقّفَ، نظرَ في إحدى المرايا الّتي تحتلّ أحدَ الجدران، بدتْ جمجمته لامعةً على ضوء الثّريّا الهابِطة من السّقف وقد بدأ الصّلع يزحفُ على قمّتها، اقتربَ من المرآة، تحسّسَ صلعته من جديدٍ، لقد بدأ التّصحّر يدبّ فيها، بعدَ شهور ستكونُ جرداءَ بالكامل؛ فكّر: سأشبه الكثيرين بها حينئذٍ، سَخِرَ من الفكرة السّاذجة الّتي جاءته، تراجع إلى الوراء، اعتدلَتْ قامته، وتابَع مشيه إلى القاعة، على بابِها استقبلَه سيبون وهيليكون وقائدُ الحرس وكايزونيا وعددٌ من قادةِ الجيوش والأمراء وأعضاءِ مجلسِ الشّيوخ. توقّفَ على الباب، شدّ صدره، هتفَ قائدُ الحرس: «الإمبراطور يسمحُ لكم بأنْ تنالوا الشّرف». تقدّمَ سيبون في البداية، جثا على رُكبتيه، وطأطأ رأسه في انحناءةٍ بليغة حتّى مسّتْ شفتاه قَدَمَي كاليجولا، التزمَ القدَمَين بباطنِ كفّيه، وطبعَ قُبلةً عميقةً هُناك، ثُمّ نهض حتّى إذا اعتدلتْ قامته، انحنى برأسه قليلاً وتراجَع إلى الوراء، ليتقدّم من بعده

الباقون ويصنعوا صنيعَه.

احتلّ موقعَه في القاعة، واستدارتِ الطّاولةُ بالآخرين، اقتربتْ منه كايزونيا تناولتِ العِقد الذي يلتفُّ حول عُنُقِها، فتحتِ القطعة الذّهبيّة المصوغة على هيئة تمثالٍ مُتقنٍ لكاليجولا، فبدا في صدرها مرآة، قرّبتها من وجه الإمبراطور، فاشمأزّ؛ لمعَتْ مُقدّمة رأسِه من جديد، أشارَ لها بظاهر يده أنْ تبتعد، قال للمُجتمِعين: «لنْ أضيعَ أوقاتَكم يا سادة، سمعتُ أنّ سكّانَ مصر يتذمّرون، أنا أحبّ الشّعوبَ المُتذمّرة، هل أسألك عن السّبب يا هيليكون؛ كلاّ أنا أعرفُ السّبب، إنّهم يتذمّرون لأنّني لم أزرهم مرّة واحدةً فينالوا شرفَ رؤيتي. مساكين أهل مصر». ثُمّ وجّه كلامه إلى قائد الجيوش: «أريدُكَ أنْ تنقلَ مِسلّتهم إلى روما، العظيمة تليقُ بالعظيم». صمتَ قليلاً قبلَ أنْ يُتابع: «سمعتُ أنّ أتباعَ المسيح بدؤوا يَفِدون إلى روما، هربًا من بطشِ اليهودِ في أورشليم، يقولون إنّهم يعبدونَ إلهًا غير الآلهة الّتي نعبُدُها، لا يهمّني إنْ عبدوا الشّيطان ما داموا فئةً قليلةً ولا تثيرُ المشاكل؛ لكنْ حذارِ من غضبي لو أنّ أحدهم تجرّأ أنْ يمسّ هيبةَ الدّولة... قلتَ لي يا هيليكون ماذا يعبد اليهود في أورشليم...؟! ألم يعبدوا العِجل في فترةٍ من فتراتِ حياتهم...!! حمقَى... نحنُ نعبدُ الشّمسَ والنّور والحُبّ والخِصب والزُّهرة؛ أآلهتُنا خيرٌ أم إلههم يا هيليكون...؟! قُل لي.. كم عددهم في روما...؟ لقد قالَ لي وزير النّفوس إنّهم يتكاثَرون سريعًا، وإنّهم ينتشرون بينَ الفقراء والعاهِرات... إذا كان الأمرُ كذلك؛ فما الخوفُ منهم يا هيليكون!! الدّولةُ تقومُ على الجبابرة لا على الضّعفاء والنّساء... لكنْ لا بأسَ أنْ أعرفَ سِرّ العِجلِ الّذي عبدوه؛ يا لابيدوس اصنع لي عِجلاً من حديد

يكونُ ضخمًا يتّسع لشخصَين أو أكثر؛ أريدهُ أنْ يبدُوَ حقيقيًا، ولا تَسْألني عن سبب ذلك الآن... أمّا أنتَ يا هيليكون، تعالَ... اقتربْ...».

اقتربَ هيليكون منه، سأله كاليجولا: «كم عدد الضُّلع في روما؟!». ألجمَه السّؤال المُفاجِئ، تلعثَم: «لا أدري يا سيّدي... ولكنْ...». «ولكنْ ماذا؟!». «قد يبلغون أربعة آلاف أصلع يا سيّدي». «أأنتَ مُتأكّدٌ من ذلك يا هيليكون؟!». «نعم أيّها الإمبراطور العظيم». «وأنتَ يا لابيدوس؛ هل تعتقد أنّ هذا هو عددهم». تزحزح (لابيدوس) من مكانه قبل أنْ ينحني برأسه علامةَ الإيجاب: «إنّهم كذلك يا سيّدي ما عدا الضُّلع من المساجين». «أبقِيا المساجين ليومٍ آخَر؛ سأوكل إليكما مع قائد الجيوش أن تقتلوا كلّ أصلعٍ في روما... أنا ليسَ لي شبيهٌ في الإمبراطوريّة، من العارِ أنْ يُساكنني فيها أصلعُ مثلي». جرى النّهر بالدّم، إنّهم أربعةُ آلاف يا لابيدوس، ومَنْ يدري ماذا ينتظرُ الإمبراطوريّة من بعد؟!

في الليل لم ينم. القاتل لا يستطيعُ النّوم، القاتل لا يرتاح إلاّ بينَ الموتى. قام. صرخَ. اجتمع على صُراخه الحرس. صرخَ بهم من جديدٍ لينصرفوا. حذّرهم إذا رآهم في اللّيلِ مرّةً أخرى. عَبَرَ الممرّات اللّولبيّة. ركضَ فيها مثلَ البِغال. ضربَ رأسه بالجُدران. لهث. جثا. أسندَ ظهره إلى الحائط. ارتاح قليلاً. نهض. ركضَ من جديدٍ. ومن جديدٍ راحتِ الصّرخات تشقّ جدران الممرّات اللّولبيّة في القصر الإمبراطوريّ. عندما شقّ الضّوءُ الظُّلمة كفّ عن الصّراخ. ركضَ إلى غرفته. ألقى بجسده المُرتجف من الإعياء والصُّراخ على السرير. كانتْ كلّ خليّة فيه تهتزّ كبندول. وتضطرب كقلبِ عصفورٍ خائف. حاولَ النّوم. لكنّه لم يحصل على شيءٍ منه، قامَ كالملسوع؛

اليومُ هو العيدُ الّذي حدّده للمبارزة. لبسَ ثياب الإمبراطور كما لو كان سيحتفلُ بالتتّويج من جديد، احتلّ مكانه في الكولسيوم، رقصَ قلبُه طربًا على منظرِ المساجين الضّلع الّذين استقرّت لحومُ أجسادِهم في أفواه الوحوش الجائِعة!!

٩٥

لا يكنْ قلبُكَ قاسِيًا كالصّخرة

كانَ (برنابا) يُعلّم أتباعَ المسيح الّذين اهتدَوا إلى طريقِ الإيمان عند الشّجرةِ القريبةِ من بيتِه المتواضع. ذات الشّجرة الّتي تعلّم تحتها (إستِفانوس) عنه، وارتقى بعدَ ذلك كأوّل شهيدٍ في المسيحيّة الحقّة؛ المسيحيّة الّتي تؤمن بالله ربًا واحِدًا لا شريكَ له. إنّها المرّة الأولى الّتي يلتقيه فيها تحتَ الشّجرة، قال له بولس: «مُبارَكةٌ هي، لقد خرّجتْ أفضلَ الرّسل. ومُبارَكٌ أنتَ؛ لقد كنتَ أوّل السّابقين إلى كتابة كلامِ آخِر الرّسل». ردّ عليه برنابا: «وَمَنْ أنتَ أيّها الفاضل؟!». «أنا تلميذٌ ينشدُ المعرفة، وسائحٌ يطلبُ الحقيقة، وأدفعُ عمري كلّه فداءً لمن يُعلّمني حرفًا يُقرّبني من النّعيمِ الأبديّ؛ فهل تسمح لي أنْ أكونَ خادِمكَ المُطيع وتلميذكَ الصّغير». «حكمةُ الله ليستْ حكرًا على أحدٍ؛ على الرّحبِ والسّعةِ يا أخي». «لقد حفظتُ التّوراة من أوّلها إلى آخرها، ووعيتُ قصص الأوّلين والآخرين، وقرأتُ كتب الفلسفة، واطّلعتُ على كلّ ما أنتجهُ الرومان واليونان من أدبٍ وتاريخٍ وفنّ، لكنّ كلّ ذلك يبدو هُراءً أمام العلم الحقيقيّ، العلم الّذي في صدرِكَ يا برنابا وفي قراطيسكَ أيّها الجليل؛ علمُ المسيح الّذي يُوصِلُ إلى الآخرة، ما فائدة الغُثاء على كثرته إنْ علا البحر». «ماذا تقصدُ أيّها الغريب؟!». «لديّ الغُثاء، ولديكَ البحر، لكنّني تلميذٌ نجيبٌ يا سيّدي، وبإمكانكَ أنْ تختبرني، الحياة قَلوصٌ تركض، إنْ لم نستثمر كلّ لحظةٍ فيها داستْنا بأخفافها... شهرٌ واحدٌ يا سيّدي، امنحني شهرًا واحِدًا لأثبتَ لكَ أنّني قادِرٌ أنْ أتعلّم كلّ ما لديكَ من علم، وأنْ أحفظَ

كلّ ما كتبته من فَمِ المسيح في قراطيسك». «وأنا قبلتك... أراكَ شغوفًا بما تريد، وأنا أحبّ هذا الصّنف من التّلاميذ، لكنّني... أرى في عينَيك بريقًا ليسَ غريبًا عليّ». «لا تستعجل الحوادث يا سيّدي... عمّا قريبٍ سينجلي لكَ كلّ شيءٍ، أَعِدُكَ أنْ أكونَ كما تريدُ منّي... أستطيع أنْ أحفظَ في اليومِ الواحد عشرةَ رقوقٍ على الأقلّ... كم رَقًّا مجموعٌ ما لديكَ من الحكمة والكتاب يا سيّدي». «مئتان واثنان وعشرون رَقًّا يا...». «لا يهمّكَ الاسم، يهمّك أنْ أكونَ أنجبَ تلميذٍ عرفْتَه في حياتك... ما فائدة الاسم العظيم إذا كان يحملُ قلبًا ميّتًا... قلبي لا ينامُ أيّها الجليل... قلبي قطعةٌ من نار الخلود لا تهدأ... وروحي لا تعرف الرّاحة إلاّ هُناك... ورسالتي أسمَى من أنْ يُدركَها البُسَطاء.. أنا تلميذُك البَرّ فاقْبلني». «قبلتُ أيّها العزيز. متى سنبدأ؟!». «اليومَ يا سيّدي... والطّعامُ وإعدادُه عليّ، أليسَ من الواجب أن يخدمَ التّلميذُ أستاذَه... ولي عندكَ طلبٌ ورجاء». «تفضّلْ أيّها العزيز؟!». «أنْ تسمحَ لي بتقبيلَ يديكَ كلّما بدأنا الدّرس، وتسمح لي بتقبيل قدمَيكَ بعد انتهائه». «نحن لا نطلبُ من تلاميذنا ذلك، حسبُنا أنْ يكونوا رُسُلَنا إلى العالَمين». «لكنّني أنا الّذي أطلبُ ذلك فلا تحرمْني هذا الشّرف يا سيّد المعرفة».

في اليوم الخامس عشر كان قد أنهَى كلّ الرّقوق، حفظها عن ظهر قلب، كان يستظهرها أمام برنابا كأنّها منظورةٌ أمامه. في يوم التّخريج، قال له برنابا: «لقد بلغتَ الغاية، في الحقيقةِ كنتُ مُذهِلاً، وآنَ لي أنْ أعرفَ اسمكَ أيّها الرّائع». «بالطّبع يا سيّدي، لكنْ قبلَ أنْ تعرفَ اسمي؛ هل تسمح لي أنْ أطلبَ إليكَ طلبًا بسيطًا؟». «تفضّل أيّها الجليل». «سمعتُ أنّكَ والرّسول بطرس ستُسافران عبر البحر

إلى غلاطية لينتهي بكم الأمر إلى روما». «صحيح، ولكنّ روما ليست في الخُطّة الآن، مع أنّها أكثرُ البلادِ الّتي ربّما أرادَ منّا المسيح أنْ نُبشّرَ فيها لما أصابَها من رجس الأوثان... لكنْ... لكنْ ما هو طلبُك؟!». «أنْ تصحبَاني معكما، وسأكون لكما عبدًا مُطيعًا». ضحكَ برنابا: «ألهذا الأمر أخفيتَ اسمَكَ؟!». «بلى». «فمن أنتَ؟!». «لكنْ هل تُجيبني إلى طلبي؟!». «بالطّبع بالطّبع، ما أسهلَ ما طلبتَ!». «إذًا أنا شاوول الطّرسوسي». «شاوول...!!!!». كانتْ حدقَتا برنابا قد اتّسعَتا، نفذت إليه الدّهشةُ كطعنةٍ جاءتْ مُتأخّرة: «شاوول القاتِل!!». «يا سيّدي، كلّكم يقول ذلك، ولم يدرك بعدُ أنّني تبتُ وأنّني صرتُ من أشدّ المُخلِصينَ للمسيح ولدعوته». «نعم يا أخي... أنا مُندهشٌ فقط... المسيح يقبلُ التّائبين، والله لا يردّ من جاءه... الآنَ عرفتُ لمعةَ عينَيك.. لكنْ ما الّذي غيّركَ إلى هذا الحدّ، حتّى لم يعد لك الوجه الّذي كان؟!». «حُبُّ المسيح يا سيّدي قضى على كلّ ما كان في قلبي، وطهّر روحي... أنا الآن تلقّيتُ تعاليمَه كلّها على يديك، وعرفتُ أكثرَ معنى أن تعيشَ لهدفٍ أسمَى من أعمار النّاسِ وآجالهم». «بلى يا شاوول بلى». «وقد تسمّيتُ باسمِ بولس من بعدِ أنْ ظهرَ لي الرّبّ في بادية الشّام». «الرّبّ؟! أيّ ربٍّ يا شاوول؟!». «أعني المسيح يا سيّدي... اعذرني؛ إنّها زلّةُ لسانٍ... والآن هل تأخذاني معكما؟!». «بلى يا شاوول». «بولس يا سيّدي، لقد خلعتُ أعمالي القديمة وكذلك كلّ ما يمتّ لتلك الأعمال بصلة، ومنها اسمي، وتطهّرتُ لأبدأ حياتي من جديد باسمٍ جديد». «نعم يا بولس، سنذهبُ في الأيّامِ القريبةِ المُقبِلة، سيرافقنا إلى هُناك مرقس، لكنْ على الأغلب سنتركه في الإسكندريّة، الإسكندريّة الّتي قضتْ فيها المجدليّة زمنًا، سيكون

رسولَ المسيحِ فيها، ونتابع نحن عبر البحر شمالاً، نذرع بلادَ الله من أجل كلمته الّتي لا تموت». «والّذين هُنا». «يتزايدون يومًا بعدَ يومٍ، وأخشَى عليهم من شيمون، لكنّ الغَلَبَةَ لهم في النّهاية، إنّ رايةَ الحقّ لا يحملها إلاّ الطّاهرون، أمّا الّذي تلوّثت أيديهم وفروجهم بالباطل فلا يستطيعون مجرّد النّظرِ إليها... جهّزْ متاعكَ يا بولس، الرّحلةُ على الأبواب».

دَخَلا على بطرس، تأخّر بولس من وراء برنابا قليلاً خَجِلاً، قال له بطرس هامِسًا في أذنيه، وهو ينظر إلى بولس من وراء كتفي برنابا: «ما الّذي دعاكَ إلى أنْ تأتي بهذا الأفّاك السّفّاك يا أخي؟!». «لقد تاب». «لقد قال لي ذلك من قبل، لكنّ السّيف غير معتادٍ إلاّ على القتل». «لنمنحه فرصة، أنا وعدتُه». «فماذا إنْ غدرَ بنا؟!». «ستثبِتُ لكَ الأيّام خطأ ما تظنّ؛ إنّه من أفضل التّلاميذ الّذين مرّوا عليّ في حياتي». «وهل يكونُ القاتلُ إلاّ عالِمًا؟!». «أنا أطلبُ منكَ باسمِ أخويّة المسيح أن تمنحه فرصة؛ ما بالُكَ يا أخي، لا يكنْ قلبُكَ قاسِيًا كالصّخرة، الفرصةُ لن تكونَ النّهاية». «بل إنّ النّهايات القاتِلة جاءت من فُرَصٍ ممنوحةٍ في غيرِ موضِعها». «سيُسافِر معنا... أنا أمنحه باسم المسيح هذه الفرصة». «لن يغفرَ لي ولا لكَ المسيحُ نفسه إنْ كشفَ الزّمن أنّكَ كنتَ مُخطِئًا». «أنا لن أغفرَ لنفسي». «سأقبل؛ لكنّني سأقول لكَ شعوري بِصِدق؛ سيكونُ بولس هو الثّعبان الّتي ستحتضنه صدورُنا حتّى إذا أحسّ بالدّفءِ لَسَعنا جميعًا». كانت عينا بولس تلمَعان من خلفِ كتفَي برنابا، حينَ سمعَ العبارةَ الأخيرة، هتفَ في أعماق نفسه: «لو اقتصر الأمر على الثّعبان لكان ذلك هيّنًا، أنا النّار الّتي ستحرقُ كلّ شيء». دخل. لم يُخفِ بطرس تقبّضات وجهه الّتي تدلّ على

امتِعاضَه، ظنّ أنّه تخلّصَ منه إلى الأبد، فإذا به يعود على يدِ أحد التّلاميذ المُقرّبين من المسيح، يا لَسخريةِ الأقدار، هتفَ في نفسه؛ لكنّه استغفرَ بعدَ حينٍ.

«ما هي الخُطّة أيّها العزيز» سأل برنابا بطرسَ. كان بولس يجلسُ بعيدًا عنهما كأنّما يُخافُ منه الجَرَب، ردّ بطرس: «وجهتُنا الأولى إلى أفسس». «أنا سأرحل ببولس إلى أنطاكية، نحنُ نبدأ من الشّرق، وأنتما تبدآن من الغرب، وغايتُنا في النّهايةِ روما».

رحل برنابا إلى أنطاكية ومعه بولس، أقاما في وسطِ سوقِها، يدعُوان النّاس، حتّى إذا ما آمنَ بهما خلقٌ كثير، قال بولس: «لو أنّنا بنينا لهم كنيسةً يا سيّدي، تكونُ على غِرار معابد اليهود؛ لكنّها تخلو من ضلالاتهم، ترفعُ كلمةَ الله، وتمتلِئ بصلوات المُؤمنين، وتكون ملاذَ المحرومين». «ينقُصنا المال يا بولس». «سنطلبُ من المؤمنين أنْ يبنوها بالقليل من أموالهم، وبجهودهم». لم تمرّ أكثرُ من ستّة أشهرٍ حتّى كانت أوّلُ كنيسةٍ خارجَ أورشليم تُقام لأتباع المسيح. واتّفق بولس أنْ يُعطِيَ موعظةَ الصّلاة الأخيرة، على أنْ يُعطِيَ برنابا موعظةَ الصّلاة الأولى، ورضي برنابا، وبدأ المؤمنون يتعلّمون على يدَيهما، لكنّ الفَسادَ سرعان ما دبّ إلى صلواتهم، كان برنابا في الأولى يقول بأنّ الله واحدٌ، وبولس يقول لهم في الآخرة أنّه ثلاثة، كانَ يقول لهم برنابا أنّ المسيح بشرٌ، وكان بولس يزرع فيهم عقيدةَ أنّه إله، وأنّه لو لم يكنْ إلهًا لَما كانت تجري على يدَيه هذه المُعجِزات الّتي لا يصنعها إلاّ الله مثل إحياءِ الموتى. كان برنابا يقول إنّ المسيحَ لم يُصلّب، وإنّ الله رفعه إليه، وكان بولس يهتف إنّه صُلِب، وإنّه افتدَى البشريّة بروحه، وقَبِلَ التّضحيةَ من أجلهم، وعُذّب من

أجل التّكفير عن خطاياهم. كان برنابا يقول لهم إنّ المسيح من لحمٍ ودمٍ وكان يأكل معنا، ويشرب، ويحزن ويفرح، وكان بولس يقول لهم إنّه لا يُمكن أن يكونَ بشريًا بحالٍ من الأحوال... ولَمّا اشتدّ التّناقض في دعوة الاثنَين، هُرِعَ جمعٌ من النّاس إلى برنابا يستوضحونه الصّواب، ويستفتونه فيما يذهبُ إليه بولس، فيُنكِرُ ذلك عليه، ولمّا يُحادثه في الأمر، يتملّص بولس من الإجابة ويُعقي عليها بلسانه البليغ وحُجّته الحاضِرة، ولَمّا خافَ أنْ يُضِلّ النّاس، أخذه وعادَ به إلى أورشليم، كانَ ذلك بعدَ عامٍ واحدٍ من رحيلهما من هُناك. على بابها قال له بولس: «لا أستطيعُ أنْ أدخلَها، سيقتلني اليهود لأنّني كشفتُ ضلالاتهم، سأنتظرك فاذهب، سأنام هُنا على مقربةٍ من المعبد، أترى اليهود وما فعلوه بأنفسهم، إنّهم اضطرّوا كاليجولا أنْ يهدمَ نصفَ معابدهم ويرفعَ فوقها تماثيله، أنا أعْرَفُ اليهودِ باليهود؛ إنّهم هُم الّذين يَستجلبون نِقمةَ الجبابرة إليهم، ثُمّ إذا وقعتْ بهم النّوائب، راحوا يتباكون في صلواتهم وهم ينشِجون: إنّما هي أقدارُ السّماء كتبها الله علينا ونزلت بساحِنا فأصابتنا... لا يا سيّدي، أنا أخشاهم أكثر مِمّا أخشى كاليجولا نفسه... عُدْ إلى أورشليم، أمّا أنا فسأرحل إلى تسالونيكي، لأخدمَ طريقَ الرّبّ هُناك». تركه برنابا مُغضَبًا، قال له وهو يولّي جهةَ أورشليم: «لا تهذِ يا بولس في تسالونيك، لا أريدُ أنْ أندمَ على أنّني جعلتُ الرُّسُلَ يثقون بك؛ لن يرحمني التّاريخ إنْ قدّمتُ إلى المسيح تلميذًا يهدمُ تعاليمه... حذارِ يا بولس... لن أكونَ اليدَ الّتي قدّمتْ لكَ المِعول لتهدمَ الإيمان المسيحيّ الحقيقيّ». حينَ غابَ جِرْمُه في مدى الرّؤية، تنهّد بولس، وهو يهمس بنشوة: «إنّها البداية يا برنابا، إنّها البداية أيّها الجاهل، ويلٌ لكَ وللرّسل وللأمم

منّي بعدَ حين!!».

حطّ الغراب على كتفِ يهوذا المُشعَر، أسقطَ الرّسالةَ بينَ يدَيه، أيُمكن أنْ تكونَ المجدليّة قد بعثَتْها مع هذا الغراب بعد أن انقطع عالَمها عن عالَمنا، تناوَلها ببرود، وقرأ: «العزيز يهوذا؛ إنّ السيف يجري حُكمُه على أعناقنا، نحن الأتباع الحقيقيّين للمسيح، مَنْ تُرى سيبقَى منهم لكي يروي حقيقةَ ما حدَثَ ويحدثُ في هذه الأيّام المُدلهمّة... لقد بدأتُ أسمعُ أنّ عيسَى هو مَنْ خطّط لهذا الأمر؛ أعني أنْ يذهبَ النّاسُ عامّةُ النّاس إلى اعتِقاد أنّه صُلِب؛ هل يُمكنُ أنْ يحاولَ نبيٌّ خِداعَ النّاس؟!! حاشاه؛ ولكنّ طائفةً ضالّة بدأت تنتشر في أورشليم، ومنها جزءٌ غيرُ يسير في أنطاكية وغلاطية وطرسوس تقول بأنّ المسيح هو مَنْ قدّم نفسَه فِداءً للبشريّة وطلبَ من الله ذلك ابتغاء الخلود، وأنّ الله علمَ صِدقه وقوّته في مجابهة المِحَن فأجابه إلى طلبه... كذّابون مُفترون مَنْ يقولون بهذا، أعرفُ أنّ بولس اليهوديّ يقول بهذا، أخبرَني بذلك بعضُ المُؤمِنين معي هنا، إنّه سيهدمُ عقيدَتنا يا يهوذا، ما زلتُ حتّى الآن مندهشةً أشدّ الاندِهاش من كيفيّة تسلّله إلى جماعتنا وكَرازته بيننا، هل يُمكن أن تكونَ علومَ الفلسفة واللّغة والفنون شفيعه لدينا؟! مَنْ يقول بهذا فهو مجنونٌ لا محالة!! أنا أرى بعينَيّ أنّ كثيرًا من القصص والحِكايات والبطولات ستُنسَجُ حولَ هذا المُفتري، وسيقدّمونه على أنّه أعظمُ الرّسل قولاً وعملاً، وأنّه خدمَ الصّليب؟! عن أيّ صليبٍ يتحدّثون؟! هل يحتاجُ الأمر إلى إيضاحٍ أكثرَ مِمّا قلتُه وقُلناه جميعًا من قبل: مَنْ يَقُلْ بصلبِ المسيح فهو إمّا جاهِلٌ أو كافر... واحسرتاه على يومٍ يأتي فيه النّاس، وتشيع بينهم هذه العقيدة الهَدّامة...

العزيز يهوذا: أتعرفُ كيفَ قدّمَ المسيح نفسَه للنّاس؟! لقد قدّمها مُلخّصةً في صِفَتَين: مُتمِّمٌ ومُبشّرٌ؛ مُتمّمٌ ما جاءت به شريعةُ موسى ولهذا لم تنفصل صلواتُنا في البداية عن معابد اليهود، ومُبشّرٌ بالنّبيّ الخاتِم الّذي سينقطع به عهدُ الرّسالات؛ إنّه ما مَضى على العهد حتّى أدّى دَوْرَه بأحسنِ ما يؤدّيه نبيّ، فلمّا أرادَ اليهودُ أنْ يغدروا به اصطفاه الله لنفسه، إنّ الله اصطفاه مرّتين؛ مرّة حينَ خلقه دونَ أبٍ، ومرّة حينَ أراده أنْ يكونَ شاهِدًا على ما نفعل إلى يومِ القيامة؛ فها هو في ملكوتِ الله يرى ويسمع ما نفعل؛ فلا تجعلْ عينَه يا أخي تقع منكَ إلاّ على حسَن، ولا تجعل أذنه تسمع منكَ إلاّ ما يُسعِد؛ إنّها وصيّتي لكَ ولنا وللرّسلِ كافّة، غدًا سيُهيلونَ التّرابَ على أجسادِنا، وسيبقَى هو يراقبُ من عليائه أتباعَه؛ أيُحسِنون أم يُسيئون؟! إنّني أرجو الأولى ولا أرجو الثّانية؛ لكنْ هل يُمكن أن تتمّ الأولى وفينا هذه السّوسة الّتي تنخر في جسدِ عقيدتنا؟! لا أدري لو كانَ المسيحُ حيًا ماذا كان يُمكنُ أنْ يفعل معه، لا أدري. حقًّا يا يهوذا لا أدري!! أمّا أنتَ يا يهوذا فسأظلّ أطلبُ لروحكَ السّلام».

مريم المجدليّة

أفسس

السّنة التّاسعة والثّلاثين لميلاد المسيح، الشّهر الأوّل.

٩٦

الأفكار العظيمة لا تأتي إلاَّ في الأوقاتِ العصيبة

ارتدى ثيابه على عَجَل، هبط الدّرجات، في المنتصف نظر إلى المرآة، رأى قمّةَ رأسه الجرداء؛ هتف: «الآنَ لا يُشبهني أحدٌ... نعم، هنالك كاليجولا واحدٌ ليس كمثله شيءٌ». تابعتِ ابتسامته ارتِسامَها وهو يواصل الهُبوط. كانَ قد دعا لاجتِماع قادة السّلطات كافّة؛ دخل القاعة الّتي تُشبِه قبوًا لانخفاضِها، جلسَ على رأسِ الطّاولة، كانَ المجلسُ قد أتمّ حضوره، تفحّصَ الأوراق المركوزة أمامه، لم يجدْ فيها شيئًا كانت بيضاءَ تمامًا، نظرَ إلى كاتِبه الّذي يقفُ خلفَ الطّاولة مُنتبِهًا: «تعالَ أيّها الشّقيّ» دنا منه، «كم عددُ الأوراق الّتي وضعتَها هنا؟!». «عشرٌ يا سيدي». «إذًا لا بُدّ من عشرة قرارات؛ ستخطّ على كلّ ورقةٍ قرارًا». دفعَ بالأوراق تُجاهه، تناولَها الكاتب، ورجعَ إلى الوراء، جلسَ إلى مكتبٍ صغيرٍ استِعدادًا لكتابةِ ما يُمليه القيصر.

نظر في وجوه القادة والأمراء والنّبلاء، وهتفَ بصوتٍ لم يتعرّف إليه أحدٌ مع أنّهم سمعوه مئاتِ المرّات من قبل، كانَ صوتًا رفيعًا حادًّا قريبًا من صرير النّحاسِ على الأرضِ الرّخاميّة: «لا بُدّ أن يكونَ أبناءُ روما أحرارًا، الحرّيّة لا تتحقّق للأحياء، إنّها تليقُ بالموتى؛ أتعرفون لماذا أيّها السّادة، لأنّ الرّوح سجينةُ الجسد، ومتى ماتَ الجسد تحرّرت الرّوح، ولأنّني أحبّ الحرّيّة لأبناء شعبي فسأستجلبُ الموتَ لأجلهم، وما من أحدٍ قادر على استِجلابِه مثلي؛ لأنّني أنا الإله الأعلى، لكنْ بِمَنْ نبدأ يا سادة... هه.. قولوا لي بِمَنْ نبدأ لِنَهَبَه شرفَ الموت أعني شرفَ الحُرّيّة؟!». ثُمّ كفّ عن زعيقه، ونظرَ في الوجوه،

لم يجرؤ أحدٌ أنْ ينطقَ بكلمةٍ، كانتِ الحيرةُ والخوف يتدفَّقان من عيونِهم جميعًا؛ القادة الّذين دخلوا الحروبَ كلّها، وقاتلوا على الجبهات جميعِها، وقفوا أمام كاليجولا جُبناء لا يجرؤون على الهَمس. الوزراء الّذين كانوا يتكلّمون في العادة أكثرَ من الإمبراطور لأنّهم مُستشاروه لم يخرج من أفواههم حرفٌ واحدٌ. لم يقدروا إلاّ على أنْ ينظروا بزوايا عيونهم بعضُهم إلى بعضٍ وضباب الهلع يُغشّيها. لكنّ كاليجولا نفسه أنقذهم من الموقف الرّهيب، فتابع قائِلاً: «كأنّني سمعتُكم تقولون؛ نبدأ بالفُقراء، الفُقراء أحرار أيّها السّادة أكثرَ منّا جميعًا، سنبدأ بأولئك الّذين كبّلتْهم مصالحهم وقيّدتْهم أموالهم وحبستْهم مناصبهم؛ سنبدأ بالأغنياء، أوّلاً أموالهم تؤول إليّ؛ إلى خزينة الدّولة، إلى خزينة روما، وأنا روما... يا هيليكون: كم عددُ الأغنياء في روما، أعني أولئكَ الّذين يعيشون في قصور وعندهم خدمٌ وشوّاس، ويملكونَ خيولاً، ولديهم إجازاتٌ فيذهبون ليستجمّوا في أعالي الشّمال... هاه... كم عددهم؟!». ردّ هيليكون كمن وجدَ فرصةً للهربِ من الجواب بطريقةٍ منطقيّة: «اسألْ وزير النّفوس يا سيّدي؛ فأنا لا علمَ لي». «أنا أسالكَ أنتَ أيّها الكلب، وجوابُكَ أو رأسك أو امرأتُك». تلعثمَ هيليكون، أصابتْه فجأةً صخرةٌ كبيرةٌ من الصّوّان في رأسِه فرأى الدّنيا تدورُ به: «ثلاثةُ آلافٍ ومئتان وسبعةٌ وثمانون غنيًّا يا سيّدي». اخترعَ الرّقم من عنده لهول الموقف. لكنّ كاليجولا زعقَ به: «كيفَ عرفتَ الرّقمَ بهذه الدّقّة يا هيليكون، هل تعمل مع الشّياطين أيّها الضّرّاط، امرأتُكَ منذ اللّحظة ستبيتُ معي في الفِراش، لم يعدْ لكَ حقٌّ بها». صمت، ثُمّ التفَتَ إلى وزير النّفوس، كانَ في تلكَ اللّحظةَ قد أخرج من جيبِ ردائه زُجاجةً صغيرةً وهَمّ

بأنْ يتجرّع ما فيها من سائلٍ، لكنّ كاليجولا أوقفه بإشارةٍ من يده: «ماذا تفعل أيّها الوزيرُ المحترم، ما الّذي في داخل هذه الزّجاجة اللّعينة؟!». «إنّه دواءٌ للرّبو يا سيّدي، يُصيبني الاختِناقُ بينَ فترةٍ وأخرى، توتُّر فِيِ الأماكن المنخفضة والضّيّقة أيّها الإله... لا شيءَ أكثرَ من ذلك... أنا أتناولَ دواءً أيّها القيصر». قامَ كاليجولا من مكانه، خبطَ بيده على صدور الحرسِ واحِدًا واحِدًا، وشقَّ طريقَه إلى وزير النّفوس، حتّى إذا صارَ على مقربةٍ منه، انحنَى بجذعه إلى الأمام، وقرّب أنفه من فم الوزير وتشمّمَ الرّائِحة، ثُمّ اعتدلَ وشبكَ بين ذراعَيه وأراحهما على صدره وتنهّد: «هه أيّها الوزير؛ هذا دواءٌ ضدّ التسمّم؛ اممم لا بُدّ أنّكَ تشكُّ بي، وتعتقد أنّني سأُسمّمُك». «كلاّ يا سيّدي أُقسم لك بِكَ أنّه لم يخطر ببالي ذلك أبدًا، كلّ ما في الأمر أنّه دواءٌ للرّبو الّذي أُعاني منه منذ فترةٍ». «تكذب أيّها الوزير، تكذب... لقد جمعتَ جريمَتَين إلى الآن: الكذب والشّك، وكلاهما قاتلٌ أيّها الوزير، أجبْني: لماذا تتناولُ دواءً مُضادًا للسّمّ لا بُدّ أنّك تعتقد أنّني أغدرُ بأصحابي وبوزرائي، وهذه جريمةٌ ثالثة؛ إنّكَ تنتعني بالغدر والخيانة، ثلاثُ جرائم كافِية لأنْ تقضي عليكَ أيّها الحبيب، ولكنْ لا بأس، الإمبراطور الّذي يمنح الحرّيّة لعامّة الشّعب يُمكنه أنْ يمنحها للخاصّة كذلك». مَدّ يده إلى طرفِ ردائه، تناول من هناك زُجاجةً، رفعها أمام عيونِ المجلس، كانت شفّافةً يترقرق في داخلها سائلٌ أصفر، هتف بالوزراء: «أترونَ أيّها السّادة، إنّه من أفضلِ أنواع السّموم، قُدرته على القَتل تُساوي قُدرةَ الآلهة فقط على ذلك، لقد عملَ على تركيزه أفضل خُبرائي في السّموم، الآنَ سنشاهد تأثيره بصورةٍ حيّة على هذا الوزير، تخيّلوا أنّ الوزير هو البطل الّذي

سيمنَح الشّرف من جهتَين، أنّه ضَحّى بنفسِه ليجرّب عقارًا لم يُجرّب على بشريٍّ من قبلُ، هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى أنّني أنا بنفسي سأقومُ بإسقائه هذا السّمّ، وهذا هو الشّرف من جهةٍ أخرى». لفّ عُنقَ الوزير بيمينه، ويقرّب الزّجاجة من فمه بيساره. كانتْ عينَا الوزير قد اتّسعتا حتّى لم يعد المحجران قادرين على احتوائهما فنفرَتا إلى الخارج، انكمشَ مثلَ عصفورٍ ذبيحٍ في مقعده، وتراجع بظهره إلى الوراء، شدّ كاليجولا على عنقه: «افتَحْ فمكَ أيّها الحبيب؛ أعدُكَ أنّكَ لن تُعاني كثيرًا، ما هي إلاّ لحظات وتصحبُكَ الآلهةُ إلى السّماء». شدّ الوزيرُ على أسنانِه، بدتْ أنفاسُه لاهثةً مُتقطّعةً، نادَى كاليجولا أحدَ الحرس، شَقَّ الحارس شفتَيه المُطبَقَتَين، بانتْ من تحتهما أسنانٌ تصطكّ من الرّعدة، صرخ كاليجولا به: «افتحْ فمكَ أيّها الجبان». حانتِ اللّحظةُ المناسبة، انتهزَ الرّجفةَ الّتي أصابتِ الفمَ المسكين، وسكبَ السّمّ كلّه، لم تنجح محاولاته في ألاّ يتجرّع منه شيئًا، بدأ الزّبد يطفو على شِدقَيه، كان يحملُ بعضَ الموادّ الحارِقة، رفستْ أقدامُه الأرض، لوّح بيدَيه كأشرعة، كانَ يبدو أنّه يُحاول أنْ يُمسِكَ بروحِه الهاربة منه إلى أعلى، أفلتتِ الرّوح، كانتْ أسرعَ مِمّا ظنّ، وفي لَحظاتٍ كان الجسدُ قد همدَ تمامًا. تراجَع كاليجولا إلى الوراء خُطوتَين، كانتْ لذّةٌ ما تقطُرُ من كلماته: «هنيئًا له؛ لقد أصبحَ حُرًّا!!».

عادَ إلى مجلسه، هتف بعدَ أنْ سحبَ أحدُ الحرس الجُثّة خارجَ القاعة: «كنتُ أتساءَل عن كيفيّة تنفيذ حُكمِ الإعدامِ بالأغنياء؛ إنّهم آلاف يا هيليكون، لا بُدّ من خُطّة، قتلُهم في يومٍ واحدٍ أكبرُ من الشّرف الّذي يُمنَح لهم، يجب أنْ تُطلِقَ روما حريّتهم على دُفُعات، ماذا تقترح يا سيبون؟! كيفَ ننفّذ فيهم حُكم الإعدام؟!». وقفَ

سيبون ذي الثّمانيةَ عشرَ ربيعًا: «الأمرُ سهلٌ يا مولاي، اقتُلْ في كلّ يومٍ مئة، مئةٌ كافِيةٌ لإشباعِ توقِكَ إلى الحُرّية». «عظيم يا سيبون؛ أنتَ أكثرُ حِمارٍ يفهمني». «لكنْ أقترح يا سيّدي ألاّ تقتلهم بالطّريقةِ نفسِها». «ماذا تعني؟!». «اقتلْ كلّ مئةٍ بطريقةٍ مختلفة». «أوضِحْ كلامَكَ أكثر يا سيبون فقد دبّتِ الحماسةِ في جسدي؛ هيّا قُلْ بسرعة». «اقتلْ مئةً بالمقصلة، ومئةً بإلقائها في النّهر، ومئة نحتفل بإطلاقها أمام الوحوش الضّارية في الكولوسيوم، ومئة بالجوع، ومئة بالصّلب، ومئة... وهكذا». «خيالُكَ يقاربُ خيالَ الآلهة أيّها الحكيم.. افعلْ ذلك يا هيليكون، واطلبْ من القادة أنْ يجمعوا أكبرَ قَدْرٍ من فقراء الشّعب تحتَ شرفةِ قصري ومعهم أسلحتهم، دعْهم يتجمّعون هُناك ريثما نُنهي اجتماعنا هذا؛ لقد خطرتْ ببالي فكرة». يصمتْ، ينظر إلى كاتبه، كم بقي من الأوراق لديكَ أيّها الكاتب: «ستٌّ يا مولاي». «بل خمسٌ أيّها الخاطِئ، سيكلّفك ذلك أحدَ أبنائِك». «لكنْ يا سيّدي...». «ربّما نسيتَ قرار جمع الفقراء تحت شرفتي؛ لكنّ ذلك ليسَ عذرًا، ومن الشّجاعة أنْ تتحمّل نتيجة خطئكَ هذا بشرفٍ، لا بُدّ أنّ أحدَ أبنائِكَ الثّلاثة لائقٌ بشرفِ منحي الحرّيّةَ له!! والآن تبقّى لدينا خمسُ قرارات... اكتبْ أنّني منحتُ نفسي صفةَ الألوهيّة المُطلَقة، وابعثْ بذلك إلى كلّ الدّول الّتي ترضخ لإمبراطوريّتي، وأمُرْ أمهر النّحاتين أنْ يصنعوا لي تماثيل في معابدها لكي يعبدني النّاس بدلَ أنْ يعبدوا الآلهة الكاذبة كجوبيتير وفينوس وجلجامش... بقيتْ أربعة، اكتبْ أنّني فرضتُ الضّرائبَ على كلّ شيءٍ؛ على مَنْ يستخدمُ مرافقَ الدّولة، على مَنْ يجلسُ في شوارعها، على مَنْ يمثّلُ في قاعاتها ومسارحها، على مَنْ يكتبُ اسمَها على تُرسِه،

وأهمّ شيءٍ... على العاهِرات، ولا أقصدُ تلك اللّواتي ما زِلْنَ يُمارِسْنَ وظيفتهنّ فحسب، بل حتّى على التّائبات منهنّ، إمّا أن تدفعَ خُمسَ مالِها، أو أن تدفعَ جسدها لكلّ مَنْ أمنحه شرفَ تطبيق هذه الضّريبة...» تنهّد. كفّ عن زعيقه. نظرَ في وجه (لابيدوس): «كم ورقةً تبقى لدى الكاتب يا لابيدوس؟!». «ثلاثةٌ يا سيّدي». «إجابةٌ صحيحةٌ لكنّها لعينةٌ يا لابيدوس؛ لأنّها فوّتت عليكَ فرصةَ الحصولِ على شرفِ الحُرّيّة؛ لكنْ لا تحزن، لربّما يُحالِفكَ الحظّ في المرّات القادِمة... قُمْ ونادِ بالنّاس أنتَ وهيليكون أنْ يجتمعوا تحتَ شُرفةِ قصري». قال لهما وهما يخرجان: «أريدُ أنْ يمتدّ الحشدُ حتّى يملأ كلّ الفوروم، ولا أريدُ أنْ أرى نهايةً للبشرِ إلاّ على تخوم (الكاسترا)». أحنَيا رأسَيهما: «سمعًا وطاعةً». تابع وهو يُشيرُ إلى سيبون: «لا أرى أباكَ العجوز في الحضور يا سيبون: أينَ تُراه يكون؟ التّباطؤ عن حضور اجتماعٍ فيه القيصر يُعدّ استهزاءً بالقيصر، من المُؤسف أنْ تجعله الحِكمة والشّرف الزّائف متكبّرًا.. أنا أحبّكَ يا سيبون، ولو كانَ دمُكَ نقيًّا لجعلتُكَ القيصرَ من بعدي، ولكنّ دماء الأباطرة مُتوارَثة يا عزيزي، أمّا أبوك فبعدم حضوره لاجتِماعنا أثبتَ استخفافَه بنا، وأنّ دماءه خبيثة، أمعقولٌ أنْ يأتي دمٌ نقيّ كدمك من دماءٍ مُلوّثة؟! لا يا سيبون لا... أظنّ أنّكَ تحبّ أن تُبقي دمكَ نقيًّا وتتخلّصَ من كلّ شيءٍ يلوّثه... أليسَ كذلك يا عزيزي... أنا أسمعك تقول بلى، حتّى ولو رأيتُ ارتِجافةَ شفتَيك، لا بأسَ يا سيبون، إنّها ارتِجافةُ الخلاص يا عزيزي، أرأيتَ إلى الجسدِ الخبيث كيفَ يرتجفُ وهو يحاول الخلاص من لوثةِ الدُّنيا بارتقاء روحِه... إنّها ليستْ رجفةَ الخوف يا سيبون؛ أؤكّد لكَ ذلك، فأنا أعرفُكَ جيّدًا؛ إنّها رجفةُ الخَلاصِ كما قُلتُ

لك، وما أجملَ أنْ يكونَ خلاصُكَ على يدِ الإله نفسِه؛ إنّه خلاصٌ أبديٌّ يا عزيزي... إضافةً إلى أنّني لا أرتاح إلا بينَ الموتَى... والآنَ هل يُمكنُ أنْ تطلبَ بنفسكَ من الحارس الّذي يقفُ خلفَكَ استدعاءَ أبيك... لماذا لا تفعل يا عزيزي... آآآه... فهمتُ... إنّكَ لا تُريد أنْ تُلوّثَ اسمَه الدّنس على لسانِك.. أنا سأفعل... أيّها الحارس الّذي يقفُ مباشرةً خلفَ سيبون أحضِرْ لنا أباه في الحال... والآن لِتَعُدْ إلى ما تبقّى من قرارات، كم تبقّى من القرارت يا كايزونيا؟!». «اثنان يا سيّدي». «الأفعَى تنجو من الموتِ في كلّ مرّة؛ ألم أقلْ لكِ إنّني لا أرتاحُ إلاّ بينَ الموتَى، فلماذا تهربين من بينهم؟!». «لكي أظلّ بجانبكَ يا سيّدي». «إنْ كان بقاؤك يفتح لي الطّريق إليهم، أو يُضيئه فمرحبًا به من بقاء...» أدارَ كاليجولا وجهه في القادة باحِثًا عن أحدٍ، هتفَ وهو ما زال يرفع عنقه مُستطلِعًا الحاضرين: «أينَ كلوديوس الرّعّاش...؟! أينَ عَمّي ذو الفأفأة؟! هل أنتم مُتأكّدون من أنّه عمّي؟! ألم يكن ابن زنا على ما أذكر، دعوا الشّرفَ جانِبًا؛ لا بُدّ أنّكم جميعًا أبناءُ زِنا بما فيكم أنا...!!». صمتَ قليلاً ثُمّ تابع: «أين نيرو الصّغير... يا لَلمِسكين؟! ألا يعرفُ ذو السّنوات الثّلاث هذا أنّه ابنُ سِفاح؟! أنا أعرفُ أختي تمامًا، لم تترك واحِدًا من أعضاء مجلس الشّيوخ صغيرًا كانَ أم كبيرًا إلاّ ونامتْ معه، تُرَى أيكونُ هذا الحقيرُ مخلوقًا من تجمّع نُطفهم كلّهم في رَحِمِ أختي، لا بُدّ أنْ عينَيه الواسِعَتين، وجلده الأحمر، وذقنه المُفلطَحة ورأسه المدوّرة الكبيرة تقول ذلك... والآن اكتب أيّها الكاتب اللّعين: الإمبراطور يملك كلّ شيءٍ في الإمبراطوريّة يملك الرّجال ونساءهم وأطفالهم، والقصور، والبِحار، والجبال، والسّهول، والسّلاح، والطّعام، واللّباس، والتّراب، ويملك أصواتَ

النّاس، وأفكارهم، ومشاعرهم، ويملك الذّرّ والوحوش، وكلّ شيءٍ... لم يبقَ إلاّ أنْ أقول... اكتبْ ذلك أيّها اللّعين اكتبْ... كلّ عروسٍ تُزَفّ إلى زوجها في الفوروم، يُبعَث بها إليّ قبل زوجِها لأبارِكها وأمنحها مائي، ثُمّ تعودُ إلى زوجها في اليومِ الثّاني، أريدُ ألاّ يخلو فراشي في كلّ ليلةٍ من عَروسٍ جديدةٍ... والآن...». دخل في تلك اللّحظةِ الحارس وقد قيّد الشّريف أبا سيبون من يدَيه. «ها أنتَ أخيرًا هُنا أيّها العَجوز... لقد قرّرتُ أنْ أمنحكَ الحُرّيّة المُطلَقة نظيرَ خدمتك بفلسفتك للإمبراطوريّة... ها يا سيبون بأيّ طريقةٍ سنمنحه الشّرف يا عزيزي؟!». ظلّ سيبون صامِتًا. تابع كاليجولا: «هَيّا يا عزيزي... هيّا... أنا سريعُ الضّجر، هيّا أعْمِلْ خيالَكَ الواسِعَ كما فعلتَ قبلَ قليلٍ... لكنّني أريدُ وسيلةً جديدةً تليقُ بشريفٍ حكيمٍ كأبيك... هَيّا». قامَ سيبون من مكانه، كان أبوه قد صار على بُعدِ خُطوتَين منه، استلّ سيفَ أحدِ الحرس، تحفّزَ الجميع لما سيفعله، نَظرَ سيبون في عَينَي أبيه عميقًا، كانَ يريدُ أنْ يبكي، أنْ ينفجر، أنْ يصرخ، أنْ يهوي، أنْ يطلبَ من أبيه أن يغفر له، أنْ يفعل كُلّ شيءٍ، لكنّه لم يفعل إلاّ شيئًا واحِدًا، أرجعَ السّيف بكلتا ذراعَيه عن يمينه، وبكلّ ما يملك من قوّة ضربَ عُنُقَ أبيه وهو يقول: «إنّها الحرّيّة يا أبي... إنّها الحرّيّة كما قال كاليجولا... سامِحْني؛ لم أكنْ قادِرًا على أنْ أحتملَ أكثر». تطايرَ الرّأس حتّى ارتطمَ بالجدار القائم خلفه، كوّن هُناكَ بُقعةً كبيرةٍ من الدّم، ثُمّ سقط على الأرض، وراحَ الدّم يسيلُ في خُطوطٍ متعرّجة على الجدار!! أمّا سيبون فارتمى على كرسيّه مُنهارًا يحدّق في الفراغ وفي اللاّشيء. وقفَ كاليجولا. صفّقَ طويلاً. لم يشعر براحةٍ مثلَ هذه من قبل، زعق: «لقد تجاوزتَ حدودَ الخيال يا سيبون... لم أحبّكَ

في السّابق أكثرَ مِمّا أحببتُكَ الآن». توجّه إلى بابِ القاعة، أشار إلى كايزونيا وبعضِ القادة والشّيوخ أنْ يتبعوه، وطلبَ من سيبون وبقيّة الوزراء أنْ يبقَوا ليتناقَشوا في كيفيّة تنفيذ قراراته على أحسنِ وجه.

صعدَ إلى الشّرفة، نظرَ إلى الحشود الّتي بدأت تغطّي الفوروم بأكمله، ابتسمَ ابتسامةً واسِعة، طلبَ من (لابيدوس) الّذي سبقه مع (هيليكون) إلى هُناك أنْ يأتيه بعشرةِ صناديق كبيرة من الذّهب، مَثلت الصّنادِيق بينَ يديه، فتحَ الصّندوق الأوّل، ملأ راحته من قِطَعه اللاّمعة، ثُمّ رَماها على الجمهور، تطايرت القطع الذّهبيّة في الفضاء، تلقّفَتْها العيون؛ ظلّت تُتابِعها في طَيَرانها بشغفٍ ونَهَم، حتّى إذا بدأت تهوى مَدّ الجائِعون إلى كلّ ما يلمع أيديهم ليتلقّفوا الكنز الّذي يمنحه الإمبراطور لهم بلا مقابل. بلا مقابل؟!! مُخطِئون؛ إنّ الّذي لا يرتاح إلاّ بينَ الموتَى سيأتيه المُقابِلُ سريعًا... قبضَ عددٌ من الّذين قفزوا أعلى من سِواهم على بعضِ النّقود، وراحَ بعضهم يبحث عمّا تناثَر منها على الرّؤوس أو هوى على الأرض، دبّتِ الفوضَى، تهاوَى النّاس، سقطوا على الأرض، داستْهم الأقدام المُتزاحِمة، صاحُوا مُستغِيثين؛ لم يسمع نداءَهمُ المُفجِع أحدٌ باستثناء الموت، كانَ صوتُ رنين الذّهب يُغطّي على كلّ صوتٍ... ابتسمَ القيصر ها هو يشعر بالرّاحة لرؤية الجُثث، ملأ حفنةً جديدةً من الذّهب رماها أعلى هذه المرّة، بدأ تساقُط الضّحايا من جديدٍ... حدثَ ما هو أكثر فجائعيّة، نشبَ خِلافٌ بينَ اثنَين على أنّه هو الّذي أمسكَ بالقِطعة الذّهبيّة قبلَ الآخَر، لكنّ الآخَر ادّعَى أحقّيّته بها، لم يحسِم بينهما النّزاع الّذي بدا أنّه يطول غيرُ السّيف، تقاتَلا، طارَ رأسُ أحدهم في النّهاية... تكرّر المشهدُ كثيرًا من بعدها، والإمبراطور مُستمِرّ في لُعبته الّتي بدا أنّه لم يكنْ مُستمتِعًا

بشيءٍ في حياته كلّها استمتاعَه بهذه اللّعبة في هذه اللّحظات الاستثنائيّة... ظلّ الإمبراطور يملأ راحته بحفنةٍ من الذّهب ويرميها في وجوه الجائعين إلى كلّ شيء حتّى أنهكتْه يده، شعرَ بالارتِخاء، لكنّ الجثث الّتي ملأتِ الفوروم، والدّماء الّتي شكلّت بقعًا كبيرة، وسالت في كلّ اتّجاه دفعته إلى المُتابَعة... حينَ كانَ الصّندوقُ العاشِر يُقارب على النّفاد كانتِ الشّمس قد بدأتْ رحلةَ الهروب، لم تحتمل أنْ تُبقي تحتَ بصر البشر هذا الخزي، أرادتْ أنْ ترحل سريعًا، لكنّها لم تتمكّن قبلَ أن تهبَ عينَي القيصر المشهدَ كامِلاً؛ إنّه مشهدٌ أسطوريّ لا يقدر على استنباطه خيالُ الشّياطين.

قال القيصر وهو يفرك يديه جَذِلاً؛ بقيتْ لعبةٌ أخيرةٌ لهذا اليوم، اتبعوني، خرجوا جميعًا من الشّرفة، قال لكايزونيا: «هل أعجبكِ المشهد؟!». أجابتْه: «إنّه أجمل من مشهدِ الاحتِفال بعشقِنا؛ لماذا لم تفعل مثلَ هذا الجمال في اليومِ الّذي قرّرتَ فيه أنْ تتّخذني عشيقةً». أجابَها: «الأفكار العظيمة لا تأتي إلاّ في الأوقاتِ العصيبة». هبطوا الدّرجات إلى حديقةِ القصر، كانوا قد تحلّقوا حوله ليسمعوا ما يقول، وجّه كلامه إلى لابيدوس: «ألم تصنع لنا عِجلاً حديديًّا يا لابيدوس؟!». «بلى يا سيّدي، لقد أنفقتُ عليه أكثرَ من إنفاقي على أحدِ قصوركَ في بلادِ الإمبراطوريّة يا مولاي؛ وهو يبدو حقيقيًّا كما أمرتَ». «إذًا فلتُحضِره إلى هذه الحديقة على الفور يا عزيزي». «أمركَ يا مولاي، لكنْ هل يسمحُ لي الإمبراطور أنْ أسأله عن سببِ طلبه لصناعة العجل هذا، نحنُ لسنا يهودًا يا سيّدي». «ستعرفُ بعدَ قليلٍ يا لابيدوس؛ فلا تستعجل الأمر». انحنَى قائِلاً: «فليغفر لي مولايَ طَيشي».

دخل ستّةٌ من العبيد يجرّون على عجلاتٍ عِجلاً ضَخمًا، قد تولّى صِناعته أمهر الصّائغين، ولوّن جِلدَه أمهرُ الرسّامين، كانث رأسُه تعدل حجم صخرةٍ، وعنقه أغلظُ من عمودٍ من تلك الأعمدة المنتشرة في الفوروم، وله بابٌ صغيرٌ عندَ بطنه، وقد صُنِع العجل كما لو كان رابِضًا في مربطه. أمرَ القيصَرُ أنْ يوضَع في وسط الحديقة، وطلبَ من القادة والوزراء أنْ يُشكّلوا حوله حلقةً دائريّةً مُغلَقة. بدا المشهدُ رهيبًا. كما لو كانَ الإمبراطور سيأمرهم بالبدء بعبادته أو الجثو بينَ يديه. مرّتْ لحظاتُ صمتٍ رهيبةٍ، لم يتجرأْ أحدٌ على أنْ يقطَعها سِوى لابيدوس الّذي أمر بصنعه: «ما الفائدة الّتي أردتَها يا مولاي من وراء صنع هذا العجل؟!». «ستكونُ أوّلَ من يعرف يا لابيدوس» أجابه كاليجولا. ردّ لابيدوس: «يسرّني أنْ أعرفَ منكَ يا مولاي؛ ويسرّني أكثر أنْ أكونَ أوّل من تبوحُ له بحكمتكَ في ذلك». «هل أنتَ متأكّد يا لابيدوس؟». «بالطّبع يا مولاي؛ شرفٌ كبيرٌ لي أنْ أكونَ أنا أوّل مَنْ يسأل، وأوّل مَنْ يعرف؛ إنّني على ثقةٍ من أنْ عظيمًا مثلكَ لا يفكّر في سبيل ذلك إلاّ بأمرٍ عظيم وهدفٍ كبير». «إذًا ادخل إلى جوفَ العجل لتختبر ذلك بنفسِكَ». بدأ الشّك والرّعب ينسلاّن خيطَين من حدّ سكّينٍ جارحٍ في قلبِ لابيدوس: «لو دخلَ غيري يا مولاي وجرّبَه؛ فأنا ضخمٌ سمينٌ كما ترى». «ولأجل ذلك جعلتُكَ تصنعه كبيرًا يتّسع لثورٍ ضخمٍ مثلك... ادخلْ أيّها العزيز». اقتربَ منه حارِسان، حملاه، كانَ هُناكَ حارسٌ ثالثٌ يفتح لهما الباب القارّ في بطن العجل، قذفاه إلى الدّاخل مثل كرةٍ متضخّمة، وأغلقوا عليه الباب، أمرٍ بمواقد ضخمة فوضعتْ تحتَ بطن العجل الّذي كان مرفوعًا على قوائم حديديّة، ثمّ أمر بالنّيران فأشعلت، وبدأ صُراخُ

لابيدوس يأتي من الداخل مرعبًا مُفجِعًا. حينَ علتِ الصّرخات كانت قهقهات كاليجولا قد علت هي الأخرى، هتف بالموجودين بسعادة: «استمتعوا بصرخاتِ هذا البشريّ؛ إنّها لا يُمكن أن تحدثَ في مكانٍ آخر؛ إنّه عملٌ لا يقدر عليه إلاّ إلهٌ مثلي... يا هيليكون». «لبّيكَ يا مولاي». «اصنع لي مئةً من هذه العجول، الدّور القادم سيكونُ على ابنتي الصّغيرة؛ إنّها ليستْ لي، هكذا قالتْ لي الآلهة؛ إنّها بنتُ سِفاح، ومكانُها في بطنِ العجل.. أمّا أنتم أيّها السّادة فبإمكانكم أنْ تنصرفوا؛ لقد قضيتم معي وقتًا صعبًا؛ وآنَ لكم أنْ ترتاحوا!!!!».

٩٧

ها أنذا أعودُ إليكِ حُرًّا!

تخيّلَ امرأته في أحضانِ أكبر مَعتوه في التّاريخ، إنّ روحه خبيثة، وكُلُّ ما فيه دَنَس، كيفَ يُمكن لهذا المخلوق الّذي يَدّعي الانتسابَ إلى الجنس البشريّ أنْ يكونَ إمبراطور روما!! إلى أينَ تتّجه البوصلة؛ وهل هناك بوصلة بحقّ؟! أمْ أنّ بوصلة روما اليوم صارت الجنون والدّنس والقتل والفراغ؛ هذا الّذي يُمسِك بدفّة السّفينة سوفَ يذهبُ بنا إلى المجهول، سيسوق روما مثلَ قطيعٍ من الخِراف إلى الهاوية، حضارةُ روما وتاريخُها العظيم بيد معتوهٍ لم يعدْ يدرك الكارثة الّتي تُسبّبها أفعالُه؛ أفعالُه الّتي يُمكن عَزْوها إلى الحيوانيّة، إلى القذارة، إلى الشّيطانيّة، إلى العدميّة... إلى كلّ شيءٍ باستثناء الإنسانيّة؛ الإنسانيّة المذبوحة على يدِ ابن زنا... هتفَ في أعماقِ نفسِه الحائرة الثّكلي: «لو أنّه قَتَلَه قبلَ أنْ يُقرّر أن يسرقَ منه زوجته لكانَ أهون، ليس القتل بصعبٍ أمام جريمةِ الشّرف، ولئنْ لم ينتصر لحياةِ الآخرين وهو يراها تنسكب أمام عينيه، وتُذبَح أمام ناظِرَيه فليَنتصرْ لشرفه الّذي دُنّس؛ الشّرف أغلى من الحياة، والحياة من بعدِ فُقدانه موت؛ فلأمتْ إذًا في سبيل استنقاذ شرفي».

في اللّيل بدأ صُراخَه الاعتِياديّ، قامَ من فراشه، ركضَ في الممرّات اللّولبيّة، غطّى عينَيه بقماشةٍ سميكة وراح يعدو أعمى، ارتطم بأحد المرايا المُعلّقة على الجدارن فانكسرتْ، ضَحِكَ من أعماقه، إنّها لعبته حينَ يكونَ وحيدًا، هتف: «هذا سَبَبُه أنّ اللّيل يمرّ دون أنْ أرى رؤوسًا تتطاير؛ كم أشعر بالوحدة حينَ لا أقتل، كم أشعرُ بالغربة عن

نفسي حين لا أرى نافورةً من الدّماء تتدفّق من أعناقِ الذّاهبين إلى حرّيّاتهم... آه يا أغريبينا... إنّه العار الّذي لا يزول... أنا الحرّ الوحيد في الإمبراطوريّة، لكنّني عبدٌ لي، فمن يحرّرني منّي؟! مَنْ يهبني الحرّيّة المطلَقة كإله؟! مَنْ يستطيع أنْ يفعل ذلك.. كلّهم جُبَناء... كلّهم كلابُ صيدٍ لا تتقن إلاّ تنفيذِ أوامر سيّدها». شدّ العُصابة على عينيه من جديد وراح يركُض في الممرّات، وكلّما ارتطم بشيءٍ من موجودات القصر قهقه. احتضنَ في النّهايةِ عمودًا رُخاميًا كما لو كان يحتضنُ أمّه، وهتف بصوتٍ بئيس: «حرّريني يا أغريبينيا... إنّك الوحيدةُ القادرة على فَهمي... حرّريني». لم يتردّد في القصر سوى صدى صرخاته الّتي اعتاد قاطِنوه عليها. أرخَى ذراعيه. وهبط. أراح ظهره إلى قاعدة العَمود، وبدا وحيدًا تمامًا. نزلتْ إليه كايزونيا، أخذتْ بيده، استسلمَ لها، قادته بهدوء عبر الدّرجات إلى غرفته، تبعها كطفلٍ صغيرٍ يتبعُ أمّه، تجاوزتْ به الغرفة إلى الشّرفة، جلسَا إلى كُرسيّين هناك، كانتْ أضواء الأعمدة في الفوروم خافِتة تُنير الطّرقَ الرّئيسة، وتُلقِي بظلال الأعمدة العِملاقةِ خلفَها، وفي وسطِ القبّة السّماويّة الكُحليّة كانَ القمر سِراجًا مكتمل النّمو، أمّا (الكاسترا) فبدا بالمشاعل القويّة الّتي تنير صوامعه الحصينة من بعيدٍ رهيبًا. همستْ كايزونيا: «حبيبي كاليجولا؛ لماذا تفعل ذلك بنفسك؟!». رجفتْ عيناه، كانَ ينظرُ إلى القمر، التفتَ إليها: «أنا أفعل ما يُمليه عليّ ضميري يا كايزونيا، أنا أحتمل كلّ حماقات شعب روما والشّعوب الّتي أحكمُها من أجل أنْ تعيش». «لم يعد هناك من شعبٍ يا مولاي... إنّها تموت... إنّها تُقتَل بخطّةٍ مُنظّمة... القَتْل صارَ خبزَ النّاسِ اليوميّ». «إنّني أهبهم الحرّيّة يا كايزونيا، إنّني أفعل ما لم يفعله إمبراطورٌ من قبلي؛

إنّه ليس سهلاً عليّ أنْ أقومَ بذلك؛ فأنا أُضحّي من أجل حرّيّة هذا الشّعب». «الموتُ ليس حرّيّةً يا كاليجولا». «بلى يا كايزونيا». «على فرض أنّه كذلك يا سيّدي، تخيّلْ أنّ الحرّيّة وعاءٌ من ماءٍ موجودٍ بينَكَ وبينَ شعبِك، كلّما وهبْتَهم جزءًا منه لهم نقصت جزءًا منه لك، إنّ حرّيّتهم قد تؤدّي إلى عُبوديّتك». «ولذلك أنا بائسٌ يا كايزونيا، أنا أضحّي بحريّتي من أجل حرّيّتهم؛ أرأيتِ إمبراطورًا فعلها من قبلي». «لا تُشغِلْ نفسَكَ بحرّيّتهم يا مولاي؛ فليذهبوا إلى الجحيم؛ أشغِلْ نفسَكَ بحرّيّتك». «أنا تائهٌ يا كايزوينا... لقد فقدتُ كثيرًا منّي». «أنتَ تملكُ كلّ شيءٍ يا مولاي... كُلّ شيءٍ». «كاذبةٌ يا كايزونيا، كاذبة». «ما الّذي ينقصكَ يا مولاي؟!». «القمر؛ لماذا لا أملكُ القمر، لماذا لا يكونُ معي في قصري». «لديكَ أقمارٌ كثيرةٌ في قصركَ يا مولاي». «كلّكم تكذبون... ليسَ لديّ شيءٌ في هذا الجحيم الّذي أعيشه، أينَ هو سيبون، أينَ هو هيليكون، دعي الحرسَ يستدعونهما إلى هنا... الآن يا كايزونيا الآن... أريدُ أنْ أراهما...». دخلا عليه وهما يلهثان: «اقتربْ منّي يا سيبون؛ أنتَ أعزُّ مَنْ في روما عليّ، هل أنتَ حزينٌ لأنّني قتلتُ أباك؟! لا تحزنْ يا سيبون؛ لقد فعلتُ ذلك من أجلكَ أوّلاً ثُمّ من أجله ثانيًا، كانَ يُمكنُ أنْ يموتَ في الحرب، لقد امتنعتُ عن خوضِ ثلاثةِ حروب لأجنّب روما مزيدًا من الضّحايا... اقتربْ أنتَ يا هيليكون؛ أنتَ أقربُ مُستشارٍ إلى قلبي، هل أنتَ غاضبٌ منّي لأنّني سرقتُ زوجتك؛ لقد منحتُها شرفَ أنْ تمسّ جسدي؛ النّساءُ كثيراتٌ يا هيليكون، كثيراتٌ جدًّا لكنّ القليلَ القليلَ منهنّ مَنْ يحظَى بهذا الشّرف، إذا كانَ الأمرُ يُزعِجكَ فِعلاً ولا أظنّ مُستشارًا يُحبّ إمبراطوره سيكونُ منزعجًا منه، لكنْ لو افترضنا ذلك فاخترْ لكَ

سربًا من العذراوات، من عذراوات روما، وأنا سأسوقه إلى بيتك كما تُساق النّعاج يا هيليكون، كلّ ذلك لتعرفَ أنتَ وسيبون مكانتكما في قلبي... والآن... أريدُ منكما أمرًا أرجو ألاّ تخذلاني في تحقيقه!». تبادَل سيبون وهيليكون النّظرات بينهما ثُمّ هتفا بفتور: «نعم يا مولاي، ماذا تريد؟!». «أريدُكما أنْ تَجلِبا لي القمر». «القمر؟!» هتفَ سيبون؛ «نعم؛ القمر... أنا أملك كلّ شيء فلماذا لا أملك القمر، انظرا إليه؛ ها هو أمامكما». هتفَ هيليكون: «ما أسهل ذلك يا سيّدي، كلّ ما في الأمر أنّنا سنبني بُرجًا يصلُ إلى أسباب السّماء، ثُمّ نصعدُ إلى قِمّة ذلك البُرج، ونرمي بشبكة الصّيد تُجاه القمر، ونصيده كالسّمكة في الشّباك، ونأتي به إليك... أمرٌ سهلٌ يا مولاي؛ سهلٌ جِدًّا، لن يطلُعَ عليكَ الصّباح إلاّ والقمر بينَ يديكَ يا سيّدي». هتفَ كاليجولا جَذِلاً: «رائع يا هيليكون، بقيَ شيءٌ واحدٌ أريدُه من سيبون... انظر إلى الكاسترا يا سيبون، إنّ كلّ روما تأكل من مخازن الحبوب في هذا الكاسترا.. من الجميل أنْ تحدثَ مجاعةٌ في روما... لقد سمعنا بالمجاعات الّتي حدثت حينَ جفّتِ المياه وشحّتِ الأمطار وقلّتِ المزروعات وحدثتِ الزلازل ووقعتِ البراكين... كلُّ ذلك من فِعل الآلهة أو الطّبيعة... لكنّني أنا الآلهةُ كلُّها، أريدُ أنْ تكونَ المجاعةُ من صُنعي... أغلِقْ يا سيبون كلّ مخازن الحبوب، كلّها، وائتِني بمفاتيحها، لنْ تُفتَح إلاّ بعدَ ستّة أشهر، أريدُ أنْ أرى النّاسَ تموتُ من الجوع، إنّه شرفٌ عظيمٌ أنْ يموتوا كما ماتتْ أمّي، بالطّريقةِ نفسِها... والآن اذهبا ولا تتباطآ في تنفيذِ ما طلبْتُه منكما».

في الطّريق كانا يلعنان كلّ شيء، يلعنان روما الّتي أنجبتْ مُعوّقًا مثلَ هذا المعتوه يتحكّم بمصائرها، يلعنان الزّمن الّذي أعاشَهما في

حياةِ مجذوبٍ مثله، يلعنان القدر الّذي جعلهما من خاصّة إمبراطورٍ ليسَ فيه من الإنسانيّة شيء، وفي النّهايةِ يلعنانَ نفسَيهما؛ يلعنان الجُبنَ الّذي أنشبَ أظفاره في قلبَيهما فلم يستطيعا الدّفاع عن شرفهما وحياتهما.

«الخيطُ الّذي بينَ الموتِ والحياة انقطع تمامًا يا سيبون، لم يعد يهمّني بعدَ الآن أن تنطبقَ السّماء على الأرض، أو أنْ تنفذَ الحربةُ إلى أحشائي». «ماذا تقصدُ يا هيليكون؟!». توقّفا قبلَ أنْ يخرجا من بوّابة القصر العالِية، اقتربَ هيليكون من سيبون: «سأقتل عديم الشّرف والإنسانيّة هذا». تلفّتَ سيبون حوله، وردّ هامِسًا: «وأنا كنتُ قد فكّرتُ بالموضوع نفسِه، إنّني قتلتُ أبي بيدي إرضاءً لنزواته الفاجرة، فسأقتل هذا اللّعين بيدي إبراءً لروح أبي المغدورة». «وأنا لا أحتمل تخيُّلَ أنّ جسدَ امرأتي تقلّب بينَ أحضانِ هذا المريض... سأقتله يا سيبون وسأنزعُ شفتَيه اللّتين قبّلَ بهما زوجتي أو نطقَ بهما بقراراتٍ أهلكتْ نصفَ شعبِ روما... لا بُدّ لأحدٍ أنْ يُعلّقَ الجرس، ولتذهبْ روحانا فِداءً لإنقاذ روما... إذا ظلّ هذا المعتوه على رأسِ السّلطةِ فيها، فستغرقُ روما مثلَ قطعةِ حديدٍ صدئة في مُحيطٍ هادر». «الثّأرَ الثّأر يا هيليكون». «نعم الثّأر الثّأر... الآنَ يا سيبون قبلَ أنْ يتخطّاه القدر».

عادا مُتخفّيَين، لفّ كُلٌّ واحدٍ منهما لِثامًا حول وجهه، تركا البهو الفسيح الّذي يتلقّى الدّاخل إلى القصر، صعدا طابِقًا واحِدًا، وكمنا في آخر الممرّ اللّولبيّ الّذي اعتادَ كاليجولا أنْ يقضيَ فيه اللّيل صارِخًا. «سيترك الشّرفةَ في لحظاتٍ وينزل إلى هُنا... أنا أعرفُ ذلك جيّدًا، لم ينمْ في فِراشه ليلةً واحدة منذ ثلاث سنوات، ليلُه هنا صُراخ

وبُكاء، ولا يكفّ عن عويله إلاّ إذا طلعتِ الشّمس». «لن نجعل الشّمسَ تطلُعُ عليه يا سيبون». «هذا ما نحنُ هنا من أجله». مرّتِ اللّحظات كأنّها سنون، الزّمن عند الّذين ينتظرون سُلحفاة مريضة تتسلّق جبلاً شاهِقًا، لكنّ تحقيق الغاية أعظم من وجع القلب المُنتظِر، في اللّحظةِ الّتي تخلّيا فيهما عن تحفّزهما، تناهَى إلى سَمْعهما وَقْعُ أقدامٍ تهبطُ الدّرجات، عادا إلى كُمُونهما: «ها هو قادمٌ». «إششش». بدأ صُراخُه يعلو، كان أشبه بخوار عجلٍ هذه المرّة، إنّ جسد هذا اللّعين تسكنه أرواح الحيوانات كلّها!! لا بُدّ أنْ يجتاز هذه الممرّ، إنّه محطّة لا بُدّ منها، هذا إذا لم يذرعه في اللّيلة عشرات المرّات. ها هو يقترب، بدا من بعيدٍ على ضوء المشاعل الخافتة إلهًا يغذّ السّير إلى حتفه. كان يتمايل كالسّكران، رجلاه تنعقدُ الواحدة منهما كلّ مرّة في اتّجاه مختلف، توقّفَ فجأة، بدا أنّه رآهما. أحدّ نظرَه، لم يسمح له اللّثام بأنْ يتبيّن من هُما، ظنّهما حارِسَين جاءا على وَقعِ صُراخه، فقهقه، وهتفَ بصوتٍ كفحيح الأفعَى: «اقتربا أيّها الحارِسان، لتمنحكما يدي الخلود، ألم أقل إنّني لا أريدُ حرسًا في طريقي... هل أوامري غير واضحة أيّها اللّعينان». ثمّ واصَلَ تقدّمه مترنّحًا تُجاههما مُتابِعًا صرخاته الّتي لم يعد أحدٌ في القصر يفهمها إلاّ على أنّها صرخاتٌ تتنزّل كاللّعنات على ساكِني القصر، ولا يرغبُ صاحِبُها في أنْ يراه أحد. «لقد حانتِ اللّحظةُ المناسبةُ يا هيليكون». «إنّها اللّحظةُ الّتي سيُسجّلها التّاريخ». تقدّما بخطواتٍ واثِقة، حتّى إذا صار على مقربةٍ منه أماطَا اللّثامَ عن وجهيهما، هتف بهما كاليجولا: «سيبون... هيليكون... ما الّذي أعادكما؛ ألم أصرفْكما أيّها الغبيّان». «عُدنا لننفّذ أوامرك أيّها الإمبراطور اللّعين» قال هيليكون. قهقه كاليجولا عندما

سمع كلمة اللّعين، كانت أوّل مرّةٍ يشعر بحرّيّة الكلمة من فم مُقرّبِيه، يشعر بصِدقها، كان دائمًا يتذوّق طعم النّفاق المُرّ من كلماتهم، هذه هي المرّة الأولى الّتي يسمع كلمةً تنبضُ بالصّدق، هتفَ سيبون: «نعم، لقد جِئنا من أجل ذلك يا ابن العاهرة». قهقه بصوتٍ أعلى هذه المرّة: «أنتما أصدقُ مَنْ رأيتُ في حياتي». صارَ سيبون على بُعدِ خُطوةٍ منه، رفعَ خنجره فالتمع على ضوء المشعل الخافت: «ألم تطلب القمر يا سيّدي.. ها أنذا أهبكَ القمر كامِلاً». غاصتِ الطّعنة في جسده، صرخَ مُستغيثًا: «سيبون... ماذا تفعل أيّها الأبله؟!». «أهبُكَ القمر كما طلبْتَ يا مولاي». في تلك اللّحظة كان هيليكون، يقبض بذراعه اليُسرى على ذقنِ كاليجولا، ويجزُّ بالخنجر عُنُقه ببطءٍ وبغلّ شديدَين، وهو يهتف: «وها أنا أهبكَ الشّمس والنّجوم وكلّ الكواكب... ارحل أيّها اللّئيم وخلّصنا من قذاراتك...». التقطَ كاليجولا جزءًا من روحه الهارِبة، ضَحِكَ بصوتٍ لم يضحك بأعلى من قبل، وحشرجتْ كلماته الأخيرة: «نعم يا أغريبينيا ها أنذا أحصلُ على حرّيّتي... نعم يا أمّاه ها أنذا أعودُ إليكِ حُرًّا».

رقص الشّعب فرحًا بعدَ أنْ سمع النّبأ، هكذا هي الشّعوب ترقُص لموتِ طاغيةٍ لم يكنْ لها يدٌ في التخلّص منه أبدًا ولم تُفكّر في ذلك يومًا، حطّموا كلّ تماثيله... هل كانوا ينتقمون منه؛ أم من الحجارة خوفَ أن تُبعثَ فيها الرّوح من جديدٍ فتهبهم كاليجولا آخر؟!! لكنْ مَنْ يدري ماذا ينتظر شعبُ روما الّذي كان ينام على صرخات الضّحايا ويصحو عليها، لا أحدَ حقًّا يدري ما الّذي يُخبّئه الغد، لا شيءَ يُمكن أن يتوقّعه عقلُ أوسع الشّعراء والمسرحيّين خيالاً في اللّحظةِ القادمة.. حُطّمَتِ التّماثيل كُلُّها، ولم يبقَ إلاّ تمثاله المركوز على باب

القصر، سَلِمَ نصفُه الأعلى فقط من أنْ يتناثرَ قِطعًا صغيرة، وظلّ شاهِدًا على مُجرمٍ قَدِم من الجحيم وغادر إلى الجحيم!!

٩٨

لقد أصبحتَ إمبراطور روما!!

عَرَجَ. كانتْ إحدى رِجلَيه أطول من الأخرَى، مَشَى إلى آخر الحديقة مُتهادِيًا بسبب عَرَجته، جلسَ إلى طاولةٍ عليها أُصص صغيرةٌ لزهورٍ مُتنوّعة الألوان، لم تُساعده ارتِعاشةُ يدَيه على أن يتناول الكتاب بشكلٍ جيّدٍ، ويفتح صفحاته الأولى ويبدأ القِراءة... احتاج أنْ يُنادي مرّتَين ليسمعه أقربُ خادمٍ إليه من أجلِ أنْ يأتيه بالشّراب، كان في صوته فأفأةٌ واضِحة، اضطرّت الخادم أنْ ينحني ويُصغي باهتِمام ليعرفَ ما يريد... منذ عشرةِ أعوامٍ اعتزل السّياسة وانعزل عن النّاس، وتفرّغ للقراءة والبحث والكتابة. سَمِعَ بجرائم ابن أخيه ورآها لكنّه لم يكنْ قادِرًا على أنْ يفعل شيئًا. كاليجولا قتلَ كلّ مَنْ حولَه، لم يرحمْ أحدًا، حتّى ابنته لم تسلمْ من إجرامه، وحده عمّه كلوديوس هذا نجا من القتل لسببين: اعتزاله بعيدًا عن أضواء السّياسة كانَ السّببَ الأوّل، وعَرَجُ رِجلَيه وارتِعاشةُ يدَيه، وفأفأةُ فمه كانَ السّبب الثّاني... لكنّه عاشَ في عُزلته مذعورًا كذلك، كانَ يتوقّع في أيّ لحظةٍ أنْ يدخل عليه حرس الإمبراطور ويجرّوه إلى المقصلة كما جرّوا العشراتِ من عائلته من قبل. لم ينم منذ استلمَ ابنُ أخيه العرش ليلةً واحِدةً بدون أنْ تأتيه الكوابيس فتجثم على صدره فتخنقه حتّى يستيقظَ مُبلّلاً، كان يهربُ من الرّعب الّذي تنضحُ به كلّ زاويةٍ في روما بالقراءة، تدثّر بالكتاب ليُغطّي عينَيه عن جرائم كاليجولا... وماذا كان يُمكن أنْ يفعل له سِوَى أنْ يهزّ وحيدًا في بيته ككلبٍ عَجوز.

في هذا الصّباح توقّع كالعادة أنْ يحدثَ شيءٌ يُسقِطُ قلبه من بينِ أضلعه، كانت ارتعاشةُ يديه قد زادتْ في الفترة الأخيرة، ليس بسبب كبر سِنّه وإنْ كان ذلك أحد هذه الأسباب، ولكنْ كلّ صاعقةٍ من جرائم ابن أخيه حينَ كانَ يأتيه خَبَرُها تنزلُ كمطرقةٍ على يدَيه فتزيده ارتعاشًا وعلى قلبه فتزيده ارتِجافًا... لم يُفلِح في أنْ يُحافِظَ على ثباتِ يدَيه وهو يُمسِك بالكتاب الّذي يقرأ فيه... إنّه صباحٌ باكرٌ جدًّا، والعصافير كان صوتُها يصدح كأنّما يقول له أنّ شيئًا ما سيحدث، كلّ نظرةٍ طرفَ بها إلى جهةٍ ما كانتْ تزيد من فأفأته، وتُبالِغُ في اضطرابه، أحسّ أنّه مُحاصَرٌ تمامًا بمشاعره، هتفَ في أعماقه: أيُّ جبانٍ أنا...!! دارَى هُتافه الصّريح هذا بأنْ دفنَ عينَيه في سطور الكتاب الّذي بينَ يديه وراح يقرأ بنَهَم... لم يكد يصل إلى الصّفحة الخمسين حتّى دخل عليه أربعةٌ من حرس الإمبراطور، نظرَ إليهم بهلع، تمنّى أنْ تكونَ لدى خدمه الشّجاعة لكي يحولوا بينه وبينَ أنْ يُقتل، لكنّهم كانوا أكثرَ جُبنًا منه... صار يهذي بكلماتٍ لا يدري هو ما معناها... اقتربَ الأربعةُ منه، فزادتْ ارتِعاشةُ يدَيه، قامَ من مكانه كأنّما يريد أنْ يستسلم لقدره، فهو ليسَ أفضلَ من المئات من عائلة الإمبراطور نفسه الّذين قضَوا في الشّهور الثلاثة الأخيرة... حينَ صاروا على بعد خُطوةٍ واحدةٍ منه، جثا على ركبتَيه، وأخذتْه نوبةُ بكاءٍ هستيريّة، راح يتوسّل: «أرجوكم لا تقتلوني... أنا رجلٌ عجوز ولا أضرّ ولا أنفع... إنّني على حافّة الموت فلماذا تقتلونني... أتوسّل إليكم أنْ تتركوني حيًّا... أنا أعرف أنّ ابن أخي دائِمًا على صواب... ولكنْ ما الجريمة الّتي ارتكبْتُها حتّى يأمر بقتلي... أرجوكم...». بصقَ أحدُ الحرس عن يمينه، ثُمّ جثا حتّى صار وجهه بمقابل وجه

كلوديوس، ثمّ هتفَ به وهو يشدّ على أسنانه كأنّما يلعن السّاعة الّتي يُخبره فيها: «قُمْ يا سيّدي... لقد أصبحتَ إمبراطور روما!!!». لم يصدّق، فاقمتْ فأفأته من ارتِجاف شفتَيه. استند على كفَّيه المُرتعِشتَين لينهض، ظلّ غارِزًا رُكبتَيه في الأرض قبل أنْ ينهضَ تمامًا، تحسّس رأسه ليتأكّد من أنّه ما زال يحمله فوق كتفيه، نظر إلى يديه، توقّع أنْ يراهما مُغطّستَين بالدّم، لكنّه لم يرَ فيهما غير بقايا غشبٍ علقَ بهما وهو يحفرُ بهما الأرض هربًا من الموت... تنحنح، سمع صوتَ نحنحته حقيقيًّا، تخلّى عن ذهوله، وقف، شدّ ثِيابه على صدره، ورفع رأسه، وفي لَحظاتٍ كان قد تحوّل إلى إمبراطور حقيقيّ، وها هو... جلسَ على الكرسيّ الّذي ظلّ يبتعدُ عنه في فترة حكم ابن أخيه كاليجولا حتّى صار حُلمًا مستحيلاً. وها هو... سارَ في رعيّته جبّارًا لكنْ بعدل، قاسِيًا لكنْ برحمة، وأعمل العقل بدل أنْ يُعمل السّيف إنْ كان العقل أجدى.

هل هُو التّكفيرُ عن خطايا ابن أخيه؛ أخرجَ المساجينَ كلّهمُ الّذين قبعوا في الأقبية حتّى أصابهم العفن، فتحَ مخازنَ الحبوب من جديد، خفّض الضّرائبَ كلّها، أزال كلّ نقمةٍ كانتْ لتلحقَ به وبشعبه من وراء كاليجولا، قرّبَ العُلَماء والفلاسفة والأطبّاء، وشرَعَ لهم الدّخول إلى قصره دون استِئذان، وسمح بحريّة الأديان. فتحَ المعابد للمُؤمِنين كلٌّ بإلهه؛ وكانتْ تلك فرصةَ الرّسل الذّهبيّة، فانتشروا يُبشّرون بالمسيح بحرّيّة. وسّع حدود الإمبراطوريّة. صفحَ عن كلّ الّذين أساؤوا له في الماضي. هجر زوجته ميسالينا بعدَ أنْ عرفَ أنّها تنامُ مع كلّ أعضاء مجلس الشّيوخ، وكانَ يُمكن أنْ يُطعمها للوحوش أو لبطن العجل تحتَ النّار كما فعلَ خَلَفه، لكنّه اكتفى بأنْ أعطاها

ظهره. وأعادَ نيرون الصّغير ذا الثّلاثة أعوام من منفاه. ونالَ شرفَ الخصومةِ مع أعدائه!!

حَكَمَ أربعةَ عشرَ عامًا وظلّتْ يداه ترتعشان، ولسانه يُفافِئ ورِجله تعرج، ومع ذلك كانت إمبراطوريّته تمتدّ، فعلَ كلّ خيرٍ يُمكن أنْ يفعله عجوزٌ حكيمٌ قبلَ أنْ يرحلَ باستثناءِ شيءٍ واحدٍ ظنّ أنّه كانَ خيرًا، لكنّ الموتَ لم يُمهله ليكتشف أنّه كان أكبرَ وبالٍ جرّه على روما، ماتَ كلوديوس بكأس السّمّ الّتي ذاقها عددٌ من الأباطرة قبله، وسيذوقها عددٌ من الأباطرة بعده؛ طوعًا أو كرهًا، الكأس الشهيّة الّتي قدّمتْها له مَنْ يُفتَرَض أنْ تكون أقربَ النّاس إليه؛ زوجته أغريبينا؛ هذه الزّوجة رغم أنّها خُلِقتْ أنثى لكنّها كانتْ تُشبه أخاها كاليجولا في كلّ شيء. أمّا بعضُهم فالتمسَ لها عُذرًا؛ وقال: إنّها على حقّ ، فقد كان كبيرًا عليها يكبرها بربع قرن، إضافةً إلى كونه عمًّا لها!! وخَلَفَه نيرون؛ ابنه الّذي لم يكنْ من صلبه، والّذي صعد إلى كرسيّ السّلطة بفضل كأس أمّه المسمومة، هذا الفتى الطّموح الّذي لم يتجاوز السّابعة عشرَة من عمره آنذاك.

قال مُؤرّخٌ ذاتَ مرّة: «كانَ كلوديوس حسنةَ كاليجولا الوحيدة، وكان نيرون سيّئة كلوديوس الوحيدة»!!

٩٩

اِحتَرِزُوا مِنَ الأَنبِيَاءِ الْكَذَبَةِ الَّذِينَ يَأْتُونَكُـمْ بِثِيَــابِ الْحُمْلاَنِ

جلسَ بطرس قريبًا من النّافذة ينظر إلى البعيد حيث تبدو القبّة المُذهّبة، كان ساهمَ الطّرف، تُباغِته الذّكرى فتصعد حرارةُ الشّوق من أعماقه، فتدفع في صعودها البُكاء إلى العينَين، فتنحدر دمعتان حارّتان على خدّه. لقد ذهبَ وتركنا، يقول لنفسه، ولكنّه وعدَ أنْ يعود، وقولُه الحقّ، ومجيئه الثّاني واقعٌ لا محالة، وإنّه قريبٌ، قريبٌ جدًّا. لكنّ السّنوات تتقادم، والعهد به يطول، وها هو ظهوره الثّاني يُصبح مجرّد أوهام. نفضَ رأسه حينَ تداعث لخاطره العبارة الأخيرة؛ كلاّ ليست أوهامًا. سيعود من جديد، وفي حياتنا، وسيظهر كما ظهر على شاطئ بُحيرة الجليل.

كانت سنوات الجوع قد بدأت تستشري في أورشليم، ضربتْ مجاعةٌ شديدةٌ قلبَ المدينة المُقدّسة، أنشبَ الجوع أظفاره في كلّ حيّ، ومدّت أفعاه عُنُقَها في كلّ مكان، باستثناء كهنة المعبد الّذين ظلّوا يملؤون بطونهم بأشهى ما يُنضَج من اللّحم والنّاس تتشقّق شفاهها وتضمر جذوعها وتمضي إلى وادٍ سحيقٍ تبدو العودة منه في قبضة المستحيل، وظلّت الذّبائح المُقدّسة الّتي تُقدّم على مذبح الهيكل تأتي من الأماكن البعيدة رغم حاجة النّاس إليها حيّةً أكثر من تقديمها لربّ لا يقبلُ أنْ يرى عباده يتضوّرون جوعًا فيما الكهنة يتقلّبون في النّعيم.

قال مرقس لبطرس الّذي فرغ للتّو من صلاة الآخرة: «الطّعام يا

سيّدي. شيءٌ يُقيت الجسد من أجل أنْ تقدر على العبادة». ودفعَ أمامه بصحنٍ فيه مرقُ عدسٍ، وخبزٍ جافٍّ. كان المرق لا يكاد يملأ قعر الصّحن، والعدس فيه لا يكادُ يرى. سَمِعَتْ بوضوح طقطقة الخبز اليابس حين كسره بطرس ورفع اللّقمة إلى فمه، وراح يمضغ ببطءٍ مُتلذّذًا:

- المسيح لم يأكل أفضل من هذا الطّعام.

- سنموت إنْ استمرّ الأمر على هذه الحال.

- وماذا في الموت؟ سنلحق بسيّدنا، لسنا خيرًا منه.

- لكنّ الآلاف سيموتون ولم يسمعوا بدعوته. ألسنا ننتظر عودته؟!

- قد تطول، لا أحد يدري، ظننّا أنّه سيعود بعد أسابيع أو أشهر على الأكثر، الآن مرّ على ذلك أكثر من عقد.

- ألا نحتاج إليه ليرفعنا من حفرة الموت؟

- ولِمَ تخافُ النّاسُ الموت، إنّه فينا؛ الموتُ نهرٌ جانبيٌّ على درب الحياة لم يكنْ ظاهرًا للعيان أنّه يجري على حافّتها، ليأتِ الموت ما دام العمل الصّالح هو مَنْ يهبنا الخلود والخلاص.

- لو كانَ موجودًا لملأ الحقول بالغِلال، وبثّ سنابل القمح في السّهول، ولأينع الشّجر، وتفجّرت الأرض بالينابيع. (قال مرقس وهو يتنهّد مُتجاهِلاً ما قاله مُعلّمه)

- لا تنتظر معجزةً جديدة يا مرقس، لا تجلس كالأرملة تبكي وأنت تنتظر السّماء أن تنهلّ بالماء. صَلِّ لأجل المساكين، اعملْ ليومٍ

الخلاص، وبشّر النّاسَ بالفرح.

كان بولس في سنة ٤٥ م قد عادَ إلى أورشليم من أسفاره الطّويلة، بعثَ برسالةٍ سبقتْه إلى المعبد، لم ينتظر وقتًا طويلاً كي تُنفّذ: «أفرِجوا عن الأموال المُكدّسة، واشتروا بها قوافل كاملة من القمح من مصر ووزّعوها على الجوعى، أمّا الذّبائح فليُدعَ إلى موائدها كلّ مَنْ يعيش في أورشليم محتاجًا كان أم غير ذلك». وكأنّ رسالته هذه الّتي استبقتْ مجيئه إلى القدس كانتْ أمرًا إلهيًا محتومًا. سارع كهنةُ المعبد إلى التّنفيذ، وأشرف شيمون بنفسه على الأمر. كان جسدُ شيمون هذا قد اختفى منذ أنْ جلس على كرسيّ الحبر الأعظم، لكنّ أثره ظلّ ماثِلاً، يحرّك المقادير دون أنْ يدري أحدٌ أنّ بيده ليسَ مفاتيح الغِلال في أورشليم أو الأموال فحسب، بل مفاتيح السّماء. لم يكتفِ بذلك، بل أوحى إلى كلّ خَدَمة المعبد الّذين قُسّموا على الأكوار من أجل توزيع القمح أنّ هذه الأرزاق تأتيهم باسم الرّسول بولس، الّذي يفيضُ قلبُه رحمةً بالضّعفاء، ويتفطّر فؤاده ألمًا على ما حلّ بهم... ورويدًا رويدًا، صار اسم بولس في المدينة القديمة يرتفع فوق قبّة كلّ معبد، ويتجوّل في هواء كلّ غرفة، ويتردّد على كلّ لسان... وقُبَيل قدومه كان كلّ شيءٍ قد أُعِدّ له سلفًا. وعرف بطرس بأنّ ما يحدث مُدبّر، وأنّ مَنْ دبّره لا بُدّ أنّه جلس مع الشّيطان طويلاً قبل أنْ يُنفّذ ذلك. نعم عرف، ولم يكنْ بوسعه فِعل الكثير، لقد ابتدأ نفوذُه في نفوس المؤمِنين بالمسيح يتراجع لصالح بولس. وصار من الحماقة - كما رأى - أنْ تواجه النّار المُستعِرة بغرفة ماء، ولا أنْ تقف في وجه الجيش العرمرم بالمقلاع أو النُّشّاب!! بدا خيار الانسِحاب مع التّظاهر بالقوّة يضرب قلبه بقوّة؛ كان الخصمُ قد طغى، واللّيل

قد بدأ يزحفُ بكلّ ظلاميّته على الصّبح الّذي راح يتقهقر خَجولاً وحزينًا.

بولس الرّبّاني يوزّع الطّعام، بولس الرّسول ينقذ الأفواه الجائعة من الموت، بولس يتفقّد المرضى ويمسح على رؤوسهم ويصلّي لأجل شفائهم، بولس يعيد إلى الشّفاه الحزينة بَسمتَها، وإلى القلوب المنكسرة بهجتها، وبولس سيتخطّى صفّ الحواريّين الاثني عشر جميعًا... أو مَنْ تبقّى منهم، وسيقف في المقدّمة، وسيقودهم بكبرياء وثِقة لم تحدث في التّاريخ من قبل.

لم يطلْ بقاؤه في أورشليم كثيرًا، التقى بالكهنة سِرًّا، واتّفق معهم على أنْ تُفتَح أبواب المعبد وقاعاته وساحاته لكلّ المسيحيّين دون قيود ولو إلى حين، أمّا إذا استدعَى الأمر والشّريعةُ غير ذلك فهو الأوحد الّذي يعرف متى يجب على هذه الأبواب أنْ تُغلَق وعلى المُهرطِقين بدعوى المسيح أنْ يُصلَبوا أو يُطردوا من المدينة أو يُنفَوا من الأرض. ونُفِّذ الاتّفاق فورًا، وتدفّقتْ أعداد المسيحيّين تريد أنْ تلمسَ أياديها الأمكنة الّتي مسّتْها قدمُ يسوع، وأنْ تمشي في الأروقة الّتي مشى فيها، وفعلوا.. وسبّحوا بحمد بولس كما سبّحوا بحمد المسيح، فهو الّذي اجترح لهم هذه المكرمة. وكان بولس قد أعدّ تعاليمه مكتوبةً ووزّعها على النّساخ والكَتَبة في المعبد، وأمرهم بعد أنْ ينتهوا من ذلك أنْ يُعلّموا بها، وأنْ يهبوها لِلمَملوئين بحكمة الرّبّ وبالرّوح القُدُس. وانتشرت مسيحيّة بولس كما لو أنّها دينٌ جديد، وبدأ عهد الانفصال النّاعم عن تعاليم المسيح، ولم يجرؤ عددٌ كبيرٌ من أتباعه العارفين أنْ يعارض إلاّ قليلاً، لم يكنْ في مقدورهم ذلك، ومطحنة التّعاليم البولسيّة تحطم كلّ ما عداها!!

وخرج بولس من أورشليم بعد أن اطمأنّ على أنّ كلّ شيءٍ يسير فيها كما اشتهى، كان يعرف أنّ عمره المنذور للموت لن يمُهله طويلاً قبل أنْ يُحقق كلّ ما خطّط له، وكلمات يهوذا ما زالت تتردّد في مسمعه إلى اليوم، ولهذا سيسوح في الأرض، وسيطوف جهاتها الأربع حامِلاً إنجيله الّذي أعطاه له المسيح وقذفه في قلبه دفعةً واحِدةً كما دأب على أنْ يقول في غير موضع، وسيبشّر الآخرين بهذه القوّة الّتي لا تساويها أيّة قوّة أخرى، ولو كانت قوّة التلاميذ مُجتمِعين!!

وارتاح بطرس لخروج بولس من أورشليم، لكنّه ارتياحٌ مؤقّت، إذْ سرعان ما سيتبدّد حينَ يعرف أنّ عودته إلى هنا ستتمّ في أيّة لحظة، لقد زرع الخنجر في جسد الدّعوة وفي روح التّعاليم، ولسوف يكون من الصّعب جِدًّا إصلاح الخراب الّذي ينثره هذا المهووس في كلّ ناحية يحلّ بها. وعاودته من جديد ذكرى مُعلّمه، وهتف في السّماء: يا يسوع... ليس لديّ ما لديه من علمٍ واسع، وليس لديّ ما لديه من لسانٍ فصيح وحُجّة حاضرة، وقولٍ معسول، وها هو يهدمُ كلّ ما بنيته فهل تعود حتّى تُسكتَ هذا الفاجر الّذي سحر النّاس واستمال قلوبهم؟!». وجاءه صوتُ المسيح واضِحًا لا لبسَ فيه: «تركتُ بينَ يديكَ أمانتي لكي تحملها لا لكي تستثقلها وتتخفّف من تَبِعاتها، وأعطيتُك عهدي لكي تكون صخرتي لا لكي تتفتّت أمام أوّل معول، ألم أقلْ لكمْ قبل أنْ أرتفع أنّ الكذبة الّذين سيتكلّمون باسمي كثير، فماذا فعلتَ أنتَ وبرنابا ويوحنّا لأجل ذلك؟! ألم أقل لكم: «اِحترِزُوا مِنَ الأَنْبِيَاءِ الْكَذَبَةِ الّذِينَ يَأْتُونَكُمْ بِثِيَابِ الْحُمْلاَنِ، وَلكِنَّهُمْ مِنْ دَاخِلٍ ذِئَابٌ خَاطِفَةٌ!» وهل بولس إلاّ

هذا. ألم أقل لكم: «سَيَقُومُ مُسَحَاءُ كَذَبَةٌ وَأَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ وَيُعْطُونَ آيَاتٍ عَظِيمَةً وَعَجَائِبَ، حَتَّى يُضِلُّوا لَوْ أَمْكَنَ الْمُخْتَارِينَ أَيْضًا» وماذا يفعل بولس غير ذلك؟! أمّا أنتَ فجلستَ تنتظر عودتي، وتردّد: «أُنْظُرُوا إِلَى شَجَرَةِ التِّينِ وَكُلِّ الأَشْجَارِ. مَتَى أَفْرَخَتْ تَنْظُرُونَ وَتَعْلَمُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَنَّ الصَّيْفَ قَدْ قَرُبَ. هكَذَا أَنْتُمْ أَيْضًا، مَتَى رَأَيْتُمْ هذِهِ الأَشْيَاءَ صَائِرَةً، فَاعْلَمُوا أَنَّ مَلَكُوتَ اللهِ قَرِيبٌ» نعم مجيئي قريبٌ لكنّه في عِلم الله، وجسدي سيعود مرّة أخرى لكنْ بقدر الله، فماذا فعلتَ لهذا اليوم، أتترك العابثين يزرعون الشوك في حقلي؟ ليسَ معه غير الباطل، ومعك الحقّ، وحقّ قليلٌ لا يصمد أمامه باطل ولو كان كثيرًا».

ظلّ بُطرس حائرًا مُطأطِئًا رأسه لا يدري ما يقول، فلمّا انقطع كلامي، رفع هامته، ونظر يتبع خيط الصّوت وهو يصعد إلى السّماء، وعاودته ذكرى اليوم الّذي قُبِضَ فيه على مُعلّمه فاغتمّ، وأصابه لذلك هَمٌّ كبير، وصار يتفوّه بكلماتٍ لا يدري كيف يقولها، حتّى جاءه مرقس فاحتضنه، وبَكَيَا معًا. وهتف من بين الدّموع: «الصّراع طويلٌ، لكنّني لن أتركَ الرّاية إلاّ حين تلحق الرّوح به».

خارج هذه النّافذة الّتي شهدتْ صوتي، كان بولس ينشط في كلّ مكان، كان أمّةً في رجلٍ واحدٍ، وكثيرًا في قليل، كان يعظُ في كلّ مكانٍ، ويتكلّم بكلّ لسانٍ، فإن احتاج الأمر إلى العبريّة تحدّث بها، وإن احتاج إلى الآراميّة أو اليونانيّة فعل، وإن احتاج الأمر إلى غيرها فهو محيطٌ بكلّ لغةٍ في عصره، وإن احتاج الأمر إلى المُحاججة فهو سيّد الكلام، أو إلى البرهان فهو سيّد البراهين والأدلّة، أو إلى القانون فهو يحفظ قانون الرّومان وقانون اليهود

وقوانين الشّياطين وكلّ مخلوقٍ يدبّ على الأرض. ذهبَ إلى أبعدِ حدود الإمبراطوريّة الرّومانيّة، وغامرَ بنفسه في البحار، ووضع روحه على راحته في سبيل أنْ ينشرَ أفكاره، كان يُسابِق الزّمن من أجل أنْ يفيضَ بكلّ ما لديه، لم يفرّق في مواعظه بين القصور أو الأكواخ، ولا بين المعابد أو المواخير، ولا بينَ رجلٍ وامرأة، ولا بينَ جمعٍ قليلٍ أو غفير، لديه كلامٌ كثيرٌ وعليه أنْ يقوله قبل أنْ ينقضي الأجل... أقامَ كنائس في كلّ أرضٍ وَطِئَتْها قدماه، وبثّ فيها تعاليمه الّتي كتبها على شكل رسائل إلى القرى أو المدن أو البشر أو الجنّ أو العبيد أو الملوك، ولم يتركْ كنيسةً بناها دون أنْ يعودَ إليها ويُتابِعها سنةً أو اثنتَين ليطمئنّ على أنّها قويث واستقرّت وعمل النّاس فيها بشريعته، وبأنّ تعاليمَه الّتي ستشكّل الدّين المسيحيّ برمّته والمكتوب على هواه هي الّتي سيُعمَل بها، لم تنجُ أفسس ولا كورنثوس ولا فيلبي ولا تسالونيك، ولا غلاطية، ولا أفسس، ولا روما من دعوته، وكانَ مستعدًّا أنْ يعظ طفلاً يلتقيه في الطّريق، أو امرأةً تحمل الخبزَ على رأسها، أو يذهبَ بنفسه إلى سَجّانٍ قاسٍ يُكلّمه برفق الأولياء ودهاء الثّعالب وحِكمة الفلاسفة؛ ليدلّه على طريق الخلاص!!

كانث هذه الأخبار تتوالَى إلى أورشليم، كان الأمر يبدو أنّه يخرج عن السّيطرة، وينفلث من بين أيدي الحواريّين، وصار واضِحًا أنّ الماء يتسرّب من تحت أرجلهم، وهم حائِرون غيرَ قادِرين على أنْ يفعلوا ما يقي من الكارثة، لقد بدأ ثوبُ المسيح ينسلّ تدريجيًّا من جسده، وتنتهي كلّ خيوطه بين يدَي بولس، فيُعيدُ تشكيله من جديد، ويُعدّه لنفسه كي يلبسه على أنّه ثوبي، وما كان لي فيه منه

شيء!!

دخل برنابا على بطرس، ليصلا إلى رأيٍ فيما يحدث:

- إنّه يبشّر بعقيدة الصّلب، هذا الّذي أعطيناه ميثاقنا. (قال برنابا)

- لقد أعطيتَه ميثاقكَ وحدك، أمّا أنا فلم أغيّز فيه رأيي، انظر ماذا جنث علينا ثقتُكَ فيه. (ردّ عليه بطرس بحزم).

- ليس هذا وقت التّلاوم، المشكلة تتفاقم، والنّار ستصبح نيرانًا.

- ستحترقُ فيها وحدك.

- بل سنحترق فيها جميعًا.

- لقد حذّرتُكَ لكنّك أصمّ لا تسمع. (صرخ في وجهه).

- كنتُ أصمّ، والآن وعيت؛ هل يرضيكَ هذا؟! وأنت؟! هل تريد أنْ تستمرّ في صَمَمِك.. إنْ لم نُوقِفْه عند حدّه فسيغيّر دينَ البشريّة.

- لقد غيّره بالفعل.

- هل سمعتَ رأيه في الخِتان؟

- إنّهم يتجادلون في أنطاكية، إنّه يفتعل جِدالاً في أمرٍ محسوم، لكنّها عادته ولنْ يغيّرها، بل هو يتقّصدها بالفعل.

- كيف يُمكن تدراك الأمر؟

- لقد فاتَ الأوان... لقد فات الأوان...

- لم يفتِ الأوان، سندعوه إلى أورشليم، وسندعو التّلاميذ، لنعقدْ مجمعًا هنا ونُحاكمه... نعم سنُحاكمه...

١٠٠

الخبز جسدُه والنّبيذُ دمُه

لم يتأخّر بولس، حينَ سمع أنّ التّلاميذ يدعونه إلى المحاكمة، لقد كان معتادًا على مثل هذه المحاكمات طوال أكثر من عقدَين من الزّمان، كانت محاكمته في كلّ السّنوات الغابرة يتحوّل فيها من مُتّهَمٍ إلى مُتّهِم لبراعته في قلب الحقائق، ومن مُدانٍ إلى قاضٍ لسرعةِ بديهته وقوّة منطقه وسعة علمه، وعلى أيّة حال لم يصمد أمامه الأباطرة والفلاسفة حينَ كانوا يُحاجِجونه، أفتصمد أمامه مجموعة من صيّادي السّمك، ومتشدّقي الكلام!! هكذا خاطبَ نفسه وهو يهمّ بمغادرة أنطاكية متوجّهًا إلى أورشليم، وحرصَ على ألاّ يأخذ معه أحدًا من المريدين الّذين أصبحوا يتلفّون حوله بالمئات باستثناء لوقا، الّذي حوّله بولس إلى كاتبٍ يُسجّل عنه تطوافه في البلدان ومناظراته في الأقطار بلسانٍ ذربٍ لم يملكه مخلوقٌ بشريٌ في زمنه، ومعجزاته الّتي لا تتأتّى إلاّ لرسولٍ مُؤيّد بالله وبالرّوح القُدُس!

كانت القاعة إحدى العُلّيّات الموجودة فوق المعبد، فسيحةً ومريحةً، وفي وسطها طاولةٌ ممتدّة تتسع للعشرات، وأمر بولس فور وصوله أنْ تُجهّزَ بالشّراب وبالماء المُقدّس، وبكلّ وسائل الرّاحة، وحرص أنْ يدخلها الحواريّون قبله، وتعمّد أنْ يتأخّر عليهم قليلاً حتّى يبدأ بينهم التّهامُس، ومن ثَمّ يطلع عليهم كما يطلع نبيّ على حواريّيه. وارتضى أنْ يجلسوا جميعًا في مقاعدهم وأنْ يبقى واقِفًا. ولمّا أتمّ حضوره المَهيب، كان يلبس قُفطانًا أسود قاتِمًا وثقيلاً

ينسدل على جسده القويّ، وفوقه يضع سديريًا ورديًا مشوبًا بالحمرة الفاتحة. عقدَ ما بينَ يدَيه، وركزهما فوق سُرّته، كان يبدو أنّه هرم بالفعل في السّنوات العشرين الماضية، رأسه الأصلع ازدادَ توهّجًا، والشّعرات المُنسدِلات على جانبيه ازداد بياضهنّ، والغضون بدأت تغزو وجهه، وخاصّة عند جفنَيه، وأنفه الأفطس ارتخت أرنبته، ومع ذلك ظلّ مُحافِظًا على قوّة بِنيته كما لو كان أحد مصارعي الرّومان الأشدّاء، أمّا الّذي لم يتغيّر كثيرًا فعيناه الرّمداوان، كان انتفاخ جفنَيه قد زاد مع أنّ احمرارهما قد قلّ، ويبدو أنّ ما كان يدفع فيهما الدّم فتظهران حمراوَين هو الشّباب أو الشّمس، أمّا الآن فلا شمس ولا شباب. وقف بهيبةٍ مُعتدِلَ القامة، مَشدودَ الصّدر، وظلّ صامِتًا بانتظار أنْ يتحدّث أحدُ الحواريّين، لكنّ صمته بدا أنّه سيطول لولا أنّ يعقوب البارّ تنتحنح وكان أسقف الكنيسة في أورشليم ويجلس على رأس الطّاولة، وهتف:

- تعرف أيّها العزيز، أنّنا اجتمعنا هنا لنتحاور في أمورٍ تخصّ الكنيسة.

- بل لتُحاكِموني. (قالها بهدوء وهو يُميل جذعه في حركةٍ خفيفةٍ إلى الأمام ويُعيده إلى استقامته السّابق).

- ليسَ بين الإخوة مُحاكَمات. (ردّ يعقوب البارّ).

- وماذا تُسمّي اضطراري إلى المجيء من آخر الأرض. إنْ كنتُ جئتُ لأسمعَ ثرثرات، فأنا وقتي أثمن من أنْ أضيعه في غير خدمة الكلمة.

سرتْ همهمةٌ عالية في المجمع. كان صدرُ برنابا يغلي. أرادَ أنْ يقوم

ويلعنه، لكنّ صوت بولس جاءه من جديد فشلّ حركته:

- خَدَمُ الرّبّ لا ينمون بالوشاية، ولا يُؤلّبون القلوب على أحبّتهم، ولا يسعون بالنّميمة كأنّهم نساء.

- إنّك لا تحترم ألفاظَكَ أيّها العزيز. (هتفَ بطرس وهو يُميل عنقه إلى بولس بهدوء).

- أنتم لم تحترموا قُدسيّة الكلمة. الرّبّ طلبَ منكم أنْ تنتشروا في الأرض لتعيشوا في خدمته، وأنتم تجلسون هنا مثل الأرامل تنتظرون أنْ تنشر الكلمة بالمعجزة. زمن المُعجِزات انتهى أيّها التّلاميذ.

- لندخل في الموضوع الّذي جِئنا من أجله. ودعونا من التّجريح، العالَم في الخارج ينتظر ما سنتّفق عليه هنا اليوم. (قال يعقوب بودّ، ومشى باتّجاه بولس، وطلب منه وهو يمدّ يده أنْ يتّخذ له مجلسًا. لكنّ بولس رفض برفع إحدى يديه المعقودة فوق الأخرى على بطنه.

- الخِتان... (وقف برنابا قائلاً بصوتٍ حادٍّ قليلاً) سنبدأ ببحث مسألة الخِتان..

- عليهم ألاّ يُختَنوا. (قالَ بولس بثقةٍ مُطلَقة).

- كيفَ تقول إنّ الخِتان غير مفروضٍ على غير اليهود من الّذين يعتنقون المسيحيّة.

- إنّكم تُجبِرونهم على الخِتان ولم يكونوا يهودًا، نأخذهم على شرائعهم. هكذا قال يسوع، لا نُكلّف غيرنا ما لا نستطيع تكليف أنفسنا به لو كنّا مكانهم.

- لكنّ يسوع خُتِنَ في اليوم الثّامن. (هتف بطرس)

- أخيرًا تحدّثتَ يا بُطرس، أهذا كلّ ما لديك. المسيح كان يهوديًا، وهؤلاء سيصبحون مسيحيّين.

- لكنّ فِعْلَ المسيح شريعةٌ.

- الشّريعة المُوسَويّة غير واجبة على المسيحيّين، وشرائعهم نُسخت بعد صلب المسيح، وجميع الّذين على مبدأ أعمال الشّريعة فإنّهم تحت اللّعنة، والمسيح افتدانا من لعنة الشّريعة إذ صار لعنةً لأجلنا.

- المسيح صار لعنةً!! ما هذا التّجديف أيّها التّلاميذ، إنّها وصمةُ عارٍ أنْ يظلّ هذا يتكلّم باسمنا في أقطار الأرض.

- اهدَأْ أيّها الغِرّ يلزمك الوقت الكافي لتفهم ما قصدت، أستطيع أنْ أشرح لك، ولكنْ أعتقد أنّ السّيّد يعقوب البارّ يريدنا أنْ نتّفق لا أنْ نختلف. وأصلُ اتّفاقنا... ها أنذا أقول لكم: أنْ نتخلّص من الشّريعة المُوسَويّة وننفصل عنها، صار لنا ما يُميّزنا، ويجب أنْ نؤسّس ديننا بإرادتنا.

- لكنّ المسيح قال: ما جئت لأنقض؛ بل لأتمّم.

- اليهود يُجبِرون مَنْ يدخل في اليهوديّة أنْ يُختَتَن، أمّا أنتم فلماذا تُجبِرون مَنْ يدخل في المسيحيّة أنْ يُختَتَن، هل قال المسيح لكم ذلك، هل طلبَ من غير يهوديّ آمن به أنْ يفعل هذا، لماذا تضعون على عنق النّاس نِيرًا لم يستطعْ آباؤنا ولا نحنُ أنْ نحمله.

- لعلّك تظنّ نفسكَ المسيح أو هو أنتَ (قال برنابا بحدّة) أراكَ تُشرّع لنا وتحكم فينا، أو لعلّك يوحنّا المعمدان ذاته الّذي نال منه المسيح بركة العِماد، ولعلّ غرورك يدعوك إلى أنْ نأتيكَ مُطأطِئي الرّؤوس لتُعمّدنا وتحلّ علينا بركتك.

- بركة العارف بالله تحلّ فيه روح المسيح، لا بَرَكةَ للجهلة. (قال وهو ما يزال يعقد يدَيه عند سُرّته، ويرفع عنقه قليلاً إلى الأعلى ويأخذ نَفَسًا عميقًا قبل أنْ يُعيد رأسه مستقيمًا فوق كتفَيه).

- أنتَ شيطان.

- تُجدّف في حضرة القِدّيسين. ألا تخاف أنْ تحلّ عليكَ اللّعنة.

- أنتَ اللّعنة، لو رضينا أنْ نظلّ أمامكَ صامِتين. أهذا جزاء مَنْ قَبِلكَ حين رفضكَ الآخرون، وأدخلكَ في الخِدمة معهم بعدَ أنْ كُنتَ منبوذًا.

- لا تكنْ مُتباهِيًا، أنتَ فعلتَ ما عليك، فهلْ عليّ أنْ أشكرك!

كانت الأصواتُ قد علت، تدخّل الأسقف يعقوب ليُهدّئ النّفوس، كان اللّغطُ ما يزال مُستمرًا، غاظَه صمتُ بطرس، أرادَ أنْ يستفزّه ليقفَ إلى جانِبه:

- إنّه يحرفُ النّاموس بإلغائه الخِتان على غير اليهود؛ أليسَ كذلك يا بُطرس؟

- أنا... (تردّد قليلاً قبل أنْ يُتمّ)... أنا أرى أنّه من الحِكمة ما قاله بولس، لماذا نضع عليهم إصرًا لم يكنِ المسيح ليضعه عليهم لو كان حيًا.

غلى الدّم في عروق برنابا، توجّه نحو باب القاعة الفسيحة ليخرج، عاجَله صوتُ بولس من خلفه:

- إلى أينَ يا أخي. الطّعام جاهِز. كُلْ أوّلاً، وإنْ أردتَ أنْ تنصرفَ بعدها فذلك شأنُك.

لَحِقَ به يوحنّا، تحنّن إليه ليعود. هتفَ في أذنه: «أنا معك...». عاد، وهو يصرخ في وجهه:

- لقد تعلّمتَ تعاليم المسيح مِنّا، ثُمّ لمّا فارقْتنا أخذكَ الزّهو والكبرياء.

- لم أتعلّمْ منكَ شيئًا، ولا مِنَ الآخرين، لديّ إنجيلي الّذي تعلّمته من يسوع مباشرةً بالرّوح، ولديّ علمي الّذي تعلّمْته من غالامائيل، ويبدو أنّك تحتاج إلى مئة سنة لتصل إلى فهم بعضِه. ولكنْ ما زالت لديكَ الفرصة سانِحة، تستطيع أنْ تتعلّم منّي ما يُخرجك عن دائرة الفوران والعصبيّة، وبالمناسبة الرّؤوس الفارغة سريعة الاحتِراق.

- الرّؤوس الفارغة!! قلتَ لي... أنسيتَ الأيّامَ الّتي كنتَ تجثو فيها على ركبتَيك تقبّلُ قدمَي بُطرس لكي يقبلك في خِدمة الكلمة.

- ها هو بطرس أمامك، يعرف أنّني لم أكنْ مُرائِيًا بل كُنتُ صادِقًا، أمّا أنتَ فقد أكل الرّياءُ طرف لسانك وأنتَ تتبَع رداء المسيح كما تتبّع الشّاة جزّارها. أنصحك بالهدوء، وأنْ تُعمل عقلك من أجل أنْ تفهم أكثر. الآن كلماتي صارت تتردّد في البلدان كُلّها، وأنا أعلَمُ النّاسَ قاطبةً فلنْ أعيا أنْ أُعلّمك، أنتَ لم تمتلئ بالرّوح القُدُس كما امتلأتُ أنا فلا ألومك.

كان الطّعام شَهِيًا. لكنّ بولس الّذي تخلّى عن وقوفه وانضمّ إلى المتحلّقين حول المائدة، نبّههم قائِلاً: «قبل أنْ تغوص أيديكم في الطّعام، تذكّروا الرّبّ، لقد كان يبدأ طعامه بكسر الخُبز وغمسِه في النّبيذ... ها أنا أفعل». مال يوحنّا على برنابا: «إنّه يظنّ نفسه المسيح». «ربّما يظنّ أنّه أعلى منه». كانَ بولس في تلك الأثناء قد كسر خُبزًا بعددهم، وطافَ عليهم واحِدًا واحِدًا يضع في أفواههم اللُّقَم، وهو يقول: «الخبز جسدُه، والنّبيذُ دمه، وها هو يحلّ فيكم من جديد. هو رأس الكنيسة، وجسدُه جسدُها، ولا أخوّة إلاّ بدمٍ واحِدٍ».

بعدَ الطّعام، صلّوا لأجل النّعمة، وطلبَ يعقوب أنْ يبحثوا مسألةً أخرى هي مسألة الخَلاص، كان يعقوب يرى أنّه «لا خلاص للجسد دون عمل»، ويرى بولس أنّ الإيمان أساسٌ في كلّ شيء. وكان يردّ عليه: «الإيمان وحده غيرُ كافٍ، ما معنى أنْ أؤمن دون أنْ أعمل». فيُجيبه بولس: «مَنْ آمن بالمسيح غُفِر له، ونال الخلاصَ من خطاياه». وكان لوقا يُسجّل من خلفهم، ويُثبِت رأي بولس.

«والآن أيّها السّادة علينا أنْ نتّفق، ونجعل ذلك مكتوبًا، لقد حسمْنا أمر الخِتان، فلا ختان، وحسمْنا مسألة الخلاص، فالإيمان أهمّ من العمل. إنّنا يا سادة نفعل ذلك من أجل الأمم، ولو بقينا نتناقش هنا ثلاثَ ليالٍ مُتواصِلاتٍ دون أنْ نخرج بشيءٍ مكتوب، فلن يستفيد المُؤمِنون من صياحنا هذا أبدًا. اكتبْ يا لوقا. العالَم ينتظر ما نقوله وما نخطّه. الأمر ليسَ اندِفاعًا عاطِفيًا، وإنْ كنتُ أكثركم عاطفة، ولكنّها حياةٌ وخلاص، وما لم نفعل ذلك نحن ابتداء ونجعلها شريعةً مسنونة فكأنّما حرثْنا في الماء. اكتبْ يا لوقا اكْتبْ. ستحوز أنتَ شرف الكتابة عنّا ما نخرج به هنا من قرارات». قاطَعه بطرس على

خجل: «إنّكَ تُلزِمنا بما تقول كأنّنا تلاميذ أو خدمٌ عندك». «يا أخي كلّنا في عقيدة المسيح سواء. نحن إخوةٌ مُتساوون، وصاحب العِلم يرتفع درجة، هكذا قال الله، أنا لِما وهبني روح القدس من علمٍ أقول، ولن أقول خارج ما يوحى به إليّ، إنّه ليسَ من إنسانٍ ولا بإنسانٍ كما قلتُ لكم غيرَ مرّة، لكنّه من المسيح ومن روح القُدُس نفسه، ولن أكذب عليهما، فهل فيما أقول خطأ؟!». لم يُجب أحدٌ. كانت الأفواه فاغرة شادهة، والعيون جاحِظة مُتعجّبة، لم ينبس أحدٌ بحرف. تابعَ بعد أنْ جرحَ الصّمت المُطبِق كبرياءَه: «تصمتون كأنّ قُفْلَ الجهل قد أحاطَ بعقولكم، وخِرقةَ البَلَه قد رُبِطَت على أفواهكم! اكتبْ إذًا يا لوقا اكتبْ... هل هيّأتَ القِرطاس والدّواة يا لوقا؟». «بلى يا سيّدي». «إذًا اكتبْ يا لوقا اكتبْ». «ماذا أكتبُ يا سيّدي؟». «اكتب: إلى إخوتنا في أنطاكيا وسوريا وكيليكية؛ يعمل الله ما لا يستطيع الناموس أن يفعله، لهذا نرفض العادات اليهوديّة الحرفيّة على أساس أنّها لا تعنينا، وإنّه يستحيل أن يعهد بها لإشباع احتياجات الأمم، بينما نقبل بفرحٍ النبوّات اليهوديّة التي تضم تنبّؤات تخصّنا. وعليه فقد رأى المشايخ والأبرار: الامتناع عن ذبائح الأصنام النجسة، وشرب الخمر، والزّنا، والامتِناع عن أكل المخنوق من الحيوانات والطّيور، والامتِناع عن شرب الدّم». ثُمّ صمتَ وصمتوا. كانت قراراتٍ مهمّة، وعليها تحدّدت أجلّ مرتكزات الإيمان المسيحيّ.

وحينَ غادر بولس ليتابع مهمّاته الّتي يُسابِقُ بها الزّمن، وكان معه صحبٌ يتبعه ويُعينه على أداء مهمّته الرّسوليّة العظيمة؛ «وَإِذْ كَانُوا يَجْتَازُونَ فِي الْمُدُنِ كَانُوا يُسَلِّمُونَهُمُ الْقَضَايَا الَّتِي حَكَمَ بِهَا الرُّسُلُ وَالْمَشَايِخُ الَّذِينَ فِي أُورُشَلِيمَ لِيَحْفَظُوهَا» وفي كلّ الأقطار الّتي كان

يمرّ بولس بها، وفي كلّ الكنائس الّتي كان يقيم فيها أكّد لهم أنّ الّذي أوحى إليه بعقيدة إبطال الخِتان هو مَنْ أوحى لبطرس بخلافها:«بَلْ بِالْعَكْسِ، إِذْ رَأَوْا أَنِّي اؤْتُمِنْتُ عَلَى إِنْجِيلِ الْغُرْلَةِ كَمَا بُطْرُسُ عَلَى إِنْجِيلِ الْخِتَانِ. فَإِنَّ الَّذِي عَمِلَ فِي بُطْرُسَ لِرِسَالَةِ الْخِتَانِ عَمِلَ فِيَّ أَيْضًا لِلأُمَمِ»

١٠١

لم ينضجْ بعدُ جِلدُ الشّياطين فانتظر

على الباب في الرّواق المؤدّي إلى غرفة الكهانة الأولى، لفّتْ عُنقَه نسمةٌ دافِئة كشالٍ حريريّ ناعم، عرف أنّه على موعدٍ معه. خطا خُطواتٍ أخرى باتّجاه كرسيّ الحبر الأعظم فأوقفه شذاها؛ إنّه يعرفها تمامًا، رائحة يهوذا، أيكون قد عاد من بحر الظّلمات، مَنْ يدري، سأل بصوتٍ حنونٍ وباسمٍ وهو يُغمضُ عينيه: «هل أنتَ هُنا؟». سمع حفيفَ أنفاسٍ خلفه، أدارَ جسمه إلى الوراء بسرعة، لم يره: «أينَ أنت؟!». «هنا...» وصمت، ثمّ تابع: «ستسمعني فحسب.. أردتُ أنْ أقول: إنّك كنتَ رائِعًا». «لم أفعلْ شيئًا يستحقّ المجدَ بعدُ». «فعلتَ الكثير». «وما زال ينتظرني الكثير. لقد نضجتْ رسائلي، ها هي تحلّ محلّ الكتاب المقدّس». «قلْ لي يا بولس..». «حنانَيك يا يهوذا!». «بِمَ تُفكّر... قُلْ كلّ شيءٍ، ها أنذا مُصغٍ إليكَ بكلّ جوارحي». «سأمحو عقيدة المسيح». «كيف؟!». «بالمسيح نفسه؛ سأجعله أيقونةً تدور حولها كلّ عقائدهم الّتي لم تظهر قبلي، ولم يعرف عنها شيءٌ أحدٌ من هؤلاء الجهلة والشّذّج الّذين تَبِعوه، سيكون جسدُ المسيح وحدَه أساس خمس عقائد هي: الصّلب، والفداء، والخلاص، والتّثليث، والقيامة». «لقد بدأتَ تُعجبني». «لم أقلْ لكَ كلّ شيءٍ فلا تستعجلني، في عالَم الجحيم يقولون: لم ينضجْ بعدُ جِلدُ الشّياطين فانتظر، في جعبتي الكثير». «يبدو أنّكَ تفوّقتَ على نفسك». «لا أنتظر شهادتك، التّاريخ سيشهد لي بذلك... تُريدُني أنْ أُكمل؟!». «الشّوق يأكلني لذلك اليوم الّذي أرى فيه أنّ كلّ ما خطّطنا

له يتمّ وبأيدي الكهنة والأساقفة أنفسهم... بالطّبع أيّها العزيز أكمل، ماذا بعد؟!». «سيُصبح الملكوت لا ما قال به المسيح بل ما قلتُه أنا، ويصبح العمل بلا قيمة ما لم يكنْ باتّباع ما جئتُ به في الرّسائل، سأنزع رداء المسيح عنه وألبِسه رداءً جديدًا؛ رداءً نسجتُه وحدي، وتحت أهدابه سيحتمي المؤمنون، وخلفه ستسيرُ الكنائسُ كلُّها في العالَم». «ولكنْ بعضَ التّلاميذ يكتبون يا بولس». «تقصد البُلَهاء منهم؛ إنّهم لا يكتبون سوى أنّهم ذهبوا معه هنا أو هناك، والتقوا بمعيّته هذا الجمع أو ذاك، إنّهم يكتبون في معظم ما يكتبونه حكاياه، ما الضّرر؟! سأدعهم يكتبون سيرة المسيح في أناجيلهم وسأكتبُ أنا عقيدتهم في رسائلي، ومع مرور الزّمن ستصبح سيرة المسيح قصّة يُتسلّى بها للكرازة، وتُصبح رسائلي إيمانًا يُتّبع ويُؤخَذ به في مناحي الحياة، وماذا تُغني القصّة المُسلّية العابرة أمام العقيدة الصّلبة الثّابتة؟! حتّى صَلَواتهم في الكنائس وترنيماتهم سأكتبها أنا، لن أدعهم يكتبون شيئًا خارجَ ما أريد». «لقد قويتْ شوكتُكَ أيّها العزيز». «لم تقوَ فحسب؛ بل انغرزتْ في الجسد، ولن يقتلعها أحدٌ بعد اليوم». «تعالَ لنرتاحَ قليلاً في غرفة الحبر الأعظم، تعالَ أيّها العزيز». في الطّريق إلى الغرفة المُذهّبة، كانت أرواح الشّياطين تتراقص على الجنبات، أظهرتْ لكلّ شيءٍ زينة، فبدتْ أنّها الجنّة الّتي أعدّها الله للمتّقين، التقاه صديقُه القديم على الباب، كان قد هَرِمَ هو الآخَر، نُسختُه الّتي تُشبه بولس كانت قد ذهبتْ في اتّجاهٍ آخَر، لم يغزُ الصّلع أعلى رأسه، لكنّ الشّيب فعل، ولحيته صارتْ أكثر تشذيبًا، وحاجباه الكثّان تهدّلا أكثر فوق جفنَيه حتّى كادا يُغطّيانهما، والشّرود الّذي في عينَيه قد ازدادَ غورًا بسبب موقع الكهنوت الّذي

يتسنّمه، والعينان العسليّتان اللّتان كانتا أيّام الشّباب تلتمع فيهما شرارة العنفوان انطفأت منهما الذّبالة بمرور الزّمن، وحده الّذي بقي مشتركًا بينهما الجسدُ القويّ والبنية المسبوكة... سعى إليه بخُطُواتٍ حثيثةٍ وشفاهه تفترّ عن بسمةٍ واسعة، حتّى إذا وصلَ إليه اعتنقه عناقًا حارًّا ودمعت عيناهما، وفاحت من ملابسهما رائحة الذّئاب فذكّرته بالعهود القديمة. «خُلِقنا للقتل» قال شيمون. «بل خُلِقنا لتغيير البشريّة والتّاريخ» أجابه بولس. ثُمّ تابع: «قتل الأفكار أدوم من قتل الأجساد، تسميمُها، حرفُها عن مقصدها، وتوجيهها نحو هدفك العليّ هو الّذي سيبقى. الأجساد تموت. الأفكار تعيش. التّراب يُنهي عَقدَ الجسد مع الحياة، ولكنّه لا يُنهي عَقْد الفكرة معها، أفكاري ستخلد وجسدي سيُوارَى التّراب. «في روما». «في روما؟!». «حيثُ الإمبراطور الأعظم، حيثُ القوّة العُظمى، فِكرتُكَ العظيمة يجب أنْ تجد لها سلطةً عظيمة لكي تخلد». «لكنّ إمبراطورها هذا بدأ يقتل المسيحيّين». «سيأتي مِنْ أباطرتهم مَنْ يؤمن بها وبنا، أنسيت أنّنا نعمل لزمنٍ طويلٍ لا لزمنٍ تعيش فيه أجسادنا فحسبُ؟!».

كانت المائدة تنتظرهما، جلسا. اختفت رائحة يهوذا، ظلّ شيمون وحده حاضِرًا. صرفَ كلّ الخدم والحرس. وخلوَا إلى نفسَيهما. قال له وهو يضع في فمه قطعةً صغيرةً من اللحم يغمسها بمرقٍ ساخن: «تعاليمُكَ أم تعاليم المسيح؟!». «بل تعاليمي، تعاليم المسيح سُمّرتْ معه على الصّليب، بعد أنْ أُنزِل بدأتْ تعاليمي». «تقصد في رسائلك؟». «وماذا غيرها؟!». «لكنّ هناك بعض التّلاميذ يكتبون كذلك رسائلهم». «إنّهم يكتبون على هُدى ما أكتب، والأساقفة يتّخذون مِمّا أكتبه مرجعًا؛ فإنْ وُجِدَ في رسائل التّلاميذ ما يخالف

ما جئتُ به، إمّا شَكّوا به، أو أنكروه، أو اعتبروه رأيًا يُلزِم التّلميذ ولا يُلزِم الأتباع». «وستذكر المسيح وما جاء به في رسائلك؟!!». «كلاّ!! أمجنونٌ أنتَ؛ إنّه دينٌ جديدٌ، وإيمانٌ جديدٌ، ولن تجد من العقيدة فيه مِمّا قاله المسيح شيئًا، بل إنّني سأدعو التّلاميذ إلى أنْ يحذوا حذوي، وأدعهم يُشيرون في رسائلهم إلى تعاليمي، ليبدو أنّ المسيح كان فقيرًا في تعاليمه، وأنّ الإيمان الخالص والعميق يتشكّل مِمّا جاء فيما كتبته في رسائلي، بل إنّ رؤاي الصّوفيّة ستصبح أهمّ من المعرفة الشّخصيّة ليسوع أيّامَ حياته الأرضيّة». «إنّكَ لداهية». «لا تتواضعْ، لقد تعلّمْنا ذلك معًا». «اسمع يا بولس، سأقول لكَ شيئًا؛ الآن أنت الصّخرة... لقد تحطّموا أمام مِعولك.. والآن أنتَ الطّوفان، وسيغرقون سريعًا أمام فيضانِك؛ لقد تبيّن لكَ ولي أنّهم ليسوا أكثرَ من قشٍّ في مهبّ العاصفة، وأنتَ لستَ عاصفةً عاديّة، إنّكَ عواصفُ مُزمجِرة، وسيستمرّ هِياجُها إلى مجيء المُنتظَر... إنّ هؤلاء الّذين يسمعونك خارج فلسطين سيؤمنون بكلّ ما تقول، لأنّكَ سبقتَ التّلاميذَ كلّهم إليهم، ولأنّهم لم يسمعوا من سِواكَ منهم، ولم يعيشوا بالطّبع مع المسيح أو يسمعوا منه، فكأنّ الدّين الّذي تجيئهم به لا دينَ صحيحًا سواه لأنّه لا يوجد ما يُناقِضه إذْ هو أوّل دينٍ يسمعون به، وبه سيؤمنون... هنيئًا لكَ أيّها العبقريّ... وها هي الطّريق مُمهّدةٌ أمامك لتعزل المسيح تمامًا عن الواقع العمليّ، فلم يعدْ بعدَ الآن رسولاً، بل هو إلهٌ يُعبَد مع الله، وصارَ حريًا بك أنْ تتولّى أنتَ مقام الرّسول؛ الرّسول الّذي يُشرّع، يُحلّ ويُحرّم، ويُحدّد الصّلوات، ويُملي التّعاليم، ويجترح المُعجزات». سكتَ كأنه كان يقول كلامًا محفوظًا وبشكل سريعٍ. لهث. ثُمّ صفّقتْ كلّ الشّياطين الّتي كانتْ تستمع في

زوايا الغرفة الكهنوتيّة الباذخة.

بعدَ ليلةٍ واحدة، حدث أنْ لفظت المدينة المُقدّسة تلاميذها المُخلِصين كُلّهم، لم يبقَ فيها إلاّ أسقف الكنيسة يعقوب البارّ ليقومَ على خِدمة المؤمنين، وكان بولس قد ترك له رسالةً يعلّم فيها الرّاغبين في الخَلاص الصّواتِ والدّعوات والتّرانيم، ويشهدُ بنفسه عِمادهم، ودخولهم في سلك خدمة الرّبّ.

وفي بيت مرقس جلس بطرس حزينًا، ووافاهما برنابا، كان يبدو أنّهما لم يشهدا فاجِعةً بعد رحيل معلّمهم أشدّ مِمّا سمعوه من بولس. كان برنابا قد تيقّن من أنّه سيشتدّ الخلاف بينه وبين بولس في الأيّام القادِمة. قال لبطرس: «إنّه جلسَ على كرسيّ الرّسول». «وإنْ مدّ الله في عمرنا فسنشهد عجبًا». «وما العمل؟!». «علينا أنْ نتكاتف نحن تلاميذ المسيح الحقيقيّين لنقف في وجه ما يجيءُ به، ويُفسد علينا ديننا». «إنّه مُتعالٍ، مُتكبّر، يتحدّث عن نفسه كأنّ الرّسالةَ جاءته ولم تجئ المسيح، وأنّه مُبتَعثٌ منه لتوضيح إيماننا». «إنّ نيرانه تشبّ في أطراف العالَم كلّه، ولا ماء في قُدرتنا يُمكن أنْ يُطفِئها». «سنتبعه يا بطرس إلى حيث يسير، ونحذّر النّاس مِمّا يقول». «لقد صار هذا صعبًا الآن، إنّه يتحرّك أسرعَ مِنّا، ويملك أسلوبًا أقربَ إلى قلوب النّاس مِنّا، إنّه يستنهض الشّيطان الكامن في نفوس التوّاقين إلى الخلاص، فيعتبر أنّ الإيمان بأنّ المسيح هو المُخلّص سوف يُنجيه، ولم يقل المسيح لنا يومًا أنّه المُخلّص، بل لم يقل إنّه يفتدي خطايا العالَم برفعه على الصّليب، هل نُكذّب ما رأت عيوننا، وما سمعتْ آذانُنا؟! لا خلاص بلا إيمان، ولا إيمان بلا عمل، هذا ما قاله المُعلّم، ولكنّ النّاس تريد أنْ تدخل في الملكوت بدون عمل،

فقط بالصّلاة إلى المسيح، وهذا يسهّل على النّاس ما ينوونه، وهو يدخل إلى قلوبهم من هذه النّاحية. إنّه يتحرّك في البلدان بأسرع مِمّا يتحرّك البرق، ويطوف في الأنحاء كأنّه الرّيح المُرسَلة لا يَعُوقُه بحرٌ ولا برٌّ ولا سَماء، وليس توقفه السّجون ولا المُحاكَمات، إنّه في الحقيقة يتفوّق علينا بفارقٍ كبير. تصوّرْ أنّ جرأته وصلتْ إلى درجة أنْ يحكم علينا بالكُفر، فكلّ مَنْ يُبشّر بما يُخالفُ ما صار يُعرَف بتعاليم بولس فهو كافر مُحرّمٌ من الجنّة، ألم يقل: وَلكِنْ إِنْ بَشَّرْنَاكُمْ نَحْنُ أَوْ مَلاَكٌ مِنَ السَّمَاءِ بِغَيْرِ مَا بَشَّرْنَاكُمْ، فَلْيَكُنْ «أَنَاثِيمَا»!». توقّف عن الكلام، وتنهّد تنهيدةً طويلة. قال برنابا: «أنا ساكتبُ في إنجيلي العقيدة الصّادقة، وسأعمل على أنْ تظلّ موجودةً بين الأمم، وسأوصي بأنْ تتناقلها الأجيال والأيدي الأمينة؛ لتظلّ شاهدةً على صِدْقنا وتبرئة المسيح مِمّا يقوله بولس». «وهل تعتقد أنّ هذا سينجح يا برنابا؟!». «علينا المحاولة يا بطرس، ولْنترك الباقي على الله». «وأنا؟!». «ماذا بالنّسبة لكَ يا أخي؟». «ماذا أفعل لأوقفَ النّزف المستمرّ الّذي يثعب من جسد العقيدة القويمة، ماذا سأقول لمُعلّمي إنْ ظهر من جديد وسألني عمّا فعلتُ وقد أوصاني أنْ أكون صخرته، وأنْ أبني فوق هذه الصّخرة ما أراده، هل تظنّ أنّه إنْ وقفتُ أمامه في هذه الحياة أو في الحياة الآخرة سأجدُ جوابًا لسؤاله، هل أهربُ كما فعلتُ يومَ أرادوا به كيدًا، هل أُواجهه وأعترف بقلّة حيلتي؟! قل لي ماذا أفعل يا برنابا؟». «لن تهرب بالطّبع، ولن تجعل هذا الآثم ينتصر علينا لمجرّد أنّ أوهامه اختلقَتْ ضلالاتِه كلّها». «فماذا أفعل يا أخي، قل لي بربّك؟!». «اكتبْ إنجيلكَ أنتَ أيضًا، فإنّكَ كنتَ أقربَنا إليه». «ولكنّني لا أعرف الكتابة». «وهل كان يُوحنّا يعرف الكتابة؟!».

«ماذا تعني؟!». «أمْلِ إنجيلكَ على مَنْ يعرفُ الكتابة مِمّن تثق به تمام الثّقة، ولولا أنّني سأرتحل إلى غير المواضع الّتي ترتحل إليها لكتبتُ أنا خلفكَ ما تقول».

١٠٢

كان الغرقُ أرحمَ من السّمّ

غادر نصف مَنْ حضر المجمع بعد ذلك اليوم المشهود، لم يبقَ في أورشليم غير أسقفها يعقوب الّذي مُنِحَ القوّة من بولس في الاستمرار بتطبيق اتّفاقات المجمع على جميع الدّاخلين في المسيحيّة. كان أحبار اليهود قد بدؤوا يضيقون بمواعظ يعقوب البارّ هذا، لقد صار يُفسِد عليهم ساعاتِ صفائهم كما كان يفعل المسيح قبل أكثر من عشرين عامًا، وإذ صار يشكّل عِبئًا على المجلس الكهنوتيّ ومصالحه لا سيّما الاقتصاديّة منها، فقد صار احتمال التّخلّص منه على غِرارِ غيرِه من المؤمنين وشيكًا. وركب بولس البحر ومعه لوقا إلى روما، كان ذلك خيارًا ذا هدفٍ بعيدٍ بالنّسبة لبولس، وكان اتّفاقًا بين الثلاثة هو ويهوذا وشيمون. وأمّا برنابا فلم يحتمل أنْ يصعدَ في سفينةٍ واحدةٍ مع بولس، مع أنّه كان قد عزم على اتّباع مواطئ أقدامه لكي لا يُقدّم دينًا غير دين المسيح إلى النّاس، ولكنّ الخلافات الّتي نشبت بينهما في أنطاكية والّتي كانت السّبب في دعوته إلى أورشليم هي الّتي باعدت بينهما في البحر هذه المرّة. اتّخذ برنابا له سفينةً مُبحرةً إلى قبرص مع مرقس. ولكنّ برنابا نفسه سيقول لنا بكلّ أسفٍ إنّ مرقس نفسه هذا صار هواه يميل إلى بولس، ويؤمن بما جاء به، أدّى به هذا إلى أنْ يتركه في قبرص، ويتّجه نحو الإسكندريّة ليكتبَ إنجيله ويؤسّس فيها أول كنيسةٍ.

أبحرتِ السّفينة في طريقها المرسوم باتّجاه روما، وإذْ هبّت عليها رِيحٌ عاصفٌ، كانت تلعب بها في البحر كيفَ تشاء، وأيقنَ كلّ مَنْ على

السّفينة أنّ الموتَ أقربُ إليهم من شراكِ نِعالهم، فأخذوا يتصايحون، وراح رُبّان السّفينة يصرخ فيهم أنْ يصمتوا لكي يفكّر في طريقةٍ للنّجاة، أمّا بولس فوقفَ بينهم كما يقفُ الأستاذ بين تلامذته، والأبُ بين أبنائه، وكان يلبسُ القُفطان الأسود، ويرتدي السّديريّة الحمراء، ويحمل في يده عصا رفيعة، وقال بصوتٍ رخيمٍ أشبه بصوتِ ملاكٍ حارس: «لن تسقط منكم شعرةٌ واحدةٌ فلا تخافوا، الرّبّ يحميكم، وأنا زعيمٌ بذلك، فإنْ وصلْتم إلى البرّ آمِنين، فهل تؤمنون بما سأعِظُكم به؟ هل ستصلّون إلى يسوع الّذي افتدى خطاياكم بجسده؟». لكنّ أحدًا من الرّكّاب لم ينتبهْ لِما قال، واستمرّوا في هياجهم. مِمّا اضطرّ الرّبّان أنْ يرفع السّيف هو وطاقمه أمام أعينهم، ويصيح: أقسم بالآلهة الّتي تؤمنون بها إنْ لم تصمتوا حتّى نتدبّر الأمر فسأبدأ بقتلكم واحِدًا واحِدًا، أمّا الأسرى الّذين في السّفينة فسأرميهم في غرض البحر إلى الحيتان لتأكلهم. عند ذاك صمتوا. وعرف بولس أنّ السّيف أوعظُ من الكلمة، وأنّ التّهديد بالموت يُحكم قبضته على أفواههم أكثر مِمّا يُحكمها التّبشير بالحياة. فصمتَ هو الآخر!! ولم تكنْ هناك فِكرةٌ أفضل من التّخفّف من الحمولة الزّائدة الّتي يُمكن أنْ تؤدّي بالسّفينة إلى الغرق، وهي طريقةٌ تقليديّة قديمة، ولكنّها ناجعة.

ورمى البحّارة كلّ ما كان زائدًا عن الحاجة، إلى أنْ وصلوا إلى صناديق الحبوب، كان بعضُ القمح والشّعير قد مسّه الماءُ فأفسده وأثقله، فلم يتوانَوا في رميه، ولكنْ لمّا همّ قائد السّفينة أنْ يرمي بعض البراميل الّتي تحتوي على الطّعام، طلب بولس منه أنْ يسمح لكلّ مَنْ على ركّاب السّفينة أن يتقوّوْا بالطّعام منها قبل أنْ يرميها،

فإنْ أكلوا قويت أجسادهم، وهذا سيمنحهم القدرة على مواجهة المتاعب إنْ حدثت. وفعل كما طلب. وبقوا في البحر على هذه الحالة ليالي طويلة، ثمّ جرفتهم الأمواج العالية إلى مكانٍ أدرك البحّارة بحسّهم أنّه قريبٌ من اليابسة، فاختبروا الأعماق فوجدوا أنّها تقلّ كلّما تقدموا في مسيرهم، لكنّ الرّبّان - بخبرته الطّويلة - خاف أنْ تتحطّم السّفينة على الصّخور القريبة من الشّاطِئ. فأمر مَنْ كان قويًا وقادرًا على السّباحة أنْ يرمي بنفسه في البحر، فإنّ اليابسة قريبة، وفَعَل العشرات ما طلبه منهم الرّبّان، وسارتِ السّفينة بمنْ تبقّى متهاديةً حتّى حطّتْ على شواطِئ مالطة.

كان النّاس في مالطة قد تجمّعوا لمّا علموا أنّ بولس في ركّاب هذه السّفينة، أخذوا يتقاطَرون من أنحاء عديدة، أملاً في رؤيته، وسماع مواعظه، ولقي من أجل ذلك تبجيلاً كبيرًا من الرّبّان الّذي لم يكنْ يعلم أنّ له هذه القداسة كلّها، وصار كلّ مَنْ لقيه يسأله بنعمة الرّبّ أنْ يبيتَ عنده تلك اللّيلة أو يتناول الطّعام في داره، لكنّه اعتذر منهم بلطف، وطلب منهم أنْ يبقوا ليسمعوه، ثمّ أمر رُكّاب السّفينة النّاجين أنْ يوقدوا نارًا ليُدفِئوا عظامهم الّتي نخرها البرد طوال خمس عشرةَ ليلةً قضوها في البحر ومَطَرِه وصقيعِه. وأُوقدت النّار، وصعدت ألسنتها في الفضاء فأشاعت الدّفء، وسرى ذلك الدّفء في الأوصال فسرت معه المودّة، وكانت هيئة بولس بقفطانة الأسود وشاله الورديّ ووجهه ذي اللّحية الكثّة تُظهره ملاكًا هابِطًا من السّماء. ثُمّ راح يجمع عيدانًا من الحطب، يلمّها عن الأرض، والنّاس تسأله أنْ يتركَ ذلك لصغار الموجودين أو للخدم، وهو يأبى، إلى أنْ جمعَ رُزمةً كبيرة، ثمّ أخذ يُلقيها في النّار وهو يترنّم بترانيم لم يعهدوا

سماعها من قبل، والنّاس تعجبُ من صوته ومِمّا يقول، وصار يمدّ كفّيه نحوهم في إشارةٍ منه لمُبارَكتهم، يفعل ذلك حينًا، ثمّ يعود إلى إزجاء الحطب في النّار، وإذْ هو يفعل ذلك لم تنقطع ترانيمه، وفجأةً خرجت من الحطب الّذي يلقيه أفعى ضخمة، والتفّت على ساعده، فخاف النّاس المُتحلّقين حوله وأجفلوا، وندّت عنهم صرخاتُ خوفٍ ورعب، وسادَ بينهم هَرَج ولَغَط، لكنّه ظلّ على رباطة جأشه، كانتِ الأفعى قد التفّت على رُسغه الأيسر، وبدأت تزحفُ نحو ذراعه، وبهدوء رفع ذراعه إلى وجهه ونظر بعينَين ضيّقتَين إلى الأفعى وهو ما يزال يترنّم لكنْ بصوتٍ أحنّ وأهدأ، وصاح عددٌ كبيرٌ من النّاس، فأشار بيُمناه لكي يكفّوا عن ذلك، ثُمّ هبّ نحوه عددٌ آخَر يريد أنْ يُساعِده على التّخلّص من الأفعى، لكنّه أشار بيمناه من جديدٍ لهم ليتراجعوا وهو ما يزال مُستمرًا في ترانيمه، وبدا أنّ الرّسول يريد للأفعى أنْ تُتمّ التفافها على ذراعه، كان وجهه وقورًا وخالِيًا من أيّ تعبيرٍ يدلّ على الخوف أو الاضطراب، وعلى التماعة النّار ومع التّرانيم بدا مُتّشِحًا بالسّماحة ويبعثُ على الهدوء، ونسي النّاس - مع هيبة الموقف ورصانة بولس - الرّعب الّذي تُثيره الأفعى وزال أثره من قلوبهم، وبدأتِ الطّمأنينة الّتي تكسو وجه بولس ينسحبُ أثرها عليهم، وتعجّبوا كيفَ جمع هذا القِدّيس بين النّار والأفعى من جهة وبين الهدوء والسّكينة من جهةٍ أخرى. وعلى الجانب الآخِر كان هناك عددٌ قليلٌ مِمّن شاهدَ الأفعى الضّخمة تلتفّ في حركةٍ حلزونيّة على ذراعه قد أيقنَ أنّ هذا الإنسان قاتِلٌ، فقد كانوا يعتقدون أنّ القتلةَ وسفّاكي الدّماء تكونُ نهايتهم على يد أفعى تلتفّ على أعناقهم وتغرز نابها في لحم العنق الطّريّ فيسري السّمّ سريعًا في الجسد

فيموت، أو أنّها تلتفّ على العنق بشدّة وتضغط عليه حتّى يختنق القاتل ويموت سريعًا، وها هم يُشاهِدون الأفعى في طريقها إلى عنق هذا القاتل، وبدأ وجيفُ قلوبهم يزداد وهم يرون صعودها عبر الذّراع رويدًا رويدًا، وابتهج قلبُ بعضهم، وهتف في سرّه: نجاته من البحر لم تُمهلْه طويلاً، كان الغرقُ أرحمَ من السّمّ. وظلّتْ ترانيم بولس تتعالى، وبهدوء كاهنٍ عميق نفض يده في النّار كأنّه يدعو الأفعى بلطفٍ أنْ تسقط من يده فسقطتْ، فالتهمتْها الألسنة، ولم يُصبْ هو بأذى. فصفّق النّاس، وصاح بعضُهم ابتِهاجًا، وراح آخرون يقولون بصوتٍ خافتٍ ولوقا يسمعهم: ساحر، سَحرَها بصوته الملائكيّ. وقال غيرهم: إله يملك السّلطة على وحوش البرّ والبحر؛ أطاعته فألقتْ نفسِها في النّار. وقال غيرهم: قِدّيس أحبّه الربّ فحماه من الأذى. وظلّتْ ابتسامة بولس ترتسم في أعماقه دون أنْ يلحظَ ذلك أحد.

في اللّيل العميق عندما أوى إلى فراشه، واضطجع على جنبه، راح يُخاطَب يهوذا دون أنْ يراه ولا إنْ كان يعرف أنّ روحه تحلّ بالمكان: «أأنتَ مَنْ أرسلها؟! لم أركبْ هذه الأهوال كلّها لأموت على ناب أفعى، على الرّسالة أنْ تكتمل قبل أنْ أموت، وسأكتبُ كلّ ما يحدثُ معي على أنّني المسيح الجديد، أنا صانع الكنيسة وربّها، ومؤسّسها، وشارحُ أعمالها، ومُوطّد دعائِمها. يا يهوذا إنْ كنتَ موجودًا فدعْني أقلْ لكَ شيئًا واحِدًا: الصّليب الّذي سيُرفَع على بوّابات الكنائس في العالَم أجمع سيبقى الشّعلة والمنارة، وسيهتدي به المسيحيّون مهما تعدّدت بهم الأمكنة، أو تطاولتْ بهم الأزمنة». ثمّ غفا كأنّه كان يحلم.

في الصّباح، كانت السّفينة تُبحِر من جديد نحو روما. روما الّتي ستبدأ فيها المسيحيّة بالانفِتاح على التّاريخ وعلى العالَم الأوروبّيّ

بأكمله، روما بوّابة الخلود العظيم لتعاليم بولس العابرة للأزمنة. وهناك سيتبعه بطرس، وسيُدرك قبل أنْ ترتقي روحه، أنّ لجج البحار قد طغت على السّفينة الصّغيرة الّتي تُقلّه، وابتلعتْها في غَمضةِ عين!!

ساحر الكتب

١٠٣

أكثر النّاس قلقًا هو أقواهم سلطةً!

كانت الشّمس ما زالت تسبح في الثلث الأخير من الأفق باتّجاه بحر الظّلمات حينَ بدأ تقاطر المدعوّين إلى حفلة القيصر. إنّه غالِبًا ما يفعل ذلك لكي يستمتع بأداء مواهبه أمام صفوة شعبه العظيم، مواهبه الّتي رأى أنّها أعظم عنده من سلطته القيصريّة وأدوَم، كانت السّاحة الّتي تُقام فيها الحفلة واسعةً ومفتوحةً على السّماء ذات مساءٍ من مساءات إبريل العذبة. والأعمدة الرّخاميّة العالية تتوزّع على جوانبها وترتفع شاهقةً على حوافّ من الرّخام على شكل دائرةٍ تحيط بالجزء المفتوح. كان قد بدأ توافُد المدعوّين من القنطرة الّتي تسبق هذه السّاحة، علا صوث الوافدين من كلّ الأجناس والأمكنة، كان الحرش والخدم يأخذون خيولهم أو عرباتهم ويذهبون بها إلى أماكن مخصّصة لذلك، وآخرون يرحّبون بهم بانحِناءة من أمام القنطرة العابرة إلى البوّابة الّتي تقود بدورها إلى السّاحة الفسيحة.

على الجزء الجنوبيّ من السّاحة كان ينتصب تمثال لهرقل الكبير تُلقِي عليه ثلاثة أضواء من خلف رأسه ظلالاً لا تكادُ تُرى تسقط عند قدمَيه، وفي الجزء الشّمالي منها كان ينتصب تمثال عملاقٌ كذلك لكلوديوس كأنّهما يتواجهان من زمانَين مختلفَين في مكانٍ واحدٍ كعظيمَين، أمّا الواقف جهة الشّرق فكان يرى الشّمس تُلقِي بأشعّتها الدّافئة على التّمثالَين، فتسقط ظلالهما على الجدار الّذي يمتدّ على طول المدخل فيبدُوان حارِسَين أو إلهَين يُبارِكان الحفلة القائمة.

في الوسط من هذه السّاحة المفتوحة تستقرّ نافورةٌ تقذف بالماء

إلى ارتفاع يقع في عين الشّمس للرّائي فيخالها تتشبّث بها ألاّ ترتحل، أو تحاول مثل هرّة بيضاءَ مُشاكِسة أنْ تلمس كفَّ صاحبها وهو يجلس على كرسيّ العرش. وعلى محيط النّافورة، على أطراف دائرتها كانت المصابيح ذات الألوان المُتعدّدة تتوزّع هناك، لم تكنْ قد أُشعلت بعدُ، لكنّها كانت تستعدّ لذلك فيما يبدو. ماء النّافورة المقذوف في رحلتَي ذهابه وعودته كان يستسلم لمداعبة النّسمات له، فيتساقط رذاذًا ناعِمًا عند هبوب تلك النّسائم اللّطيفة على الوجوه فيزيدها بهجةً وانتِعاشًا. شكّلت أصواتُ الابتِهاج والحديث الصّادرة من المدعوّين مع صوت انسكاب الماء من النّافورة مزيجًا رائِعًا جعل هواء المكان ينطقُ به، وينقله إلى الأسماع لطيفًا، وينثره في القلوب رقيقًا.

دعا نيرون إلى حفلته هذه أطيافًا مُتنوّعةً من الشّعب، على اختلاف توزّعهم الطّبقيّ كانت حشودٌ من النّاسِ تتوافد عبر القنطرة من جهة البوابة، تمشي زرافاتٍ ووحدانا، السّيناتورات كانوا يلبسون أرديةً فضفاضةً مُلوّنة بألوانٍ شتّى، وينتعلون صنادل من جلدٍ أحمر مُوشّاةٍ بزخارف هلاليّة صغيرةٍ على ظهر الصّندل، وأحزمةٍ رفيعةٍ تمتدّ مقدار شبرٍ أو أقلّ على ساق السّيناتور الّتي غالِبًا ما تكون مكشوفة، أمّا الفلاسفة والأدباء والشّعراء والموسيقيّون فلم يكنْ لهم نمطٌ واحدٌ يجمعهم، كان أغلبهم يُرسِلُ شُعورَه الطّويلة على جانِبَي كتفَيه، وبعضُهم يحمل في يده كتابًا جاءَ ليقرأ فيه أو في بعضه أثناء هذه الحفلة الصّاخبة، وبعضهم كان يحتضن آلته الموسيقيّة أو يتأبّطها تحت ذراعه وهو يتلفّت برأسه تلفّتاتٍ سريعةٍ كمخبولٍ أو هاربٍ من قاتلٍ يتوقّع في أيّ لحظةٍ أنْ يصطاده!! وأمّا الفُرسان

والقادة فكانوا يدخلون بكامل زينتهم بلباسهم العسكريّ ويعتمرون الخُوَذ، أو حاسري الرأس وهم يتأبطون أذرعة زوجاتهم في مشهدٍ عبثيّ من السّعادة المُصطنَعة، أمّا النّساء فقد كُنّ يتمايلْنَ بأزيائهنّ الرّومانيّة أو الإغريقيّة، الّتي تكشفُ جزءًا من الصّدر والسّاق، وقد وضعنَ فوق شعورهنّ أزهارًا طبيعيّة من ألوانٍ مُتعدّدة رابِطاتٍ تلك الشّعور في جدائل صغيرةٍ تلتفّ كأفاعٍ على جانبَي الرّأس وتُعقّد الجدائل المجتمعة من الجانبَين في الخلف عند أسفل العنق، وبعضهنّ بدونَ وهُنّ يتركنَ تلك الشّعور تسبح مع نسمات الهواء كآلهاتِ الإغريق. بالإضافة إلى العديد من النّساء السّمراوات والسّود القادِمات من أفريقيا وقد دَهَنّ أجسادَهنّ بالزّيت، فالتمع ما ظهر من لحمهنّ على ضوء الشّمس الّتي سبحتْ أكثر نحو الغروب فبَدونَ تماثيل برونزيّة خاصّة مع قلّة حركتهنّ، وأقراطهنّ الطّويلة الّتي تتدلّى من تحت آذانهنّ حتّى تكاد تصل إلى أكتافهنّ العارية. كانت حمرة الغروب قد بدأت تُعلن عن قدومها، والأرض الرّخاميّة الّتي شربتْ من الشّمس حرارتها منذ الظّهيرة راحت الآن تُصعّد من حرارتها المختزنة إلى هواء السّاحة النّديّ فتزيد المشهدَ دفئًا.

خلف هذه السّاحة في الجدار القائم هناك، لم ينسَ كثيرون من الّذين كانوا في موقع القيادة أنّ أرواحًا كثيرة أزهقتْ في ذات المكان، صرخات استغاثة عديدة تعالت من هناك، تأوّهات، وحشرجات أرواح كانت تُسمَع في غابر الأيّام من ضحايا كاليجولا الرّهيب، ليسَ من ضحاياه فحسب، بل منه حينَ أقبل على الموت بقهقهاته المجنونة وهو يهتف: «لقد أصبحتُ خرًا... لقد أصبحتُ خرًا...». ما زالت هذه الكلمات المُتحشرِجة يتردّد صداها على مقربةٍ

من هنا، ودمه كذلك ما زالت آثاره مُحاطةً بسياجٍ حجريّ موجودةً لهذه اللّحظة!! مَنْ يدري أنّ هذا المكان الّذي يضجّ بالضّحكات العابثة الآن هو ذات المكان الّذي كان ينزفُ صرخات السّجناء والمُعانِقين للموت! بل مَنْ يدري أنّ مَنْ كان يحكم بالسّيف في هذا المكان كإله هو مَنْ قُتِلَ بالسّيف كخائن كذلك!! إنّها عبثيّة المكان، وجدوى اللاجدوى.

وفي مكانٍ بارزٍ جهةَ الغرب يميل قليلاً إلى الشّمال حيث المائدة الرّئيسيّة مائدة القيصر، كانت هناك فرقةٌ موسيقية كاملة تصدح بألحانٍ هادئة مُعظمها ذو نوتاتٍ إفريقيّة، وأصواتٍ رخيمةٍ تمجّد انتصارات روما على شعوب العالَم. كانت حشود المدعوّين ما زالت تتوافد إلى المكان حتّى عجّت السّاحة بهم، وضجّت بتشكيلتهم المتنوّعة الّتي لَوّنت لوحةً غريبة لا يُمكن فهمها بسهولة، ومع أنّ القيصر لم يرفض دعوة بعض البسطاء من عامّة الشّعب، إلاّ أنّ قادته أعمَلوا قوانينهم الطّبقيّة في توزيعهم على السّاحة، فكنتَ ترى بعضهم يجلس في أقصى الجنوب، وقد أُعِدّت لهم مقاعد منبوذة، لا يكاد الجالس فيها يرى المائدة القيصريّة، بل والقيصر نفسه الّذي زُيّنت له الجهة الشّمالية القريبة من مسرح الفرقة الفنّيّة. الفرقة الّتي ظلّت تُغنّي وسط أصوات الحشود المُتتابِعة كأنّه لا تعنيها حركتهم ولا قلّة اهتِمامهم بما يُقدّمون من فنّ!

وفي وسط هذا الضّجيج والأمواج البشريّة الّتي تذرع السّاحة الفسيحة علا صوتٌ - لِيُسكتهم - يعرفه الكثيرون هنا، إنّه صوت قائد الجيش (بوروس) الّذي أعلن بطريقةٍ آليّة عن وصول القيصر خلال لحظات، وطلبَ من السّادة أنْ يتّخذوا أماكنهم، ومن الحرس

أنْ يكونوا على أهبة الاستِعداد، ومن العبيد أنْ يكونوا رهن الإشارة، حينها أسرع المدعوّون إلى اتّخاذ أماكنهم المُخصّصة مُسبقًا؛ والّتي كانتْ تتوزّع بحسب أهمّية المدعو، وطبقته، فلكلٍّ مقامٌ معلوم.

وصمتَ المكان كما لو أنّه كان فمًا مفتوحًا على الثّرثرة وأُطبِقَ في لحظةٍ واحدة. واشرأبّتِ الأعناقُ جهة الشّرق حيث سيدخل القيصر، وكتمَ الحضورُ أنفاسَهم، وكفّ الجميع عن هريرهم. سبقته فرقةٌ من الحرس توزّعت على جانبَي المدخل أخذتْ مواقعها على الأطراف وكان ذلك إعلانًا بدخوله الوشيك. وبدأ تقاطر الوفد الإمبراطوريّ، وراحت العيون تتشوّف في الدّاخلين وجه القيصر، لكنْ ذلك بدا غيرَ سهل، كان لا بُدّ من الصّمت وشدّ الأعناق إلى الأعلى قليلاً لكي تحظى العينُ برؤية الإله الكامل القدرة. وفي لحظةٍ ما بين انقِطاع الأنفاس عن المكان وانفجارها من جديد، ظهرتْ رأسٌ كبيرةٌ مُدوّرة، عُرِفَ على الفور أنّه هو، لم يتمالك المدعوّون أنفسهم، كان يمشي وقُمعةُ رأسه حاسِرة، يضع إكليلاً من الغار على جبينه العريض، راحوا يُطلقون هتافات التّرحيب ويصيحون ابتِهاجًا، فيما راحت الفرقة تصدح بألحان التّمجيد. إنّه الإله يا سادة، إنّه نيرون العظيم؛ وتمثاله الضّخم الّذي سيُخلّده سيحتاج منكم - في المستقبل - أنْ تركعوا أمامه وتجثوا على رُكبِهم كأنّه أعظم الآلهة في العصور كُلّها. رأسه المدوّرة الضّخمة ترتكز على عنقٍ غليظةٍ قصيرة، لا تكاد ترتفع فوق كتفَيه، كان وجهه الزّهريّ يبدو طفوليًا لا ينتمي إلى عالَم الشّرور، مُسالِمٌ وديعٌ وبريء على نحوٍ فارق، لكنّه مع ذلك كان منزوع الرّواء، ومنزوع التّعابير كأنّه مصنوعٌ من جلدٍ مدبوغ لا حياةَ فيه، وكانتْ له لغاليغُ تحت ذقنه المُدوّرة تكشفُ عن كائنٍ يعشق الطّعام نَهِمٍ إليه.

كان قد حلقَ لحيته الحمراء ووهبها لملك الآلهة الرّومانية جوبيتير من أجل أنْ يستمدّ منه مزيدًا من السّلطة والألوهة. كان يلبسُ رداءً أرجوانيًا خاصًا به ينسدل على جسمه القصير البدين كذلك، ويترك ذراعه اليُمنى عاريةً، ظلّ يمشي بخطواتٍ ثابِتة وخلفَه الشّمس، حتّى إذا حاذى النّافورة انعطف يمينًا جهةَ الشّمال إلى مائدته القيصريّة، لم تفارقْ قبضته اليُسرى صدره وهو يرفع ذراعه العارية مُحيّيًا الجماهير الّتي لم تمتلك نفسَها فشبّث على قدمَيها مُصفّقة تصفيقًا حارًا لم يتوقّف حتّى جلس القيصر العظيم إلى مائدته.

بدأ العبيد بأخذ أماكنهم خلفَ المدعوّين، وراحت الخمرة تملأُ الكؤوس وهي تنسكبُ من قوارير بلّوريّة يتراقص النّبيذُ في داخلها على ضوء الشّمس الغاربة فتبدو قطعةً كبيرةً من المرجان، تتلاقَى مع حمرة الشّفق الآخذةِ بالازدِياد. وبدأتِ الضّحكات تعلو من جديد، ولمّا امتلأت الكؤوس وقُرعِت، وأُفرِغ ما في داخلها في أجواف التّوّاقين إلى مُتَعِ الحياةِ ولذائذها، أمر القائمون على الحفلة أنْ يدخل الطّعام، وماجتْ أفواجُ العبيد وهي تحمل بين أيديها أطباق الطّعام، أو تجرّه عى عرباتٍ صغيرةٍ مُعدّة لذلك، وظهرت على الأطباق الخنازير المشويّة، والخِراف المحنوذة، وأنواعٍ لا حصر لها من البطّ والدّجاج والإوزّ والنّعام.

ثُمّ بدأت الفرقة الموسيقيّة لحنًا جديدًا، وأمر نيرون أنْ يُسارِع الخدم على نثر الورود من أنابيب صُنِعت لأجل هذه الغاية، كانت الأنابيب تتوزّع على حوافّ السّقف الدّائريّ الّذي يلتفّ حول السّاحة المكشوفة، توضع فيه أجمل أوراق الورود وأطيبها عِطرًا، وتدفعُ بمضخّات هوائيّة لتبدأ بالهطول فوق رؤوس المدعوّين وموائدهم،

كان الهواء الدّفّاق يدفعها أحيانًا إلى منتصف السّاحة، فتبدأ بالنّزول كأنّها رِهامٌ من المطر، أو ندفات من الثّلج، أو ريش طيورٍ بيضاء وحمراء، تتأرجح في سقوطها يمنة ويسرة، وهي تهبط ببطءٍ حتّى تسقط عند أقدام المدعوّين أو على موائدهم أو وسط النّافورة الّتي يحدث أنْ تبعثر بعضها إلى الأعلى من جديد في تدفّقها المستمرّ. ولم يكتفِ نيرون بذلك، بل طلب أنْ تظلّ أغلى أنواع العطور العربيّة تُرشّ في الأجواء لتملأ المكان بشذىً أسطوريّ لا يتكرّر، ولم ينقطع رذاذ العطر طوال وقت الحفلة الّتي ربّما استمرّت اللّيل بأكمله!!

وامتلأتِ البطون بطعامٍ باذخٍ، كان يكفي في تلك اللّيلة وحدها نصفَ سكّان روما، وكلّ الجوعى فيها لو أنّه وُزّعَ عليهم. وكان يُمكن أنْ يقضي على بعض المجاعات الّتي تنتشر في بعض المدن والأرياف البعيدة عن مركز السّلطة. لكنّها مشيئة الإله، ولا يُناقِشه في ذلك أحدٌ. وقبلَ أنْ تفعل الخمرةُ فِعلها في الرّؤوس، طلبتْ (بوبيا) من القيصر أنْ يُسكِتَ صوت النّشاز في الفرقة الّتي لم تكفّ عن الغِناء منذُ أنْ دخل، ويؤذي على مسامعهم بصوته العذب أحد أغانيه الّتي كتبها. كانت (بوبيا) - عشيقته الّتي تزوّجتْ مرّاتٍ عديدةٍ من قبلُ - داهيةً من الدّواهي الّذي اعترف لها التّاريخ الرّوماني بأكمله بالسّيادة في المكر والكيد العظيم. لبستْ في ذلك الحفل ثوبًا أبيضَ ذا طبقاتٍ متموّجة، أظهر نصفَ ظهرها، وكاملَ عنقها، أمّا جِيدُها فقد تزيّن بعِقدٍ من اللّؤلؤ، وشعرها الأشقر راح يتهدّل على جانبَي كتفَيها، ووجهُها الأبيض الرّفيع صافٍ كاللبن لا يشوبه شيءٌ باستثناء خالٍ أسودَ صغيرٍ يستقرّ فوق إحدى الوجنتين، كانتْ تبدو لعوبةً وهي جالِسةٌ إلى جانب نيرون، وكثيرًا ما كانتْ تمدّ ذراعها

فتحيط بعنقه الغليظة وهي تمدّ باليد الأخرى كأسًا إلى فيها تشربُ منه بغنجٍ، ثمّ تبتسم ابتساماتٍ بين الفينة والأخرى فتَظهر خلفَ الشّفتَين الرّقيقتَين النّاضِجتَين أسنانٌ مصطفّةٌ بانتظام تشبه عقد اللّؤلؤ الّذي يستقرّ على صدرها. مالث من جديد نحو نيرون، ركزث رأسَها على صدره، وسألته بغنج ظاهر أنْ يُغنّي، لكنّه اعتذر، لأنّ صوته لا يُساعده اليوم «في مرّة لاحقة ربّما»، كانث إجابته مُتشكّكة، كأنّه راغبٌ في ذلك ويتمنّع، ومكانته كقيصر تَحُول بينه وبين ذلك، أو حياؤه أنْ يقفَ كأحد المُغنّين من عامّة الشّعب ويبدأ بالغناء. فَهِمَث هي على الفور أنّ الأمر يحتاج إلى دُفعةٍ أخرى من السّؤال المَلِحّ، فوقفث وهي توجّه كلامها إلى الجمهور: «القيصر سيغنّي كإله، إنّه أفضل آلهة روما في الفنّ». فهاجَ الجمهور وصفّق، وراح يطلب هو الآخَر من القيصر أنْ يُغنّي، حينَها تركث بوبيا الكأس من يدها، وأمسكث بكفّيها الصّغيرتَين كفّيه، وشدّته قائِلةً: «هيّا.. هيّا». هزّ رأسه كمن لا حيلةَ له، ووقفَ على قدمَيه، وتوجّه نحو مسرح الفرقة.

تنحنحَ قبل أنْ يبدأ، وضع كفّه على عنقه الغليظة كأنّما يُهيّئ أوتارها للبدء. ثمّ أسدلَ كفّيه على ردائه الأجوانيّ الّذي لم يكنْ يُشاركه فيه أحدٌ من البشر لا في درجة اللّون ولا في طريقة القصّ، فهو خاصٌ بالآلهة لا بالبشر الهالِكين، نظرَ خلفَه إلى الفرقة الموسيقيّة كأنّما يُعلِنَ لها عن بدئه في وصلته الغنائيّة، فصفّق له الجمهور، آنئذٍ امتلأ قلبُه بالحماسة، كان محتاجًا لشيءٍ من ذلك النّفاق لكي يدفعه الأمر إلى كَسْرِ حاجز القيصريّة والشّروع في الغناء الإلهيّ. غنّى... وعزفث من خلفه الآلات، واندمج هو في الغناء، فراح يُعطي أفضل ما عنده من طبقات الصّوت، حتّى إذا وصل إلى المقطع: «أيّتها

الآلهة فينوس.. لا تتخلّي عن كيوبيد... إنّه أمل المحرومين في الحبّ... ومنية الباحثين عن القلوب الصّادقة..» وكان يُغمِضُ عينَيه، ويهزّ رأسه المُتوّج بإكليل الغار، ويدفع بنغمة الاستِجداء والانكِسار في صوته... قوبِلَ آنئذٍ بتصفيقٍ ارتجّت له جنبات السّاحة، وراح المدعوّون يهتفون له ويُحيّونه... في تلك اللّحظة بالذّات كانت اللّيلُ قد هبط. أمّا وجه نيرون فكان مزيجًا من الزّهو والسّعادة يتغلغلان بعيدًا في أعماقه حتّى يُصيبانه بالبَلَه. انسحبَ من المسرح وهو يعقد كفّيه على صدره، ويخطو بخجلٍ كما لو كان طفلاً عائِدًا إلى مائدته، ثُمّ أضيئت السّاحة بالمشاعل في تلك اللّحظة، فرمث على الجوّ رداءً شفيفًا من الرّومانسيّة، فيما راحتْ الفرقة تعزفُ من جديدٍ ألحانًا شجيّة، وراحت القوارير تجود بما فيها من النّبيذ في الكؤوس فتطيشَ بها الرّؤوس. مدّ نيرون ذراعَيه كأنّما يرحّب بضيوفه لأوّل مرّة، وكانت هذه إشارة لكي تبدأ الفرقة الإغريقيّة بالرقص في المسرح. كان التِواء الرّاقصين والرّاقصات مع عزف الفرقة يُشبه الهنديّ الّذي يعزف لثعابينه كي تُبرِزَ أفضل ما لديها من الالتِواء واللّيونة.

لم يعُد يُنير المكان غير المشاعل الكثيرة الدّفّاقة بالضّوء، والحفلة مُستمرّة، بل لقد أُحضِرتْ أصنافٌ جديدةٌ من الطّعام واللّحوم المشويّة، وأنواع جديدةٌ من الخمور والأشربة، وراح تأثيرُ الخمر يعمل في الرّؤوس، وبدا النّاس في هَرَجِهم ومرجهم كأنّهم يعيشون حياةً أبديّةً لا نهايةَ لها، وأنّ الموت الّذي كانوا يعرفون أنّه لا يستأذن حين يأتي، ولا يقرع الباب حين يريد أنْ يدخل إلى جسد الإنسان لا يُعيرونه أيّ اهتِمام. لماذا كانوا يغرقون في تلك اللّذائذ بتلك

الصّورة الجارفة؟! هل فِعلاً أنّهم لا يهتمّون بانقطاع خيط الحياة من أرواحهم، أم لأنّهم يريدون أنْ يستمتعوا بهذا الخيط قبل أنْ ينقطع؟!

بدأت قهقهات القادة والفرسان والسّيناتورات تعلو في الزّاوية الّتي يجلس فيها القيصر، وراحت بعضُ النّساء المتزوّجات ترمي بنفسها في حضنِ قائدٍ آخَر، وأعجبَ المنظر القيصر فصفّق له، وعلت موجةٌ من الضّحكات الماجنة لا تكادُ تعرفُ مصدرها لولا التِماع بعض المشاعل على الوجوه في تراقص الألسنة المشتعلة.

بدا الحاضِرون - لمنْ لا يعرف إلى أيّ عالَمٍ ينتمي هذا المشهد الّذي يراه - أنّهم يعيشون أنضر لحظاتِ حياتهم، إنّهم يبدون في قمّة السّعادة، لكنْ انتظروا قليلاً... مَن قال ذلك؟! إنّهم يهربون من كآبتهم القارّة في أعماقهم بانغِماسهم في الملذّات كي يُذهَلوا عن أنفسهم. كانت السّعادة قشرة، وهمًا خادعًا، وكذبة لا تصمد أمام الحقيقة... الحقيقة الّتي تقول إنّ قلوب هؤلاء مملوءة بالخوف والتّرقّب والكيد والعنف والحسد... كان أكثر النّاس قلقًا هو أقواهم سلطةً، الجالس على كرسيّ القيصر كان قلقه اللامتناهي يُماثل تمامًا سلطته اللامتناهية، كان يعلم أنّ هذا الكرسيّ يقوم على ألفِ سِنانٍ قاتِل من المكائد والدّسائس، حينَ يتحوّل المُشتَهى إلى قاتلٍ خفيّ، قد يتمثّل في كلّ ما تُقبِل عليه النّفس بشغف؛ الطّعام قاتل خفيّ، وكذلك الشّراب، والجنس، والعلاقات، والحروب الّتي تمجّد روما، والقانون، ومجلس الشّيوخ، والأبناء، والزّوجات، والهواء، وكلٌّ يخافُكَ ويكرهك ويطمئنّ إليك ويُحبّك، وكلٌّ يمجّد اسمك في العلن ويلعنك في الخفاء، وكلٌّ يتوجّس من الآخَر ريبة، ليست الرّيبة في كون الطّعنة قادمةً أم لا؛ فذلك أمرٌ محتوم، ولكنّها في توقيت هذه الطّعنة؛ متى؟!

- اشربْ يا سيّدي، ومتّعْ قلبك. (راح العبد يسكب الخمر في الكأس أمامه). نظر بطرس في وجهه، كانت شفته السّفلى مشقوقة، وسواده يُظهِرُ عينَيه الكبيرتَين مُحاطَتَين في بياضهما بهالةٍ حمراء، لاحظَ أنّ أذنه مشرومة كذلك، وأنّه يلبس سِوارًا من الخرز الملوّن في إحدى يدَيه. أجابه:

- أنا لا أشربُ يا أخي.

- اشربْ باسم الإله الأعظم.

- ومَنْ هو الإله الأعظم؟!

- إنّه القيصر... ألا تعرفُ هذا؟! (راح ينظر في وجهه باستغراب).

- إنّه لا إلهَ غيرُ الله.

- الله!! (ومطّ عنقه مُرجِعًا جذعه إلى الوراء).

- بلى. هذا الّذي تظنّه إلهًا، ليسَ إلاّ بشرًا فانِيًا. (قال بكلّ جرأةٍ وهدوء).

- ومن هو الله؟! (قالها بارتِجافةٍ تغلبها سُخريةٌ مُبطّنة)

- أنا أدلّك عليه إنْ أردت يا... (أرادَ أنْ ينطق اسمه لكنّه تمهّل لكي يُكمل السّاقي عنه ذلك)

- كوش... أنا كوش. لستُ عبدًا كما تظنّ؛ أنا سيّد العبيد. (وأراد أنْ يضحك من نفسه لكنّه امتنع).

- قُلْ له أين نجتمع يا يوسف.

همهم كوش بكلماتٍ غير مسموعة، لم يكنْ يدري هل يسخر هذان الجالِسان منه أمْ لا. «إنّهما ليسا نبيلَين على الأقلّ حتّى يسخرا منّي على هذا النّحو، يبدو ذلك من لباسهما، إنّهما من عامّة الشّعب، إنْ لم يكونا من فقرائه» خاطب كوش بذلك نفسه. تردّد قليلاً قبلَ أنْ ينظر حوله خشية أن يكون أحدٌ ما قد سَمِعَهم، اعتدلتِ القارورة في يده، وبدل أنْ يسكبَ للجالس عن يمينه، راح يبتعد مُعطِيًا لهما ظهره.

قال بطرس ليوسف: «النّاس هنا يعبدون ألف إله، ويخترعون ألف أسطورة، ثمّ يخترعون ألف أسطورةٍ أخرى تنقضها». «لكنّ أديانهم تبدو ترفًا أو تقليدًا، لا أحدَ مستعدٌ من القادة أنْ يموت من أجل إلهٍ مُتخَيّل، ولا حتّى الجنود يفعلون ذلك، هم فقط يُقاتِلون في الحروب، ويتعرّضون للموت من أجل الفوز بالمال أوّلاً ثُمّ من أجل مجد روما، مجدُها الّذي يُبنَى على أشلاء الضّحايا وآهات المُعذّبين. الآلهة تبدو عندهم حكاية أو أقصوصة أو حتّى خُرافة يُتندّر بها، حتّى لو هتف بعضهم باسمها في المعارك فهو لا يعني ذلك». «صدقتَ يا يوسف... أتعرفُ لماذا رغبتُ أنْ أحضرَ مأدبة القيصر». سأله بطرس. وتابعَ دون أنْ ينتظر منه إجابة: «أردتُ أنْ أتحسّس أرواحهم عِيانًا، أردتُ أنْ أعرفَ دركات الضّلال الّتي هَوَوا فيها، هذه الإنسانيّة مُعذّبةٌ يا يوسف، تائهة، تتخبّط في شهواتها بحثًا عن مُستَقرّ للرّوح لكنّها تفشل في ذلك، لو كانت تفترض أنّ حياةً أخرى مُمكِنة لربّما سمحوا لعقولهم أنْ تُفكّر في منطق الخير والغاية من فِعله. إنّها مسؤوليّتنا يا يوسف. الإنسانيّة تئنّ من ثقل الأوزار الّتي تركبُ ظهورها، وعَمَلُنا بالدّرجة الأولى أنْ نقف في وجه الشّيطان الّذي يقذف بها فوق ظهورهم... أتعرفُ أعتى الشّياطين وأخطرهم

على الإنسان». «كلاّ يا مُعلّم». «نفسه الّتي بين جنبَيه، مَنْ كان قادِرًا على أنْ يواجهها، وأنْ يقودَها لا أنْ تقوده، سيكون بإمكانه أنْ يحطّ عن عنقه أقسى نيرٍ يُمكنْ أنْ يحمله... والآن لا تكتبْ هذا، سنكتبُ حينَ نصل إلى البيت». ثُمّ نهض، فنهضَ يوسفُ خلفه، ومشيا برداءَيهما الأبيضَين، وانسلاّ من بين الجموع بهدوء تاركين خلفهم المكان يضجّ بالصّخب.

١٠٤

ماذا لو تخلّص القلبُ من الكُزهِ إلى غير رجعةٍ؟!

شعرَ بِثِقَلٍ في رأسه، وبامتلاء في مَعِدته، وبشيءٍ يضغطُ على صدره، لاحظتْ ذلك بوبيا، فغمزتْ بوروس، الّذي حانتْ منه التِفاتةٌ نحو القيصر فبدا فاقِدًا للوعي، أسنده على كتفه، وجرّه وهو لا يعي ما يحدث معه حتّى إذا دخل من بابٍ جانبيّ في الجهة الشّماليّة حمَلَه على ظهره مثل خروفٍ ذبيح، واتّجه به إلى القصر.

كان السّاهرون ما زالوا يأكلون ويشربون ويتمتّعون، وكلّما فرغت الأباريق من الخمر، جاءتْها من بعدها أباريقُ وأباريق، وكلّما كلّتِ الرّاقِصات عن الإمتاع والاستمرار في التّلوّي خَلَفَتْها من بعدها راقِصاتٌ وراقِصات، وثمِل كلّ مَنْ في السّاحة، وتناثرتْ بقايا الطّعام على الموائد، وسَكِبَتْ بقايا الكؤوس على ملاءات الموائد البيضاء فاحمرّت واصفرّت وتلوّثت بكلّ لون، وتبعثرَ بعضُ حطام الكؤوس على الأرض حينَ سقطتْ من الأيدي المُرتجفة، وترنّح الشّارِبون، وتمايل المبطونون، وظلّتْ بتلات الورود ذوات الرّوائح الفوّاحة تتساقط من الفتحات العلويّة دون انقِطاع. وانتصفَ اللّيل، فتعبت الأجساد من الأكل والشّرب، ونضجَ الخُمار في العقول، فارتختِ الأعصاب والأرجُل، وظلّتِ الخيول الّتي تقودها العربات واقفةً في إسطبلاتها خلف القنطرة الّتي تُفضي إلى المدخل تنتظر المُغادِرين دون أنْ يغادِر السّاحةَ إلاّ عددٌ قليلٌ، وغابَ بعضُهم عن الوعي، فارتمى تحت الموائد مثل كلبٍ على قارعة شارعٍ قذر، وبال بعضهم على ثيابه، وارتمت النّساء على المقاعد مُنكّسات الرّؤوس

أو مفتوحات الأذرع، ولم يُحافِظ على صحوتهم غير العبيد، وبدَوا أنّهم نقطة الطّهارة الوحيدة في بحر هذا الفجور المُتفشّي في كلّ زاوية. غيرَ أنّه ما لبثَ أنْ أصابهم الشّعار نفسه، فراحوا يعبّون من الخمور بعد فقدان الفرسان والنّبلاء والسّيناتورات لوعيهم في غفلةٍ من الرّقباء، مِمّا أفقدهم ذلك وعيهم أيضًا، وراحوا يرقصون من نشوة الخمر في منتصف السّاحة وتحتَ أقدامهم ترتمي أجسام بعض أصحاب الطّبقات الرّفيعة فاغري الأفواه، شاحِبي الوجوه، وقد سَحَقَت هذه اللّيلةُ المجنونة طبقتهم كلّها فتساووا مع الأرضيّة الرّخاميّة الّتي تمتلئ بالدّبق وقشور الفاكهة، وفضلات الطّعام، والسّوائل اللّزِجة.

مدّد بوروس نيرون على سريره المُذهّب في غرفته الواسِعة، كان قد استعادَ في الطّريق بعضَ الوعي، ففتح إحدى عينَيه، ورفع رأسه باتّجاه القائد، لمحَ خيالاً ماثِلاً أمامه، هتف القائد: «سيّدي القيصر». لكنّ نيرون لم يقلْ شيئًا، اكتفى بأن رمى رأسه على السرير، وزَمّ شفتَيه في حركةٍ تدلّ على عدم الرّضا. تركه القائد. كانت بوبيا أوّل ما رآه حين لفّ جذعه عازِمًا على الخروج من الغرفة، أوقفته بضربةٍ خفيفةٍ على صدره المشدود، سألته بغنج: «هل هو نائم؟!». أجابها: «إنّه فاقدٌ للوعي». «إذًا بإمكاننا أنْ نفعل ذلك، غُرَف القصر كثيرة». أزاحها برفقٍ ليُبعِدها عن طريقه، ومضى. «جبان» صَكّت الكلمة أذنه وهو يخرج من الغرفة.

كان اللّيل قد ولّى شطره مُودّعًا، ومن بعيد في الأفق القصيّ حول روما كان طائر النّهار يقتربُ رويدًا رويدًا. وبدأ المدعوّون يستعيدون وعيهم، وينسحبون تدريجيًا من السّاحة.

كان ضوء المشاعل قد بدأ يخفت مع تبدّل سواد اللّيل إلى بياضه، صار لون الأفق فاتِحًا، كشفَ عن غيومٍ خفيفةٍ تسبح في الفضاء، وعن رداءٍ مُذهّب بدأ يُلقى على تلك الصّفحة الممتدّة، طاف ما تبقّى من العبيد على المشاعل من أجل أنْ يُطفِئوها، وفي ساعاتٍ قليلةٍ كانت الشّمس تصفع السّاحة الإمبراطوريّة الفسيحة بأشعّته الذّهبيّة، ولم يعد فيها غير فضلات الطّعام والشّراب الّتي انتشر بسببها عددٌ غير قليلٍ من العبيد من أجل إزالتها. تكوّمت بقايا من الطّعام تعاونَ على حملها إلى عربات الخُيول من أجل أنْ تُلقى في مكبّاتٍ قريبةٍ من نهر (التيبر) عشراتُ العبيد، لم يُفكّر واحدٌ من هؤلاء العبيد، أيّ واحدٍ منهم بأنّ هذا الطّعام يُمكن أنْ يُنقِذَ من الموت أولئك الفقراء الّذين ينتشرون على حوافّ روما وفي قراها النّائية. بل لم يُفكّر في أنْ يدّخر جزءًا منه لنفسه، ما دام الطّعام يملأ قصر نيرون على مدار اللّحظة، وهو مُباحٌ لكلّ ناهشٍ ما دام في القصر. لقد بدا أهل روما بطبقاتهم كافّة كالعبيد؛ آلاتٍ للعمل عُطّلت فيها الحواسّ!!

كانا يركبانِ حمارَين، يشقّان بهما الطّريق في اللّيل البهيم باتّجاه البيت، الطّريق الّتي تقع على بعدِ مسافةٍ كافية إلى الشّرق من نهر (التيبر)، وتأخذ صاعدةً باتّجاه الشّمال إلى قُرىً مُتناثِرة على مسافةٍ بعيدةٍ. كانت روما قد بدأت تختفي خلفهم، والدّروب المحفوفة بالأشجار والمتزّينة ببساطٍ من العشب الأخضر تمتدّ على مدى البصر، لم يكنِ اللّيل قد هربَ تمامًا حينَ شارَفا على الوصول إلى البيت. إنّه يقع شمال روما على مسيرة ساعاتٍ، في قريةٍ نائية مُهمَلة لا يدري بها القيصر ولا جنوده، ذلك أنّها ليست على الممرّ الّذي اعتادوا أنْ يسلكوه أو تسلكه فِرَقُهم المُقاتِلة. من بعيدٍ بدا البيت كأنّه شبحٌ له

عينان مُتوهّجتان. على مبعدةٍ من جادّة ترابيّة تسلكها الدوّاب في العادة، وتحت هضبةٍ خفيفة الارتفاع تتزيّن بالأشجار من أسفلها حتّى قمّتها، وخلف شجرةٍ من التّوت عالية تمتدّ غصونها حتّى تظلّله يقع البيت. كانت السّاحة أمامه منبسطة ومستوية، فيما تبدأ خلفه بالارتفاع، مِمّا جعل الجزء الخلفي من هذا البيت ملتصقًا بالهضبة كأنّه يعانقها أو يتداخل فيها. أمّا الواجهة الأماميّة للبيت فكانت تتكوّن من ثلاثة أبواب تُفضِي إلى ثلاث غرفٍ مُتلاصِقة مُتجاوِرة، الأولى للتّعليم في الشّتاء، أمّا في الصّيف فالسّاحة الممتدّة أمام البيت تحت شجرة التّوت كفيلة بذلك، والثّانية للمبيت، والثّالثة للطّعام أو قضاء الحاجة. وكانت الغرف مبنيّة من حجارةٍ قديمة، ربّما قبل عهد الإسكندر المقدوني، لدرجة أنّ سطح البيت قد غزته الأعشابُ ونمت فوقه الحشائش حتّى ألبسته رداءً أخضر أو أصفر بالكامل حسب الزّمن. كان بيتًا وادِعًا هادِئًا، يجدُ الإنسان فيه قربًا من الله عجيبًا، ولذّةً روحيّةً خالصةً. اتّخذه بطرس وتلامذته دارًا للتّبشير بعيدًا عن أعين الرّومان وآذانهم، وفي خلوةٍ مع الله تُشعر الرّوح بارتقائها نحوه.

وصلا إليه وطائر الفجر لم يخفق بجناحيه. كان مملوءًا بالمؤمنين. لم يُفارقوا المكان حتّى يروا معلّمهم، لقد قلقوا لتأخّره مع علمهم أنّه ذهب ليحضر مأدبة القيصر. حينَ صار بينهم، سلّم عليهم ودعا لهم، ثُمّ وعظهم موعظة العشاء الأخيرة رغمَ فواتِها، وطلب منهم أنْ ينصرفوا.

منذ سنةٍ أو يزيد كان بطرس قد وصل إلى هنا، وبدأ يدعو إلى دينٍ سماويٍّ جاءَ ليُكمِلَ دينًا سبقه هو اليهوديّة، كان عددُ اليهود

في ذلك الزّمن قليلاً، ينتشرون في أنحاءَ مختلفة من الإمبراطوريّة الرّومانيّة، ما سمعوه من بطرس من كيدِ بعضِ الكهنة للمسيح، ومن كرههم لدعوته وخاصّة أنّ أمثال كهنةِ أورشليم موجودة في كلّ معبدٍ من أرجاء المعمورة، أولئك الّذين تهمّهم جيوبهم وسلطتهم أكثر مِمّا تهمّهم شريعة موسى.. ما سمعوه حول ذلك كان قد قرّبهم من المسيح، فلمّا علموا أنّ الإيمان بربٍّ واحدٍ وخاصّة من الّذين نشؤوا في بيئةٍ وثنيّة تعترف بتعدّد الآلهة يُنجيهم يوم الدّينونة آمنوا، وبدؤوا ينتشرون. وككلّ دعوةٍ من السّماء كانت دعوةُ بُطرس تجدُ تربتها الخصبة بين الفقراء، أولئك الّذين تخلّصوا من شهوة السّلطة أو النّفوذ أو المال وأرادوا ما عند الله من النّعيم، قد يكون اختيارهم لِما عندَ الله اضطِرارًا لأنّهم لا يملكون ما يملك السّادة من الأباطرة والنّبلاء والأمراء والسيناتورات، ولكنّهم على الأقلّ وجدوا في توجّههم الجديد عزاءً، فأنْ تنتظر شيئًا بعد الموت يُنصِفك خيرٌ من أنْ تعيشَ مظلومًا وتموت مظلومًا، وينتهي بك الأمر في تلك الحفرة، ولا تكون بعدها حياةٌ تُعيدُ إليكَ حقّك. وهذا ما حدث؛ انتشر دين المسيح بين عامّة النّاس، لكنّه مع كلّ هذا الانتشار الّذي كان أشبه بالانتشار الخفيّ لشيبٍ في رأسٍ أربعينيّ لا يملك له رَدًّا ولا مُقاومةً مهما فعل، فإنّه انتشر أيضًا بين عددٍ لا بأسَ به من القادة أو النّبلاء. ومردّ ذلك إلى أمرين في الحقيقة؛ الأوّل أنّ تعدّد الآلهة أوقعهم في حيرةٍ من الأمر؛ فلم يعرفوا إلى أيّ إلهٍ يتوجّهون، وعندَ أيّ إلهٍ ينحرون قرابينهم، ومن أيّ إلهٍ بالذّات يطلبون النّصر في المعارك، كان تعدّد الآلهة مشكلةً حقيقيّة خاصّة داخل البيت الواحد، ففيما كان الواحد من النّبلاء يؤمن بإلهٍ ما، كانت زوجته تُخالِفه في

ذلك، وابنتهما تخالفهما الاثنين. أمّا الثّاني فلأنّ بطرس هذا الحواريّ الّذي أيّده الله كما أيّد عيسى ببركة إيمانه العظيم، كان عامِلاً -في دعوته- من عوامل الاستقرار النّفسيّ داخل البيت الواحد، وكانت تجري على يديه بعضُ الكرامات الّتي لم تكنْ تجري حتّى للآلهة كما كانوا يعتقدون، فيؤمنون به، مع أنّه كان يردّد على مسامعهم: الله واحدٌ لا شريكَ له، وما فعلْته هو بأمرٍ منه، فآمِنْ بمن شفا ابنتك لا بي، وبِمَنْ ردّ لأخيكَ بصره لا بي، فإنّما أن وسيلةٌ والله هو القادر على كلّ شيء. حدث ذلك مع (ليغاتوس) أحد القادة الكبار إذْ عادَ النّور إلى عينَي ابنته بعد صلوات بطرس. فآمنَ بالله. كان الله - على الدّوام - مدار البحث عندهم، كان سؤالاً فلسفيًا يدور على ألسنتهم، يسألون عنه، عن ماهيّته، كما سأل ذلك العبد في تلك اللّيلة، ذلك لأنّهم لم يعتاودوا أنْ يكون للكون إلهٌ واحدٌ. فالكون فيه مطر وخِصبٌ وشمسٌ وقمرٌ ونجمٌ وحُبٌ ونَصرٌ و... ولا بُدّ لكلّ واحدةٍ من هذه القيم المادّيّة أو المعنويّة أنْ يكونَ إلهًا، ومع أنّ السّؤال عن الله كان سؤالاً يعقد الدّهشةَ بينَ عيونهم، ويعلّق الوجوم على ألسنتهم، وينصب الشَّراك لعقولهم، إلاّ أنّه كان حلاً بالفعل للتّعدّد الّذي يُفضي إلى مرض الرّوح والعقل، فإذا كان الله مُتحكّمًا بكلّ ذلك، أو «كُلّيّ القُدرة» كما كان بطرس يقول، إذًا فلنعبد هذا الإله، ونرتاح من هذا الانقسام الّذي يورّث انقِسامًا في كلّ شيء!

كان بطرس يدعو كذلك إلى أهمّ قيمةٍ من القيم الّتي اء بها المسيح، يدعو إلى التّسامح، ومع أنّها كانت صعبةَ القَبول ابتداءً في مجتمع لا يعترف إلا بالقوّة، ولا تحكم طبقاته إلاّ الطّبقيّة في السّلطة، ولا يخضع لغير قانون الأقوياء، فإنّه كذلك كان ينظّف الرّوح

من كثيرٍ من التبعات المثقلة. ماذا لو تخلّص القلبُ من الكُره إلى غير رجعةٍ؟! إنّه سيعيش على نحوٍ من الجمال لم يكنْ لِيُدرَك إلاّ بعد صبرٍ وتجريب. ماذا لو أنّني - كقائد مئة - وضعتُ رأسي على وسادتي وسامحتُ كلّ الّذين دبّروا لي المكائد ليتخلّصوا منّي عندَ القيصر، ربّما سأنام ليلاً طويلاً ومُريحًا. لم يكنْ ذلك سهلاً بالطّبع، لم يكنْ سهلاً ألبتّة؛ فعلى الوسائدة الأخرى في سريرٍ آخَر كان رأسٌ ينام وهو يُفكّر كيفَ سَيفصل عنقي عن جسدي بالمِقصلة لأنّني حققتُ في معاركي انتِصارًا لم يحقّقه هو. ماذا لو أصبحتُ ضحيّةَ تَسامُحِي بين لحظةٍ وأخرى!! تلكَ كانتْ مشكلة بطرس الأولى، ومشكلة مجتمع روما بأكمله.

١٠٥

النّـــارُ أمّ الفلسفات

تحلّق عددٌ غيرُ قليلٍ من الأدباء والشّعراء حول نيرون، وبعضُ الموسيقيّين، كان يُخصّص لجلسةٍ مثل هذه يومًا واحِدًا على الأغلب كلّ أسبوع، روحُه المُتعطّشة إلى الفنّ لا تُروى إلاّ في مقامٍ كهذا، كان يرى أنّ إسخيليوس وسوفوكليس في المسرح هم نماذجه المُحتذاة، ويرى أنّ هسيود وهوميروس في الشّعر هم مناراته الهادِية، وأنّ شيشرون كاتبه المُفضّل إذا ما أراد أنْ يقف خطيبًا في مجلس الشيوخ. وكان يسعى إلى أنْ يذكره التّاريخ شاعرًا ومسرحيًا، بل وفنّانًا وعازفًا موسيقيًا، أو حتّى سائقَ عربةٍ جيّدًا أكثر مِمّا سيذكره إمبراطورًا أو قيصرًا لروما العظيمة، ولكنّه لم يكنْ يُدرِك أنّ العالَم سيذكره بغير ذلك على وجه التّرجيح.

وهنا في ساحةٍ مُرصّعةٍ بالأزهار وبالشُّجيرات الصّغيرة الجميلة في أحد قصور نيرون الكثيرة المُطلّة على البُحيرات المُحاطة بأعمدةٍ تعكس مشاعل تتّقد داخل بلّوارت فيروزيّة، كان يُمكنك أنْ تسمعَ عددًا غير قليلٍ من الشّعراء والأدباء والفلاسفة والمسرحيّين يُصغي إلى قصائد القيصر، القيصر الّذي كان يُقاطِع استرساله الأخّاذ في القصيدة الّتي أنهى كتابتَها أمسِ صوتُ نشازٌ قادِمٌ من أماكن قريبة، فيحتدّ، ويصرخ: «قلتُ لهم أنْ يُطعِموها في اللّيل بدل أنْ تُفسِدَ علينا أجواءَنا الهادِئة بهذا الزّئير الغليظ». فيردّ أحد قادته: «إنّها أسودٌ جديدةٌ أُقدِمَتْ من أفريقيا للتّوّ ووُضِعتْ في أقفاصِها تمهيدًا لدخولها في المسابقات والمُجالَدات الّتي تُعرَض في المُدرّجات أيّام

الأعياد، هي جديدةٌ يا سيّدي لم تألف المكانَ بعد، انتقالها من بين الأدغال في أفريقيا إلى الحجارة والأقفاص في روما ربّما أفزعَها قليلاً». «لكنْ رَمْي اللّحم لها باستمرار قد يكونُ حلاً مُفيدًا لإسكات أصواتها العالية» استدرك نيرون. «ليس الأمر أنّها لم تَغتَذ على المكان أيّها القيصر الجليل» ردّ ماريوس، سأله القيصر: «وما الأمر إذًا أيّها العزيز؟». فيجيب: «إنّها لم تعتد الأسر، هذه الأسود تجأر بزئيرها العالي مُطالبةً بالحرّيّة وبالانطلاق في الأماكن الفسيحة». «الحرّيّة ليستْ للنّاس كلِّهم يا ماريوس، فكيفَ تُطالِب بها الحيوانات؟!». «ليست الحيوانات وحدها هي الّتي تطلب الحرّيّة أيّها القيصر، حتّى الأشجار تفعل ذلك حينَ تمدّ رأسها إلى السّماء». «هل هذه فلسفة...؟! دَعْكَ من هذا الهُراء، لا تُفسِد علينا أجواءَنا، أطْعِموا أفواهها لحمًا جيّدًا تُسكِتوا أصواتها زمنًا طويلاً». صمتَ وهو ينظر بعينَين ماكرتَين باتّجاه ماريوس: «مَنْ هو أقوى مُصارعٍ في روما يا ماريوس، أقوى مُجالِدٍ موجودٍ فيها أيّها العزيز؟». «كروتون يا سيّدي، كروتون». «هل تريدني أنْ ألقِيَ بِكَ بينَ يدَيه لتتعلّم الفلسفة جيّدًا؟». ثُمّ ضحك ضحكةً عالية، وتابع: «لا تخف يا ماريوس، حتّى المُقبلون على الموت قادِرون على صياغة أشدّ العبارات فلسفةً». ثُمّ تنحنح وأشار بيده البضّة إلى عنقه الغليظة، ليصمتوا، وليُكمل هو قصيدته: «النّار تحرقُ كلّ شيءٍ في طريق الأمنياتْ... لا شيءَ يوقفُ زحفها... لا الأخضر المزهوّ لا... لا اليابس المحطومُ، لا شجرُ الحياةْ... النّار أمّ الفلسفاتْ». ضجّ المكانُ بالتّصفيق، صاحَ أحد الشّعراء الحاضرين: «النّار أمّ الفلسفات» وصفّق من جديد فتبعته موجةٌ من التّصفيق عكّرتْ ماء البحيرة القريب. وحده ماريوس ظلّ صامِتًا، نظر إليه

نيرون مُضيّقًا عينَيه كأنّه يريدُ أنْ يرى كائِنًا لا يتمكّن من رؤيته لضآلته: «وماذا ترى يا ماريوس؟!». «إنّها قصيدةٌ باردة، لا تليقُ بالنّار». جمدَ الدّمُ في عروق بقيّة الشّعراء والحاضرين، لكنّ ماريوس زاد الجمود من الهلع مرّة أخرى حينَ تابع: «النّارُ أولى بها». كان غرور نيرون مثل تلّةٍ نسفها بركانٌ في لحظةٍ واحدة، غَصّت على حنجرته حشرجةٌ جاهدَ في إخفائها، وهو يسأل بكبرياء مطعونة: «لماذا يا ماريوس، هل أنا لا أصلح للشّعر؟». «أنا لم أقلْ ذلك أيّها القيصر. بل أقول إنّ قصائد القيصر يجب أنْ تكونَ عظيمةً كالقيصر، هذه قصيدةٌ يُمكن أنْ يكتبَ تحتها أراتوس اسمه، أو فرجيل، أو حتّى هوميروس نفسه، أمّا نيرون فتليقُ به قصيدةٌ أعمقُ من هذه، إنّ الكتابة عن النّار يجب أنْ تكونَ بمستوى النّار، حارِقة، مُدهِشة، وقاتِلة في الوقت ذاته، ولذا أعطِ نفسكَ فرصةً أخرى لكي تُدهِشَ هذا الجمع المُنافِق، لو كان (سولون) حيًّا بيننا لقضى أنْ تُرمَى هذه القصيدةُ في البحيرة لتكونَ طعامًا للأسماك، إنّه يعرفُ قَدر القيصر فلا يقبل بقصيدةٍ أقلّ من القصائد الخالِدات الّتي لا تموتُ مع الزّمن». كان نيرون يحسّ أنّ روحًا جديدةً تصنع له أجنحةً يريدُ أنْ يطير بها وهو يستمع إلى كلام ماريوس، نادَى أحدَ الحرس، طلبَ منه بلا تردّد: «ألقِها في البحيرة». ثُمّ التفتَ إلى ماريوس: «كيفَ أكتُبُ عن طراودة مثلما كتب هوميروس عنها أيّها العزيز؟!». «عليكَ أنْ تعيشَ الحدث، لا أنْ تتخيّله». «ماذا تقصد؟!». لم يُجِبْ ماريوس، كان قائد الجُند قد تبرّع بإجابة حينها من عنده: «»الحريق يا سيّدي، حريقٌ مثل حريق طروادة «. «هل أنتَ جادٌ أيّها القائد؟!». لكنّ صمتًا ثقيلاً انجرّ على الحاضرين، أصابهم الخَرَس فجأة، وفيما كان القيصر يصرفهم جميعًا

بإشارةٍ من يدَيه، كانتْ طيور الفِكرة قد بدأتْ تُحلّق عالِيًا في رأسه!!

خارجَ القصر، وعلى مبعدةٍ في إحدى ساحات الفوروم الشّاسِعة كان يتجمّع تحتَ الأعمدة العالية أناسٌ كثيرون، بدؤوا مجموعةً صغيرة سرعان ما امتدّت، وتضخّمت حتّى صارتْ تُشكّل ظاهرةً لعموم الشّعب الرّومانيّ المارّ من ذلك المكان، لقد كان ذلك بولس!

كان يَعِدُ النّاس بما لم يحلموا به من قبل. الخلود بعد الموت. الحياة مع المسيح في الأبديّة الّتي لا تنتهي. وكان يُعمّد النّاس بماءِ الحياة، ويُدخِل في سلك المعموديّة الكثير، لم تكنْ دعوته تخصّ الفقراء بوجهٍ عامّ، كان أذكى وأجرأ من بطرس في اختيار المكان، هُنا حيثُ تتزاحم الأقدام وتتنوّع الأجناس وتتمايز الطّبقات، يقفُ ويدعو، ويلتفّ حوله المؤمنون. المحبّة الّتي في قلب المسيح تسع البشر مُجتمعين، يُمكن أنْ تشملكم أيّها الإخوة، لقد فداكم بجسده، فدى خطاياكم لتعيشوا من بعده بلا خطيئة، سُمّر على الصّليب ونال العذاب والهَوان لكي لا تتعذّبوا ولا تتعرّضوا للهوان، إنّه ابن الله الوحيد الّذي آثركم به، وأنتم اليوم أبناءُه، لم يمضِ على موته على الصّليب ودَفْنه وقِيامه من بين الأموات وجلوسه عن يمين الرّبّ إلاّ عقودٌ قليلة، زمنكم هذا زمن ألوهيّة المسيح، زمن خلاصكم على يدَيه، فأيّ بُشرَى وأيّ خلاصٍ لكم أعظمَ من ذلك؟! سيجيءُ أناسٌ في آخِر الزّمان يتمنّون أنْ يعيشوا ما عِشتم، ويسمعوا من رسولٍ مثلي ما سمعتم، أنتمْ ترونني وهم لن يروا إلاّ ما كتبتُ لهم من شرائع في رسائلي، ولكنّكم تُبصِرون بأعينكم وتسمعون بآذانكم وتتلمّسون بأصابعكم مواعظي الّتي هي ليستْ بإنسان ولا من إنسان، ولكنّها من المسيح نفسه فأي حُبّ من الله خصّكم به أعظم من ذلك؟! قد

تتخلّون عن السّعادة كما تخلّى عنها المسيح، ولكنّكم في الوقتِ نفسه تربحونها، طوبى لأولئك الّذين يعيشون في ظلال الصّليب، ويَصلبون شهواتِهم على خشبة الموت كما فعل الرّبّ، طوبى لأولئك الّذين يُنَقّون السّعادة في أعماقهم بمنحها للآخرين».

ثمّ يتركه الجَمعُ مشدوهًا، إنّ حياةً جديدةً تغمر أرواحهم التّائقة. لقد ملّوا من الظّلم والعبوديّة والطّبقيّة تحت حُكم الرّومان، لقد كان القانون الرّومانيّ المُحكَم في نظر القُضاة ليس إلاّ قانونًا صنعها الشّرفاء لكي يسلبوا الفقراء حياتهم باسمه، لم تكنْ هذه القصور المُشيّدة لا للقيصر فحسب بل لمئات من النّبلاء إلاّ حجارةً قامث على جماجم المساكين والمُعذّبين. إنّه الدّين الّذي يعيد إلى العبيد حرّيّتهم، ويُنقذهم من نِيرِ ظلّ يحزّ أعناقهم طوال حياتهم، وآنِ لهم أن يكسروا هذا القيد، ويُحطّموا ذلك النّير.

ينصرفون إلى أعمالهم، في مناجمهم، في حقولهم، في متاجرهم، في مَخدَداتِهم وهم مملوؤن بشغفٍ جديد، بشيءٍ غامض لم يألفوه من قبل، ولم يعرفوه حقّ المعرفة حتّى الآن، لكنّه - كما كانوا يحسّون - يحرّك الماء الرّاكد في البحيرة.

قال له صبيٌ وقد بدا من وجهه الّذي لم يمسّه الماء من زمنٍ: «أنا لا أعرفُ لي أبًا وأمًا». سَخِرَ منه آخَرون، وضحكوا: «لقيط. اللّقيطُ للشّارع». فينهرهم بولس بكلمةٍ حادّة، ويقتربُ من الصّبيّ، ويمسح على رأسه، ويغسله بالماءِ المُقدّس: «الآنَ دخلتَ في المعموديّة، ليباركك الرّبّ». ثمّ يتوجّه إلى الجمع الّذي سَخِرَ منه للتّوّ: «إنّه بذرةٌ طيّبة في أرضٍ وَخِمة، إنّه ابن جيلٍ فاسدٍ، عليكم أنْ تعملوا من أجل

أنْ تتخلّصوا منه، لو كان أبوه يؤمن بالمسيح، الّذي يقول إنّ عَقْدًا رَبَطَهُ اللهُ لا ينفصم، لَما تركَ أمّه، ولو كان يؤمن بقوله: لا تَزْنِ لما كان ما كان، ولو كانتْ أمّه تؤمن بمريم لما تركتْ ابنها، هكذا نكوّن أُسَرًا متينةً لا مكانَ فيها للقطاء لو كان الرّبّ حاضِرًا في النّفوس». منذ ذلك اليوم ظلّ الفتى مُخلِصًا لبولس وعبدًا مُطيعًا له يلحق به إلى أيّ مكانٍ يذهب إليه.

وامتدّ الإيمان بالمسيح إلى أرجاء كثيرة من روما، وبدا أنّه لم يستثنِ بعضَ الطّبقات العالية، فآمن ببطرس قادةٌ وجند، وآمن ببولس كذلك. لكنّ بطرس ظلّ يقول إنّ الله واحِدٌ لا يتعدّد، ويطلب من الله أنْ يكتبه في الشّاهِدين ويموت على ذلك، وظلّ بولس يقول إنّ الله ثلاثة، ثلاثةٌ تجتمع في واحد، وكانت دعوةُ بولس تلقّى قبولاً أكثرَ من الّذي تقبله دعوة بطرس، ذلك لأنّ فكرة تعدّد الآلهة في روما كانت شائعةً سائدة، وهي الفكرة الّتي قارَبَها بولس، ولم يفعل بطرس.

أمّا نيرون فلمْ تتوقّفْ مآدِبه الباذخة، الّتي كان يُنفق في كلّ واحدةٍ منها ما يُمكنُ يُحيي أنفسًا كثيرةً ماتتْ دون أنْ تُفلح في الحصول على كسرة خُبزٍ واحدة. وأمّا أمسياته الأدبيّة فلم تتوقّفْ كذلك، وكثُر حوله المُتملّقون، ونبتَ الإيمان في قلوب بعضِ قادته، وكذلك في أعضاء مجلس الشّيوخ عنده، ونصحه غيرُ واحدٍ لكنّه استمرّ في غيّه، وأصابه الإدمان على الشّراب بالجنون، فكانَ يرتدي في حفلاته أفخر الثّياب، ويأمر وينهى، ويُبذّر مُقدّرات روما وأموالها، ويعيشُ قيصرًا خالدًا لا يُشبهه أحدٌ من الفانِين، ثُمّ حينَ يسودُ اللّيل، ويُحكِم الظّلامُ قبضته على المدينة، يطلب من بوروس أن يتبعه من بعيدٍ

دون أنْ يلحظَ أحدٌ، ثُمّ يخرج من قصره مُتخفّيًا، لابِسًا ثياب العبيد، ويقودُ عربةً على حصانٍ هائج، ويبدأ بممارسة هوايةٍ غريبةٍ نشأت معه بعد جلوسه على كرسيّ القيصر في السّرقة والنّهب، وقَطْع الطّرقات، ودَهْسِ العامّة، كأنّه لِصٌ خَبِرَ اللّصوصيّة بأرفع درجاتها، أو مُجرمٌ من أعتى المُجرمين المُتمرّسين في ذلك!!

١٠٦

إنّ الوَرْدَ الّذي تَدُوسه الأقدامُ
لا يَهَبُها إلاّ العِطر والشّذى

كانتِ الجموع تواصلُ مسيرتَها صاعِدةً عبر الممرّات الضّيّقة، على هُدى النّجوم، حَرِصُوا على ألاّ يراهم أحدٌ، فمنذ أنْ نُمِي خبر تفشّي المسيحيّة حتّى بين حرس الإمبراطور صار الدّخول فيها سببًا للقتل دون محاكمة، عند هذا الحدّ توقّفت عدالة روما، وتعطّل القانون الرّوماني الّذي كان يُضرَب به المثل في الدّقّة والتّفصيل في ذاك الزّمان.

ظلّوا يصعدون في اللّيل البهيم، كانت النّجوم الخافِتة تلمعُ في قُبّة السّماء الغامقة، في ليلةٍ شديدةِ البرودة لكنّ ضوءَها لم يكنْ كافِيًا لِتَهَدّي الطّريق، الّتي تُصبح وعرةً أحيانًا، وزلقةً أحيانًا أخرى، رجالاً ونساءً في البرد وأطفالاً وشيوخًا كانوا يمشون، مُتلفّعين بأرديةٍ حرصوا على أنْ تُخفِيَ وجوههم حتّى لا يتعرّف عليها بعضُ الأسياد أو الجنود فيحدث ما لا يُحمد عُقباه، خاصّة في أوّل خروجهم من المدينة الضّاجّة حتّى هذه السّاعة بأصوات العربات وحوافر الخيول وحمحماتها في الطّرقات. كان في كلّ زقاق وفي كلّ مسربٍ عشراتٌ من العَرَبات الّتي ملأتْ أنحاءَ روما كلها بالضّجيج، حتّى اضطرّ الإمبراطور إلى أنْ يسنّ قانونًا يحدّد فيه أوقات استخدام العربات للطّرقات ليخفّف من الضّجيج القاتل الّذي كان يصمّ الآذان، وخاصّة إذا ترافق مع أصوات الحيوانات والأسرى المجلوبين إلى مدرّج المنتدى الرّوماني أو شرق الفوروم. أما الآن فقد ركنتْ بعضُ العربات

إلى مرابضها، إلاّ أنّه كان يُسمَع صوتُ عدو الخيول وضُباحها وصوتُ عجلاتِ العربات على الطّرق المرصوفة بالحجارة من حينٍ لآخَر. كان من المُمكِن لمرور هؤلاء وتعرّفهم على هذه الأفواج الصّاعدة إلى الشّمال أنْ يُسبّب كارثة. ولذا حافَظوا على السّرّيّة ما أمكن. حين صارتْ روما خلفهم، وصار الطّريق مُظلِمًا، بدأ بعضُهم بإشعال بعض المشاعل البلّوريّة لكنّهم حافَظوا على أنْ يسقطَ ضوؤها عند الأرجل، وأنْ تظلّ داخل أرديتهم الفضفاضة حتّى لا تُرى من بعيد.

المُؤمِنون جاؤوا من الجهات الأربع لروما لكي يشهدوا هذا اللّقاء التّاريخيّ، ويستمعوا إلى الرّسول الّذي رأى المسيح، ونام إلى جانبه، ورافقه في مسيرته، وصافَحه، ولمسَ ذراعه بكفّه... إنّهم توّاقون إلى هذا القِدّيس الّذي أجرى الله على يديه كثيرًا من الخوارق، كانت الأفواج تأتي من الشّرق والغرب والجنوب، فيلتقي بعضُها ببعض، فيؤدّون التّحيّةَ بإمالة رؤوسهم، ويُواصِلون السّير دون التّفوّه بكلمة، كانت المسيرة تُشبه حجًّا حقيقيًّا إلى الأرض المُقدّسة، ضمّتْ هذه المسيرات أنواع التّائبين كلّهم؛ اللّصوص، والأبرار، القادة والجُند، السّادة والعبيد، البِيض والسّود، كان واضِحًا أنّ هذا الدّين الجديد لم يُفلِتْ من سِحر تأثيره أحدٌ.

شكّلتْ أرديتهم السوداء مع ظلام اللّيل أشباحًا تهفو إلى المُرتقَى، وكائناتٍ غامضة تتقاطر للمكان يدفعها التّوق إلى الخَلاص. قليلون هم الّذين حسروا عن رؤوسهم أمّا البقيّة فبدوا بالقلنسوات الّتي تُغطّي رؤوسهم كما لو كانوا رُهبانًا في ليلٍ منقطعٍ من البشر قريبٍ من الله لا يعلم به إلاّ الجنّ أو الملائكة.

في منتصف الطّريق مرّوا بمقبرةٍ دُفِنَ فيها مَنْ قُتِل في المُجالَدات، وعلى أيدي الأسود المُفترِسة، أو الفقراء الّذين لم يجدوا قبورًا كتلك الّتي شُيِّدث في وسط روما لعِلية القوم. إنّها مقبرة المسحوقين. كانت تمتدّ على مساحةٍ واسعةٍ إلى الشّرق من الطّريق الّذي يسلكه هؤلاء الحُجّاج، شواهدُ القبور المُنتصِبة في سكون اللّيل زادت المكانَ رهبة، بعضُهم عرّجوا على أقرباء لهم فيها ليلقوا بالسّلام على أرواحهم، وليتمنّوا لهم الحصول على الأبديّة، كُنتَ تُشاهد المشاعل وهي تجوب المقبرة باحثةً عن الحبيب المفقود كأنما هي نجومٌ ضيّعث مكانها في فلك السّماء فراحث تحاول الاهتِداء إلى منزلٍ فقدته فيها.

بعضُ هؤلاء الحجيج الّذي صار لهم غَطِيطٌ لطول ما مشوا تَعِبوا، خاصة من كِبار السّنّ فجلسوا تحت بعضِ الأشجار مُلتحِفين بأرديتهم من البرد، يستلهمون الله شيئًا من الرّاحة لإكمال الطّريق، مُستذكِرين ما عاناه المسيح في حياته، ومُستقلّين معاناتهم أمام ذلك، وأمّا الّذين ألهبهم الشّوقُ إلى لقاء القِدّيس فقد كانوا يغذّون السّير كأنّما خُلِقث لهم أرجلٌ جديدة ورجعوا إلى عهد الشّباب وهم قد بلغوا من العمر عِتِيًّا.

بعدَ ساعاتٍ طويلةٍ، صارث روما كُلُّها خَلفَهم، حتّى ضواحيها وأطرافها، غابث عن ناظرهم بكلّ أضوائها خلف التّلال المُحيطة بها، وكأنّها انفصلث عن العالَم الّذي وفدوا إليه، وسقطث بكامل جبروتها أمام هذا الجلال البسيط الّذي صاروا بحوزته. وصلوا إلى بيت الرّسول بطرس، كان يوسف وكوش وليغاتوس قد هيّؤوا المكان لاستقبال المُؤمِنين، وركزوا على أطراف السّاحة عددًا من المشاعل

لتجعل الرّسول مرئيًا، وجاؤوا بمرتبةٍ عاليةٍ من الخشب ووضعوها تحت شجرة التّوت ليقف عليها الرّسول. وانتظر بطرس وقتًا ليسَ هيّنًا ليصل بقيّة الوافدين، إذْ ذاك صاروا يتجمّعون حول الشّجرة في السّاحة الّتي ترتفع الهضبة على إحدى جوانبها، مِمّا شكّل فرصةً جيّدةً لكي تستوعب هذه الهضبةُ عددًا أكبر من الحاضرين وتُمكّنهم جميعًا من رؤيّة الرّسول وسماعه.

كانتِ القُلُنسوَةُ لا تزالُ تغطّي رأسه حين وقفَ على الصّخرة وتهيّأ لموعظته الّتي ستكون بصمةً في جبين التّاريخ في ذلك اللّيل المشهود. رداؤه الأبيض بدا حليبيًا على ضوء القمر المُتسلّل من أوراق شجرة التّوت، كانتِ الأشعّة الوانِسة تسقط من خلف أكتافه عبر فجواتِ الجذوع، فترفعه في هيئته المَهيبة تلك إلى مرتبة الملائكة في عيون الأعناق المُشرئبّة نحوه والقلوب الملتفّة حوله.

كانَ كوش الّذي تعلّم التّراتيل من بطرس قد بدأ في تلك اللّحظة يُنشِد بصوتٍ سماويّ رخيم ليُهيّئ السّامعين لموعظة بطرس، وراحَ عددٌ من الحاضرينَ يُردّدُ خلفه، فسبحث في الفضاء في هدوء اللّيل العميق ترانيم لفّت القلوب بعرائش من الياسَمين، وسحبث على الأرواح غلائل من الطّمأنينة، وكأنّ شجرة التّوت والأشجار القريبة قد طَرِبَت لذلك النّشيد العذب فخُيّل أنّها تتراقص على إيقاعه، وشعرَ النّاس أنّ النّسمات تخلّث عن برودتها وبثّث في النّفوس شيئًا من الدّفء، حتّى الحجارة الّتي كانث تُشاهَد في بقعةٍ من الضّوء حول المشاعل قَرّث في أماكنها كأنّ الغِناء قد سَلَبَها لُبّها!! ثُمّ خفتَ صوث كوش شيئًا فشيئًا حتّى صمتَ تمامًا، فعلّق النّاس أنظارهم بالرّسول، وكانَ ذلكَ إيذانًا بأنْ يقفَ بطرس على قدَميه، ويُزيلَ القُلُنسوة عن

رأسه، ويهفو إليه كلّ موجودٍ في ذلك المكان من كلّ مخلوق.

«إنّما أنا عبدٌ لله، لا أفضلُ أيّ واحدٍ منكم بشيء، كلّنا في حُكم الله خلقُه وعِيالُه ومُتساوُون أمامه، وكلّ ما سأعظكم به اليوم إنّما هو مِمّا علّمني ربّي، ومنْ صُحبتي الطّويلة ليسوع. إنّ أوّل ما أريدكم أنْ تعرفوه، هو حقيقةُ الإيمان المسيحيّ، إنّني سمعتُ أنّ بعض المؤمنين قد أُشكِلَ عليهم، ويعتقدون أنّ عيسى قد صُلِب، وما كان ذلك ليحدث له، وهو أحبُّ خلقِ الله إلى الله، بل رُفِع. (سرتْ همهماتٌ بين الحُضور... فأعادَ الرّسول ما قال فهدأتِ الأصوات)، وإنّ عيسى عند الله رسولٌ لا إله، فمن قال غير ذلك فكأنّما دعا الله إلى أنْ يسخَطَ الأرضَ ومَنْ عَلَيها، وإنّه دعانا إلى أنْ نعبدَ الله وحده، ودعانا أنْ ندعو النّاسَ إلى ذلك، فمن أشركَ مع الله غيره فقد كفرَ بيسوع».
(كان كلامُهُ واضِحًا جارِحًا مِمّا جعل النّفوس تشعر بأنّها أمام رجلٍ جريءٍ قويّ لا يحتمل أنْ يُفلسِفَ الأمور)... سكتَ برهةً كأنّما يسترجع شيئًا نَسِيَه، ثُمّ تابع: «إنّني صيّاد سمكٍ قبلَ أنْ أتجدّد، لكنّ المسيح قال لي ستصيدُ قلوبَ النّاس، أتعلمون بِمَ نصيدُ قلوبهم؟! بالقِيَم الّتي زَرَعَها فينا، والقِيم فيها أوامرُ ونواهٍ، ولا تكتمل عقيدتُنا إلاّ أنْ تؤمن بها قلوبنا وتُصدّقها أعمالُنا، أمَرَنا أنْ نُحبّ الفقراء، فما كان يسوع إلاّ فقيرًا يُجالِسُ البُسطاء ويأكل من طعامهم ويتودّد إليهم بالكلمة الطّيبة، وأمرنا بالابتعاد عن التّبذير حتّى لو كنتَ قادِرًا عليه فلو كان لكَ من العُمر ألفُ عامٍ فهل تبذّر في كلّ يومٍ منها مئةَ سنةٍ لأنّ عندكَ ألفًا!! وأمَرَنا أنْ نكونَ قدوةً لغيرنا، في أيّ أرضٍ حللْناها، حتّى لهؤلاء الّذين يَعبدون آلهةً مُتعدّدة، لا تُعامِلْهم بالمثل، إنْ سرقوكَ فلا تَسرِقْهم، وإنْ خانوكَ فلا تَخُنْهم، وإنْ غَشُّوك فلا تغُشّهم، وإنْ رَضُوا

لأنفسهم الكذب فلا ترضَهُ لنفسكَ أبدًا. إنّي حُبّكَ أيّها المؤمِن للعَدْل هو حُبّ الله العادل، وحُبّك للفضيلة هو حُبّ الله الفاضل، فمنْ عملَ بهما فقد أحبّ الله، ومَنْ أحبّ الله أحبّ ما عنده من الخلود، وحينَ يمتلئ القلبُ بالحبّ فإنّه سيُحبّ حتّى أولئك الّذين اضطهدوه وكانوا أعداءه ولاعِنيه؛ إنّها رسالة المحبّة للعالَم كلّه، حينَ يملأ الحُبّ الكون، وبلادَ الله الواسِعة حينئذٍ فحسب ستعيشُ في سلام. وأمَرَنا بالصّبر على الشّدائد حتّى لو شَدّتْ سَوْطَها حول أعناقِنا؛ إنّ الوَرْدَ الّذي تدوسه الأقدام لا يهبها إلاّ العِطر والشّذى، وإنّ النّار الّتي تحرِقُ العُود لا يَهبها إلاّ الطّيب والنّدى، إنّ الشّرّ الّذي تُجابَهون به يجب أنْ يُخرِجَ أفضلَ ما فيكم، وأنبلَ ما في قلوبكم...» ثُمّ سكت فلم تسمعْ لأحدٍ نأمة، كان يُهيّأ للسّامعين أنّ الحواريّ صعدَ إلى النّجوم فاختار أجملها وآنسَها ثُمّ تحوّلت النّجوم إلى كلماتٍ بين يديه، ثُمّ نَثَرَها بمحبّة على مسامعهم.

ثُمّ عادتِ الوفودُ أدراجها، بدأتْ تنهضُ من مجاثِمها بعدَ أنْ طاب لها المكان رغم برودته الجارحة، كان ظاهِرًا أنّ لديها استعدادًا لسماع بطرس الرّاعي لياليَ مُتطاولة، لكنّ فيهم العامل والمزارع والتّاجر والقائد، فلا بُدّ أنْ يعودوا بِما سَمِعوا لكي يُبشّروا به النّاس.

في طريق العودة كانت القبور الّتي مرّوا بها قد نفضتِ الموتَ عن شواهدها، خُيّل للمارّين بجانبها يومئذٍ أنّ الأموات قد قاموا من الحُفَرِ العميقة وصافحوهم في الطّرقات، وتمنّوا لو أنّهم شَهِدوا معهم تلك اللّحظات، كان حفيفُ الهواء الّذي يمرّ بين الشّواهد والقبور يئنّ، ومَنْ أصغى له بقلبه يومئذٍ فلن يشكّ بأنّه يسمعُ بُكاء إنسانٍ حيّ، يبكي بصوتٍ خافتٍ، كأنّما فاتته هذه اللّحظة الفارقة ليحضَى بهذا

الإيمان الّذي حُرِمَ منه بسببٍ من ظُلمٍ أو قدرٍ ما!!

كان الفجر قد طلع، رمى لونَه الرّماديّ على الطّرقات فابيضّ شيءٌ من سوادها، وحينَ صاروا على مشارف روما، كانت الطّرق قد بدأت تمتلئ بعربات الخُضار، وأصوات الباعة، والذّاهبين إلى أعمالهم.

١٠٧

مَنْ أَدْخَلَ هذا الدِّين إلى روما؟!

جلسَ بوروس إلى نيرون في السّاحة الّتي أُعِدّت لاستقبال طرفٍ من علية القوم من أجل أنْ يحظَوا بشرف الاستِماع إلى مواهب القيصر الجديدة. كان الشّعراء والقادة والنّقاد ينتظرون حقًّا جلسةً مثل هذه، لا لأنّ قصائد القيصر عظيمة تسلبُ ألباب السّامعين، ولا لأنّ مواهبه فذّة لا يُمكن مُجاراتها، ولكنْ أسبابًا كثيرة أخرى تدعوهم إلى ذلك؛ فمنْ يُفَوِّتُ - مثلاً - جزءًا من وقته للرّاحة واللّهو والمتعة لينسى أعباء القيادة والعمل؟! ومَنْ لا يريد أنْ يحظَى بمائدة قيصريّة فَخمةٍ تتزيّن بأطايب الطّعام والشّراب ترافق الجلسة؟! بل وربّما بعازفين مُستقدَمين من بلاد الغال أو من بلاد العرب. ومَنْ يتخلّى عن فُسحةٍ لإزجاء الكلام وإبداء الرّأي والرّأي الآخر في عمليّة أقرب إلى المسرحيّة منها إلى الحقيقة؟! إنّ ذلك كلّه مِمّا تهفو إليه النّفس للذّهاب بعيدًا بالعقل والجسد عن التّبعات الثّقيلة الّتي تفرضها الحياة القاسِية في روما.

قبلَ أنْ يَحِينَ الموعد، ويبدأ الحضور بالقدوم، قال بوروس لنيرون مُصطنِعًا الجِدّيّة:

- لقد صار مسيحيًا.

- مَنْ هذا؟ ماذا تعني؟ (سأله نيرون بجفاء).

- ليغاتوس صار مسيحيًا.

- ليغاتوس!! ما معنى أنّه صار مسيحيًا.

- دينٌ جديدٌ وَفَدَ إلى روما، وبدأ أتباعُه ينتشرون بيننا، حتّى وصل ذلك إلى الجيش، تخيّلْ أنّ الجيش سيتحوّل بأكمله إلى مسيحيّين في وقتٍ قصير إذا لم ننتبه.

- وماذا في ذلك؟ فليعبدوا مَنْ شاؤوا ما داموا يدينون بالولاء لروما، أليس في قادة الجيش نفسه مَنْ يعبد الشّمس ومن يعبد القمر ومن يعبد النّجوم وغيرها، فلماذا تُخبرني بذلك الأمر السّخيف، ظننتُ من هيأتِكَ أنّ الأمر خطير.

- هو خطيرٌ بالفعل.

- حقًّا؟! ما الخطورة فيه؟ (كان مُتّكِئًا؛ فجلس وفي جلسته بقايا شكٍّ من أنّ بوروس يمزح معه).

- إنّهم يُنادُون بالمساواة بين الجميع.

ندّتْ ضحكةٌ عالِية من نيرون، أتبعَها بمسح فمه بمنديلٍ أبيض من قطراتٍ سالتْ على شدقَيه من النّبيذ الّذي كرع آخر دُفقةٍ منه في الكأسِ مرّةً واحدة. هَمْهَم، حرّكَ خلفيّته العريضة على الكرسيّ الّذي يجلس عليه قبل أنْ يقول:

- قلتَ لي يُنادُون بالمساواة بين الجميع، المساواة!! لقد نادَى بها قبلهم كثيرٌ من الفلاسفة، إذا لم أكنْ مخطِئًا فقد قال ذلك سقراط، فليدعُ إلى المساواة كما يشاء، ما دام القانون الرّوماني هو السّائد، وما دام كلّ جزءٍ من الشّعب يحتفظُ بمكانته في طبقته، إذا ذهبنا إلى الحرب فماذا تفيدُ دعواتٌ ساذجةٌ مثل هذه، إذا انتصرنا ووزّعنا الغنائم بين النّاس فماذا نفعل أيّها الأبله؛ هل نعطي الجنود كما نعطي

القادة؟! ليقلْ هو ما يشاء، القائلون عبر التّاريخ كثُر، لكن السّؤال ما هو النّافذ في المجتمع، ما الّذي يُعمَل به في تنظيم العلاقات، سفسطاتهم أمْ قانوننا؟! قلْ لي أيّها القائد المُحنّك، قل لي؟!

- أنا معك يا سيّدي، لكنّ الأمر يبدو أخطر مِمّا تظنّ، إنّ هذا الإيمان إذا انتشر بين القادة أو بين الجنود، فسيلزمهم أنْ يعملوا به، وبالتّالي فقد يُحدِث ذلك اضطِرابًا في بِنية الجيش، وقد يقودُ إلى تمرّدٍ من نوعٍ ما.

- تمرّد؟! هذا أمرٌ مُستحيلٌ؛ إنّ روما كلّها في قبضتي، قادة الجيش، الأعيان، الوزراء، النّبلاء، وحتّى مجلس الشّيوخ، هنا (وأشار إلى قبضته)، وعندي سَحْقُ أيّ واحدٍ منهم أسهل مِنْ سحقِ بعوضة... لكنْ، قُلْ لي أيّها القائد؛ مَنْ أدخَلَ هذا الدّين إلى روما؟

- كثيرون، لكنّ أشهَرَهم اثنان.

- مَنْ هما؟

- بطرس وبولس.

- لم أسمعْ بهما من قبل، هل هما يهوديّان؟

- اليهود بعضهم يؤمن بهما. ويتبعونهما، وروما لم تسلَمْ من اليهود في فتراتٍ سابقة كما تعرف، فكيف بيهودٍ تحوّلوا إلى المسيحيّة.

- بطرس وبولس (قالَ بصوتٍ خفيضٍ وهو يلعبُ بالقلادة الّتي يرتديها وفي أسفلها قطعةٌ دائريّة من الذّهب شكّتْ عليها صورته وتحتها مكتوب: نيرون الله الحاكم الأعظم) يرفعها حتّى تصير موازيةً لوجهه وهي تلمع تحت ضوء القناديل المعلّقة في الأطراف،

ويتابع): على أيّة حال لا يهمّني مَنْ هما، لكنّ هؤلاء القادة الّذين يؤمنون بالمسيح كما قلت يتّبعون بطرس أم بولس؟

- بحسب!!

- ماذا تعني؟

- بطرس يقول إنّ الله واحد، وبولس يقول إنّ الله ثلاثة.

- ثلاثة؟! أعجبني بولس أكثر.

- وهو أذكى، وقدرته على الإقناع أكبر، وسرعته على التّغلغل بين طبقات المجتمع أشدّ، و...

- لا تُكمِل أيّها القائد (يقاطعه نيرون)... لا يهمّني كما قلتُ لك مَنْ يؤمِن بِمن، فليؤمنوا بألف إله، المهمّ أنْ أكونَ أنا على رأسِ هذه الآلهة.

- تلك هي المُصيبة يا سيّدي. إنّهم لا يؤمنون بكَ لا إلهًا ولا نصفَ إله، ولا حتّى نصفَ إلهٍ فانٍ، إنّهم يقولون فيك إنّكَ بشرٌ فانٍ.

- مَنْ يقول منهما هذا الكلام أيّها القائد؟ (قال ذلك بحِدّة وخبطَ بيدَيه مُتّكأً الكرسيّ الّذي يجلس عليه، وزفر)

- كلاهما أيّها القيصر العظيم، كلاهما يقول ذلك.

- وليغاتوس؟

- ما شأنه؟

- بِمَنْ يُؤمن؟ بما جاء به بطرس أم بما جاء به... (يحرّك كفّه

مُزدرِيًا) قلتَ لي ما اسمه هذا اللّعين الآخَر...؟

- بولس. بولس يا سيّدي.

- وليغاتوس يؤمن بأيّ منهما؟

- ببطرس.

- الويل له. (خار برقبته الغليظة كثور.. ثمّ تابع) سأسحقُه، لكنّ سَحقَه يحتاج إلى مُحاكمته. قل لي أيّها القائد هل يستحقّ الأمر أنْ أكلّف نفسي بسَحْقه؟!

- الأمر إليكَ أيّها الخالد، ولكنّني أدعوكَ يا سيّدي إلى التّحقّق، سهلٌ أنْ تفعل، بعدَ قليلٍ سيفدُ هو والآخرون للاستِماع إلى صوتِ الآلهة في إبداعاتك، مُره أنْ يسجد لك، سيكون الأمرُ بسيطًا للتّأكّد من التّهمةِ الّتي نُسِبَتْ إليه.

- لقد ضاق صدري بما تقول أيّها القائد، دَعْنا من هذا الكلام إلى حينٍ، هل كلّ الأمور جاهزةٌ لكي نحظى بليلةٍ شاعريّة عظيمة!

- بالطّبع أيّها العظيم، بالطّبع.

كان العشرات قد أخذوا أماكنهم، وهم يتشوّفون إلى سماع الصّوت الإلهيّ. «سأغنّي في البداية قبل أنْ أتلو على مسامعكم قصيدة، ما رأيكم؟!». سألهم. ظلّوا صامِتين. لم يكنْ لديهم جوابٌ لأنّه لم يكنْ لديهم خَيار. قامَ. مشى بخطواتِ قيصر، إنّه يلبس الآن ثوب القيصر بالفعل في روحه، يُمكن لهذه الرّوح أنْ تلبس ثوبَ لِصّ في لحظةٍ أخرى. لم يكنْ الأمر صعبًا على بوروس للتّمييز بينهما. وقف في وسط المسرح الصّغير المُعَدّ لذلك. تناولَ قيثارةً من أحدِ العازِفين،

ركع على قدمَيه وهو يُناوِلها له، وضعَ أوتارها بين أصابعه، وراح يحرّكها بحركةٍ خفيفةٍ كأنّما يتدرّب على اللّحن الّذي سيعزفه، لم يكن الصّوت مسموعًا، إنّه يرتّب في ذاكرته أيّ إيقاع سيُلهِبُ به أسماع الحاضِرين، جلسَ على كُرسيٍّ وجلستِ القيثارةُ في حِضنه، مال برأسه جهة اليمين وأغمضَ عينَيه كأنّه يحلم، سادتْ لحظةُ صمتٍ وترقّب. انقطع فيها المكان حتّى عن الهَمس، وحده حفيفُ أوراق الشجر المُتناثِر في الحديقة هو الّذي سَمِعَ عندما هبّت بعض النّسائم العنيدة، لم تكنْ هذه النّسائم تعرف أنّ الإله سيبدأ وصلته للتّو، وعليها أنْ تتوقّف عن الحركة كما فعل الحاضرون. لكنّ نيرون ظلّ على هيئته الحالِمة وكأنّه سامحها، ثمّ راحَ ينقر بأصابعه على الأوتار، ورويدًا رويدًا صَعَدَ الصّوث من القيثارة، لم يكنْ عازِفًا سيّئًا بالفعل. اندمج مع اللّحن، فصارتْ رأسه المُدوّرَة الكبيرة تتحرّك فوق رقبته الغليظة بتناغمٍ علّق عيونَ الحاضرين به، بعدَ أنْ أنهى. صفّق له الجميع. سَمِعتْ أصواتٌ من التّمجيد مُتداخِلة: «لتتقدّس الآلهةُ الّتي درّبتْكَ على هذا اللّحن السّاحر». «لِتُمجّد عند كبير الآلهة أيّها العظيم». «لا بُدّ أنّ حوريّات الآلهة كانتْ تُصغي إلى هذا السّحر». صعدتْ إلى يافوخ نيرون غمامةٌ من الكِبر أسكَرَتْه، كانت أصوات التّعظيم ما زالت تتداخل في أذنَيه حتّى تمايل من الطّرب أو من الذّهول، إنّه يشعر أنّ هذا أفضل لحنٍ جاء به في حياته، يبدو أنّه بدأ يتفوّق على نفسه، كان يُحدّث بذلك نفسه حينَ بدأ عددٌ من الشّعراء والنّقّاد يقبّلون يدَيه، ويركعون عندَ قدمَيه، عندَها تناهَشه شعوران مُتناقِضان، شعر بكبرياء رفعتْه عن الأرض حتّى أحسّ أنّ قدمَيه تحلّقان به إلى الأعلى مثل فقاعةٍ ضخمة، وشعر في الوقتِ

ذاته بالاشمئزاز من هؤلاء الأدعِياء الّذين يجثون على رُكبِهم، فكان ينفضُ يدَيه بين الفينة والأخرى، أو يُرجِعها إلى الخلف مُتصنِعًا شيئًا من التّواضع الزّائف، وفجأةً تذكّر ما قاله له قائد الجند عن ليغاتوس، فصاح كأنّما لسعته أفعى:

- ليغاتوس.(انتفضَ القائد في كرسيّه عندما سمع نيرون يناديه بهذه الطّريقة الفَجّة)

- لبّيكَ يا سيّدي. (أجابَ بعد أنْ وقف، وأصلحَ اللّباس العسكريّ الّذي يرتديه).

- ما رأيُكَ باللّحنِ الّذي عزفتُه للتّو؟

- إنّه جميل.

- ولماذا لم تركعْ بين يديّ كما فعل الآخرون؟!

- القيصر لا يحتاجُ ذلك، إنّه أعظمُ من أنْ يُحترَمَ بطريقةٍ لا تليقُ به. (قال ذلك وهو ينحني بجذعه إلى الأمام قليلاً).

- بل تليقُ بي. تعالَ واركعِ الآن.

- سيّدي...

- ماذا.... هل ترفض الأمر أيّها البائس؟

- كلاّ... كلاّ... ولكنْ...

- مَنْ تعبدُ أيّها الجِيفة؟ (فاجأه السّؤال المُباغِت).

- أعبدُ إلهًا عادِلاً. (ردّ بعدَ أنْ بلعَ ريقَهَ واستعادَ رباطة جأشِه)

- أعرفُ كلّهم يقولون عن آلهتهم الّتي يعبدونها أنّها كذلك... مَنْ هو هذا الإله العادل الّذي تعبده؟

- الله.

- ربّ بطرس؟

- بلى.

- لن يضيرني أنْ تعبدَ مَنْ تشاء. لكنّني أرى أنّ وجودَك في قيادات الجيش لم يعدْ لازِمًا.

- ماذا تعني يا سيّدي؟ (قالَها بين خوفٍ وإنكار).

- بوروس سيتولّى الأمر، هو يعرف كلّ شيء. الآنَ لِيَنصرِفِ الجميع، أريدُ بعضَ الرّاحة، أحسّ أنّ الهواء صار يبعثُ على الاختِناق.

١٠٨

أنا إلهُ روما وإلهُ الكون فما الّذي يَمنعني؟!

صَرَفَ بوروس جميعَ مَنْ كان في الحديقة بطريقةٍ مُهينة، كان يبدو أنّ روح اللّص في تلك اللّحظة قد حلّت في نيرون. قال له نيرون وهو ينظر إلى قبّة السّماء كأنّما يستلهم الأمر من الآلهة:

- اقتلْه واقتلْ كلّ مَنْ آمن بربّ بطرس في الجيشِ كائِنًا مَنْ كان.

- إنّ كثيرًا من المُؤمِنين بالمسيح ليسوا في الجيش، بل من عامّة النّاس.

- أولئك سيَجِيئُ دَوْرهم، أمّا الآن فنظّف الجيش من هذه القذارة.

- أنا أرى أنْ تكتفي بحبسِ ليغاتوس لا أنْ تقتله. لأنّ قتلَه سوف يُثير علينا كثيرًا من وحدات الجيش، لا تنسَ أنّه محبوبٌ وله أتباع.

- أتهزأ بي أيّها الكلب؟! (أدار نحوه ظهره وهو يشدّ على الكلمات، وينظر إليه مغلولاً).

- كلاّ أيّها القيصر. حاشاي.

- أنا أعرفُ أنّكَ تنتظر هذه اللّحظة من زمنٍ بعيد، فهو منافِسٌ قويٌّ لكَ في قيادة الجيش. (حدجه بعينَين تقطران خُبثًا)

- أقصد أنّ استصدار حُكمٍ عليه بالإعدام يحتاجُ إلى محاكمته أوّلاً، ثُمّ موافقة مجلس الشيوخ على الحُكم إنْ صدر بقتله. (مُتجاهِلاً الحقيقة الّتي بسطها نيرون للتّوّ).

- ألَمْ تَسمَعْني أيّها الفاجر، أنا قلتُ لكَ اقتله دون محاكمة، ودون الرّجوع إلى مجلس الشّيوخ.

- سيُثير ذلك عليكَ مجلس الشّيوخ أيضًا. وسيؤدّي ذلك إلى متاعب لا قِبَل لنا بها.

- يبدو أنّ مَنْ يجب أنْ يُقتَل هو أنتَ... (صرخ وهو يضع كفَّيه على رأسه ويقذف به إلى الأمام..) ألم تسمعني أيّها البَغرة، قلتُ لك اقتله يعني اقتلْه... لا يهمّني مجلس العَجَزة والمُنافِقين هذا الّذي تُسمّيه مجلس الشّيوخ. أنا لم أهتمّ لأمر أمّي حتّى أهتمّ لأمر أعدائي الّذين يتستّرون وراء مناصبهم الكاذبة وحماقاتهم، لو كشفتَ الرّداء الأرجوانيّ الّذي يلبسونه لعلمتَ أنّ قلوبهم فارغة، مملوءة بالنّساء والمال فقط. اقتلْه قبل أنْ أقتلك.

خرج بورّوس، وقلبه يقفز في أعماقه من السّعادة، لقد تحقّق له ما يريد بأقلّ التّكاليف، ومَنْ يدري، ربّما هذا في الظّاهر، أمّا الأقدار المُختبِئة خلف تتابع الأيّام فلربّما كان لها رأيٌ آخر.

*****

كان بولس، لا يلبث في روما أشهرًا حتّى يُغادرها ليتحقّق من أنّ كنائسه الّتي يُقيمها خارج روما تتثبّث بتعاليمه. كانتْ تعاليمُه قد بدأتْ تأخذ شكل دينٍ بدا أنّه ذو صولةٍ قويّة، كان بولس قادِرًا عل أنْ يبني الكنائس بماله، لم يكنْ أحدٌ يدري من أين يأتي هذا المال، قليلون جدًّا في العالَم المنظور في ذلك الوقت كان يعرف. الآخَرون كانتْ تهمّهم النّتائج، إنّه يدفعُ شَبَحَ الجُوع عن الفقراء، ويُؤوي بحسنة المسيح الموجوعين، ويجد بيوتًا لأبناء الشّوارع، واللّقطاء

تحتضنهم غُرف الكنيسة، إنّ الرّبّ - بعكس الإنسان - غَفَرَ الخطايا جميعَها، أفلا يغفرها لهؤلاء الّذين لم يكنْ لهم يدٌ فيها؟! لقد وُجِدوا كذلك، إنّه خطأ آبائهم، حتّى آباؤهم لا تعريب عليهم إذا آمنوا بألوهيّة المسيح، ها هو يمسح باسم الرّبّ على المألومين فتنسَى آلامهم، وكان يُبارِكهم بيده ويُعمِّدُهم بنفسه، وشَهِدَ نَهرُ التّيبر كثيرًا من حالات التّعميد، وكان يَعِدُ كلّ مَنْ مَسّ ماءَ المعموديّة جسده بالأبديّة مع الّذي سُمّر على الصّليب.

لكنّ السّؤال الّذي ظلّ مُعلّقًا لقرونٍ من بعد اجتماع بطرس وبولس في روما، هو: مَن الّذي نفخ في تعاليم بولس حتّى تعملقت وحصدت كلّ ما سبقَها، حتّى إنّ شخصيّة المسيح نفسه بدأت بالاختِفاء أمام تعاظم شخصيّة بولس؟ وما الّذي أدّى بتعاليم بطرس وكرازته أنْ يلفّها النّسيان، ويَطمِسَ مع الزّمن مَعالِمَها المُستنيرة؟!

*****

عاودته في اللّيل ذكرى أمّه، كانَ العزمُ على قتل ليغاتوس هيّنًا أمام ذلك، هو عابرٌ في حياته، أمّا أُمّه فلا، أمّه هي الّتي استطاعت بذكائها أنْ تُجلِسه على كرسيّ القيصر، راحت تتداعَى إلى رأسه خواطر الأيّام الغابرة، فيُحدّث نفسه وهو يتقلّب على سريره النّاعم: صحيح أنّها صنعت منّي قيصر روما الأكبر، لكنْ لماذا ظلّت تظنّني ابنَها المُدلّل، لماذا لم تقتنع بأنّني أصبحت إلهَ الكون، لماذا ظلّت تتدخّل في كلّ شيء، وتُظهرني بتدخّلها في شؤون الحُكم طفلاً، وعاجِزًا؟! ثمّ هذه الّتي سلبت فؤادي، ولم أرَ في الوجود سِواها، بوبيا الّتي شكّلتها الآلهة بنفسها على هذا النّحو، لماذا تسمح لنفسِها

بالاعتِراض على زواجِي منها؟! صحيحٌ أنّها تزوّجت مرّتين قبلي، لكنّ مَلمسَها ما زال بَضًّا، وما زال النّوم معها في الفراش يُشعرني بالشَّبَق والعودة إلى مرحلة ما قبلَ تدفّق الماء في الأعضاء، بل إنّها تبدو كأنّها عذراء في كلّ مرّةٍ أدعوها فيها إلى الفِراش!! أمّي اللّعينة تستحقّ ما حدث لها. لقد كانت تُخطّط للانقِلاب عليّ كما نُمِيَ إلى مسامعي لأنّني لم أنصغ لأمرها بعدم الزّواج من حبيبتي بوبيا. وحينَ بعثتُ إليها بوروس ليتثبّت هو وأحد أعضاء مجلس الشّيوخ من صِدق هذه التّهمة شَتَمَتْه وشَتَمَتْني، ولعنت اليوم الّذي أنجبتْني فيه، إذا كنتُ ملعونًا كما قالت فإنّ هذا سببًا جديدًا يدعوني إلى التّخلّص منها. وهذه المرأة الحليبيّة الّتي تُفجّر فِيَ الشّباب لا تتركني كذلك أهدأ، إنّها دائِمًا ما تقول لي: «أمّك تحاول أنْ تمزّق الرّباط المُقدّس الّذي بيننا». «اهدئي يا بوبيا لن يُمزّق ما بيننا أحدٌ». «ولكنّها تفعل». «إنّها حمقاء. وسأتخلّص منها». ذلك ما يُعيد الماء إلى مجراه فيما بيننا. نعم سأفعل ما أهونَ ذلك. أنا إله روما وإله الكون فما الّذي يمنعني؟!

في صباحِ أحد الأيّام، حمَلَها القاربُ في رحلةٍ بحريّة خارجَ روما، وكانَ قائدُ الحرس مع عددٍ كبيرٍ من الحرّاس يرافقونها، كانت الرّسالة الّتي تسلّمها قائد الحرس مختومةً بختمِ القيصر تقضي بأنْ تُرمَى أمّه أغريبينا في النّهر لتموت غرقًا، في وسط التّيبر بعد أنْ مشت السّفينة الّتي تُقلّهم مسيرةَ نصفِ نهارٍ، حملها أحدُ الحُرّاس الأشدّاء كأنّها قشّة، وراحت تصرخُ كأنّها حيوانٌ مُهيّأٌ للذّبح، تستنجدُ بقائد الحرس لكي يُنقذِها، لكنّه تظاهرَ بأنّه لم يسمعْ صوتًا ولم يَرَ شيئًا، ثُمّ في لحظاتٍ قُذِفت في النّهر في أعمق نقاطه، وسمِع صوتُ

ارتِطام جسدها بالماء عالِيًا، وغابت في لحظاتٍ خاطفة داخله، فلم يشكّ أحدٌ أنّها غرقت سريعًا. لكنّ ذلك لم يدمْ طويلاً، صعدت برأسها من الأعماق تستجلبُ دُفعةً كبيرةً من الهواء، وسبحت حتّى وصلت إلى الضّفّة الأخرى، ونجت، وتدارَك قائد الحرس الأمر، فأنزل ثلاثةَ قوارب، وأوهمها أنّه فعل ذلك لنجدتها بعدَ أنْ سَمِع أصواتَ استغاثتها، ولم يكنْ أمامها من مهربٍ إلاّ أنْ تصدّق ما سمعت، وإنْ كذّب قلبُها كلّ كلمةٍ مِن هذا الأمان الّذي أُعطِيَ لها وكانت تفوح منه رائحة الدّماء. لم تحتملْ عُنقُها الطّريّةُ أكثرَ من ضربةِ سيفٍ واحدةٍ لتنفصل عن جسدها ويتدحرجَ رأسها بعيدًا. جُمِعَ رأسُها إلى جسدها، وصُبّ عليه القطران، وأُضرِمت فيه النّيران!!

ناداه نيرون في تلك اللّيلة:

- لا أستطيع النّوم يا بوروس.

- الدّماء لم تجمد أيّها القيصر.

- لم أقتل أحدًا كما أشتهي حتّى الآن يا بوروس. أتريد أنْ تتحامق أمامي.

- الأرواح ما زالت مُعلّقة ما بين السّماء والأرض لم تهدأ.

- أحتاج إلى قطفِ المزيدِ منها لأنام يا بوروس. لقد وعدتُكَ أنْ أقضي على المسيحيّين.

- القضاء عليهم يُعدّ ضربًا من المستحيل.

- لا مستحيلَ أمامي.

- إنّهم أكثرُ من أنْ يموتوا.

- نوزّعهم على أقدارهم. اجمع لي مئةً منهم. لا بُدّ من أنْ أدخل البهجة إلى قلوب شعبي التّوّاق إلى الدّهشة دائِمًا، وليكنْ ليغاتوس في مُقدّمتهم.

كان المنتدَى الّذي تُجمَع في أسفله الوحوش، قد أعلن عن قِيام سيركٍ للتّرفيه عن النّاس فيه قبلَ أسبوعَين، وأنّ ألوانًا من المُتعة لم يشهدْها شعبُ روما من قبلُ ستُقام فيه. بدأ عهدُ بنائه في عهد كلوديوس، واستمرّ ببنائه نيرون، وما زالت مُدرّجاته ترتفع يومًا بعد يومٍ. أمّا السّاحة الّتي تلتفّ حولها المدرّجات، فمن زمنٍ قديمٍ، كانَ قد بُنِيَ تحتها غُرَفٌ وسراديبُ وسجون، وقناطرُ تختفي أسفل الحلبة أو تحت المدرّجات، وكان يُوضَع فيها الأسرى والمحكوم عليهم بالإعدام إضافةً إلى الوحوش المُفترسة من كلّ نوعٍ.

كانت الجماهير الغفيرة قد أمّت المكان منذ الفجر الباكر، فقد أعلنتْ سلطة القيصر أنّ هذا اليوم هو يوم عيدٍ، وأنّه يوم عطلة لكلّ شعب روما العظيم، ودعاهم إلى أنْ يُشاهدوا فقرات السّيرك المُتنوّعة والّتي ستحبس الأنفاسَ لروعتها. غصّت المدرّجات بالقادمين من روما ومن ضواحيها. منذ أنْ صارت الشّمس على ارتفاع سِماكَين في الأفق، تقدّم موكب الإمبراطور خارِجًا من القصر تحفّه الخيول المُطهّمة والعَرَبات المُذهّبة، وراح يخترق الطّريق باتّجاه المُنتَدى. دخل القيصر بكامل أُبّهته من مدخلٍ خاصّ، وما إنْ برز صاعِدًا الدّرجات من البوّابة القيصريّة برأسه الأصلع المُدوّر الّذي يلمع بلون الصّدأ على انعكاس الشّمس حتّى وقفت الجماهير

وحيّته بهتافاتٍ ارتجّت لها مُدرّجات المُنتدَى. حيّا بدوره الجماهير بتحيّة من يدَيه، وتابعَ خلفه بوروس الّذي التفتَ إليه ليقول: «أنا مسرور بحبّ كلّ هؤلاء الرّعاع لي. لا بُدّ أنّ مجد روما التّاريخيّ بُنِيَ على أكتاف هؤلاء الغوغاء». آلاف من النّاس الهائجين كانوا يهتفون بصوتٍ واحدٍ لصاحب الشّعر الأحمر. ثمّ مشى بروح الإله كما يعرفه بوروس حتّى وصل إلى المنصّة القيصريّة الّتي تحتلّ قلب المدرّج بحيث يكونُ بإمكانه من موقعه أنْ يرى كلّ شبرٍ في السّاحة الدّائريّة، في وسط السّاحة ممرّ حجريّ يُشكّل نصف قطرٍ من المركز باتّجاهَين، يُستَخدَم لسائِسِي الخُيول ومُدرّبي الوحوش، ولبعض المُجالِدين الّذين ينتظرون دورهم للدّخول إلى الفقرة التّالية. تحت نصف القطر هذا يقبع عالَمٌ غيرُ مكشوف للجماهير من الدّهاليز والغرف والإسطبلات والسّجون تُحبَس فيها عناصر العروض المشاركة في السّيرك. وعلى حواف السّاحة ترتفع المدرّجات بطول كافٍ حتّى لا تتمكّن الوحوش أو البشر من ارتقائها والوصول إلى المُشاهدين في حالة الفزع أو الخوف ومن أجل الاستسلام للمصير المَحتوم ومُواجَهَتِه حتّى آخر نَفَس. إضافةً إلى وجود حاجزٍ يمنع هؤلاء المُشاهِدين من رمي أنفسهم داخل السّاحة لسببٍ أو لآخر، كما كان ينتشر عددٌ من الحُرّاس برماحهم الطّويلة على أُهبَةِ الاستعداد في أماكن مُتفرّقة من مُحيط المُدرّجات فوق السّاحة.

١٠٩

اقتُلْ لِتَحيا!

كان العَرضُ الأوّل لسباق العَرَبات، دخلتِ العرباتُ الثّلاثُ من مدخلها الخاص الّذي يقع على يمين الجالس في المنصّة القيصريّة. كلّ عربةٍ تجرّها ثلاثة أحصِنة، ويقودها مُقاتِلٌ واحد، اصطفّت العربات الثّلاث مُتجاوِرات على خَطّ واحدٍ بانتظار شارة البدء. كانت المُسابقة تقتضي أنْ تركض الخيول في السّاحة بلا توقّف، ومَنْ يبقى حَيًّا إلى آخر لحظة يُمنَح العفو، ويخرج حيًّا وحُرًّا. كان لا بُدّ أنْ يموت اثنان ويعيش واحدٌ فقط من هؤلاء الثّلاثة المحكوم عليهم بالإعدام. كان يحدث أنْ يكون الثلاثة - قبل أنْ يُضطرّوا لدخول هذه المسابقة المُمِيتة - أصدقاء، بل إخوة. لكنّ قانون اللّعبة لنْ يُبقِي بعد انتهاء المسابقة إلاّ على واحدٍ حيّ من هؤلاء الثّلاثة؛ حينئذٍ سيقفُ كلّ واحدٍ منهم في مُواجهةِ نفسه: أتسمحُ للحياة أنْ تنفلتَ منكَ لمجرّد أنّ الآخرَ المُتلهّفَ على قَطفها منك كانَ أحدَ أصدقائِكَ أو معارفك يومًا؟! إنّه القتل من أجل الحياة، والهروب من الموت على أمل النّجاة، كانت الرّوح تَحضُر في مقدّمة الأولويّات، فتصرخ: لن يمرّ أحدٌ على جثّتي، وعليّ أنْ أمرّ على جثث الآخرين لكي أفوز بهذه الحياة الّتي لم أشبع منها بعدُ، والّتي تُشكّل كلّ ما لديّ من معنى.

حبس الجمهور الغفير أنفاسه وهو يترقّب لحظة البدء، كان أغلبهم من بُسطاء الشّعب ومن أرِقّائه وعبيده وفُقرائه، لكنّهم كانوا مُتعطّشين إلى اللّحظة الّتي ستُزهَق فيها الأرواح في مسابقات الموت هذه، لقد فرضتْ عليهم طبيعة الحياة القاسية والمُتناقِضة

في روما أنْ يجدوا المتعة في رؤية أجساد إخوتهم تتعذّب أو تُحتَضَر منتظرةً لحظة الخلوص من العذاب بخروج الرّوح من الجسد. لقد شوّهت طبيعة الحياة في روما إنسانيّتهم، بل ولدّت وحشًا في أعماقهم يفرح لمنظر الدّماء، ويتعطّش إلى رؤية الجُثث.

كانتِ العربات الثّلاث تقفُ مُنتظِمةً، والخيول مُتحفّزة وكذلك سُوّاسها للحظة البدء. ضرب الواقف على الخطّ الّذي يُنصّف الدّائرة على الطّبل الكبير، فدوّى صوته في أرجاء المدرّج، فهاج الجمهور وراح يصرخ، فيما كانت هذه شارةَ الانطِلاق. ركضتِ الخيول في المدرّج الدّائريّ. رقصتْ قلوب النّاظرين. غَمَرَتْ ابتِساماتٌ وجوه قادة الجيش في المنصّة الرّئيسيّة، هزّ نيرون برأسه الضّخم إعجابًا. أكملتِ الخيولُ دورتها الأولى دون أنْ يُصابَ أحدٌ بأذى؛ يبدو أنّ غريزةَ القتل لم تَنَمْ بعدُ في نفوس السّائِسين. لم يُعجِب ذلك نيرون، ولا حتّى الجماهير المُتوثّبة، بدأتِ الخيول دورتَها الثّانية، كانت العربة الّتي في الوسط تمتلك موقعًا خطيرًا على صعيدَين، إنّها يُمكن أنْ تُسقَط من العربة الّتي عن يمينها وعن شمالها أيضًا، لكنّها بالمُقابِل تمتلك أفضليّة أنْ تُسقِط إحدى العربتَين كذلك، وتتخلّص من مُنافِسٍ حينئذٍ، وبدل أنْ تكون الرّوح مُقسّمة على ثلاثة تُصبح مُقسّمةً على اثنَين، مِمّا يرفع احتماليّة النّجاة والفوز بالحياة. لكنّ صاحب العربة الّتي في الوسط كان يُفكّر بطريقةٍ أخرى، قبل لحظة انعطاف العربات الثّلاث عند القوس الدّائريّة الأكثر توتّرًا، خفّف سرعته، مِمّا أدّى إلى اقتراب العربتَين من بعضهما، ومع سرعة الحركة، راحت المسافة تتقلّص بين العربتَين، وفي لحظة مُباغتة اصطدمتا، فوقعتْ خيول العربة الأبعد عن المركز والأقرب إلى المُحيط لأنّ توازنها

يكون أقلّ من تلك الأقرب إلى المركز. بوقوع الخيول الثلاثة سقطَ قائدُها على الأرض، كان يُدرك أنّه في لحظاتٍ بأقلّ من لمح البصر ستدوسه أقدام إحدى العربتَين، شدّ صاحب العربة المتوسطة المتأخِّرة قليلاً اللُّجُم على أعناق الخيل، وضربها بالسّوط الّذي يملكه في يده الأخرى، وصاح بها لكي تعجل، ركضتِ الخيولُ مَجنونةً تحت وقع السّياط الّتي تُلهِبُ ظهورها، كانَ جسد السّاقط على الأرض قد بسطَ يدَيه على اتّساعهما كأنّه يُرحّب بالموت أو يستسلم لِقَدَرِه، داسته حوافر الخيل أوّلاً فتقلّب يمنةً ويسرةً كأنّه كيسٌ من الرّمل، ثُمّ فرمته عجلات العربة الحديديّة فقرضتْ أُذنَه ونزعت شواةَ رأسِه، وكان من الممكن بوضوح مشاهدة الدّماء الّتي تُغطّي جسده ورأسه المُعفّر بالتّراب. ضَحِك نيرون، وضَحِك أعضاء مجلس الشّيوخ الّذين يجلسون خلفه. هاجَ الجمهور وراح يصرخ مُبتهِجًا. وتعلّقت أنظارهم بالعربتَين المُتبقّتَين، لا تَوقُّفَ، لا تَراجُعَ، لا انتِظار، مَنْ يقف تدوسه الأقدام، مَنْ ينتظر يلحق به الفناء. شدّ المُقاتِلان الآخَران على ظهور خيولهم، راح كلّ واحِدٍ منهم يُميل عربته باتّجاه الآخَر، يصطدمان، يتعثّران، تنحرف العربتان، تسير الّتي في الوسط من وَقْع الاصطِدام على العجلات اليُمنَى، لديه أفضليّة التّحرّك بجسده إلى الجزء الأيسر من العربة ليُثقّل ذلك الطّرف ويُعيدُ إلى العربة اتّزانها، ويستمرّ العَدْو، كانا يعدوان إقدامًا أمْ هربًا أم كليهما؟! لم يكنْ أحدٌ يعرفُ تمامًا سِواهما، هل كانا يهربان من الموت الرّاكض خلفهما، أمْ كان يُقدِمان لمواجهة الموت المُقبِل نحوهما؟! وراح الجمهور يُصفّق ويُغنّي، وزادَ حماسة المشهد، وراح كلّ مُقاتِلٍ يبحث عن فرصةِ الإيقاع بالآخر، اقتُلْ لِتَحيا. معادلة سورياليّة وإنْ بدتْ

بسيطة، لا مكانَ هنا للاستِماع إلى سؤال الإنسان في داخل كلّ واحدٍ منهما: لماذا عليّ أنْ أقتله لأظفر بالحياة، لماذا لا يعيشُ كلانا، فالحياة فيها مُتسعٌ للاثنَين، بل لكلّ البشر، فلماذا هذه الشّهوة للقتل!! لكنّ هذا الحِوار لا يدوم طويلاً أمام أوّل احتِمالٍ لسقوط العربة، سوف يبرز الموت بمخالبه القذرة لينتزعَ رُوحكَ اللّيّنة من جسدك، وعليكَ أنْ تنجو، هذا هو قانون اللّعبة هنا، وهذه هي طبيعة الحصول على بطاقة الحياة في روما.

فكّر صاحب العربة الوُسطى بطريقةٍ جديدةٍ للقضاء على خَصمه، بإمكانه أنْ يُضيّق المسافة بينهما باتّجاه العربة المتحطّمة، إذْ إنّه لو جعله يصطدم بها فسيموت ويكون قد نجا، لكنّه في الوسط، والعربة المُحطّمة على يمين الدّائرة، والثالث على يسارها، وإلجاؤه إلى أنْ يصطدم بالعبارة يقتضي أنْ يتبادل معه المكان، فيصير الّذي على اليسار في الوسط، وهو ينتقل إلى خانة اليسار، وذلك مُمكنٌ بنفس التّكتيك الّذي استخدمه من قبل، سيُبطئ سرعته قليلاً حتّى تمرّ العربة من جانبه، ثمّ يحرف اتّجاهه الوسطيّ شيئًا فشيئًا ليحتل مرتبة اليسار، ثمّ يبدأ بالتّضييق على عَرَبَةِ خَصمِه ليدفع بها باتّجاه اليمين حيث العربة المُحطّمة، وقد تمّ له ذلك خلال دورتَين، وفي لحظات كان الفارس الثّاني يلفظ أنفاسه تحت عربته المنقلبة بعجلاتها الّتي لم تتوقّف رغم أنّ أنفاس صاحبها قد توقّفت. لقد انتصر الذّكاء والتّدبير على السّرعة والقوّة. نجا. وهتفت له الجماهير كأنّه انتصر في معركةٍ من معارك روما في حربها مع لندن!

أُخرِجت الخُيول والعربات والجُثث من المكان، وخرج الفائز وهو يرفع يديه، لقد صار حُرًّا. حُرًّا لكنْ على جُثَثِ إخوته. حيًّا لكنْ بعد

أنْ بعثَ بالموت لرفيقَيه. قال بطرس: «من أجل ذلك جاء المسيح؛ جاءَ لِيَهَبَ الحياة للإنسان الميّت، والسّعادةَ للقُلوب البائِسة». بعد تنظيف الجُثث، أُعلن في المدرّج أنّه بقي مسابقتان أو لُعبتان، فهاج الجمهور، وشكر الآلهة الّتي تهبه هذا الفرح الكثيف.

همسَ بوروس في أذن نيرون: «المسابقة الأجمل، فيما أظنّ، إرادتك الإلهيّة الّتي ستُنفّذ في هذه اللّعبة. إرادتك ماضِية، وستستمتعُ كما لم تستمتعْ من قبل». سأله: «ما التّهمة الّتي ألصقتموها به؟». «الخيانة. خيانة روما». «هل تظنّ أنّ القادة الآخرين اقتنعوا، أو مجلس الشّيوخ؟». «لا يهمّ إنْ فعلوا. ألم تقلْ أنتَ ذلك؟ مَنْ يقفُ أمام مشيئة الإله العظيم؟». هزّ نيرون رأسه مُوافِقًا وآسِفًا.

دخل ليغاتوس من الباب الّذي على يسار المنصّة الرّئيسيّة. حرّ اليدَين والقدَمين. حاسر الرّأس وقد أُلبِسَ رداءً خفيفًا. كانت لحيته قد طالت منذ أنْ ألقَوا القبض عليه قبل أكثر من ثلاثة أشهر. دفعه الحرس بإهانةٍ واضحة، لكنّه لم يلتفت إليهم ظلّ يمشي بهدوء وثقة حتّى توسطّ السّاحة، كان يريد على ما يبدو أنْ يكون قريبًا من منصّة القيصر لكي يُشاهِده نيرون بوضوح ويستمتع بمنظره.

وأُدخِلَ من الباب المُقابل على يمين المنصّة أسدٌ هائج، وأُغلِقَ خلفه الباب، وركض الأسد دون أنْ يدري إلى أين. لكنّه لم يكنْ هو ولا ليغاتوس يعرفان أنّهما صارا وحدهما في ساحةٍ ليس فيها غيرهما. إنّهما في مواجهةٍ مصيريّة عمّا قريب. وكلاهما يبحث عن الحياة. الحياة الّتي يبحث عنها الأسد الجائع هي مجرّد فريسةٍ يُشبع بها

بطنه، وكمّيّة من اللّحم وافرة تُغذّي جسده. لكنْ كان يبدو أنّ للحياةِ مفهومًا آخر عند ليغاتوس لم يفقهه نيرون ولا قادته ولا مجلس الشيوخ ولا كثيرٌ من الجمهور، إنّه مفهوم المسيح للحياة، المعنى الّذي تربّى عليه ليغاتوس على يدَي بطرس.

ظلّ ليغاتوس واقِفًا في مكانه، لم يأتِ بأيّ حركة، فيما كان الأسد يركض بلا اتّجاه، حتّى إذا اشتمّ رائحتَه البشريّة، عدا نحوه. ظلّ ليغاتوس على رباطة جأشه لم يتزحزح سوى أنّه لمّا سمع صوتَ الأسد قادِمًا نحو مال بجذعه ليستقبله، لم يهربْ، لم يجزع، لم تحدث مطاردة عبثيّة بين الاثنَين، فقط انتظارٌ مُترقّب من قِبَل ليغاتوس كأنّه يستقبل صديقًا. لم يُعجِب المشهد أحدًا في المُدرّجات، كانوا يريدون مشهدًا حماسيًا ليهتاجوا، كانوا يتوقّعون صراعًا جديرًا بالمقاومة حتّى اللّحظة الأخيرة، كانوا يريدون عِراكًا يتّسم بالوحشيّة وبالمُغامرة وبالإثارة، لكنْ أيًّا من ذلك لم يحدث. خُيّل للجمهور الّذي يرى ليغاتوس مادًّا ذراعَيه أنّه يريد احتضان الأسد الرّاكض نحوه، هل بينهما صداقةٌ قديمةٌ، هل يعرفُ كُلٌّ منهما الآخَر؟ بدأت خيوط الشّك بالتّشابك. لكنّ الأسد ربّما لم يفهمْ مِنْ هذا الّذي يمدّ يدَيه سوى أنّه كُتلةُ لحمٍ شهيّة، كُلُّ همّه في هذه المسافة القصيرة جدًّا بينهما أنْ تستقرّ في جوفه. مرّتْ لحظاتٌ قليلةٌ لكنّها كانتْ دهرًا بين اللاّعبَين، قفزَ الأسدُ عالِيًا في الهواء فأوقع ليغاتوس على الأرض بضربةٍ واحدة. لم يقاوم. لم يتزحزح من سقطته، فغر الأسد فاه وأعملَ أنيابه في رأسِ فريستِه، لم تتحرّك رجِلا ليغاتوس حتّى ولا يداه ليُشعِرا بأنّه يتعذّب تحت أنياب هذا الوحش الكاسِر. حار نيرون في أمره، مال إلى بوروس، وسأله: «هل أنت مُتأكّد أنّك

أدخلتَ ليغاتوس إلى هنا، أمْ شخصًا آخر؟!». «ماذا تقول يا سيّدي؛ بالطّبع هو». «لكنّه لم يُحرّك ساكِنًا، أنا أعرفكم أيّها القادة، لا شيءَ عندكم أهمُّ من مُتع الحياة والنّساء، فما الّذي جعله يستسلم هكذا؟!». «إنّها تعاليم المسيح الّتي تلقّاها عن بطرس». «وهل تُعلِّم هذه التّعاليم القادة الّذين لم يستسلموا في حياتهم في حلبة المعارك أنْ يستسلموا في حلبة سيرك. هُراء!! أيّ تعاليمَ هذه؟!». «إنّهم يُسمّونها الخلاص. السّكينة. التّصالح مع النّفس. السّلام الدّاخليّ... أسماء كثيرة». «وكيفَ تعرف أنتَ كلّ ذلك؛ هل تأثّرتَ بتعاليمهم هذه؟!». «كلاّ.. كلاّ يا سيّدي، عرفتُ ذلك من حواراتي مع ليغاتوس». كان الأسد منهمكًا في هذه الأثناء إلى تقطيع جسد القِدّيس - هكذا أطلق عليه بطرس فيما بعد - إلى أشلاء. صعدتْ روحُه، وجسده يتوزّع على أشداق الوحش. وقِطَع لحمه تتناثر في فمه الّذي اصطبغ بالدّم حتّى غطّى عينَيه. قال نيرون: «لم يُعجبني المشهدُ كثيرًا، وأظنّه لم يُعجِب الجمهور، هل عندكَ إبداعاتٌ جديدة يا بوروس؟». «بالطّبع يا سيّدي، بقي المشهد الثّالث، وهو الأشدّ إثارة، أظنّ أنّ المُدرّجات ستميد تحتَ أقدام الجماهير وهي تُشاهده من شدّة الجمال والإدهاش». نُظّفتِ السّاحة من الجُثّة، وأعيدَ الأسدُ إلى قفصه، ليُجوّع أيّامًا أخرى من أجل جسدٍ بشريٍّ آخر يفتك به في لعبةٍ أخرى!!

١١٠

إنّ أشرفَ امرأةٍ ليستْ أكثرَ من أفعى سامّة!!

كانت الشّمس قد اعتلت عرشَها بالكامل، والنّهار قد انتصف. أعلنَ المسؤولون عن المُنتدى أنّ هذا وقت الرّاحة، يستطيعون أنْ يأكلوا ويشربوا، ويستعدّوا للمشهد الأخير في السّيرك هذا اليوم حينَ تبدأ الشّمس بالزّوال.

التأم عِقد الجماهير من جديد، وجلست تنتظر شيئًا يفوق ما شاهدوه حتّى الآن كما وُعِدوا. نزلَ بوروس من منصّة القيصر باتّجاه ساحة الموت، كان يُمكنه أنْ يلحظ وهج الحِقد الّذي يبرق في عيون أعضاء مجلس الشّيوخ، كان يحسّ أنّ نِقمتهم قد ازدادت عليه وعلى القيصر، يعرف من عيونهم أنّهم يقولون: «لقد حطّمتَ مجد روما بهذا الجنون الّذي يستمتع به القيصر، أنتَ صديقه المُقرّب، وجنونُك هو الّذي صادفَ هوًى مُستكِنًا في نفس القيصر فأغويتَه معك، أيّ تاريخٍ ينتظر روما وهي تقع تحت قبضةِ هذَين السّفاحَين؟!». لكنّه ردّ على نظراتهم الحاقدة بابتِسامةٍ ساخرة، وواصل هبوطه إلى السّاحة، التقى في أحد المداخل المُفضِية إلى السّجون القابعة أسفل المُدرّجات رئيس الحرس، سأله: «هل جمعتَ ألفَ مسيحيّ هنا؟». «نعم يا سيّدي». «وكم من الوحوش المفترسة الجائعة؟». «مئة». «هل تعتقد أنّ الأمر سينجح؟». «إذا تعاملوا مع الوحوش كما تعامل ليغاتوس معها فسينجح الأمر بلا شك، وسيكون مشهدًا خرافيًا، أليسوا مسيحيّين مثله؟!». «بلى، ولكنْ ينقصهم الإيمان الّذي كان يتمتّع به ليغاتوس. أخشى أنْ يُقاوموا ويتكاتفوا ويتغلّبوا على

الوحوش المئة». «فما العمل؟». «زِد عدد الوحوش». «ليس لدينا من الوحوش المُدرّبة على الانقِضاض على الفريسة غيرها، بل ليس في روما كلّها غير هذا العدد، الأمر يتطلّب وقتًا حتّى تأتي من أفريقيا». «صحيح. يُمكن التّفكير بحلّ آخَر». «ما هو؟!». «هل كروتون على أهبة الاستِعداد؟!». «نعم». «دَعه يدخل الحلبة معهم، ويقتل من استطاع منهم خَنقًا أو فصلاً للرّقبة عن الجسد، إنّه أقوى مُصارعٍ عَرَفَته روما، وقل له إنّه سيحصل على قطعةٍ ذهبيّةٍ عن كلّ مسيحيّ يقتله، هذا سيُشجّعه على قتل المزيد، وسيُحمّس الجماهير التّوّاقة إلى الجديد».

حينَ بدأتْ حرارة الشّمس تخفّ قليلاً. كانت ساعة الصّفر قد حانت، فُتِحت البوّابتان، وبدأتْ أفواج المسيحيّين تُدفَع والرّماح في ظهورهم إلى الدّاخل، كانوا رجالاً ونِساء وأطفالاً وشيوخًا، بدا الهُزال والجوعُ على وجوههم الشّاحبة وأسمالهم البالية. هاج الجمهور لرؤية هذه الأعداد المُتقاطِرة كأنّها جيوش نملٍ تتحرّك، استغرق المشهد وقتًا حتّى أُدخِلَ الجميع مع صياح الحرس، ولسعات السّياط والشّتائم لمنْ يتلكّأ منهم. كان مشهدًا يُفطّر القلب، مجاميع بشريّة لا حول لها تُساق إلى الموت من أجل بهجةِ عددٍ من مِراض النّفوس. كان يُمكن أنْ تُميّز بين هذا الجمع امرأةً تحضنُ طفلَها بينَ ذراعَيها، كأنّها تودّ لو تُعطيه الحياة ولو كان في ذلك هلاكُها، كان خيارُها هذا سهلاً لو تستطيع، إنّها تجود - راضيةً - بروحها من أجل طفلها الحبيب، لكنّه لم يكنْ خيارًا مُتاحًا لأنّ الموتَ هنا في هذه السّاحة لا يستثني أحدًا. فماذا كانتْ لتفعل لو استطاعتْ؟! لا شيءَ إلاّ أنْ تحنّ عليه وتُهدّئَ من رَوعه بقدر ما تستطيع قبل أنْ يُستَشهَدا معًا.

أمّا منظر كِبار السّن فكان يرقّ له قلب أقسى الصّخور، لكنّه لم يكنْ ليكون مع هؤلاء الهمج المُتسمّرين على المُدرّجات ينتظرون مشهدًا يحرّك لهم رتابة الحياة وزيفَها. كانوا يمشون مُنحنِي الظّهور، قد أكل الزّمنُ نضارةَ وُجوهِهم، وجاؤوا لِيلقَوا حتفهم هنا على يدي مَنزوعِي الإنسانيّة.

انتظر الجمهور وقتًا آخر لإعداد الوحوش المفترِسة، وليدخل كروتون الّذي وُعِدَ بالذّهب الكثير إنْ قتل أكبرَ عددٍ مُمكِنٍ من المسيحيّين. كانت الشّمس تحاول أنْ تُخفّف من أشعّتها الحارقة خجلاً من المشهد الفظيع ابتِداءً، ولكي ترحمَ المُؤمِنين المَحشُورين في السّاحة من بعضِ حرّها. أمّا قائد الحرس ومنظّمو السّيرك، فقد كانوا ينتظرون اللّحظة المُناسِبة لإطلاق الوحوش من ثلاث بوّابات في الوقت نفسه. وبالفعل أُطلِقتْ جميعُها في لحظةٍ من لحظات التّرقّب والانتِظار. علا الصّراخ في السّاحات فعلا الصّراخ ذاتُه في المدرّجات، لكنّ طبيعتهما كانتْ مختلفة، الأولى كانتْ لاستجلاب الحياة والثّانية كانتْ لوأدِها. الأولى كان هلعًا والثّانية كانتْ فرحًا. ووقفت الجماهير على قدمَيها، وهي تتابع انقِضاض الأسود والنّمور والفهود على الأجساد الضّعيفة. وفرّ بعضُ النّاس بذُبالة الحياة المُتبقّية في روحه أملاً ألاّ تنطفِئ، لكنّه لم ينجح. ورفع بعضُهم أيديه إلى السّماء يستجلب الرّحمة أنْ تنزل لكنّه لم ينجح. واستغاث بعضُهم بالقيصر أو ببوروس أو بأعضاء مجلس الشّيوخ أو بمن في قلبه رحمة أنْ يُشفِقَ عليهم لكنّه لم ينجح. واستمرّت الأجساد تتساقط، وذهِسَتْ بعضها في الهروب من الحتف المُحقّق تحت أرجل الآخرين، حسبَ كثيرون أنّهم يفرّون من الموت الّذي

لاقاهم متمثّلاً في مخالب الوحوش أو أنيابها أو صرخات الرّعبِ طاعِنة. وعمّتِ الفوضى كلّ شيء، حتّى في المدرّجات بدأ بعضُ النّاس من الهياج يُلقون الحجارة، أو مُخلّفات الطّعام. وهربَ مَنْ نجا من يدَي كروتون أو من فِكاك الوحوش إلى البوّابات، فتلقّتهم الرّماح، والسّيوف، والخطاطيف. ثُمّ ركضَ آخرون باتّجاه الجدار الّذي ترتفع فوقه المنصّة الرّئيسيّة لعلّه يجد في قلب القيصر خيطًا ولو رفيعًا من الشّفقة لكنّ الحرس عاجَلوهم بالسّهام الّتي اصطادتهم كما تُصطاد العصافير الّتي تتعلّم الطّيران. وتشبّثَ بعضُهم بأصابِع يديه غارِزًا أظافِرَه في الجدار، وحاول القفز في الهواء لعلّه يفلت من جحيم السّاحة ويصل إلى المدرّجات، لكنّ الجدار الأملس العالي لم يُمكّنه من ذلك، واستمرّت المجزرة إلى غروب الشّمس، كانَ كلّ مَنْ في السّاحة قد فارقَ الحياة بمن فيهم كروتون الّذي ذهب خلفه بالذّهب على يدَي مخلبٍ نشبَ في عنقه، ولم يعد أحدٌ في المكان حيًّا باستثناء بضعة نمور راحت تتجوّل في المكان على الجثث وهي تظلع في مشيتها كأنّما هي فَرِحةٌ لنجاتها من الموت بأعجوبة.

في طريق العودة، قال نيرون: «المشهد الأخير أعجبني، لقد كنتَ بارِعًا يا بوروس». ظلّ بوروس صامِتًا. «إنّه سينقذني من الأرق شهرًا كامِلاً على الأقلّ» أردف نيرون. فيما ظلّ بوروس على شروده. «هل لي بمشهدٍ مُشابِهٍ يُثير شهيّتي للكتابة عن حريقٍ كحريقِ طروادة في أشعار هوميروس أيّها القائد؟!». لم تُفلِح العبارة الأخيرة في إخراج بوروس عن صمته، مِمّا حدا بنيرون أنْ يصرخ في وجهه: «ماذا أيّها الأبله، هل ابتلعتَ لسانكَ فجأة؟!». استيقظ بوروس على صراخ القيصر، فاسترجع هواءً كان قد خطفته الصّيحة، قبل أنْ

يتنحنح وهو يتابع صمته. كانا يعودان إلى القصر في عربةٍ تقودُها الخُيول المُطهّمة، ومن خلفهما وأمامهما مجموعة من العربات تُقلّ الحرس الأشدّاء. كان قائد الجيش يُفكّر في هذا الّذي يجلس إلى جانبه وقد تخثّرت فيه شهوة القتل، إنّ عطشه للدّماء لا ينتهي، ظلّ ساهِمًا في البعيد ينظر عن يمينه والعربة تقذفُ بالمتاجر خلفه عبر الطّريق المُؤدّية إلى القصر، فَهَمّ نيرون أنْ يسأله، مال بجذعه نحوه لكنّه تراجع في الحال، وجالَ في خاطِره: «مِنَ الإهانة لي أنْ أبدأه بالسّؤال، سيُحدّثني عمّا يشغل باله بالتّأكيد، الطّريق إلى القصر تقتربُ من نهايتها، لا بُدّ أنّه سيخرجُ عن صمته ويحكي». لكنّ فأل نيرون خاب تمامًا، واصلَ بوروس ابتِلاع لِسانه، كان يبدو أنّه مُتأرجِحٌ بين أنْ يبقى مُطيعًا لمصّاص دِماء، ويُجاريه على شذوذه، أو أنْ ينسحب. ينسحب؟ كلاّ. انسحبت هذه الفِكرة من رأسه سريعًا، لأنّ ثمنَها بلا شكّ سيكون رأسه.

على باب القصر، تنازل القيصر عن كبريائه، وسأله: «أحزِنْتَ على قَتْله؟!». لم يعرفْ مَنْ يقصد؛ فلقد شَهِدا سحابة هذا اليوم قتْلَ المئات، ولم يعدْ من المُمكِن معرفة أيّهم بالتّحديد. لكنّ نيرون لم يتركه في حيرته، فلقد أردف: «أقصدُ قَتْلَ ليغاتوس». (أخذَ نيرون مع الجملة الأخير الّتي قالها نَفَسًا عميقًا بدا كما لو أنّه هو الآخر قد أسِف على موته، وتصنّع الجِدّية في كلماتٍ راح يقولها ببطء وبحزنٍ رقّ لها بالفعل قلبُ بوروس): «لم يكنْ دخوله في المسيحيّة هو السّبب يا عزيزي، ولا نكرانه لألوهيّتي. المسيحيّة كانت شمّاعةً. كنتُ أنتظر أيّ خطأ يصدر منه لأتذرّع بقتله، لقد كان ينام الحقير مع ابنتي. هل تصدّق هذا يا بوروس، ينام مع ابنتي الوحيدة والأثيرة!!»

ثمّ تحدّرت دمعةٌ على خدّه وسالت قبلَ أنْ يُزيلَها بطرف إبهامه. همّ بوروس أنْ يقول له: «هل تريدني أنْ أقتنع أنّكَ ثأرتَ لشرفك يا عديم الشّرف؟!». لكنّه بلعَ ريقه ليبلعَ معه هذا الخاطر الجنونيّ، وسمع نفسه تُحدّثه: «إنّه - بلا شك - ثأر لاستِحواذه ولامتِلاكه لا لِشَرَفِه، كان يريد من ابنته ألاّ تنامَ مع أحدٍ سِواه». أيقظه من خيالاته توقُّف العربة أمام القصر، قال له نيرون: «ادخلْ معي. نشربُ كأسًا، ونتحدّث قليلاً». لم يكنْ هناك مجالٌ للرّفض.

كان المساءُ قد حلّ، ولجا إلى حديقةٍ يدخلها بوروس لأوّل مرّة من عشرات الحدائق المُتناثِرة في القصر. كان في طرفها بُحيرة صغيرة، يجوبُ فيها عددٌ من الإوزّ ذي الرّيش الثّلجي. وكان جلوسهما على منبسطٍ عُشبيّ تحفّه أنواعٌ لا حصر لها من الورود ذات الألوان والرّوائح المتعدّدة، كان الشّذى يعبق في المكان، والهدوء يُخيّم على كلّ شيء، لكنّ أصوات الضّحايا وصرخاتهم كانت لا تزال تطرقُ سمع بوروس، نفضَ رأسه لكي يتخلّص منها، ويندمج مع هذا العالَم الهادِئ الّذي لا ينتمي للصّخب المُتمثّل في كلّ شيءٍ خارجه. قال له نيرون، وهو يحدجه من مقعده وقد امتدّت أمامها طاولةٌ بيضاء عليها أصنافٌ من الشّراب: «هه، عمّ كنتَ ستُحدّثني يا بوروس؟!». «لا شيء. لا شيءَ يا سيّدي». «هذه ليست إجابة. قُلْ لي ما الّذي كان يدور بذهنك عندَ عودتنا من المُنتَدى؟! أعرفُ أنّكَ تنوي ذلك لكنّك تخشى أنْ تقوله. قُلْ. الحروف كلّها بين يديك. قل ولا تَوْجَلْ». عدّل بوروس من جلسته، ألقى بهامته على صدره قبل أنْ يرفعها ليقول: «انظرْ حولك أيّها القيصر». سكت. نظر القيصر حوله: «كلّ شيءٍ على ما يُرام أيّها القائد؟ هل في هذا الهدوء ما يَرِيب؟ هل هناك من

خِيانةٍ جديدة؟!» «يا سيّدي أنا أقصد انظر إلى الأحوال في روما من حولك، إنّها تغلي، بعد أنْ صرتَ تقتل مَنْ تشاء وكيفَ تشاء». «أنا الحاكم الفعليّ لهذه المعمورة، أتظنّ أنّني جلستُ على كرسيّ القيصر لأمسح على رؤوس المؤمنين كما يفعلُ بُلَهاءُ مثل بولس وبطرس». «يا سيّدي أخشى أنْ يثورَ عليكَ مجلس الشّيوخ، وينزع هذا الكرسيّ من تحتك. إنّهم إذا اجتمعوا وقرّروا ذلك فإنّنا سنكون أمام أزمةٍ لا يُمكن الإفلاتُ منها». «هل أنتَ جادّ فيما تقول؟!». «أنا أقربُ النّاسِ إليك. صدّقني. أنا الوحيد الّذي لا مطامع لديّ». «لا أصدّق. أشكّ في ذلك». «التّجربة ستثبتُ لك». «وماذا ترى؟». «أنْ تهرب». «ماذا؟ هل جُنِنْتَ؟!». «كلاّ، أقصد أنْ تتركَ روما شهرًا، فلتذهبْ إلى (بينيفنتو) ريثما تهدأ الأوضاع». «لن أدعَ أعدائي يقولون إنّ القيصر قد هرب أو تخلّى عن مسؤوليّاته». صرخَ بوروس في وجهه دون مقدّمات: «أنتَ لا تريدُ أنْ تسمَع، تظنّ أنّ الأمور تحت سيطرتك، وهي تنفلتُ في كلّ لحظةٍ من بينِ يديك، أنا أنصحك وأنتَ تستهزِئ بإخلاصي لك، افعلْ ما بدا لك». باغتَ صُراخُه نيرونَ نفسه، الّذي ابتلع الإهانة كما أنّها لم تحدث، وقف بوروس بعصبيّة، ثمّ وضع خوذته العسكريّة على رأسِه وخرج. لم يكدْ يخطو بضع خطواتٍ حتّى استوقفه نيرون: «تمهّل أيّها القائد. أنا مُخطِئ. يبدو أنّ مرض الكبرياء لا يُمكن الشّفاء منه بسهولة. هل ترى ذلك حقًّا؟!».

رحل نيرون إلى بنيفينتو، كان يُضاجع ويشرب ويغنّي ويرقص ويأكل ويُبذّر ويُغنّي ويكتب القصائد، وحينَ يملّ يعزف على القيثارة، وروما تُدارُ في غيبته، أخذ معه بوبيا. عاد بعدَ شهر. لم يكدْ يدخل قصره حتّى طلب الحرس أنْ يأتوه ببوروس. قال له وهو

يُعطيه ظهره ورداؤه الّذي ينزل أسفل وسطه قليلاً يكشف عن سمنته الّتي زادت في غيابه عن روما، كانت رقبته الغليظة قد أصبحت مُتّصلةً برأسه الكبيرة، ومن الخلف بدا شَعرُ رأسه الأحمر داكِنًا على ضوء القناديل المُتوهِّجة: «الكلب الّذي تُطعمه يا بوروس إذا مدّ فمه المسعور إلى يدك الّتي تحمل اللقمة وعَقَرَها ماذا يكون جزاؤه؟!». «يُقتَل يا سيّدي» قالها فور انتهاء السّؤال كأنّه كان يتوقّعه. «فتحمّلِ القتل إذًا راضِيًا يا بوروس». ارتجف. تخالفت رجلاه. تلعثمت شفتاه، لكنّه نطق: «أنا... أنا...!! أنا الّذي خدمتُكَ كلّ هذه السّنوات، تريدُ أنْ تقتلني؟!». «لقد خُنتني». «أقسم بشرف الآلهة، أنّني لم أعِش إلاّ لك». «لا تقسم بشرفِ الآلهة، فهي لا شرف لها، بوبيا قالت لي وأنا في بينيفينتو أنّك كنت تنامُ معها، وتُجبرها على ذلك». «كاذبة». «نعتُ الآخرين بالكذب لا يُمكّنك من الهرب، واجِهِ الحقيقة بشجاعةٍ أيّها الجبان». «أيّة حقيقة؟!» «هذه الرّسائل الّتي كنت تبعث بها، أيّها العاشق الولهان؟». وأخرج من تحت ردائه رُقوقًا بخطّ يد بوروس وأظهرها له من خلف كتفه. «إنّها تلفيق، لأنّني لم أقبلْ أنْ أستسلم لرغباتها الجامحة». «هل أصدّقكَ أمْ أُصدّقُ عينَيّ؟!». «صدّقْني أنا، أنا حبيبُكَ، هي الّتي اعترضت طريقي أكثر من مرّة وراوَدَتْني عن نفسي. كاذبة. أُقسِم بكلّ شيءٍ إنّها كاذبة». «هي أصدقُ منك». اقتربَ منه، دار حوله حتّى أصبح أمامه، جثا على قدمَيه مُتوسّلاً: «لا تثقْ بالنّساء يا سيّدي، إنّ أشرفَ امرأةٍ ليست أكثر من أفعى سامّة». «ربّما، لكنّك كما قَتلتَ ستُقتَل». «وحريقُ روما مَنْ سيصنعه لكَ يا سيّدي من أجل ربّة الإلهام؟!». «لا تقلق؛ الخونةُ كثيرون». «امنحْني هذا الشّرف مقابل حياتي». «هيهات، لقد سبقَ السّيفُ

العَدْل».

في أحلامه جاءته أمُّه من جديد، قالت له: «بوبيا هذه الّتي وثقتَ بها وجعلتكَ تتخلّص منّي أيّها الملعون، وتتخلّص من أعزّ أصدقائك والمُقرّبين إليك، كانت تُضاجع نصف أعضاء مجلس الشّيوخ، إنّها كانت تُضاجع كلّ شيء، حتّى إنّها كانت تُضاجع الكلاب في المقابر، إنْ لم تقتلْها فإنّ روحكَ سوف تغوص في قرارٍ سديميّ من الجحيم». استيقظَ في الصّباحِ نشيطًا، شربَ حتّى ثمل، ورقص مع الفاجرات حتّى تَعِب، ثُمّ وهو في نشوةِ خمرته ولهوه أمرَ ببوبيا فضربها حتّى كادت تُفارق الحياة، ثُمّ طلبَ أنْ يُؤتَى برأسِها على طبقٍ لائق مقلوعة العينَين إلى جانبِ طعام الغداء على المائدة!!

١١١

أفَأكُونُ مَلعونًا وأنا نبيٌّ ومن الصّالِحين؟!

كان القتلُ قد استَحَرّ في المسيحيّين، القائد الّذي حلّ محلّ بوروس، لم يتّعظ بمصير سَلَفِه، بل استمرّ يُقدّم الذّرائع لنيرون من أجل أنْ يفتكَ بالمزيد منهم. واصل بولس وبطرس طريقهما في الدّعوة. مجامع اليهود في روما تغاضت قليلاً عمّا يقومان به. لكنّها - كالعادة - لنْ تسكتَ طويلاً. بعثَ نيرون بفرقةٍ كاملة إلى الرّيف حيث البيت الّذي يحلّ فيه يعقوب فُهدّم بالكامل، وزُوكمتْ حجارته، وبعد أسبوع من ذلك التّهديم كان عددٌ آخر يحمل تلك الحجارة المركومة في موضع الهدم على عرباتٍ ضخمة، لتُستَخدَم في توسيع المُنتدَى وبناء بعض الشّرفات العالية في طوابق جديدة. أمّا بطرس فاختَفى، صار تنقّله في روما خفية، يلبس لباس النّجّارين مرّة وينزل السّوق، ويدعو في الخفاء، ولازمه يوسف في تنقّلاته كلّها يكتبُ خلفه إنجيله، وأحيانًا كان يذهب باتّجاه النّهر أحيانًا مُتخفّيًا بزيّ الصّيّادين، ويُمارس هوايةً قديمة مضى عليها ما يقربُ من ثلاثين عامًا، كلّ ذلك من أجل أنْ يوصِل للنّاسِ الرّسالة، كان العدد يطّرد مع الاضطهاد الّذي يقوم به نيرون، بدا أنّ كثيرًا من الدّعوات عبر التّاريخ تنتصر بالتّضحيات الّتي تُقدّمها، كان النّاسُ يتساءلون عن هذا الإله الّذي يَعِدُ بالخَلاص، ويستقبل المؤمنون به الموتَ بكلّ رضًا وكأنّهم يستقبلون آلهة الخلود. كانت السّيوف الّتي تُوضَع على الرّقاب فتقتل هنا وهناك، والمقاصل الّتي تنزل عليها فتفصلها عن الأجساد، والوحوش الّتي تَلِغُ في دماء الأبرياء أحسنَ وقودٍ لانتِشار الإيمان

المسيحيّ الّذي صار كماءٍ هطلَ من السّماء في ليلةٍ كانونيّة باردة فغطّى الطّرقات، وغمر البيوت، وسالَ على النّوافذ، وسقى الأشجار، وروى العِطاش، فصار من الصّعب اقتلاعه من بعدِ ريّ، واستردادُه من بعد غَور.

ومع ذلك ظلّ بطرس مع تلامذته على خوفٍ من نيرون أنْ يفتنهم، فقد جُنّ جنون هذا السّفّاح، وازدادت رَغَباته البهيميّة في قتل كلّ أحدٍ، وصار يشكّ بكلّ شيء. ومن بعدُ في جلساته الأدبيّة صار يشكو الكآبة والملل لكلّ مَنْ يجلس إليه.

في اللّيالي الّتي يخلو فيه بطرس إلى نفسه ويُناجِي الله، كان يسمع صوتي أشدُّ من أزْرِه مرّة، وأقوّي من عزيمته، وأرشِده إلى الطّريق الصّواب بعد أن اختلط الحقّ بالباطل مرّةً أخرى، وكثُرَ الباطل حتّى عمّ، وأقرّعه أحيانًا على تقاعسه. لقد كنتُ آمُل أنْ يقف موقفًا أكثر حزمًا مع أدعياء النّبوّة.

وفي ليلةٍ من ليالي الرّيف الّذي كان يلجأ إليه بطرس بعدَ هدم بيتِه، هربًا من أنْ يقع في قبضة جنود روما، تذكّر كلمةً قالها برنابا في وجه بولس ذات ليلةٍ جمعتْ ثلاثتَهم: «أنتَ تهذي يا بولس» فهاجه الشّوق إلى صديقه القديم الّذي فرّقتْ بينهما الأقطار، فَعَظُمَ الألمُ في صدره على ما يحدث هنا في روما، وتمنّى لو أنّ برنابا إلى جانبه يقوّيان معًا دعائم التّوحيد، فعزم على أنْ يكتبَ رسالة لأخيه يشكو إليه فيها ما آلتْ إليه الحال في روما نيرون.

العزيز برنابا

لقد كنّا من المُختارِين حينَ كانتْ هذه إرادة يسوع وهو بيننا، فلمّا

رُفِعَ إلى السّماء، وقد طلبَ قبلها مِنّا أنْ نُبلّغ عنه فنكون صخرته ونرعى خِرافه، جاءنا أدعِياء ما سمعنا بهم من قبل، وما كانوا مِنّا، لكنّهم أقحموا أنفُسَهم بينَنا، وادّعَوا صَلِتَهم بالمسيح وهم كانوا سببًا في محاولة النّيل منه.

العزيز برنابا:

إنّها ثلاثون عامًا، ولا زلتُ أذكر كم كانت أيّامنا مع المعلّم شاقّةً وجميلةً في آنٍ معًا، كانَ روحَنا، وصانِعَ بهجتنا، والّذي انتشلنا من الضّلال لنكون رُسُلَه إلى العالَمين بما ائتمِنّا عليه، لا بِما أفسده علينا وعليه عددٌ من الأدعياء والأنبياء الكذبة. إنّ بولس يسعَى في الأرضِ فسادًا. وأنا لستُ بمهارته في الكلام، ولا بسرعته، ولا بما لديه من عِلم، إنّه أفصح منّي لسانًا كما كان هارون أفصح من موسى، ولكنّه يحملُ رأسَ شيطانٍ على كتفَيه، إنّه لا يفتأ يبثّ سمومه ودعواه، ولا يجد مَنْ يَردعُه، ولأنّ مَنْ هنا في روما عاشَ دين الآلهة المُتعدّدة، ولا يعرف عن يسوع ومعاناته شيئًا، ظنّ أنّ هذا المُبلّغ عنه يقول الحقيقة وهو في الحقيقة يقتلها، وينقبُ عليها فؤادَها، إنّني أعرف أنّ يسوع يتأذّى مِمّا يفعله بولس، لأنّه يفتري عليه افتراءات تتزلزلُ منها الجبال، لقد سمعتُ معلّمنا غير مرّة يطلبُ منّي أنْ أشتدّ في مواجهته ولكنّني أشعر أحيانًا بالعَجز، أُريدكَ إلى جانبي من أجل أنْ تُقوّيني، إنّ صوتَ يسوع يرنّ في أذني كلّ حين، أكادُ أسمعه يقول:

أنا كلمةُ الله لأنّ النّاسَ يهتدون بكلامي كما يَهتَدون بكلامِ الله؛ أفتأتونَ بكلامِ الشّيطان فتضعونه على فَمِي، وكلامُ الشّيطانِ باطِلٌ وكلامي حقٌّ؟! لا والله لا يستوي ذلك. إنّما تعرفون فيما أقولُ الحقّ

وتعرفون فيما يقول الشّيطانُ الباطِل. وأنا طيّبٌ والشّيطان خبيثٌ؛ أتستبدلونَ بي خبثَ الشّيطانِ؟!

وأنا كلمةُ الله مثلُ كتابه، فما قلته قلته من كِتابه، وهؤلاء يتقوّلون عليّ: يقولون تارةً إنّني ابنُ الله وما قلت ذلك قطّ. ويقولون تارةً إنّني أنا الله - حاشاه - وما قلت ذلك ألبتّة، أفتتبعون رؤوسًا فُسّادًا يَهلَكون ويُهلِكون، ويَضِلُّون ويُضِلّون؟!

أنا كلمة الله لا سلطان لأحدٍ عليها لا بالقتل ولا بالصّلب، ولا بالإيذاء ولا بالنّفي ولا بالإبعاد... ولا بأيّ وسيلةٍ أُخرى؛ لا سلطان لأحدٍ عليها إلا لله، فكيفَ تتركون هؤلاء الفَسَدة يقولون إنّ كلمةَ الله صُلِبَت، وقُتِلَت، ودُفِنَت، ... أفهكذا هم المؤمِنون بي يُؤذونني في إيمانهم هذا؟! وأنا قاتِلُ الشّر فكيفَ يُقتَل الخير الّذي بي؟! وأنا غدًا مُهلِك الدّجّال أعظمِ قوّةٍ بشريّة أوجدها الله فكيف أُهلِك أنا بمجموعةٍ صغيرةٍ من الجُند؟! وأنا الكلمة العُليا فكيفَ يرضى لها الله الدّون؟! أمَا عَقِلتم أيّها الضّالّون؟! أما نفذَ إلى قلوبكم شعاعُ البصيرةِ مرّةً واحِدةً فتفكّرتم فيما تقولون؟!

إنّهم يا بطرس يدّعون حُبّي، وأنا أتبرّأ منهم ومن حُبّهم الكاذب هذا، أفَجَرُؤوا بادّعائهم هذا الحُبّ أنْ يُغضِبوا الله الّذي خَلَقَني وخَلَقهم؟! ماذا سيقولون بين يديه حينَ يُشهِدني عليهم؟! أيقولون سَوّلَ لنا الشّيطانُ وزَيّنَ أعمالنا، بل هُمُ الشّيطان، والشّيطان يتكلّم بألسنتهم. أم يقول آخَرون بل كنّا سُفَهاء حمقى مَغشيّةً أبصارُنا؟! ألمْ أحذّركم من أن تتّخذوني وأمّيَ إلهينَ؟! أفمن الحُبّ أن تكفروا؟! أم من الحُبّ أن تُلقُوا بأنفسكم في جحيمٍ لا قرارَ له؟! بِئسَ ما قُلتم ويا

حسرتَي على الّذين قَضَوا وهم يحملون هذا الاعتِقادَ الباطِل!!».

وأحيانًا كُنتُ أسمعه يُخاطِب يوحنّا: «أأنا أُحيي مَنْ أشاء يا يوحنّا وأنتَ تعلَم أنّني كنتُ أبتدئ باسم الله قبلَ عمل المُعجِزات، وأنسِبُه إلى قدرته، وما أنا إلاّ وسيط. فكيفَ تسمح للعابثين أنْ ينسِبوا إليّ ما لم أقُل؟! أليس مكتوبًا في شرائع اليهود أنّ الّذي يُعَلّقُ على الصّليب يكون ملعونًا، فكيفَ اقتنعتم بأنّني أنا الّذي عُلّقتُ عليه، أفَكُونُ مَلعونًا وأنا نبيٌّ ومن الصّالِحين؟! فإنْ كان الّذي عُلّقَ هو يهوذا فقد لَزِمَتْهُ اللّعنةُ إلى يومِ الدّين... أتقبَلون بما يقوله الدّجّال الّذي جاهَدَ لكي ينزِعَ عنّي صِفةَ الطّهارة والنّبوّة ويضعني في صَفّ الملعونين، وتتركون عقيدَتكم بي، وقد لبثتُ فيكم عُمْرًا عرفتموني فيه وعرفتُكم... أيّ جَهلٍ هذا الّذي استطاع هذا الكذّاب أنْ يُوقِعَكم فيه؟!».

«ألَمْ أُختَنْ أنا في اليوم الثّامن وآمُرُ به، ثُمّ تتركون ما عَهِدتُم عنّي لتأخذوا بقول هذا الأفّاكِ الّذي أبطلَ الخِتانَ وأجازَ أكْلَ اللّحمِ النّجِس، وقد رأيتُم كيفَ عملتِ الشّياطين بالخنازير يومَ البُحيرة وكيفَ سكنَتْ زوجَها؟!! أبهذه السّهولة يستحوذ مَنْ جاء بعدي على عقولكم؟! أليسَ لكم عيونٌ تُبصِرون بها؟! ألمْ تَرَوا معي ما حدث. أليسَ لكم آذانٌ تسمعونَ بِها؟! ألمْ أُخبِرْكم بكلّ شيءٍ؛ ثُمّ ها أنتم تكادون أنْ ترموا كلّ هذا وراءَ ظهوركم، وتؤمِنوا بما لم تَرَوا، وتُصدّقوا بما لم تسمَعوا!!!

هكذا كنتُ أسمعه يقول يا برنابا، لا أدري أهي منه، أمْ أنّه يُهيّأ لي، لكنّه صوتُه، وأنا لا أُخطِئه من بين آلاف الأصوات مهما تداخلتْ.

أخي برنابا:

أعرفُ أنّكَ تلقى بعض العناء في قبرص، لكنّني أدعوك وأدعو نفسي ألاّ نستسلم حتّى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً. أتمنّى أنْ تصلَ إليكَ أيّها العزيز تحاياي، وأنْ تحلّ على روحك الطّيبّة الرّحمة، وأنْ تنعم بالسّلام».

المشتاق بطرس. روما ٦١ م.

*****

قبَل برنابا الرّسالة الّتي وصلتْ إليه. كان قد عاشَ زمنًا صعبًا هنا. يتذكّر أنّ الحواريّين الّذين قالوا نحن أنصار الله لم يهنؤوا في حياتهم أبدًا. يُدرك أنّ قَدَرَ الله هو مَنْ يرسمُ لهم فيرضى. إنّها سنواتُ المِحنة الطّويلة، ولا عِلاجَ لها إلاّ بالصّبر، إنّ الله يُعيدُ تشكيلهم من جديدٍ، ليستقبلهم بالهيئة الّتي يُحبّها في الخلود. كان يعرف أنّ النّار قد أُوقِدتْ تحتَ أرجلهم، وأنّ الجالسين على عروشهم في أقطار الأرض سيعملون على أنْ تطالهم ألسنة النّار في كلّ حين.

العزيز بطرس:

مكثتُ أعوامًا هنا في قبرص، ثُمّ غادرتُها إلى ميلانو، عرفتُ أنّ ميلانو لم يصل إليها أحدٌ مِنّا، فأحببتُ أنْ يكونَ لي السّبقُ في التّبشير فيها. أهل ميلانو مثل بقيّة أجزاء الدّولة الرّومانيّة يؤمنون بألف إله، وأغلبُهم لا يعرف ما هي الآلهة الّتي يُؤمن بها. لقيتُ بعضَ الحفاوة منهم، اتّبع المسيحَ كثيرون، لكنّ بولس كان قد وفد إلى هنا كذلك من بعدي، وراح يُضلّهم، إنّه كثيرٌ في واحد، وأنا أرى أنّ

اليهودَ صنعوه على أعينهم، وأدخلوه ديننا لِيُفسِده علينا، اليهود ما زالوا يَحِيكُون المؤامرات إلى اليوم، إنّه دأبهم، ألم نعهدهم على هذا من أمدٍ بعيدٍ في أروشليم. أمّا بالنّسبة ليوحنّا فأظنّه ما زال على العهد، دَعْك مِمّا يقولونه عنه، فهذا صُنع الفرّيسيّين من قبلُ ومن بعدُ، لقد كان صادِقًا وظلّ صادِقًا، هذا عهدي به لم يُغيّر ولم يُبدّل، ولكنّ الشّياطين حرّفوا ما كتب. وصوتُ المسيح بشأنه كان تحذيرًا لِما سيضعونه على لسانه وفي كتابه مُستقبلاً ربّما.

لقد سمعتُ في ميلانو وفي كثيرٍ من البلدان عن أفعال بولس، إنّه يدّعي أنّه وجد في إحدى رحلاته نبيًّا كذّابًا، ودعا عليه بالعمى فعَمِي، أينَ ما كان يقوله لنا المعلّم من أنّ نحبّ حتّى أعداءَنا. وسمعتُ عن اختِراعه القُبلة المُقدّسة، «سلّموا بعضُكم على بعضٍ بقُبلةٍ مُقدّسة كنائس المسيح تُسلّم عليكم»، إذا صَحّ ما قيل عنه، فهي كارثة حقيقيّة تحلّ بنا، أمّنا الطّاهرة البتول العذراء، ونبيّنا السّيّد الحصور سيغضبان كثيرًا من فِعلٍ مُخزٍ كهذا. لقد جمعني القدَرُ به مرّة فنهرتُه عن شنائعه، وقلتُ له: «مَن أعطاكَ الحقّ في أن تكتبَ عقيدَتنا أيّها الضّالّ؟». أتعرف بِمَ ردّ عليّ! لقد قال: «إنْ طالَ بكَ العُمر وأريدُه أن يطول لتموتَنّ بحسرتك؛ إنْ طال بكَ العُمر يا هذا فسترى الغَلَبَةَ لِأفكاري وهي تنتشر في أصقاع هذه المعمورة كُلّها؟! وستكونُ جُزءًا من الكِتاب المُقدّس إذا لم تكنِ الكتاب المُقدّسَ نفسَه. أنا روحٌ أتلقّى من المسيح الّذي لم تعرفْه كما أعرفه أنا، أنا سرّ يهوذا الّذي تقولون بخيانته». إنّ ما سمعتُه منه لأمرٌ عجيبٌ أشدّ العجب، غريبٌ أشدّ الغرابة.

غدتُ إلى قبرص، وضعتُ إنجيلي بعهدة أحد الأوفياء. وتابعتُ

مسيرتي في التعليم، لكنني أشعر أنّ اليهود هنا يُدبّرون لي شيئًا، ما زالت آثار الدّماء على أياديهم لم تنشف من قتلهم لإستِفانوس وليعقوب الحواريّ في أورشليم، لكنّ الله يحمي أولياءه، وإذا جاء الموتُ فلن يردّ قضاءه أحدٌ، إنّ الموتَ على التّوحيد هو ما أرجو وآمُل.

لا أدري متى ستصل إليكَ الرّسالة، لكنْ لتنعمْ بالرّضا من الله، ولتكتبْ لك عدالتُه مجدًا أبديًّا.

المُحِبّ برنابا

قبرص. الشّهر الخامس ٦١ م.

مرّتْ أشهرٌ قليلةٌ بعدَ ذلك، كان هذا الخطابُ آخرَ ما كتبه في عُمره المَقدور، فقد قبض عليه الملك في قبرص، وسَلّمه إلى اليهود بمقابل، كان غيظُ قلوبهم قد بلغَ أشدّه، ربطوه من يدَيه إلى سَرجٍ مُعلّق على ظهر حِصان، وشدّوا الوثاقَ على رِجلَيه، وألهَبُوا ظهر الخيل حتّى عَدَتْ مُهتاجةً فتمزّق جسدُه، وغطّاه الدّم، وكانت روحُه تُغالِبُ جوارِحَه لِتُفارِقَها، فأخذوه في النّزْع الأخير وأقاموه في حُفرةٍ فَرَجَمُوه، ثُمّ لمّا تأكّدوا من موته، سحبوا جُثّته وصبّوا عليها الزّيت فأضرموا فيها النّيران، فلمّا تفحمتْ، ولم يعدْ يُرى لها أثر، رَدَمُوه بالحجارة، وأهالوا عليه ترابًا، وانتهى عهد هذا القِدّيس بدنيا الزّوال.

بكى بُطرس لموته، صلّى لروحه، وعَلِمَ أنّ أيّامه هو الآخَر قد صارتْ معدودة.

١١٢

الشَّهوةُ إذا حَبَلتْ تَلِدُ خَطِيئة، والخَطِيئةُ إذا كَمُلتْ تُنتِجُ مَوْتًا

كان يقول لهم: «إنّما فُتِنتم بقلّة الصّبر». فيحتملون الأذى الشّديد. ويقول لهم: «إنّما أنتم مُرتحِلُون، فاصفحوا اليوم تجدوا لذّة ذلك غدًا». فيحتملون الاضطِهاد لأجل ما يقول. وكانَ أكثرَ وقته ساجِدًا حتّى تقرّحتْ ركبتاه وغُلظَتا فأصابه من جرّاء ذلك ألمٌ لا يُحتَمل، ظلّ يحمله راضِيًا حتّى قضى. وكان يبكي لأجل مَنْ رحلوا مُبدّلين ومُغيّرين، ويعرف أنّ اليهود لهم في ذلك اليد الطُّولَى، فلم يسكتْ لهم، ولم يُمالِئهم على حِساب عقيدته، فألّب أحقادَهم عليه. وكان اليهود معروفين بامتحان الرّسل والأنبياء والصّالحين، يُباغِتونهم بسؤال كي يُسقَطَ في يد الرّسول، ويُفاجِئونهم بطلب فتوى من هوى الأنفُس مَصوغةٍ بِدَهاء فتُوقِع الحليم في الحيرة.

جابه بولس في قضيّة الخلاص بالإيمان وحده، وعدّه مُهرطِقًا، وعدّ كلّ مَنْ رضي بأنْ يؤمن قلبُه دونَ أنْ يُصدّق ذلك عملُه؛ عدّه ضالاً قد أخطأ الطّريق.

آثرَ أنْ يبقى في أورشليم لا يُغادرها حتّى يُثبّت الإيمان فيها، الإيمان بأنّ الله لا يتجزّأ، وليس له أقانيم، ولا يُمكن أنْ يكون الثّلاثة واحِدًا مِمّا بدأ يسمعه في زمانه، ولا حقيقةَ إلاّ حقيقة التّوحيد الواضحة الّتي ليس معها شكّ، ولا تحتاج إلى تفسير. ورأى كثرةَ الخَلط الّذي وقع في فلسفات بولس، وحيرةَ المُفسّرين، واختلاف التّأويل، فعلم أنّها كلّها باطِلٌ، فجهر بذلك في المعبد فأوغر صدور

كهنة المعبد من الفريسيّين.

كان كثيرًا ما يعظُ الموحِّدين قائلاً: إنّكم ستجدون بسبب ثباتكم على التّوحيد بلاءً عظيمًا فاصبِروا؛ إنّ الصّبر لا يعني احتمالَ الأذى بضعةٍ ولا بمهانةٍ، بل احتِمالَه بحبّ وشموخ، احتمالَه إشفاقًا على الجلاّدين وتمنّي الخير لهم، لا احتِمالَه وأنتَ تُضمر لهم الضّغينة، وتُلوّث قلبك بالحقد عليهم، فإنّ هذا مدعاةٌ لأنْ يمحق الأجر، ويقتلَ القلب، وقد يضطرّك فَقْدُ الإيمان إلى أنْ يجرّك الشّيطان به إلى الكفر.

وكان يُرَى مُخبِتًا مُتواضِعًا، ينادي على المؤمنين المُعذّبين: «أيّها الأنقِياء؛ لا تقولوا إنّ الله اختبرنا بالبلاء، بل قولوا إنّ الله اصطفانا بالعطاء. وإنّكم إنْ تخلّصتم من شهواتكم فقد ربحتم الحياة؛ إنّ الشّهوةَ إذا حبلتْ تَلِدُ خَطِيئة، والخَطِيئةُ إذا كَمُلت تُنتِجُ مَوْتًا».

كان يرى ارتحاله عن الدّنيا أمام عينيه كلّ يوم، فيَهُونُ لأجل هذا الرّحيل عنده كلّ عظيم، ويَصغُر في قلبه كلّ كبير، ولا يأخذ لسفره إلاّ زاد الإيمان الصّادق، ويهشّ حينَ يرى موتَه يقترب، وأنّ حتفه يغذّ إليه الخُطا، ذلك لأنّه سيجمعه بالحبيب الّذي طالت أوبته. ولم تنتهِ مَواعظُه في الزّهد، فكان يُلقيها على مسامع كلّ مَنْ يلتقيه.

ولصدقه، تَبِعَه خلقٌ كثير، وآمن به اليهود، فلمّا رأى كهنةُ المعبد أنّ اليهود ينفلتون من بين أيديهم ويتبعون يعقوب زادَ حِقدُهم، وقرّروا في الغرفة الّتي كان يجتمع فيها قَيافا، ومن بعده شيمون أنْ يتخلّصوا منه، وعندَ اليهود ألفُ طريقةٍ لذلك، فاتّفقوا أنْ يقذِفوه من شاهقٍ، فيموت من سقطته، ولا يعود له وجودٌ بين أتباعه، فيتفرّقون عنه وتضعفُ شوكتهم، ويُمكن تولّي جزءٍ منهم بالمال، إغراءً ووعدًا

فيكونُ عِقدةُ قد انفرطَ تمامًا. وأعدّوا لذلك غدّتهم، وأوكلوا مَنْ يُنفّذ هذه الخُطّة عنهم.

ويومًا جاءه عددٌ من الوجوه الجديدة الّتي لم يرها من قبلُ، فطلبوا منه أنْ يُحدّثَهم عن المسيح وتعاليمه، وأنّهم إنّما ملّوا من كذب اليهود ودسائسهم، ولا زالوا لا يعرفون بالضّبط ما الكبيرة الّتي ارتكبوها بحقّ المسيح حتّى أرادوا به القتل، لكنّهم سَمِعوا أنّ الله نجّاه، وأنّه لمْ يُمَسّ، وإنّهم جاؤوا ليسمعوا منه مُباشرةً. فهشّ قلبُ يعقوب لهم، ودعاهم إلى زاويةٍ من زوايا المعبد، ولكنّهم قالوا: إنّ بعضَ الكهنةِ يعرفوننا وإنّهم إنْ رأونا معك عرفوا أنّ عددًا جديدًا من يهودهم يتحوّل إلى المسيحيّة، فيكون ذلك سببًا في هلاكنا، ونحن عندنا عِيالٌ نخشى أنْ يُترَكوا لمصيرٍ بائس. فسألهم أنْ يأتوا إلى بيته، فقالوا: إنّ بيتَك قد يكونُ مُراقبًا. فسألهم رأيَهم، فقالوا نرى أنْ نصعدَ إلى سطح الهيكلِ، وهناكَ لا أحدَ يرانا، ولا أحدَ يشعر بوجودنا، ونبقَى معك حتّى طلوع الفجر، نُصلّي ونُسرِع في الاستِماع، ونُبطِئ في الكلام والغضب، ونقتلع جذور الشّرّ من أنفسنا، ونغرس بذار كلمة الله، ونُلجِم ألسِنَتَنا حتّى تقول كلّ شيء. فلمّا نظر في وجوههم رأى فيها التماعةً ظنّها التماعةَ الخير، وحسبها وقدة الشّباب إلى النّور، فلمْ يُحِرْ جوابًا، ولكنّه كان يعرفُ أنّ ما يُمكن أنْ يحدث كما رتّب الله لنْ يُؤخّره أحدٌ أو يُقدّمه. وسار معهم.

فلمّا صاروا على سطح الهيكل، قال له أشدّهم قوّة: «لقد خدعناك». فأجابهم: «خدعكمُ الشّيطان، وإنّما هو أمرٌ نافِذٌ وليس إلى ردّه سبيل». «إنّا قاتِلوك». فجثا على رُكبتَيه، فظنّوا أنّه يسترحمهم، ووَقَر في قلبهم أنّه جبان، واستغربوا أنّ هذا الّذي كان يُصدّع الرّؤوس

بالصّبر على البلاء، لم يسعه الصّبر على هذه اللحظة! لكنّه لم يكنْ جبانًا كما ظنّوا، بل راح يُصلّي من أجلهم، ويطلب لهم الغفران من الله، ويسأله أنْ يُسامحهم، فلم يحرّك ذلك فيهم ساكِنًا. ثمّ إنّهم ساقوه، وكانوا عشرةً، فسمعوه وهم يسوقونه: «يا ربّ لا تُهلكهم بي، ولا تُعذّبهم بجريمتهم». فقال بعضهم: «إنّه يستسلم للأمر استسلامًا عجيبًا، لِمَ لا يُقاوم؟ لِمَ لا يصرخ؟ لِمَ لا يسأل الله لنفسه النّجاة كما يسأل لنا الرّحمة؟».

فلمّا أشرفوا به على سطح الهيكل وكان يرتفع ثلاثة طوابق، كانتْ أورشليم كلّها أمامه، رأى في هذه اللّحظات كم هي جميلة، أحسّ بأنّه على وشكِ أنْ يُعانِقَها، على وشك أنْ يُعانِقَ جبلَ الزّيتون الّذي كان يجتمع فيه المسيحُ مع الحواريّين، فتحَ ذراعَيه، صلّى لأجل النّاس كلِّهم، شعر أنّه بعد قليلٍ سيسقط إلى الأعلى، تخيّل أنّ ذراعَيه ستتحوّلان إلى جناحين وسيطير بهما، سيصعد إلى مُعلّمه الجميل، سيُصافحه عمّا قريب، وسيكون معه في ملكوت السّماء، الأرض لم تعد صالحةً لمثله، لقد أدّى ما عليه، وحان تسليمُ الأمانة.

كان ثمر البِرّ الّذي زرعه في السّلام يُؤتي أُكْله آنئذٍ. دفعه اثنان بقوّة من خلفه، فهوى على الأرض، ارتطم بساحة الهيكل المرصوفة بالحجارة، قالت جوارحه ألفُ آه، لكنّ فمه العَذْب لم يقلْ كلمةً واحدةً. سال الدّمُ من أنفه، كان وجهه إلى الأرض، وروحه ما زالت تُعالِجَ الجسد الفاني لكي تخرج إلى رِحاب الخلود. تلقّاه عددٌ من الفريسيّين في الأسفل، كانوا قد خطّطوا مع الّذين أصْعَدوه إلى السّطح أنْ يُكمِلوا المهمّة مِن هُناك، لم يرَ أحدٌ الّذين قذفوا به من الأعلى، لكنّ هذا الزّنيم الّذي سيُجهِز عليه في الأسفل سيكونُ مرئيًا

لكلّ النّاس الموجودين آنئذٍ في ساحة الهيكل فسيكون عرضةً للمُلاحِقة، فما المَخرَج؟ تظاهر الزّنيمُ بالجنون والهَوَس. ادّعى أنّ الشّياطين تتملّكه، وأنّ روحه خبيثة، وراح يُتمتمُ بكلماتٍ غريبة، ويمشي برجلَين مُعوجّتَين، ويُمسك العصا بيدٍ سليمة أمّا اليد الأخرى فكانت شولاء ظاهرة الإعاقة، هكذا بدا للرّائي، كان مُمثّلاً أتقنَ دور المجنون بشكلٍ مُحترف. اقتربَ من القِدّيس وعيناه تلتمعان شغفًا بالجائزة المُنتَظرة، هكذا كانت الأمور تسير في الهيكل، ما مِنْ روحٍ تُزهَق بأيدي لا تنتمي إلى الهيكل إلاّ كانٍ وراء ارتكاب الجريمة بحقّها مالٌ مَدسوسٌ في الجيب قبل الفِعل، ومالٌ مدسوسٌ في الوَغد بعد الفِعل!! هوى المجذوب على رأسِ القِدّيس بعصاه، وراح يضربه بلا هوادة، وهو يفتعل صِياح المجانين، ويُخرِجُ الزّبدَ من فِيه. وظلّ يهوي بعصاه الغليظة بلا رحمةٍ حتّى تأكّد من أنّ الشّهيد قد ارتحل إلى ملكوت السّماء. أمّا يعقوب فظلّ يُصلّي له وللّذين قذفوا به من الأعلى حتّى لم يعد فيه نَفَسٌ يتردّد، أو شِفاه تتحرّك.

كان ذلك عام ٦٢م، بعد ما يقربُ من عَقدٍ من ذلك الزّمان. سارَ ذلك المجنون في طُرقاتِ أورشليم الخَرِبة المُدمّرة، وهو يصيح: يا يهود، إنّما أُخِذتم بجريرته، وإنّما خَرِبَ هَيكلُكُم بسببه، وإنّما نُقِضَت أحجارُه حجرًا حجرًا على يد الطّاغية لأنّكم قتلتم يعقوب البارّ، ويلٌ لكم وويلٌ لي مِمّا فعلْنا. ولم يكنْ أحدٌ يشكّ حينئذٍ أنّ هذه الكلمات تصدر عن مجنون!!

١١٣
حريق رومـــــا

«إنّ هذا الصّوت الّذي هو هبة الآلهة ليتطلّب هواءً نقيًا، إنّ هواء روما هو ما سبّب لصوتك هذه البحّة يا سيّدي، وإنّه لمن المناسب أنْ تخرج إلى مرفأ من المرافِئ الهادِئة ذات الهواء العليل حتّى يُصبح صوتُك نقيًا، وهناك رُبّما تُعِدّ قصيدةً تليقُ بالمشهد العظيم». قال قائد الجيش الجديد. «ألا يكفي أنْ يتمّ الأمر على الفوروم يا لينوس؟! إنّ فكرة أنْ يشمل ذلك روما كلّها فِكرةٌ تُؤرّقني في الواقع». «الفوروم صغيرٌ يا سيّدي، وقصيدةٌ عظيمة تحتاج إلى مشهدٍ عظيم». «ولكنْ ماذا عن مخازن الحبوب؟!». «لا تخفْ يا سيّدي، لقد تدبّرتُ الأمر، سنحفر حولها خندقًا عظيمًا، يمنع النّيران أنْ تقترب منها، فتسلم». «وقصوري؟!». لن تكون مشمولةً. هناك ثلاثة أحياء يسكنها النّبلاء وأعضاء مجلس الشّيوخ والتّجّار الكبار لن يمسّها شيء». «لقد فكّرتَ بالأمر جيّدًا على ما يبدو». «لكنْ ذلك يحتاج إلى أنْ تُعلِنَ في الشّعب أنّك ذاهبٌ لكي تستلهم وحيَ الآلهةِ بعمل فنّي جدير خارجَ روما، وتدعو الشّعبَ إلى المُحافظة على مجدها، وأنّك عائدٌ بعد ثلاثةِ أيّام، في الحقيقةِ ستكونُ قريبًا، لأنّ الأمر حتّى يكون مُشاهَدًا يجب أنْ ترابط على الأقلّ في اليوم الثالث على مقربةٍ من روما، أقربِ مرفأ لها، وسيكونُ الوقتُ ليلاً حتّى تكون النّيران مرئيّة وعظيمةً ومُشاهَدةً من مكانٍ بعيدٍ». «إنّني حزينٌ يا لينوس على ما سيحدث». «لكنّ الفنّ يحتاجُ إلى تضحية». «هل ستسامحني الآلهة على ذلك؟!». «بل هي الّتي تدعوك إلى أنْ تفعل ذلك، وهل عملٌ

فنّي خالِدٌ كالّذي كتبه هوميروس جاء بأمرٍ يسير، إنّه لم يكتبْ عن الجحيم مثلاً إلاّ إذا كان قد عاشَه. ثُمّ إنّ ثمنًا هو فناءُ بعض المنازل والأحياء من أجل عملٍ خالدٍ لَهُوَ ثمنٌ زهيد، إنّ نشيد أفروديت الذي ستكتبه يستحقّ أنْ تموت نصفُ الأرضِ لأجله». «إنّكَ تفهمني على نحو غريبٍ يا لينوس. لكنْ ما هي ردّة فِعل أعضاء المجلس الشيوخ؟». «منذ متى يا سيّدي ثقيم وزنًا لهذا المجلس؟! إنّهم حفنة من الانتِهازيّين والوصوليّين والمُنافقين، لقد سمعتُ أنّهم يقولون في حقّكَ كلامًا لم يُعجبْني». يقترب منه نيرون: «حقًّا؟ ماذا يقولون؟!». «إنّهم يقولون إنّكَ ثورٌ هائج بلغ بك المجون أنْ تركبَ كلّ بقرات روما». «إنّهم يمتدحونني بذلك أيّها الأبله لا يذمّونني». قال ذلك وهو يقهقه مُرجِعًا رأسه إلى الوراء. تابع لينوس: «لكنّهم يقولون إنّكَ لا تفقه في الحُكمِ شيئًا، وشاعر باردٌ، وفنّان فاشل، ولا أحدَ يُدير شؤون الدّولة أضعف منك». ظهرتْ على وجه نيرون علائم الجدّيّة، وبدا غاضِبًا: «ومَنْ يقول منهم هذا؟». «ربّما لا يُمكن أنْ تستثني أحدًا». «وهل ترى من الحِكمة أنْ أفتِكَ باثنَين أو ثلاثةٍ منهم لأؤدّب البقيّة؟». «أظنّ أنّ الوقتَ غير مناسبٍ الآن، لدينا مهمّة أعظم». «والآن؟!». «سفُنُك جاهزة».

كان يريد حدثًا مجنونًا يفوق الخيال، لأنّ بوّابة الفنّ الخالد لا يُمكن أنْ تُفتحَ إلاّ بعملٍ عظيمٍ ليس في حُسبان أحدٍ، وهو يريدُ أنْ يلجها وتُغلَق عليه من بعده فلا يكون له إلاّ وحده هذا الخلود. لقد كان يظنّ أنّ قتله لأمّه سوف يفتح هذه البوابة، فإذا هو يفتح عليه كوابيسَ لا تنتهي، ولمّا أراد أنْ يُقدّمَ قُربانًا آخرَ قَدّمَ قائدَه، فظلّتِ البوّابةُ عصيّةً على الانفِتاح، وأخيرًا قرّر أنْ يُضحّي بأحبّ القرابين

إلى قلبه؛ بوبيا، وانتظر بعدها أنْ يجد نفسه يمشي في درب الخلود واثِقًا، لكنّ البوّابة عانَدَته، ولم يجد بُدًّا من الحريق، فالحريق أعظم القرابين؛ لأنّه يُقدّمها دُفعةً واحدةً!

صرخَ أحدُهم صرخةً شقّت الفضاء: روما تحترق. وسرتِ الصّرخة سريعةً مثل الحريق تمامًا، ودبّ الفزعُ والرُّعبُ في سُكّان المدينة. احترقت الأكواخ الّتي تحيطُ بالفوروم، وامتدّت ألسنة اللّهب إلى أقفاص الحيوانات فهاجتْ وزمجرتْ وانفلتتْ بعضها من الأقفاصِ لينجو، وصار مِثلُه مِثلَ الإنسان يبحثُ عن حياةٍ هاربة. واشتعلتِ أشجار السّرو في الطّرقات المرصوفة فضاءَ ليلُ المدينة، كانتْ أشجار السّرو العالية تماثيل من اللّهب المُتفجِّر، ثُمّ وقعَ بعضُها على البيوت القريبة فالتهمتْها النّيران فخرجوا إلى الشّوارع فارّين بأرواحهم، فالتحموا مع الوحوش، وظلّ الهربُ من أجل النّجاة الفكرةَ المُسطيرة عليهما، حتّى إذا لاحتْ فُسحةٌ للنّجاة عادَ كُلٌّ إلى غريزته، فوثبت الوحوش على ما تعلّمتْ فأنشبتْ أظفارها في الأعناق، وأحضرتْ إلى الإنسان الآثِم موتًا جديدًا.

كان الوقت صيفًا، وكان ذلك أفضل وقتٍ تحتاجه النّيران لكي تصل ألسنتها من شدّة الاشتعال إلى عنان السّماء، وبدأتْ سُحُب الدّخان تتشكّل فوق المدينة، وصارتِ الأجواءُ خانقة، ووقع بعضُهم نتيجة الاختناق، وحارتْ بعضُ الوحوش في التهام صيدٍ سهلٍ كهذا أو الاستِماع إلى غريزة البقاء من خلال الهرب بالتّقدّم إلى الأمام على أمل وجود فرصةٍ للنّجاة.

وحطّم السّجانون قيودهم، اقتلعوا أبواب السّجون، وذبحوا

السّجانين، وانداحوا في الشّوارع، كان عشرات الآلاف منهم يموجون كالسّيل الهادر في الطّرقات وهم يهتفون بغضب. ظنّوا أنّه يوم الخلاص بالنّسبة لهم، وأنّ السّماء ساعدتهم على أنْ يتحرّروا، وأنّ اللحظةَ مناسِبة للتّعويض عن الظّلم والفقر والأذى الّذي نالوه، وابتدأ السّلبُ والنّهب، نهبوا كلّ شيءٍ في طريقهم، وظنّوا أنّ ثورةَ العبيد الّتي تزعّمها (سبارتكوس) في الزّمن الماضي قد عادتْ من جديد، فراحوا يهتفون باسمه في الشّوارع، ولم يستطع أحدٌ من الجيش أن يسيطر على الوضع، واكتفى بعضهم بحماية نفسه من الانتِقام، ولكنّ كثيرًا منهم سُحِلوا في الشّوارع. وصار البقاءُ على قيد الحياة أمرًا عزيزَ المنال، لكنّ المساجين كانوا أكثرَ قدرةً على التّوحّد فيما بينهم والقيام بأعمال نهبٍ مدروسةٍ من أجل الأيّام القادِمة، فقد كانوا مُتأكّدِين من أنّ الأمر لن ينتهي سريعًا ولا بتلك السّهولة. عَدَوا على المتاجر، وعلى المخازن، فسلبوا ما استطاعوا واتّجهوا جنوبًا فارّين من النّيران. الّذين نجحوا كانوا قلّة، الكثيرين كانوا لقمةً سائغةً للنّار هم وما نَهَبُوه!!

لم يبقَ أحدٌ في البيوت، لأنّ النّار في الجهة الشّماليّة لم تُبقِ على دارٍ إلاّ ودخلتْها، وكانت النّساء يُشاهَدن وهنّ يحملْنَ أطفالهنّ مُولولاتٍ يتوزّعنَ على الطّرقات لا يدرين كيفَ ينجون، وصراخ الأطفال يصمّ الآذان. أمّا المسيحيّون المؤمِنون فقالوا: «إنّه يوم القيامة». «إنّ المسيح تنبّأ بهذا». «لقد حذّرهم لكنّهم لم يسمعوا». «ارحمْنا أيّها الرّبّ». «ارحمْنا أيّها الجالس عن يمين الرّبّ». «هل ستنزل من أجل المساكين الّذين لا حولَ لهم؟!». وظلّوا يهذون بدعواتٍ جارحة، وصلواتٍ ذابحة، ودموعٍ مُنهمِرة، وصوابٍ مفقود.

أمّا نيرون فكانت شفنُه قد تحرّكت قبل الحريق باتّجاه الجهة الشّمالية لروما، فلمّا رست قرب مرفأ إلى تلك الجهة، نزل عنها، وحُمِلَ إلى الجبال المُطلّة على روما من أعلى. بدأ المشهدُ في الوسط بنقطةِ ضوءٍ لامعة، كانت شرارة البداية، ثُمّ كبرت الشّرارة لتكون نارًا ليس لها مثيل، في ساعاتٍ كان يُشاهد المنظر الخالد الّذي حَلُمَ به طَوال حياته، ليصوغ أجملَ تجربةٍ بقصيدةٍ تحمل أصدقَ عاطفة، عَلِمَ حينَها أنّ بوّابة الفنّ الّتي كانت عصيّة جدًّا عليه في أعماله السّابقة كُلّها قد انفتحتِ الآن، وأنّها تهبه لحظةَ الإلهام الخالِدة، وتراءى له هوميروس وهو يصف حريق طروادة، فتصاغرتْ تجربةُ هذا الأخير أمام عينَيه، وتأكّد أنّ الآلهة تمنحه الآن ما هو أعظم مِمّا منحت هوميروس، وتساءل فيما إذا كانت قصيدتُه الّتي سيشرع بكتابتها، والجملة الموسيقيّة الّتي سيشرع بتأليفها سيُكتبُ لهما الخلود كما كُتِب لهوميروس أم لا؟ وجاءته الإجابة من الآلهة نفسها: بالطّبع، فسوفَ يبقَى ذلك في التّاريخ إلى الأبد!

راحتْ يده ترتجفُ على القيثارة، كان خلفه مَنْ يُسجّل اللّحن، وآخر يُسجّل القصيدة، وأغمضَ عينَيه، وناجى ربّة الإلهام، وبَكَى، بكى من أجل مدينته الّتي تحترق، لقد كان عليّ أنْ أُضحّي، إنّه ثمنٌ صعبٌ لكنْ لم يكنْ منه بُدّ: آه يا رووما الحبيبة... آهِ يا روما الّتي تحترق، لو أنّ ضلوعي هي الّتي احترقتْ بدلاً منك أيّتها العزيزة الأثيرة... لتشهدِ الآلهة أنّني أحببتُكِ أكثرَ من أمّي وزوجتي، لتشهدِ الآلهة أنّ هذه أصعبُ اللّحظاتِ الّتي عشتها في حياتي، وهي أصعبُ من لحظةِ موتي لو أنّهم حكموا عليّ بالإعدام... أيّتها الآلهة رِفقًا بقلبي الرّقيق، رفقًا بهذا المُحبّ الّذي لا يستطيع أنْ يحتمل كلّ هذه الآلام. رِفقًا

بهذه الرّوح الّتي لا تطلبُ أكثرَ من الرّاحة، وبهذه النّفس الّتي لا تريدُ أكثر من السّعادة للآخرين!!

من بعيدٍ في عينَي نيرون، كان المنظر يبعثُ على الرّوع والجلال؛ كانت سُحُبُ الدّخان تملأ السّماء، والسّهول تحوّلت إلى بحرٍ من اللّهب، والبيوت والقصور والمزارع والسّاحات والطّرقات تنداح فيها كلّها أمواجٌ من النّيران الّتي لا تتوقّف. تناهى إلى سمعه أصواتُ النّاس، كانت أصواتهم مُتداخِلة، فيها صوتُ الفقير البائس مُختلِطًا مع الغنيّ المُترَف، فيها صلواتُ التّقيّ العابد مُختلطةً مع هياج اللّصّ الفاجر، فيها صوتُ الضّراعة مُختلِطًا مع صوتِ الغضب، فيها صوتُ الحيرة مختلطًا بصوتِ اليقين، لكنّها شكّلت بمجموعها صرخةَ الإنسان في مواجهة الموت على يد قيصرٍ مُتوحّش مجنون يظنّ أنّ هذا الّذي يفعله شكلٌ من أشكال الرّحمة!!

كانتِ الرّياح الّتي تهبّ من الشّمال ما زالت في صفّ النّيران، ترمي بألسنتها في الفضاء فتطال ما لم تكنْ تطاله لولاها، وتسحبُ رِداءَها على كلّ شيء، وتزحف باتّجاه الجنوب، كان نصفُ روما في اليوم الأوّل قد أتى عليه هذا الويل والثّبور، في جهة الشّرق كانت النّيران أقلّ، كانت الجهةَ الّتي يقطن فيها الأغنياء، نِصفُ الجيش كان موجودًا فيها مُستعدًّا بالجنود الّذين كانوا يُرابِطون على ستائر رمليّة تمنع ألسنة النّيران أنْ تمتدّ نحو البيوت والقُصور المُنتشرة في تلك الجهة، «حتّى في هذا حابتِ السّماء معهم» دار في خَلَدِ بعض المساكين الّذين يموتون هذا الخاطر، إنّ النّار أكلتِ الضّعفاء والّذين لا قوّة تحميهم، وأبقت على الأغنياء والأشراف!!

وبدأتِ الأبنية تنهار تحت ألسنة النّيران الّتي لا ترحم، حتّى الحجارة الثّقيلة تهاوث تحت وطأةِ حزّها وضرباتها، الّذين نجوا من الحريق لم ينجوا من الرّدم، دُفِنَ المئاث تحتَ أنقاض البيوت المُتهاوِية، والدُّور المُتردّمة. لكنْ هل يُمكن أن تموت روما كلّها! هل يُمكن أنْ تكون هذه النّيران هي جهنّم الحقيقيّة وبالتّالي لا ينجو منها أحدٌ، وأنّها ستأتي على هؤلاء الأغنياء بعدَ حينٍ، لأنّ دورهم لم يأتِ بعد؟! هل يُمكن لنيرانٍ في الدّنيا أنْ تقضي على مجدٍ بأكمله، ومدينةٍ بعظمة روما وسعةِ مساحتها!! أيّ نارٍ ستكون آنئذٍ؟!

مرّت اللّيلة الأولى الفاجعة ببطءٍ شديد، كان الجحيم قد أهلكَ الآلاف. في اليوم الثّاني اكتشف النّاس أنّ الجحيم ليسَ في الحريق وحده، بل في الّذي يأتي بعدَ الحريق، في الويلات الّتي تبرز من بعده، حتّى إنّهم حسدوا الّذين حصدتْهم النّيران وارتاحوا من العناء الّذي كان يُمكن أنْ يواجهوه لو عاشوا. لقد انتشر النّاس في الشّوارع، وبدؤوا يبحثون عن مأوى، كان الخراب قد عَمّ كلّ شيء، راح بعضُهم يَفترِشُ الأرض، ويبحثُ عن مكانٍ في العراء بعيدٍ عن غضب النّيران ليكون في مأمن.

استمرّ الحريق خمسَ ليالٍ، بدأ النّاس يلجؤون إلى المتاجر الكبيرة، وإلى الأسواق باحثين عن مأوى، بل وإلى المعابد، وآمنَ النّاش بدين المعابد الّتي قَبِلتْ إيواءَهم ليُبعِدوا عنهم شبح الجوع والموت.

في اليوم الخامس، قال نيرون لّلينوس: «إنّ هؤلاء المساكين يبيتون في العراء، وإنّ مجد روما لا يقبلُ بمثل هذا الأذى الّذي يلحق بهم، إنّني في حالةٍ من الحزنِ الشّديدِ لأجلهم». «وماذا ترى أنْ نعمل

يا صاحب القلب الرّحيم؟!». «افتحوا قصوري كلّها لأجلِ إيوائِهم، وأطعِموهم، واسمحوا لهم أنْ يبيتوا فيها». «إنّكَ لجديرٌ بكلّ هذا الرّحمة يا سيّدي». «الآن وقد انتهى الحريق، وقد خسرتْ روما خيرَ أبنائها، فيجب أنْ نضع خُطّة من أجل إعادة بناء المدينة، وإصلاح آثار الحريق، وبناء الدّور من جديد، أعلِنوا في أرجاء روما أنّ القيصر يدفع من ماله الخاصّ من أجل إعادة الإعمار، مَنْ فَقَدَ بيتَه فَابْنُوه له من جديد، ومن فَقَدَ مَتجرَه فعَوِّضُوه عن البناء وعن قيمة ما كان فيه، ولا تتركوا مظلومًا دون أنْ تُعيدوا له ما سلبتْه منه النّيران».

بعدَ شهر، أمر أنْ تُؤخَذ الحجارة الّتي تراكمتْ بفعل الحريق من البيوت، وأنْ يُبنَى بها أكبر قصرٍ له في روما، إنّه يريد أنْ يُعبّر عن مدى تضامنه مع شعبه، إذ إنّه رضي على نفسه أنْ يعيشَ هو كعظيمٍ في قصرٍ بُنِيَ من حجارة البيوت المملوكة لأناسٍ بُسطاء.

شُحِنَت الأغذية من البلاد البعيدة إلى روما، وأُعِيد فرض الضّرائب على الممالك الرّومانيّة الأخرى من أجل توفير المال لإطعام عشرات الآلاف المُتضرّرين من الحريق، ونسي النّاس ما حدث سريعًا، ويدؤوا يُسبّحون بحمد القيصر الّذي ظلّتْ عينُه ساهرةً حتّى أعادَ لهم الأمان، والأموال، وجعل روما أكثرَ جمالاً من ذي قبل. وحده بُطرس صار يَعِظُ النّاس: «أنّ أفعال الشّيطان يتولّاها أناسٌ يلبسون ثياب البشر».

١١٤

عَلَى الّذين أُحرَقوا أنْ يُحرَقوا

كان الشعب قد بدأ يتململ، إنّ وعود نيرون لهم كانت مثل العسل، لكنّهم لم يذوقوا منه إلاّ ملعقةً واحدة، وهي لا تكفي أنْ تُمكّنهم من العيش طَوال العمر. بدأ الجوع يضربُ خواصرهم، وبدأت الضّرائب تُثقِل كواهلهم، وحجارة بيوتهم استُخدمت لبناء قصور نيرون، والبيوت الّتي أُعطِيَت لهم لا تقي من برد الشّتاء، وأسعار السّلع مُرتفِعة، وجنود الجيش مُتجبّرون، وشهر العسل قد انتهى ما بينهم وما بينَ نيرون، الّذي بدأت الشّائعات تحومُ حول قصّته في إحراق روما من أجل أنْ يكتبَ نشيدًا حقيقيًا، وظلّت ذكريات ثورة العبيد تحوم في رؤوسهم وتُصيبهم بالخُمار. أضِفْ إلى أنّ مجلس الشيوخ كان قد قرّر دون أنْ يُعلِن أنّ حلّ ما تمرّ به روما من أزمة هو التّخلّص من نيرون بأيّة طريقة لكنْ دون ضحايا قدر الإمكان.

دخل لينوس على نيرون: «إنّ روما تنامُ على ثورةٍ عارمةٍ لا تُغطّيها إلاّ قشرةٌ رقيقة». «أعرفُ أنّ الخيانات لا يمكن أنْ تتوقّف حتّى أنتَ يا لينوس، ربّما تُصاب بلوثتهم». «إنّني أذهبُ معكَ إلى الموت يا سيّدي». «لا أحدَ يذهبُ مع أحدٍ إلى الموت أيّها المُنافق، دَعْكَ من البطولات الكلاميّة، أنا أعرفُ أنّ شعبَ روما كان يُحبّني، ولكنّ الحبّ حتّى عند الآلهة لا يدوم طويلاً، قد يكون من اللّازم أنْ أستعدّ إلى شَغْبٍ مُحتَمل». «ليسَ شَغَبًا سيّدي، في الحقيقة يُمكن أنْ تُسمّيها ثورةً هذا بالنّظر إليها من زاوية الشّعب، ويُمكن أنْ تُسمّيها انقِلابًا هذا بالنّظر إليها من زاوية الجيش». «ولكنّكَ أنتَ قائد الجيش». «الجيش

يتكوّن من عشرين فصيلاً، أنا لا أسيطر على أكثرَ من نصفها، ولن تعدمَ أن تجد الجواسيس والخونة في كلّ جيش، هذا أمرٌ طبيعيّ». «إذًا ماذا تقترح؟». «إنّ الثورة مُرتبِطة بالحريق ونتائجه». «وماذا يعني هذا؟». «أنْ تُحاسِبَ المُتسبّب في هذا الحريق أمام الشّعب وبالتّالي تمتصّ غضبَه، وتَعِدَه بتسويةٍ ماديّةٍ من نوعٍ ما». «ولكنّنا نعرفُ مَنْ تسبّب بالحريق يا لينوس». «نحن نعرف، ولكنّهم لا يعرفون». «وهذا يعني؟». «أنْ تجد كبشَ فداء». «وماذا تقترح؟». «أنْ تُشكّل لجنةً لتُحقّق في حريق روما، وتتوصّل إلى الفاعلين وتُعاقبهم على مرأى ومسمع من الشعب بأكمله».

كانتِ اللجنة مُكوّنةً من عضوَين من أعضاء مجلس الشّيوخ الّذين اشترى نيرون ذِمَمَهم، وقائد الجيش، وقائد الحرس، وثلاثة قُضاة. كان لينوس يرأسها. لم يدم الأمر طويلاً. رفع توصياته إلى مجلس الشيوخ، ووضع أمر التّصرّف بين يدي نيرون.

«إنّهم هم الفاعِلون» قال له لينوس. «مَنْ تقصد؟». «المسيحيّون. إنّ زعيمهم بطرس يقول إنّ هذا الطّاغية انتزِعَت منه الرّحمة حتّى بالأطفال الرُّضّع. إنّه مُشفِقٌ عليك». «عَلَيّ؟!». «أنْ ينتظرك مصيرٌ تنتقم فيه عدالةُ السّماء منك». «أنا عدالة السّماء. ألا يكفي ما فعلْته من أجل المساكين الّذين آويتهم في قصوري، ورمّمتُ لهم بيوتهم المُحترِقة، ماذا يريدُ هذا الأخرق؟!». «إنّه ليسَ وحده». «وبولس معه؟!». «بل المسيحيّون كُلُّهم الّذين ازداد عددهم بعدَ الحريق، لقد اعتبروا ما حدثَ إنذارًا كبيرًا من الله، وأنّه أعطاهم فرصةً جديدةً لكي يعودوا إليه». «يبدو لي غريبًا لي ذلك». «ما الغريب؟!». «إنّ الّذين نجَوا من الحريق الأوّل لن ينجوا من الحريق الثّاني». «ماذا

تقصد؟». «ألمْ تقلْ إنّهم المُتسبّبون بالحريق قبل قليل، وأنّ هذا ما توصّلتْ له اللّجنة». «بلى». «إذًا هُمْ كبشُ الفِداء، بل هم أحسنُ مَن يُمكن أنْ نستخدمهم كذلك؛ اقتلْ كلّ المسيحيّين الّذين تطالهم اليد في روما». «وبطرس وبولس؟!». «اقتلْهما كذلك». «الأمر بالقتل سهل يا سيّدي، ولكنّ تسويغه في عيون النّاس صعبٌ». «ألم تتولّ هذا أيضًا؟». «فكّرتُ في الأمر، لكنْ لا أدري إنْ كان ذلك مُوجِبًا للقضاء عليهم». «بِمَ فكّرت؟». «لقد توافرتْ لديّ هذه التّهم». نيرون صارِخًا: «قُلْ، ولا تختبز صبري. قُلْ». « إنّهم يُسمّمُون الآبار، ويقتلون الأطفال، ويريدون تدمير ما تبقّى من المدينة بعدَ حرقها». «هل فعلوا ذلك حقًّا؟». «هذا ما يشيعُ يا مولاي». «لكنْ أليسَ من العدالة التّحقّق من هذه التُّهَم؟!». «العدالة بين يديك، تستطيع أنْ تعزفَها كما تشاء». «هل هناك غير هذا؟». «نعم». «قُلْ». أطرق لينوس قليلاً قبلَ أنْ يرفع رأسه، ضاغِطًا على الكلمات: «إنّهم... إنّهم لا يعترفون بكَ إلهًا مُهيمِنًا على العالَم». حكّ نيرون ذقنه، ونظر بزاوية عينَيه، لافِظًا الكلمات ببطء: «اممم، هذه هرطقة، لكنْ ليسَ في القانون الرّوماني ما يَدِين الهرطقة يا لينوس». «لتكنْ خيانة، خيانة روما العظيمة». «نعم، خيانة، والإعدام أقلّ عقوبةٍ لها. لكنْ مَنْ يشهد عليهم بذلك؟». «اليهود». «إنّه لأمرٌ عظيم، بهذا تكون التّهمة واضحة، والشّهود جاهِزين، والعقوبة حاضرة». «صحيحٌ تمامًا يا سيّدي». «أعِدّ لي إذًا مشهدًا لائقًا تكون عقوبتُهم فيه تساوي جريمتَهم».

بعدَ يومَين كانت مجموعةٌ من اليهود تنتظر في أحد ساحات القصر، قال لينوس لنيرون وهو جالسٌ في الحديقة يعزفُ على القيثارة: «سيّدي». لكنّه لم يلتفتْ إليه، وحينَ خاطبه مرّة ثانية، أشار

بيده في الهواء دلالةَ الانزعِاج وليدعوه إلى السّكوت ريثما يُنهي لَحْنَه. ظلّ لينوس واقِفًا كالصّنم ينتظر نيرون حتّى يُنهِيَ معزوفته الّتي يعكفُ على تأليفها، فلمّا أنهى، نظر إليه بعينَين مُنزعِجتَين، قائلاً: «ماذا تريدُ يا لينوس؟!». «إنّ مجموعة من مشايخ الدّين اليهوديّ ينتظرون في إحدى السّاحات، هل أطلبُ منهم أنْ يمثلوا بينَ يديك؟». «ولماذا؟». «ليشهدوا أمامك بعلاقة المسيحيّين في حَرق روما».

مشَوا وراء لينوس مُطرِقين في الأرض كأنّما كان مُحرّمًا عليهم أنْ يُمتّعوا أنظارهم بزخارف القصر. ظلّوا واقفين في حضرة القيصر. قال لينوس لكبيرهم: «تكلّم». عدّلَ (لاوي) من جُبّته السوداء، كانت لحيته البيضاء طويلةً تُغطّي حتّى صرّته، وكانت قُبّعته السّوداء كذلك تستقرّ على قُمع رأسه: «إنّهم مُجدّفون يا سيّدي». «هل أنتم مثلهم لا تعترفون بي إلهًا»؟ «مَنْ قال ذلك أيّها العظيم، لقد كان ذلك زمن كاليجولا، أمّا في زمنكم هذا زمن العدل والعيش الرّغيد فمنْ لا يعترفُ بشيءٍ مثل هذا؟!». «قلْ لي هل تعرفون المسيحيّين؟!». «حقّ المعرفة يا سيّدي، لقد عِشنا معهم منذ أنْ كان كذّابهم بينهم». «تقصد يسوع النّاصريّ؟». «ومَنْ غيره؟! لقد سرقوا أتباعنا، وحَرَفُوهم عن الصّواب، واستمالوا عقولهم ببعض التّرّهات، واستطاعوا أنْ يجعلوهم كَفَرَة». «هل تعتقدون أنّهم السّبب في حريق روما؟!». «بلا شكّ أيّها القيصر العظيم». «ولماذا فعلوا ذلك؟». «لأنّهم يعتقدون - وهذا مكتوبٌ في كُتُبِهم - أنّ مَسِيحهم سيأتي من خلال حريقٍ ويَدِين العالَم». «اممم، وهل تتّهمون سواهم في هذا الحريق؟!». «نحن لا نتّهم أيّ أحدٍ جُزافًا، لا نتكلّم إلاّ بما نَعلم، ولا

نشهدُ إلاّ بِما نرى». «أكرِمْ ضيوفَنا يا لينوس، أعِدّ لهم طعامًا فاخِرًا، واجعلْهم بعدَ الغداء يُدلون بشهادتهم أمام القاضي في المحكمة العُليا».

كان لينوس، قد أعدّ كلّ شيء، جُمِعَ آلافُ المسيحيّين، ووُزِّعوا على شجونٍ مُختلِفة، ثُمّ فُرِزوا حسب مراتبهم الدّينيّة إلى مجموعات. وبدأ نيرون ومجانين روما يَتَسلّوْن بهم، أعلنَ القصر أنْ احتفالات السّيرك لهذا العام ستستمرّ شهرًا كامِلاً، كانوا يقذفون بالمسيحيّين في مُدرّج المُنتدَى مع الوحوش يُصارعون الموت، ويواجهون مصيرًا محتومًا. بعد أنْ تنتهي المجزرة، كان العبيد يأخذون الجُثث، ويذهبون بها إلى المقبرة الّتي في أطراف روما، ويَدفنونها في حُفرٍ جماعيّة. لكنّ الشّعبَ والقيصر نفسه ملّوا من تكرار المشهد ذاته، ولا بُدّ لخيال المُجرِم العبقريّ أنْ يتفتّق عن طريقةٍ جديدةٍ في قتل الّذين أحرقوا روما؛ كانت الطّريقة الجديدة تقتضي أنْ يكون الجزاء من جنس العمل، فعلى الّذين أحرَقوا أنْ يُحرَقوا.

«هَيّا.. هيّا...». صاحَ الحرس وهم يدفعون بالمساجين المغلولة أيديهم خلفَ ظهرهم. «هَيّا... هَيّا...». وقفوا في طابور، كلّ سجينٍ خلفَ آخَر، كانَ يتقدّمهم الجنودُ ويُحِيطون بهم، أُصعِدوا إلى عَرَباتٍ خاصّة، وقادتْهم العَرَبات في الطّريق من سجن المُنتَدى، أسفل السّاحة المُغطّاة باتّجاه أكبر حديقةٍ لأكبر قصرٍ من قُصور القيصر، إنّه القصر الّذي بناه من حجارة بيوت الشّعب الّتي نقضَها الحريق.

كانتِ الدّعوة منذ صباح اليوم للشّعب العظيم أنْ يأتي ليشهدَ نهايةَ مجموعةٍ من المُرتزَقة والمجرمين في ساحة قصر الإمبراطور

نفسه. كانت الجموع قد بدأت تحجزُ لها أمكنةً قُبيلَ غروب الشّمس، في مُدرّج من الخشب ظلّ النّجارون يعملون عليه شهرَين كامِلَين حتّى أتقّوا بناءَه. أخذَ النّاس يتقاطرون وهم يلبسون ثيابًا مُلوّنة، ويحملون في أياديهم أعلامًا وراياتٍ مُزركَشة، ويصطحبون الكلابَ والقرود والبطّ، إنّه يومُ عيدٍ وبهجةٍ، وعليهم أنْ يكونوا بكامل زينتهم. كانوا يدخلون في أفواجٍ تتمايل على أنغامِ أغانٍ تصدح بها حناجرُهم، وبعضُهم كان قد احتسى كثيرًا من الخمر حتّى أصابَتْه نشوتُها فراح يتمايل بطريقةٍ مُبتذَلة، ويعبثُ بأجسادِ النّساء اللّواتي لم يُوَفِّرنَ ما عندهنّ من ملابس مكشوفة حتّى يستمتعْنَ بمشهدٍ لنْ يتكرّر. كان نيرون قد أعلن من قبلُ: «إنّهم سيُشاهِدون عرضًا سوف يظلّون يشكرونه عليه لقرون». ويُردِف: «إنّ شعبي يستحقّ».

مع المَغيب، حضرت عرباتٌ كبيرة تُقلّ عددًا كبيرًا من الصُّلبان، حينَ شاهَدها الجمهور أوّل مرّة حبسَ أنفاسَه، إنّه بالفعل كما وعدَ القيصر لا بُدّ أنّ المسرحيّة الّتي ستقع أبصارُهم عليها بعد قليلٍ لن يستطيعوا الظّفر بها ولو عاشوا خمسة قرون. بدأ الجُند ينصبون الصُّلبان، ابتدؤوا بالدّائرة الأوسع، فنَصَبُوا سبعين صليبًا، ثُمّ بالدّائرة الوُسطى فنصبوا خمسين صليبًا، ثُمّ بالدّائرة الأضيق فنصبوا ثلاثين صليبًا، ووضعوا صليبًا واحِدًا في مركز الدّوائر الثّلاث.

كانت الشّمس قد غربتْ تمامًا، والأضواء قد أتمّت اشتعالها على الأطراف، كانت عاليةً بحيث أضاءت المشهدَ بأكمله، بدتْ ساحةُ الصُّلبان على ضوء القناديل العالية غابةً من الأشجار العارية، كان منظرًا يُسقِط الرّعب في القلوب، لكنّ الشّعب الّذي حضر المسرحيّة راح يُداري خوفَه بالصّيحات العالية، أو بالأغاني يرفع بها صوته

حتّى يُغطّي على الرّعب الّذي يَثقُبُ قَلبَه.

لم ينتظر الجمهور وقتًا طويلاً حتّى قَدِمت عربات جديدة، كانت تُقلّ المُخزِّيين، إنّهم صفوةُ المسيحيّين، وما تبقّى منهم، أُدخِلوا فُرادَى، ومَشَوا في قافِلَة مُتقاطِرة، كانَ كلّ واحدٍ قد قُيّدت يداه خلفه، ثُمّ قُيّدت بوسط السّجين الّذي يتبعه، وهكذا... حتّى إذا اكتمل عددُ السّبعين عند الدّائرة الأوسع، وُزّع الخمسون على الدّائرة، وكذلك الثّلاثون على الدّائرة الأخيرة. ثُمّ رفع المئة وخمسون مسيحيًّا على الصُّلبان. وراحوا ينظرون في وجوه الجمهور الهائج ويبتسمون، كانوا من الرّضا والصّفاء في حالةٍ لا يُمكن أنْ تُفسّر حسب طبائع البشر أو غرائزهم، لم يَشْكُ أحدٌ منهم أو يتوسّل، أو يستغيث، أو يَشتم، أو يقولَ شيئًا، ظلّوا صامِتين وباسِمين كأنّهم يتلقّون جائزةً من القيصر، أو نيشانًا لِيُعلّقه فوق رؤوسهم. كانوا على ضوء المشاعلِ مشاعلَ تزيدُ المكانَ نورًا، ولم يُشاهَدْ شيءٌ يتحرّك فيهم سِوى شفاههم الّتي ربّما راحت تصلّي لأجل النّاس الّتي تتحفّز لموتهم، وتستمتع بتعذيبهم، ثُمّ تُصلّي كذلك لأولئك الّذين أَمَرُوا بقتلهم واستباحوا أرواحهم بهذه الطّريقة الشّنيعة.

ثُمّ حضر القيصر، هو وحاشيته، فهاجَ الجمهور، وعلت صيحات التّرحاب به من كلّ جهة. إنّه شعبٌ مثلُ قيصره يحبّ الدّم، ويبتهج للونه حينَ يُغطّي كلّ شيء. اتّخذ القيصر وحاشيته مكانه، فيما بدأ عددٌ كبيرٌ من الحُرّاس يُواصِلون عملهم، راحوا يُصعِدُونهم على سلالمَ خاصّةٍ وفي أيديهم دِلاءٌ مَملوءَةٌ بالقار الأسود فيسكبونها على جسدِ كلّ مسيحيّ مَصلوب، غطّى القارُ الأجسادَ جميعَها فبدَوا عبيدًا سُودًا، وراحَ القار يلوّن كلّ شبرٍ في أجسادهم شبه العارية،

ويسيل فوقَها لِيتقاطرَ من أسفل القدَمين، بعدَ أنْ أنهَى الحرسُ ذلك، جاء وقتُ العرضِ الحقيقيّ. دارَ أكثرَ من عشرينَ حارِسًا وفي أيديهم المشاعل، وراحوا يضعونها تحت أقدام المصلوبين فتشبّ النّار في الجسد، ويبدأ الحريق. كان منظرًا يُجمّدُ الدّمَ في العروق، لقد تحوّل مئةٌ وخمسونَ مصلوبًا إلى كُتَلٍ بشريّةٍ تحترق. كان الجمهور الّذي خطف المشهدُ أنفاسَه لا يزال صامِتًا من تأثر الصّدمة، لكنّه بعد أنْ ابتلعَ بعضُهم أنفاسه، وتغلّب على صدمته، راح يصرخ بشكلٍ هستيريّ، ويُصفّق بيدَيه، ويُحيّي القيصر، ويَلعنُ المَصلُوبِين، ويتشفّى بمصير هؤلاء الخائِنين.

استمرّت النّار تلتهم الأجساد الغَضّة. لم تندّ صيحةٌ واحدة. أمعقولٌ أنّهم صابِرون إلى هذا الحدّ؟ تساءَل بعضهم. فيما راح آخرون يقولون: «لا بُدّ أنّهم ماتوا قبلَ أنْ يُحرَقوا، لا بُدّ أنّهم ماتوا خوفًا من هذا المصير الّذي لا تستطيع أنْ تُفكّر به حتّى الشّياطين». لكنّ هذا الخاطر كان يزول أمام عيونهم الّتي كانت تدور في مَحاجِرها، وأمامَ شَدّ بَعضِهم على أسنانه، وأمامَ حركةِ بَعضِهم واختِلاجِ جوارحِه في محاولةٍ لتخفيف الألم الفظيع الّذي يشعرون به.

فاحت رائحة الأجساد المَشويّة في الجوّ، وزَكَمَتِ الرّائحةُ الأنوف، ولم يستطع التّاريخ أنْ يُفسّر شعور آدميّ يبتهج برائحة شِواء آدميّ آخَر، لقد كان الوحشُ النّائم في أعماق كلّ بشريّ غير مؤمنٍ يركض في كلّ اتّجاه آنئذٍ.

سقطت بعضُ أعضاء الأجسام المصلوبة، وسقطت بعضُ الصّلبان بفعل الحريق مع جسد المصلوب على الأرض، وظلّت بعض الصّلبان

صامِدةً تُضيءُ المكان كأنّهم شهبٌ لامعةٌ في السّماء، وبدا أنّ أهلَ الأرضِ يَحتفُّون بهم على طريقتهم، وأنّ أهل السّماء يحتفون بهم كذلك على طريقتهم. لقد صعدت أرواحهم على أكفّ الملائكة الأطهار.

لقد عَمّ الجنون روما إذًا، بسبب هذا المجنون، أليس في روما يومئذٍ رجلٌ رشيد!!

١١٥

أنتَ أوّل مَنْ قال إنّه إله!!

منذ ذلك كان لبطرس شأنٌ آخر، لقد بقي مُتخفّيًا في روما لسنةٍ، كان يعيش بعد هَدْمِ بيته في بيوت كثيرٍ من المؤمنين الّذين كانوا مُستعدّين إلى أنْ يَفْدُوه بأرواحهم، مَنْ كان قادِرًا على أنْ يحوز شرف تقبيل اليدَين اللّتَين مَسّتا جسد يسوع، إنّه ربّما من القليلين الّذين ظلّوا كذلك، بولس لم يكنْ من هؤلاء، صحيحٌ أنّ له تأثيرًا كبيرًا على العقول، لكنْ لم يكنْ له تأثيرٌ كبيرٌ على القلوب، بمعنى المحبّة الصّافية، لم يكنْ لها تأثير التّعلّق الّذي يحظّى به بطرس بين مُحبّيه.

الحقيقةُ أنّ الفظائع الّتي ارتكبها نيرون بحقّ المسيحيّين لم تُوقِفْ أيًّا منهما، قد تكون زادث درجةَ السّرّيّة، لكنّهما كانا يعلمان أنّ الدّور القادمَ سيكونُ عليهما، وأنّ السّجن في أقلّ تقدير ستكون أبوابه مُفتّحةً من أجلهما. قَتَلَ البطشُ الّذين تحوّلوا من الوثنيّة إلى المسيحيّة، وأعملَ نيرونُ جَبَروتَه فيهم فهلكَ على يدَيه خلقٌ كثير.

كان كوش أحدَ خدم بطرس المُخلِصين قد قضى منذ زمنٍ بعيدٍ بين فكّي وحشٍ من الوحوش في حفلة مُجون وجنون جماهيريّة في المُنتدَى. حافظَ القَدَرُ على حياة يوسف فقط من خدمه، مِمّا مكّنه - في فتراتِ انعِزال في كهوفٍ على الأطراف البعيدة، والغائرة، والّتي لا تصلُ إليها العيون - من أنْ يُتِمّ إنجيلَه على أمل أنْ يكون إنجيلُه هذا فاصِلاً في الأمور الّتي بدأث تشتبه على المسيحيّين، وبدأث تُخالِطُ العقيدة الصّافية، كانث بعض هذه الاشتِباهات قد سبّبَتْها الاضطِهادات المُتلاحِقة الّتي حاقث بهم في السّنوات الخمس

الأخيرة.

في الزّمن الّذي خفتت فيه يد المُلاحقة، وتغاضت أعينُ الرّقباء إلى حينٍ، كان بطرس يطلب من تلامذته أنْ يجمعوا عِظام الشّهداء الّذين ذهبوا ضحيّة بطش القيصر، كانوا في اللّيل العميق ينبشون المقابر الجماعيّة الّتي دُفِنوا فيها بشكلٍ همجي، ويجمعون العِظام في أكياسٍ خاصّة، ويأتون بها إلى بطرس. كانت هذه العِظام تُغسَل بماءٍ مُقدّس، قرأ عليه القِدّيسون صَلَواتِهم، ويطلب بطرس منهم بعد ذلك مُوارَاتها التّراب بطريقة لائقة، وعلى محيط المكان الّذي وُورِيت فيه تلك الأعظم أقام كنيسةً شامخة. كان يريد من وراء ذلك أنْ تظلّ صلواتُ المؤمنين تَصِلُ إليهم كلّما تلاها أحدُهم في هذا المكان. لقد كتب لهم الرّسول بطرس الصّلاة الّتي حبّذ أنْ تُتلَى من أجلهم هنا. كان ذلكَ وفاءً منه لتضحياتهم الّتي انتشرت بسببها تعاليمُ المسيح العظيمة.

قُبَيل انتهاء سنة ٦٤ م طلب بطرس أنْ يجتمع ببولس. كان يبدو أنّه أدركَ النّهاية، وأنّ رحيله صار وشيكًا. جاءه بولس في وفدٍ من أتباعه، كان على عادته يسعى إلى مثل هذه اللّقاءات، بل ويطلبها على فتراتٍ. كان ذلك بعدَ أنْ قضى ما يقربُ من مئةٍ وخمسين من الّذين تشبّعوا بتعاليم المسيح حرْقًا على الصّلبان في ساحة قصر الإمبراطور. «إنّني سعيدٌ من أجلهم» قال بولس. «كان عليكَ أنْ تحزن، هؤلاء خِيرةُ المُؤمِنين، وقد ذهبوا كلّهم في ليلةٍ واحدة». «إنّ منبع سعادتي هو مصيرُهم. لقد كانَ شرفًا يستحقّونه». لكنّ ذلك لم يُعجِب بطرس، أحسّ بأنّ شيئًا من التّشفّي يكمن في قلب بولس، لكنّ ذلك يبقى ظنًّا، وقتْلُ الظّنّ يكون بالمواجهة، والكلمة

الّتي في القلب ستبقى تحفّ حجرات القلبِ بألمٍ شديد ما لم تخرج. «إنْ لم تحزن لموت كلّ هؤلاء الضّحايا، فلتحزنْ لأجل العِلْم الّذي زُفِعَ بموتهم، إنّنا الآن نحتاج إلى وقتٍ طويلٍ لِنُعِدّ أمثالَهم». «إنّ المؤمِنين سيبلغون أقاصي الأرض». «المؤمِنون بأنّ الله واحدٌ يا بولس، لا بأنّ الله ثلاثة». «إنّ حقيقة الإيمان يا بطرس لا يُدركها إلّا مَنْ أوتي علمًا عظيمًا، ولا أظنّ أنّك من هؤلاء، فلا تُتعِبْ نفسَك». «إنّي لأعجبُ منكَ يا بولس، تحكم في الإيمان وأنتَ لم تسمعْ من الّذي قال هذا الإيمان وأمر به». «ماذا قال؟». «أنْ تعبدَ الله وحده». «لم يقلْ هذا الكلام ألبتّة، إنّما ذلك من اختراع وهمك، وأنتَ أوّل مَنْ قال إنّه إله!». «لقد نَهَرني أشدّ النّهر». «نهركَ لأنّه لا يريد أنْ تُعلِنَ بهذه الحقيقةَ حينها، وأنّ زمن إعلانها لم يجئْ بعدُ، أمّا وقد جلسَ عن يمين الرّبّ فقد ابتدأتْ مَهمّتنا نحن بإعلانها منذ ذلك الوقت». «إنّك قادرٌ على تغيير قناعة الحجر يا بولس، لكنّك لن تكون قادِرًا على تغيير الحقائق، ستكون أعجزَ من ذلك». «صحيحٌ ما تقوله، لكنْ أتعرفُ لماذا؟ لأنّني لا حاجةَ بي إلى أنْ أُغيّر، أنا الحقائق، وما أقوله هو الحقيقة، فهل يحتاج ذلك إلى تغيير؟!». «بل إنّ ما تسمّيه حقائقك لن تصمدَ أمام الاختِبار شيئًا، سيَبِينُ زيفُ ما ذهبتَ إليه ولو بعدَ حينٍ». «أيّ حينٍ تتحدّثُ عنه؟! إنّ الزّمن في يدي، وحينَ تحينُ ساعةُ رحيلي، سيكون قد ثبتَ كلامي في الأُمم، كما ثبتَ النّقشُ فوق الصّخرة». «واهم، قد يمتدّ ذلك زمنًا طويلاً، أطول مِمّا أرجو أو أتمنّى، لكنّه في النّهاية سينتهي، أَعِدُكَ أنْ ينتهي، وستُواجِه قَدَرَ الكاذِبين بكلّ خزي». «ربّما نلتقي في ذلك اليوم». «إذا خرجتَ من عندي هذه المرّة، فلن تراني من بعدُ أبدًا».

كانت ليلةً دامِسة، ظلامُها كثيف، وعُواء ذئابها طامّ، سمعَ أصواتهم خارج البيت، كان خبطُ أقدامهم قد بدأ يعلو، وأصوات عجلات عَرَباتهم يُغطّي على شيءٍ من العُواء الّذي تنضح به الأجواء. قال له يوسف: «فرصةُ النّجاة ما زالت قائمة، هناك بابٌ خلفيّ لا يعلم بوجوده غيري، يُمكن أنْ أهرّبك من خلاله». نزلا إلى أسفل البيت، إلى قبوٍ مُعتِم، كانت مشاعل الجنود قد بدأت تُغطّي السّاحة الأماميّة للبيت. فتحَ له يوسف الباب الخلفيّ، فلفحته نسماتٌ صقيعيّة، وضع يده على فمه، شدّه يوسف من يده: «مِن هنا يا سيّدي، أرجوك اتبعْني». كان الفضاء الفسيح أمامه، ومن خلفه راح يسمع أصوات الجند تقترب. «اهربْ يا سيّدي. اهرب. أنا سأعود لأشغلهم بعضَ الوقتِ عنك». ومضى بطرس، كان يعرف أنّ البيت في القرية القادمة سيحتاج إلى نصف ليلٍ حتّى يصله، فشدّ ساقَيه وعزم على ذلك، راحتْ قدماه تنهب الأرض من تحتهما، صار صوتُ الجند مع الرّيح بعيدًا، تناهَى إليه بعضُ صياحهم يسألون يوسفَ عنه، كان قد ابتعدَ مسافةً جيّدة، فظهرتُ له. هَزّ رأسه وصُدِم. كنتُ بكامل هيئتي، لكنّها هيئة الرّوح لا الجسد، ظنّ أنّه يحلم وأنّ هذا من وساوس الشّيطان، سمع صوتي: «إلى أين؟». فازدادتْ ضرباتُ قلبه هلعًا، أعرض عنّي، وركض وهو يتعوّذ، كان قد قطعَ مسافةً أخرى حينَ واجهته من جديد: «إلى أينَ تذهبُ يا بطرس؟». فلوى عنقه، وأسرع في خطواته الّتي تأكل الأرض، وظنّ أنّ الريح الّتي تنقل الأصوات البعيدة جِدًّا هي الّتي جعلته يتخيّل صوتي، وفي المرّة الثّالثة قلتُ له: «أتريدُ أنْ تهربَ منّي ثلاثَ مرّات كما فعلتَ يومَ جاؤوا لأخذي». فارتعدتْ فرائصه، وأيقنَ أنّني لستُ رَئِيًا من الجن، فتوقف لاهِثًا، نظرَ إليّ

ليتأكّد من أنّه يراني ثمّ غَضّ طرفه: «أهذا أنتَ يا معلّم؟!». «هو أنا». «أأنتَ المسيح حقًّا... جسدًا أو رُوحًا... أم أنّكَ طيفٌ يتهيّأ لي...؟! أأنتَ الآنَ من لحمٍ ودم، أم من صوتٍ وفِكرة؟!». «لا يهمّ إنْ كنتُ هذا أو ذاك، لكنْ ألا تسمعني؟! بلا شك أنّكَ تسمعُ صوتي، ألستَ تعرفُ صوتي وتُميّزه من بينِ آلاف الأصوات؟!» «بلى يا سيّدي!!!». «إذًا هذا أنا...». هبطَ بطرس على قدمَيه، زحف على رُكبتَيه، وانحنَى لكي يقبّل قدمَيّ، كانَ قد بدأ بالبكاء. قلتُ له: «لا تفعلْ؛ كان هذا قبل أنْ أرتقي إلى السّماء... لا تفعلْ، قُمْ فإنّي أطلبُ منكَ شيئًا واحِدًا؛ لا تهربْ وواجِهْ، إلامَ تظلّ تهربُ يا بطرس؟!». خفضَ رأسه خجلاً: «سيّدي، أنا لك». «شيءٌ واحِدٌ يا بطرس». «نعم يا سيّدي؟». «أترى هذا الأفّاك الّذي معك؟!». «تقصد بولس؟!». «وَمَنْ غيره؟!». «ما شأنه؟!». «إنّه شيطانٌ في ثوبٍ بشريّ، لقد أفسدَ دينَ الله، وبدّلَ وحرّف... إيّاكَ إيّاكَ منه؛ إنّني أُعوّل عليكَ كثيرًا يا بُطرس أنْ تنقلَ لهم المسيحيّةَ الحقّة... هذا الدّعيّ يُشوّهها ويأتي بعقيدةِ الكفر... آه لو كانَ الحواريّون أحياء آه، لَقَرَّعْتُهم على ما فعلوا.. أنا رسولُ الله، بشرٌ من بشر يا بطرس، ولستُ الله ولا ابن الله، أتريدُ دليلاً أكثرَ من أن أقول أنا لك ذلك؟! إنّني أبرأ إلى الله ممّا يفعله هذا الكذّاب الّذي ظهرَ بينَكم وفَشَا أمرُه وسانَدَتْه على فِعله شياطينُ الجنّ والإنس... إنّه خطيرٌ يا بطرس؛ خطيرٌ جدًّا، وإنْ لم تتداركِ الأمر أنتَ والصّادقون معك فسيهدمُ الصّرح الّذي بنيتُه وسيَسِيلُ ماء الكفر من تحته حتّى يتهدّم... قاتِلْ يا بُطرُس من أجل أن تُوضّحَ للنّاس الحقّ، وتكشفَ لهم حقيقةَ هذا المُجرِم... إنّني لا أظهر لك في كلّ حينٍ يا بطرس، أظهر للأصفياء، وفي أشدّ الأمور حاجةً إلى التّبيان،

قد أظهر في المُستقبَل لآخَرين مِثلك؛ آلَوا على أنفسهم أنْ يحملوا العقيدة الصّافية؛ عقيدة التّوحيد، لا عقيدةَ التّجسيد والتّثليث... عُدِ الآنَ يا بُطرس... عُد إليه وإلى كلّ الخراف الّتي ضلّتِ الطّريق وأعِدْها إلى حظيرتنا؛ إنّها فرصتك الثّمينة وقد لا تتكرّر، تعرف... إنّ كلمةَ حقٍّ واحدةٍ تُقالُ في موضِعها خيرٌ لكَ من القصور والدّور، وخيرٌ لكَ مِمّا طلعتْ عليه الشّمس أو غربت». «سأعود يا سيّدي... سأعود، ولكنْ». «ولكنْ ماذا يا بطرس!». «إنّ جنود القيصر قد جاؤوا ليقبضوا عليّ». «لا تهربْ، إنّ قدركَ سيظلّ يُلاحِقك». «أخاف إنْ مِتُّ أنْ تطغَى عقيدة هذا الضّالّ». «الله هو الّذي يكتب كلّ شيء، افعلْ ما هو واجبٌ بالنّسبة لك». «لكنْ إنْ متّ فمن يبقى على التّوحيد». «إنجيلي الّذي كتبتَه والمُؤمِنون به». «والحواريّون». «ماذا بالنّسبة لهم؟». «لقد ماتَ أكثرهم، ولم أعرفْ منهم حيًّا إلاّ يوحنّا». «مطلوبٌ منكَ أنْ تموتَ على التّوحيد، وتدعو النّاس أنْ يموتوا على ذلك، عُدِ الآنَ وواجِه».

سَحَبُوه إلى السّاحة في وسط روما، كان قد قضى في السّجن ما يقرب من أسبوع، ظلّ يدعو فيها السّجناء مِن حوله، ويُصبّرهم، ويدلّهم على طريق الخَلاص. قال له لينوس في اليوم الأخير: «كان الصّليب الّذي في مركز الدّائرة في حديقة القيصر مُعَدًّا لك، لكنّنا لم نتمكّن من إلقاء القبضِ عليك». «دعْهم لعنةٌ عليكم. سينتهي كلّ هذا الألم، وسنجد عند الله الفرح الّذي بشّرنا به يسوع». «أتظنّ أنّكَ ستلقى المصير الّذي لَقِيه يسوع؟!». «يا ليتني ألقاه...». «هل تريد أنْ تموت على الصّليب؟!». «هو لم يمتْ على الصّليب، بل رُفِع وهذه أرقى منازل الاختيار عند الله، وأعلى النّهايات، ليتَ نهايتي

يكون فيها عُشر هذا السمّوّ». «لا تخفْ سنمنحنك شرفَ موتِ ربّك، ولكن...». «لم يكنْ ربًّا ولم يمت...». يتجاهله لينوس، ويتابع: «ولكنْ سنصلبكَ مقلوبًا، رجلاكَ إلى الأعلى ورأسكَ إلى الأسفل».

في المكان الّذي صُلِبَ فيه، دُعِيت السّاحة باسمه، وعلى رُفاته ظلّت شموع المؤمنين، ودموع المصلّين تُبلِّل قبره. كان قبره مركزًا للكنيسة العُظمَى الّتي ستقام فوقه فيما بعد، وسيكون محور قبّتها مُتعامِدًا تمامًا مع قلب القبر.

١١٦

ما الجسد إلاّ هيكل خَرِب!

إنّه لا يزال يذكر أنّ بطرس كانَ أشدّ النّاسِ عليه، كان يتّهمه بأنّه مُنافِق حينَ كذب وادّعى أنّه رومانيّ لينجو من التّعذيب بالسّياط أمام قائد المئة «أَيَجُوزُ لَكُمْ أَنْ تَجْلِدُوا إِنْسَانًا رُومَانِيًّا غَيْرَ مَقْضِيٍّ عَلَيْهِ». فأثار ذلك حفيظة بولس، لكنّه كتم ذلك، ومضى في طريقه، ينشر الدّين الّذي اخترعه. وهو بالطّبع لنْ ينسى حينَ نعتّه بطرس قائلاً: إنّكَ حرباء تُغيّر جلدها في كلّ لحظة، بالأمس كنتَ رومانيًّا ولم تَمَسّكَ السّياط الّتي كانت ستُمزّق جلدك، واليوم تدّعي أنّكَ فِرّيسيّ بين جمعٍ من الفِرّيسيّين لتنجو من أنْ تُضرَب على فمك كما أمر رئيس الكَهَنة، وتُوقِع بينهم وبين الصّدوقيّين الشّقاق والنّزاع لِتُفلتَ من قبضتهم. وإنّه لن ينسى كذلك أنّ بطرس نعته بأنّه جبان رِعديد في حادثة السّفينة الّتي رست على بحر مالطة، كان بطرس ينعته بهذه النّعوت في حين أنّ مُرافِقيه كانوا يعدّونه إلهًا. وإنّه أقرب إلى الثّانية وإنْ كان بطرس صادِقًا في الأولى.

لكنّ بولس مع ذلك يُدرك أنّ إنجيله هو الّذي سيستمرّ، إنجيله الّذي سيكون دستورًا للمسيحيّين جميعهم مع أنّه لم يذكر شيئًا فيه عن ميلاد المسيح ولا عن حياته، ولم يذكر عن أمّه مريم عليها السّلام، ولا عن الحاكم الرّومانيّ الّذي حاكم المسيح، مع أنّه عاشَ كلّ ذلك، وسكتَ عن مُواجهات يسوع مع الفرّيسيّين مع أنّه وثّق مُواجَهاتِه مع كلّ الأمم والطّوائف والنّاس والحُكّام في رحلاته، لماذا كلّ ذلك؟! لأنّه يعدّ نفسه المسيح الثّاني، المسيح الّذي أخذ دينَ المسيح الأوّل

وأعادَ صِياغته من جديد، بل وخرج بدينٍ جديدٍ، وقدّمه إلى العالَم على أنّه هو الدّين الّذي على المسيحيّين أنْ يعملوا به، وهم تَبِعوه على ذلك، وساروا بدون أيّ التِفات في الطّريق الّتي وضعهم بولس عليها!!

ومع كلّ ذلك فإنّ جنون نيرون كان قد بلغ منتهاه، إنّه لا يريد لأحدٍ عرفه في حياته حتّى ولو كانَ أقربَ النّاسِ إليه أنْ يظلّ حيًّا، قال للينوس: «الصّليب الّذي كان في مركز الدّائرة يوم العيد كان خالِيًا، مَنْ كان من المُفترَض أنْ يُرفَع عليه؟». «بطرس يا سيّدي». «ولماذا لم تفعلوا؟». «فعلْنا من بعد». «وبولس؟». «ما زال مختبِئًا». «لا أريدُ أنْ ينتهي هذا العام قبل أنْ تُلقوا القبض عليه وتأتوني برأسه». «أمرٌ سهل». «أتعرف يا لينوس... أشعر أنّني وحيدٌ في هذا العالَم، الفنّان الّذي في أعماقي يُشعرني بذلك وليس القيصر، من المعلوم أنّ القيصر تكون له حاشيةٌ وحرسٌ وخدمٌ ووزراءُ وقادةُ جيوشٍ وشعبٌ يحتفون به، القيصر لا يُمكن أنْ يشعر بالوحدة، إنّ مردّ الوحدة المُؤلِمة الّتي تتجوّل في أحشائي كسكّين هي الموهبة، هل تعتقد أنّ التّاريخ سيُخلّدني شاعِرًا أم قيصرًا يا لينوس؟». «بل شاعِرًا يا سيّدي وعازفًا، لا شكّ أنّ نشيدَك الأخير عن حريق روما سوف يظلّ محفورًا في ذاكرة التّاريخ أكثر من ملحمة هوميروس بأكملها». نظر إليه نيرون بعينَين مُتشككتَين: «هل تظنّ ذلك حقًّا أم أنّك تُنافِق مثل البقيّة؟!». «لا يا سيّدي، أنا صادقٌ معك تمامًا، لتنتقمْ منّي الآلهة إنْ كنتُ أقول غير ما في القلب، انظر إلى عَظَمةِ الحدَث لِتعلَمَ عَظَمة الفنّ». «يا لينوس لماذا يُراوِدني شعورٌ أنّكَ لو زُفِعتَ أنتَ على الصّليب الّذي كان في مركز الدّائرة يومئذٍ لكان المشهد أكثر

جمالاً وأشدّ إمتاعًا». وقعت الجملة الأخيرة في أحشاء لينوس كأنّها كرةٌ من الحديد المُحمّى، ارتخت رُكبتاه، كان يعرف أنّ أمنية نيرون ما هي إلاّ خُطّة يكون قد أعدّ لها في ذهنه لتُنفّذ، ولكنّه استَبَقَ رِضاه، واستأنى أجَلَه بقوله: «إنّ القبضَ على بولس يا سيّدي قد يستغرق وقتًا».

كانَ خارج روما، يُتمّ إحدى مهمّاته الّتي لا تنتهي، كان يعمل بدون كلل، ويتكلّم بدون توقّف، العمر المنذور للرّيح يجعل الإنسان لا يعرف الرّاحة، ويُقدّر أنّ كلّ لحظةٍ تمرّ إنّما هي أثمن من كلّ شيءٍ عداها. كان على الجبل موعدهما، على القمم عاشا كثيرًا من حياتهما، يعرفُ رائحته، رائحة اللّقاء الأوّل، رائحة الخلود. قال له يهوذا: «رسائلك ستعيش». ردّ عليه بولس: «أراك أم أسمعك؟». «تَسمعُني فحسبُ». «هل هي الزّيارة الأخيرة؟». «نعم». «هل حانت منيّتي؟». «حسب تَجدُّد المُنتظَر نعم، ما الجسد إلاّ هيكل خَرِب، روحك ستنضمّ إلى المُتجدّدين لتنعم بالسّلام والهدوء إلى يوم الخروج الأكبر، يومَ يخرج المسيح الّذي سيحكم العالَم والّذي عَمِلنا نحن، وستعمل أجيالٌ لاحِقةٌ من أجله، إنّ الإيمان بإله غير الله الّذي في السّماء كان صُلبَ العقيدة الّتي ناديتَ بها، حتّى يتهيّأ النّاس إلى أنّ إلهًا من إلهٍ يُمكن أنْ يَدِين النّاس، الآنَ أنتَ جعلتَ المسيح يقوم لهم بهذا الدّور، وإيمانهم بأنّه سيَدِينُ العالَم سيُسهّل علينا في آخر الزّمان أنْ يُؤمنوا بالمسيح المُنتظَر، إنّه إله، وإنّه يحكم العالَم، وإنّه قادِرٌ على أنْ يُحيي ويُميت، ويُخصِب الزّرع ويُجدِب الأرض، ويملؤها ذهبًا أو حصًى، ويُفجّر الأنهار أو يُغير الماء، سيؤمن به آنئذٍ كُلّ الّذين آمنوا بما صنعتَه أنتَ اليوم لهم، أيّ خِدمةٍ قمتَ بها من أجلنا، بل أيّ

شرفِ حُزّته لتملك أفئدة النّاسِ وقلوبهم، وتستحوذ على عقولهم بهذه الطّريقة؟! إنّ المُنتظَر لَفخورٌ بك جِدًا، إنّكَ سهّلْتَ علينا مَهمّةً ستدوم آلاف السّنين لم تستغرقْ منكَ أكثر من ثلاثين عامًا. اليوم جاءَ وقتُ حصاد الجائزة، حصاد تعب السّنين الغابرة، اليوم روحُك ثَمَن، والثّمرةُ دِينٌ جديد، دينٌ لو عملت أبالسةُ الأرض مُجتمِعين على صناعته لما صَنَعَتْه بأفضلَ مِمّا صنعْتَه أنتَ. هنيئًا للبشريّة بك، وهنيئًا للمُتجدّدين بك، وهنيئًا للمُنتظَر بأفضل رُسُلِه الّذي هو أنت». وسكتَ الصوت. لفّ بولس عنقه خلفه يتبع الرّائحة، أحسّ أنّ الصّوتَ يُغادِره، قال كأنّما يستوقفه: «قلْ لي، هل سيكون ذلك مُؤلِمًا؟!». عادتْ إليه الرّائحة لتواجهه: «أنا رُفِعتُ على الصّليب وتحمّلت، ولم أخزِ الشّرَفَ الّذي حُزّته، عليكَ أنْ تتحمّل أنتَ الآخَر، الخلود لا يكون بلا ثمن». «لكنّني هرمتُ بما يكفي لأنْ يرحمني». «الموتُ على الصّليب يكونُ بطيئًا، ستموتُ أنتَ سريعًا، ولن تشعر بالألم». «كيف؟». «سيقطعون رأسك».

أمر أتباعه أنْ يُرافِقوه في خُطُواتِه كلّها، نزلَ إلى روما، وقف شرقيّ الفوروم يتذكّر البدايات، ويستشعر قرب النّهايات، إنّها حياةٌ حافِلة، ومليئة بالمواقف والمُتناقِضات، والآن على بوّابة الرّحيل يحقّ له أنْ يفتخر بكلّ ما فعله في حياته، كان المجتمع الرّوماني يومئذٍ ما زالَ أكثرُه على دين الوثنيّة، رعاع، أو بلا دين، والمسيحيّون الّذين آمنوا به، ذهبَ بهم إيمانُهم إلى الهلاك، وهو؟ لن يأسفَ على ما مضى، ولا على أيّة لحظةٍ فيه، سيستقبِل النّهاية الّتي في الحقيقة من منظورٍ آخر ليستْ إلاّ بداية، بدايةٌ لدينٍ جديد، من الأجدر أنْ يُسمّى بدون تردّد: دين بولس الطّرسوسيّ. وهو سيُذكَر

في المحافل كلّها، وسيتبعه الخلق كلّهم، وسيُصَلّى باسمه، وسيُطلَب من الله باسمه، وسيُحفَر اسمُه ليسَ فحسب على بوّابات الكنائس ومداخل الأديرة وأيقونات الصّلبان وقواعد التماثيل الضّخمة، بل وفي القلوب. هل قلتُ التماثيل؟! أليسَتِ التماثيل أصنامًا؟ بلى. أليست اختراعًا وثنيًا؟ بلى. أليست أخصّ خصائص الدّولة الرّومانيّة؟ بلى. فلماذا إذًا اتّخذها المسيحيّون في دينهم؟! إنّ هذا لشيءٌ عُجاب!

أُلقِيَ القبضُ عليه سنة ٦٧ م. كان لينوس، يعرفُ أنّه يستحقّ نهايةً مختلفة. ربطَ قدمَيه، معًا، ورجلَيه كذلك، وأوثقه إلى لوحٍ خشبيّ ارتفع إلى ما دون كتفَيه، أمّا رأسه فظلّ في الهواء، رُبِطَ الرّأس من الشّعر الطّويل وأُرجِعَ إلى الخلف قليلاً لتبرز عنقه، فصار مُهيّأً للذّبح.

احتشدَ حوله عددٌ غفيرٌ من النّاس، لم يكنْ أحدٌ منهم يستطيعُ أنْ يفعل شيئًا، نظر من أسفل عينيه في الوجوه الّتي تلتفّ من حوله فرآها كالحةً بائسة، جَزِعةً لموته. ألقَى ذلك في قلبه الوَهَن، لكنّه تغلّب عليه برسم ابتِسامةٍ عريضةٍ على شفتَيه، وحاول أنْ يُظهِرَ شجاعتَه بِقَدر ما يستطيع. كان السّيّافُ قد تهيّأ ووقف عن يَسارِه مُستعدًّا لسماع الأمر باجتِزاز عُنقِه. حانت منه التِفاتةٌ إلى الجموع الّتي تشهد ذَبحه، فرآهم يرسمون شارة الصّليب على صدورهم، فَفَرِح، لقد أتقنوا هذا الشّكل الطّقوسيّ من العبادة، إنّه يأمُل ألاّ ينتهي حتّى مجيء المُنتظَر. شمّ رائحته إنّه يهوذا من جديد، قال له: «أتتألم الآن؟!». «كلاّ». «مُفارَقةُ الرّوح للجسد وعودتُها إلينا سيمرّ كما لو كان نسمةً واحدة عبرت الأنف فلا تجزع». «كما ترى يا سيّدي».

أرجعَ السّيّاف كلتا يدَيه اللّتَين تقبِضان على السّيف إلى الوراء، كانت القوس قد بلغت ذروتها من التّوتّر. قال بولس: «أموتُ مُطمئِنًّا، ما يضيرني التّخلّي عن جسدي للتّراب الفاني، ما دامت الرّسالة لن تموت». وهوى السّيّاف على عنقه مع آخر كلمةٍ قالها، قفزَ الرّأس من قوّة الضّربة إلى أعلى، نثَرَ دُفُقاتٍ من الدّم حوله، قبل أنْ يتحدرج بين أرجُلِ المُجتمِعين ليشهدوا موته، انتفضتْ أعضاء الجسد، اهتّزتْ هزّاتٍ عنيفةً، ثمّ فجأةً ارتختْ. حُمِلَ بعيدًا. لم يكنْ أحدٌ يدري من بعدُ إنْ كان الجسد قد دُفِنَ أمْ حُرِق. لقد اختفى تمامًا.

١١٧

نهايتُك أصبحت قريبة!

بدتِ القُصور خاليةً إلاّ من بعضِ الخدم، لينوس كانَ قد رُفِعَ على الصّليب في مركز الدّائرة كما تمنّى نيرون ذاتَ هَوَسٍ في حفلةٍ أخرى من حفلات القتل والمُجون. انفضّ عن نيرون كلّ أحدٍ، ليسَ لأنّهم يكرهونه وإنْ كانوا كذلك، وليس لأنّهم يخافونه وإنْ كانوا كذلك؛ بل لأنّه لمْ يُبقِ على أحدٍ، لم يبقَ له زوجة، ولا أمّ ولا ابنة ولا إخوة ولا عائلة، كانتْ عائلته حفنةً من العاهرات يقضي معهنّ ليالي لا يصحو فيها من سكرة الخمر، وينام مثل الثّور الذّبيح في السّاحة، ويُحمَل كما حَمَلَه أحدُ قادة الجيش ذات مساء إلى غرفةٍ من الغُرف. صار يُلقَى في أوّل غرفةٍ يجدها أقرب المَوجودين حوله. سقطتْ هيبتُه حتّى أمام الخدم، وظلّ الخوف منه واحترامه عملاً ظاهريًا لِقاء الحصول على المعاش في آخر الشّهر أو اتّقاء القَتْل. تحوّلتْ غربتُه الدّاخليّة الّتي كان يشعر معها بالوحدة فيما مضى من سنواتٍ إلى غربةٍ ووحدةٍ حقيقيّتين. لم يعدْ يحضر إلى حفلاته الأدبيّة الّتي يُقيمها سِوى بعض الخدم الّذين أشفقوا على حاله، كان يُمسِك القيثارة ويعزف لحنًا حزينًا، ويُنشِد أشعاره، ويبكي في النّهاية، ولا يجد أحدًا يتعاطف مع حالته. ويستبدّ به الغضب فيحطّم القيثارة على فَخِذه، ويرميها أمامه وهو يصرخ. وحينَ يهدأ ينظر حوله فلا يجد إلاّ وجوه الرّقيق تُراقِبه بصمتٍ وفي عيونها نَظَرات الإشفاق، ويلتفت خلفه فلا يُشاهد إلاّ بحيرةً تسبح فيها بعض البجعات اللّواتي تأثّرنَ فيما يبدو بالحالة الّتي يمرّ بها القصر، فرحنْ يتحرّكْن ببطء،

وغالبًا ما يُشاهَدْن وهنّ يدفِنّ رؤوسهنّ في صدورهنّ دون أنْ يأتين بأيّة حركة. يلتفت عن يساره فلا يجد إلاّ أشجارًا واقفة تغالبُ البؤس الّذي يُحيطُ بكلّ شيء.

أمّا أعضاء مجلس الشيوخ فلم يعدْ أحدٌ منهم يحضر مجلسه، كانوا قد يئسوا من أنْ يعودَ إلى رُشده، وفي المرّة الأخيرة الّتي جلسَ فيها إليه رئيس المجلس ليعرض إليه الحالة المتردّية الّتي وصلتْ إليها روما هدّده بالقتل، فانسحب، وهو يرثي لمجد روما العظيم.

في هذه اللّيلة المشهودة، قال لرئيس الخدم: «لم يبقَ لي أوفياء غيركم، أنتم أصحاب القلوب البيضاء، أنتم يا من تفهمتم حاجاتي وعبقريّتي طَوال هذه العقود، الآخرون خانوا وتحوّلي إلى كلاب. كنتُ دائمًا ما أسعى إلى إمتاعهم لكنّهم لا يستحقّون، أنا أطلب منك أنْ تجمعَ خَدَمَ القصر كُلّهم اللّيلة، وأصدقاءَهم من شعبي الّذي يُحبّني؛ لنحتفل، أُريدُ أنْ أبتهج بلون الفرح، ماذا يُفيد بَياضُ البَشَرة إنْ كان القلب أسود؟! وماذا يَضِيرُ سَوادَ البشرة إنْ كان القلبُ أبيض؟! إلى أصحاب القلوب البيضاء أرفع كأسي وأُقيم حفلتي».

اجتمع الغوغاء وعامّة النّاس والرّعاع ومَن أراد أنْ يجرّب خمور القصر وطعامه الشّهيّين، ومَن أراد أنْ يخوض تجربةً لم يحلمْ بأنْ يخوضها من قبل، وفي أقلّ من ساعة كانت السّاحة تغصّ بالمدعوّين، وقف أمامهم، فسكتوا: «أيّها الشّعب العظيم، ابتهِجوا، افرحوا بملء قلوبكم، ارقصوا بملء جوارحكم، غنّوا بملء أفواهكم، وافعلوا كلّ شيءٍ بملء إرادتكم». ثمّ رفعَ كأسه البلّوريّة الّتي راحتْ تتراقص بما فيها على ضوء القناديل المُعلّقة: «إنّ موعدَكم الفرحُ، ما

الحزنُ إلاّ عارضٌ ينتهي، لينتهِ اليوم هنا تحت أقدام الكؤوس الّتي تطفح بالشّراب». ثمّ رمى كأسه فتحطّمت على البلاط الرّخامي، وانتثرت قِطَعًا صغيرة، فصمتَ الجمهور كأنّ الصّوت قد خُطِفَ من أنفاسهم، ثمّ ندّت منه قهقهةٌ فاجرة، فراح الشّعب من بعده يُقهقِه ويَتمايل. وقلّده في حركته هذه كثيرون، فامتلأت السّاحة بشظايا الزّجاج المُتكسّر تحت الأقدام، واستمرّت الحفلة إلى الفجر!!

جاءه صوتُ أمّه من جديد، كان يحلم بلا شك، بعد أنْ ملأ رأسه الضّخم بأكثر من عشرينَ كأسًا من النّبيذ، كانت تصرخ فيه على عادتها منذُ أنْ كان طِفلاً: «نهايتُك أصبحت قريبة». شعر بثقلٍ في جسده، وفي يدَيه ورأسه خاصّة، حاول أنْ يقبضَ على عنقها ويخنقها، فخانَته يداه المُرتخِيتان: «أنتِ أسوأ لعنةٍ حلّت بي». «بل أنتَ أسوأ لعنةٌ حلّت بروما». «أنا إله الكون، وسيّد الأرض، ومالك العالَم، ولن يجرؤ الموتُ أنْ يقترب منّي». «إنّني أرثي لحالك أيّها المسكين». «لو أنّكِ غدتِ إلى الحياةِ من جديدٍ لقتلتُكِ بطريقةٍ تشفي صدري، هل يُمكنك أنْ تعودي، أرجوكِ أنْ تفعلي». ثمّ يسقطُ في هوّة اللاّوعي.

في ليلةٍ من ليالي الصّيف، جاءه رئيس الخدم: «سيّدي إنّ مجلس الشّيوخ قرّر التّخلّص منك». «أنا ربُّ مجلس الشّيوخ بأكمله، سأهدمه على رؤوس من فيه». «سيّدي لقد بعثَ رئيس المجلس بفرقةٍ من الحرس لِيَقبضوا عليك». «يَقبِضوا عَلَيّ؟! لا بُدّ أنّكَ تهذي، مَنْ يجرؤ على أن يُواجِه إلهَ روما العظيم». «سيّدي لم يعدِ الإنكار نافِعًا، أنا أضمنُ لك أنْ تنفذ بروحك، لقد اتّفقتُ أمس مع أحدِ الخدم الّذين أثق بهم أنْ يستقبلك في كوخه على أطراف نهر التّيبر في الجبال

الشّماليّة». «لا بُدّ أنّني أتعرّض لخيانة الخدم أيضًا». سيّدي ألا تسمع أصوات عَرَباتهم، ها هي قادِمة، إنّها في الطّريق، أخشى أنْ يكون تدبّر أمر النّجاة قد صار صعبًا». «اغربْ عن وجهي أيّها اللّعين».

كانتِ العَرَباتُ المُحمّلةُ بالجنود تقترب، كانت الأوامر تقتضي إلقاء القبضِ عليه لمُحاكَمته، تمهيدًا لإصدار الحكم عليه بالإعدام بتهمة خيانة روما وإهدار مُقدّراتها. أمّا رئيس مجلس الشّيوخ فلثائرةٍ قديمة طلب من رئيس الفرقة أنْ يقتله، ويتظاهر بأنّ الأمر وقع نتيجة رفض نيرون تسليم نفسه. إنّ رئيس مجلس الشّيوخ يعلم أنّ محاكمته سوف تكشفُ عن جبلٍ من الأسرار الّتي قد تُودِي بنصف أعضاء مجلس الشّيوخ بالتّهمةِ ذاتِها، وهو على رأسهم، إضافةً - وهو الأهمّ - أنّ مُحاكَمَته قد تُعرقِل الطّريقَ أمام فاسبازيان وابنه تيتوس الّذي كان أشدّ القادة العسكريّين سطوةً على اليهود، وكان من مصلحته التّخلّص من اليهود لكثرة دسائسهم، ومُساندتِهم للثّورات الّتي تظهر فجأةً هنا أو هناك.

وقف نيرون أمام البحيرة، كانت أصوات العَرَبات وحَمْحَمات الخيول تتناهَى إلى مسامعه، بل إنّه أيقنَ أنّها صارت على بوّابة القصر، لا حرسَ يَصدُّها، لا خَدَمَ يقفُ في وجهها، الآنَ أدرك وقلبه يصعدُ إلى حنجرته أنّها النّهاية، وأنّ أمجاده السّابقة كلّها، وتاريخَه الحافِل صار في قبضةِ حفنةٍ من سَقَطِ القوم.

رفع كأسه، وتخيّل قائدَ الجيشِ أمامه، فأصدر أوامره إليه: «اكتبْ يا لينوس، اكتبْ ما آمُرُكَ به، ونفّذْ على الفور، أنا آمرك بأنْ تُعدِمَ أعضاء مجلس الشّيوخ جميعًا، وأنْ تقتلَ بالسّيف قادةَ الجيش كلّهم،

وأنْ تحفر حفرةً كبيرةً توازي حفرة جهنّم في أشعار هوميرس وأنْ ثُلقِيَ فيها شعبَ روما بأكمله، لا أُريد لواحدٍ يسير على طرقات روما أنْ يظلّ حيًّا، أطلقِ الوحوش من مرابضها، واجعلها تتحرّك بحرّيّتها في وسط روما». تلقّى الهواءُ صَرَخاتِه هذه، لكنْ لم يكنْ من أحدٍ ليسمع. استشاط غضبًا حينَ علم في لحظات الوعي الّتي يعود إليها كومضات أنّه كان يُخاطب الفراغ، وأنّ قائد الجيش ليس موجودًا، بل أسعفته الذّاكرة في أنّه عُلّق على الصّليب في مركز الدّائرة في ذلك اليوم البهيج. كانت الأصوات قد صارتْ خلفه، التفتَ فرأى قائدَ الحرس في مُواجَهَتِه، رفع في وجهه كَفَّين مُرتعِشَين كأنّما هو يستمهله بعضَ الوقت: «سأُغنّي قبل أنْ أموت، أرجوك هاتِ لي القيثارة... ها هي هناك». وأشارَ إليها، لكنّ قائد الحرس ظلّ واقِفًا، أشار برأسه لأحد الجنود فناوله إيّاها، سحبَ كرسيًا وجلسَ فوقه، وراح يعزف لحنَه الأخير، كان يُنشِد ويبكي كطفل، كان منظره يدعو إلى السّخرية أكثر مِمّا يدعو إلى الإشفاق. تَرَكَه رئيسُ الحرس يُنهي لحنه، قامَ من فوق الكرسيّ، مسح دموعه بطرف أكمامه، خاطَب الفراغ من جديد: «أنْ تكون سيّد العالَم وتفقد كلّ ذلك في لحظة لَهُوَ مجدٌ عظيم، أيّتها الظّلال السّوداء الّتي تتراءى أمامي سآتيك فاستقبلي الإله العظيم، سوف يفتقدني شعبي، ولكنّ ذكراي سوف تُخفّف أحزانهم». ثمّ استلقى كحَمَلٍ وديع على الأرض، واستلّ خنجرًا من جانبه، ووضعه على عنقه الغليظة الطّريّة، شدّ عليه قليلاً فنزّ خيطٌ رفيعٌ من الدّم على عنقه، ثمّ توقّف بسرعةٍ، كان حُبّ الحياةِ قد منعه، إنّه يعرفُ أنّه أجبن من أنْ يستقدم الموتَ بيدَيه، رفعَ الخنجر عن عنقه، تناولها منه قائد الحرس، هبطَ بكامل ثقله على نيرون،

أحكم وضع الخنجر على رقبته، وشدّ ضاغِطًا بكلتا يدَيه حتّى غاص الخنجر إلى مِقبضه في العنق.

١١٨

إنّ الله لا يُحارَب يا بُنيّ!

قال فاسبازيان لابنه: «خُذ معك الفيلق الخامس عشر، ودمّر اليهود في أورشليم حيثما وُجِدوا، واقتل مَنْ ظفرتَ به منهم أينما ثُقِفوا، أمّا نساؤهم فطَبِّق عليهنّ أشدّ قوانين الحرب صرامةً، بِعهُنّ بأبخس الأثمان، ومن أراد من جندك أنْ يتّخذهنّ جواري فأعطِه منهنّ ما يريد، وأمّا أطفالهم فإلى هنا، يتربّون تربيةً رومانيّة حكيمة، ويُصبحون جزءًا من جيش روما الّذي لا يُقهر، أيّام نيرون ومُجُونه ولّت إلى غير رجعة، وأمّا المُنتَدَى الّذي كان يقتل فيه اليهود، فسنتوسّع فيه، ونبني فيه طبقاتٍ جديدة لِيصبح شاهِدًا على عظمة روما، وسنُعرَض فيه التّظاهرات الّتي تدلّ على حكمة روما وحضارتها وثقافتها لا على وحشيّتها، لقد كنتُ قائدًا لنيرون في أفريقيا، وأعرف هذا الشّخص جيّدًا، إنّني لا ألومُه على ما حدث، وفي الوقتِ نفسه لا أبرّئُه، لقد كان أسيرَ هوى نفسه، رجلٌ أحبّ البذخ والمجون، ونهاية كلّ إمبراطور يحبّهما لن تبتعد كثيرًا عن نهايته، ومع ذلك فله أيادٍ بيضاء في روما، سنغضّ الطّرف عن مساوئه، ومن أجل أياديه البيضاء سنضع له تمثالاً ضخمًا على باب المُنتَدى الّذي سنسمّيه الكولوسيوم، هل أتمّ الفنّانون نحته يا تيتوس؟». «كلاّ يا أبي يحتاجون بعض الوقت، لكنّ النّحاتين يقولون إنّه في حال انتهوا من نحته فإنّهم سيضطرون إلى الاستِعانة باثني عشر فيلاً من أجل جَرّه على عرباتٍ خاصّة إلى باب الكولوسيوم». «وليكنْ، فلتجرّه أفيالُ أفريقيا والهند كلّها، ماذا في ذلك؟». «أعني أنّه سيكون

ضخمًا يا سيّدي؟». «وأنا أمرتُ بأنْ يكون ضخمًا، ما المشكلة يا تيتوس؟». «إنّي أخافُ أنْ يكونَ عرضةً للتّدمير». «مَنْ سيدمّره؟!». «الزلازل، الهزّات الأرضيّة، الانشقاقات... أعني هذا مِن فِعل الطّبيعة، لكنْ حين تأخذ الآلهةُ أرواحنا، سيحكم روما ربّما مَنْ يعتبر نيرون طاغيةً، تخيّل أنّ القدر سيدفعُ بمسيحيّ أو يهوديّ ليحكمها، أتعرف ماذا يُمكن أنْ يفعل بتمثالٍ كهذا؛ سينسفه نسفًا، لكنّه لو كان صغيرًا، ونِصفيًا، فأعتقد أنّه سيكون أقلّ بعثًا على كراهيته من أنْ يكون كأبي الهول واقِفًا أمام الكولسيوم يُرحّب بالدّاخلين إليه». «وهل تعتقد أنّ روما سيحكمها إمبراطور مسيحيّ؟! واهِمٌ أنتَ يا بنيّ، هذه الإمبراطوريّة لا تُقادُ إلاّ بالسّلالات المُتحدّرة من الآلهة، وهؤلاء المسيحيّون كما تعلم لا يؤمنون بآلهتنا». «كما ترى يا أبي». «هل الفيلق الخامس عشر على أهبة الاستِعداد لتأديب اليهود إلى الأبد؟ إنّهم ما زالوا حتّى الآن يُشعلون نار الفتنة في أورشليم، ويقودون تمرّدًا في كلّ مرّة، ويَشغَبون على الحامية الرّومانيّة فيها، مع أنّ قانون روما أباح لهم حرّيّة عبادة إلههم كما يريدون، لكنّهم يَعقِرُون اليد الّتي امتدّتْ بادِئةً بالمصالحة، إنّ الصّفح لا يكون إلاّ مرّة واحدة يحكم فيها القلب، أمّا في الثّانية فلا حُكمَ إلاّ للسّيف يا تيتوس، هكذا يصلح النّاس، وهكذا تستقيم الدُّول. لكنْ لم تقلْ لي، هل الفيلق جاهزٌ للمسير إلى أورشليم؟». «بالطّبع». «اقتلْ كلّ يهوديّ، واهدمْ بُيوتَهم كلّها إلاّ المعبد، إيّاكَ أنْ تنقض حجرًا واحِدًا من حجارته». «هل أنتَ جادٌّ يا أبي؟ ما دمتُ سأهدمُ بيوتهم، فلماذا تريدني ألا أمسّ المعبد؟!». «لأنّ الله فيه، ولا قِبَل لك ولا لي ولا لجيوش روما كلّها به؟ إنّ الله لا يُحارَب يا بُنيّ، لقد عرفتُ ذلك خلال تجربتي

الطّويلة في الحروب في أصقاع الأرض كلّها». خفضَ تيتوس رأسه، وجثا على رُكبتَيه: «سمعًا يا مولاي». ثمّ خرج.

على مشارف أورشليم وقف الفيلق الخامس عشر بقيادة تيتوس، بعد أنْ اجتاح الجليل، والمُدنَ كلّها الواقعةَ بينهما. كان اليهود قد عرفوا أنّ جيش روما صار على الأبواب. كانوا يملكون انتحاريّين مُستعدّين أنْ يتخفّوا بلباس الرّومان، ويقتلون منهم ما استطاعوا قبل أنْ يُقتلوا، وكانوا يحاولون رصّ صفوفهم لمواجهة الخطر المُحيق بهم، لكنّهم لم يكونوا - كعادتهم - على قلبِ رجلٍ واحدٍ، وكان تنظيمُ مُقاتِلِيهم بادي الضّعف، وأيقنوا أنّ سحقهم لن يستغرق وقتًا طويلاً، فاستبدلوا بالخوف من الموت القادم إيمانهم بأنّ هذه الشّهادة مكتوبةٌ من عند الله عليهم لأنّهم مُصطَفون، ولأنّه بهذا يريدُ أنْ يُمحّصهم كونَهم شعبَ الله المُختار.

واجه الجيش الرّوماني في التّلال المُحيطة بأورشليم مقاومةً ضعيفة، سرعان ما تمّ سحقها، وبدأ الجيش يقتل كلّ يهوديّ يُصادفه، وفرّ بعضهم إلى خارج أورشليم طلبًا للنّجاة، وآثر آخرون أنْ يموتوا مع عائلاتهم داخل بيوتهم، في مشهديّة أشبه بالاستسلام الدّينيّ منها بالاستسلام المادّيّ. حيث كانوا يُذبَحون وهم يتلون صَلَواتِهم. وأمر تيتوس أنْ يُقتَل مَنْ يتحصّنُ في بيته، وأنْ تؤخذ النّساء سبايا وتُباع في سوق الرّقيق، وأمّا الأطفال فبدأ بتجميعهم في عرباتٍ تنقلهم إلى البحر في عكّا، تمهيدًا لنقلهم في سفن الإمبراطوريّة إلى روما، حيث يتمّ إعادة تشكيلهم الجسديّ والفِكريّ من جديد.

كانت الدّائرة تضيقُ على اليهود الّذين راحتْ أشلاؤهم تنتشر في

أحياء أورشليم وشوارعها، كان القتل قد استحرّ بطريقةٍ كبيرةٍ في صفوفهم إلى درجة أنّ الخيول كانت تعدو فوق جثثهم، ولم يبقَ شبرٌ واحدٌ من الأرض إلاّ وغطّته جثّةٌ ليهوديٍّ مقتول، وعمّ الرّعب المدينة، وأدركَ اليهود أنّ إبادةً شاملةً ستعمّهم، فبدؤوا يفكرون في حلّ، كان الوقت يعمل ضِدّهم، إذ إنّ دائرة مُحاصرَتهم كانت تضيق شيئًا فشيئًا، بدؤوا يحسدون الّذين نجوا إلى الجبال، أو الّذين تمكّنوا من الإفلات بالهرب إلى مدنٍ أخرى في فلسطين أو خارجها، ولم يكن أمامهم من حلٍّ لإنقاذ من تبقّى لهم إلاّ التّحصّن داخل المعبد نفسه، فاحتمى به الآلاف. واصلَ تيتوس تقدّمه، يقتل، ويُعدِم، ويحرق، ويهدم كلّ ما يتعلّق باليهود في طريقه، ولم يكن حينئذٍ المسيحيّون في منأى تامّ عن الأمر، فنالَهم من الأذى أيضًا ما نالَهم، حتّى وصل إلى البؤرة، إلى المركز حيث الهيكل. كان اليهود قد أقاموا حوله مجموعاتٍ للحرس. هاجمهم، قاتلوا بشراسة، لكنّ الأمر لم يأخذ معه أكثر من بضع ساعاتٍ.

صار على سور الهيكل، تذكّر كلمة أبيه: «إيّاكَ أنْ تُقاتِل الله». توقّف. منح جيشه فرصة الرّاحة، وطلبَ أنْ يجتمع مع مُستشارِيه. «ما العمل؟». «نهدِمُه على رؤوسهم». «الهيكل لا يُهدَم. الله فيه. والقيصر طلب ألاّ يُحارَب». «التّفاوض. يربحون أرواحهم في مقابل العمل كعبيد في أيّ أرضٍ خارجَ أورشليم في بيوت القادة». قال أحدُ مستشاريه. ردّ: «فإنْ لم يقبلوا». «تهديدُهم بنسائهم». «فإنْ لم يقبَلوا». «إطلاق مشاعل دُخانيّة في السّاحة يختنقون برائحتها، ويُضطرّون للخروج». «فإنْ لم تنجح هذه الخُطوة». «إغراؤُهم بالمال؛ فهم يعبدونه ولدينا منه الكثير، وقد يجدونها فرصةً في

النّجاة لا تتكرّر». «أنا لا أحبّذ ذلك. دَعونا يا سادة نجرّب معهم هذه الخطوات واحدةً تِلو الأخرى».

جرّبها تيتوس كلّها، ولم تنجح واحدةٌ منها، كانوا قد أقسموا على الموت داخل المعبد، كان شيمون لا يزال على كرسيّ الكَهانة، طلبَ التّفاوض. فأتي به إلى تيتوس. قال: «أنا هرمتُ، وربّما بيني وبين الموت زفرةٌ واحدة، اليهود في الدّاخل لنْ يُسلّموا أنفسهم، إنّهم يستعيدون ما فعله نبوخذ نصّر بهم في السّبي البابليّ، إنّهم يقولون إنّ هذا القدر يقرّبهم إلى الله أكثر». «أنا أضمن لهم النّجاة هذه المرّة وسأحملهم بسفني خارج فلسطين». «إنّهم لن يقبَلوا». «وأنتَ؟». «لستُ في حسابهم». «سأضطرّ إلى اقتِحام الهيكل، وإذا اضطررتُ إلى ذلك، فوحدها الآلهة تعلم ماذا يُمكن أنْ أفعل، سأنقضه حجرًا حجرًا فوق رؤوسهم». «إنّهم يعرفون أنّ ذلك سيحدث، لقد قرؤوه في كتبهم، وقاله يسوع النّاصريّ من قبل أَمَا تَنْظُرُونَ جَمِيعَ هذِهِ؟ اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ لاَ يُتْرَكُ ههُنَا حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ لاَ يُنْقَضُ». «هل أفهم من هذا أنّك لا تعترض على ما سأفعله». «أنا لا أملك أنْ أُوقِفَك، القَدَر لا يُمكن أنْ يقف في وجهه أحدٌ».

استدعَى تيتوس أشدّ جنوده، أمرهم أنْ يطوّقوا المكان من جميع جهاته بالدّبّابات. كان قد أعِدّ العشرات منها لهذه المهمّة، كان يختبئ في جوفها أكثر من اثني عشر مقاتِلاً جَلْدًا، ويبدؤون بنقب الجدار، حتّى إذا صاروا أمام الهيكل نفسه، راحوا ينقبون جداره، ولَقُوا مقاومةً عنيفةً، فقُتِل من الرومان مَنْ قُتِل، فلمّا رأى تيتوس كثرة قتلاه عزم على أنْ ينقض بناء المعبد حجرًا حجرًا. وفعل. ظلّ أسبوعًا كامِلاً يُهدّم فيه. فلمّا رأى بعض اليهود أنّ الهيكل يتهاوى

أمام ناظِرَيهم سُرّوا سرورًا غامِضًا، كانوا مُبتهِجين مُستبشِرين لأنّهم يُؤمِنون أنّ هدمه هو تمهيدٌ لبنائه، وبناؤه يعني قرب ظهور المسيح المنتظر.

وجُلِبتْ إلى تيتوس كثيرٌ من التماثيل الّتي كانتْ بجوف الهيكل، وأحضر له الشمعدان الكبير، فحمله معه إلى روما، وعلمتْ روما بإخماد تيتوس لتمرّد اليهود، واستِئصال شأفتهم فانتظروه على أبواب روما ليحتفلوا بالنّصر العظيم، وفي المكان الّذي استقبلوه فيه بنى قوسَ النّصر، ووضع عليه الشّمعدان والتّماثيل الّتي حملها معه من الهيكل. وتشتّتَ اليهود من بعد، وساحوا في الأصقاع، وبيعتْ نساؤهم، وشرِق أطفالهم.

ثُمّ إنّه راح يشرح لأبيه الّذي لامه على نَقْضِ حجارة الهيكل أنّه اضطُرّ لذلك. ولكنّ كلمةَ أبيه ظلّتْ ترنّ في أذنه حتّى بعدَ أنْ جلسَ على كرسيّ القيصر خلفًا له.

وفيما كان أحدُ المجانين يسير في الشّوارع يقول إنّ الخراب الّذي أصابَ الهيكلَ إنّما كان بسبب قتلكم أيّها الكهنةُ ليعقوب البارّ، كان هناكَ مجنونٌ آخَر في روما يسير في شوارعها وهو يصيح: «إنّ القيصر سيموتُ بالحُمّى لأنّه قاتلَ الله في أورشليم، إنّ بركان فيزوف ليس إلاّ نذيرًا، وإنّ الكوارث ستتوالَى، وإنّ روما ستحترق جزاءً وفاقًا لحرق أورشليم، وإنّ الطّاعون قادم، الطّاعون الّذي سيأكل الحجارة وأطراف النّاس، وينزرع في عيونهم، إنّ الطّاعون اختبارٌ آخَرُ بسيطٌ لمحاربة الله في المعبد، وإنّ كأس السّمّ الّتي أذاقها القيصرُ لشعب الله المختار سيذوق منها عن قريب. ويلٌ لكم

مِمّا سيأتي يا شعبَ روما. ويلٌ لكم من القادم، ادخلوا دُورَكم، ولا تفتحوا الأبواب للشّمس، فإنّ الطاعون مختبئٌ في كلّ ذرةِ هواء، وآتٍ مع الشّياطين، هل ترون الشّياطين؟ كلاً. ذلك لأنّكم مجموعة من العُميان. الويل لكم. الويل لكم».

١١٩

اصبِرُوا أيّها المُعذَّبُون

حَمَلَ قلبَه والإنجيلَ وأحزانَه ومَضى. كان الأحبّةُ قد تفرّقوا، فرّقتهم يدُ البَطش، ألقتْ بهم إلى أودية الموت دون أيّ أسىً، إنّه عصر الأباطرة الّذين حكموا الأرض بالسّلاح، لكنّ ذلك لن يدوم، السّلاح لن يستمرّ في الأيدي؛ الأيدي سيأكلُها التّراب، والرّعب لن يظلّ مرتِسمًا في العيون؛ العيون سيأكلُها الدّود، البركان لن يظلّ متفجّرًا إلى الأبد، ستأكله الأرض ويخمد، وعلى أطراف رماده ستطلع أشجار اللّوز، وتفوح أزهار الياسمين. كلّ باطلٍ سينتهي، مشكلته مع الّذين يعانون منه هي مسألة وقت، في النّهاية لن يدوم إلاّ الحقّ، والحقّ ما قاله المَسِيح، نعم، سيدوم ما قاله المسيح: حُبّه، ابتسامته السّاحرة، عيناه الصّافِيتان، لمسته الحانية، كلمته الآسرة، حُزنُه على أتباعه، فَرَحُه بإيمانهم، لو كان يؤمن بأنّ السّلاح يهزم الفكرة لما أوصى بطرس أنْ يلقي السّيف، لو كان يؤمن أنّ البقاء لقوّة النّار لما سمح لنفسه أنْ تمسّه وهو حيّ، نار العداوة تُطفأ بماء المحبّة، حتّى لو استهزأ بكَ كلّ مَنْ في الأرض وسَمّوكَ ضعيفًا، أو سَخِروا من طريقتك في التّعامل بهذه الطّريقة السّاذجة الّتي لا يعترفُ بها عالَم البطش والتّنكيل والتّخويف، وغَرْز الرّعبِ في الأفئدة. سيدوم نهجُه إلى يوم الدّين، نهج المحبّة؛ أنْ تزرع في قلبِ قاتِلك وردة حتّى وإنْ نمتْ مُتأخّرة، أنْ تهبَ الحياة لمن يهبك الموت، أنْ تُسامح مَنْ عرفتَ ومَنْ لم تعرف كأنّ ذنبكَ الوحيد ألاّ تُسارع بذلك وتبدأ بمن ظَلَمَك، بمَن جمع كلّ ما في قاموسه من

ألفاظٍ جارحة ورمى بها وجهك السّمح وقلبك الدّافِئ مرّة واحدة. إنّه المسيح الّذي علّمنا أنّ الزّهرة تنبث في الصّخرة، حتّى ولو كانت الصّخرة في وادٍ جديبٍ لا يصل إليها الماء، إنّ وردة الحُبّ لا تحتاج إلى الماء ما دامت تُسقَى بدم القلب الصّادق. إنّه المسيح الّذي علّمنا أنّ البركة تمحو اللّعنة، حتّى لو كان مَنْ ألبسكَ تلك اللّعنة هو إبليس نفسه. إنّه المسيح الّذي قضى حياته بيننا يُعلّمنا في دروسه الحيّة ذلك الحبّ كيفَ يكون، وكيفَ يحيا فينا، وكيفَ يُثمر في النّفوس، وكيفَ يستظلّ بشجرته العاصُون قبل الطّائعين. إنّه المسيح، وكفى أنْ تلفظَ اسمه الخالد لتكتشف أنّه لم يعرف إلاّ الحبّ، ولم يخطر في بالك عنه إلاّ الحبّ، إنّه الحُبّ نفسه مُتمثّلاً في بشرٍ يمشي على الأرض.

لكنّه في المقابل علّمنا أيضًا أنّ بيوت الله لا تتحوّل إلى مغاراتٍ للّصوص، وما أكثر اللّصوص الّذين حذّر منهم، وجاؤوا في أعقابه، وما زال إلى اليوم يقول لهم: «لا تُصدّقوهم، سيظهرون هنا وهنا، وسيتكلّمون باسمي، ولا قولَ إلاّ ما قلته، ولا حقّ إلاّ ما اتّبعتم ما جئت به، فلا تظلموا أنفسكم بالاستِماع إليهم، فإنّما جاؤوا ليصدّوكم عن السّبيل ويَحلِفُون أنّهم مُهتَدون».

حمَلَ قلبَه والإنجيلَ وأحزانَه ومَضَى. سيأوي إلى كهفٍ يعصمه من الهواء الّذي امتلأ خبَثًا، كان يريد أنْ يُنقّي روحه قبل أنْ ينزل إلى العالَم مرّة أخرى فيُبلّغ دعوة الحقّ إلى النّاس الّذين ذهبوا في الضّلال كلّ مذهب.

إنّه العام التّسعون للميلاد. كان قد قضى أكثرُ الحواريّين، وحتّى

حواريّو الحواريّين، كانت قد ضُرِبت أعناقُهم بالسّيف، أو سُمّروا على الصّليب، أو قُطّعت أعضاؤهم، أو حُرِقوا... كان القتل قد استحرّ بهم، وظلّ أتباعُهم على خوفٍ من الفتنة أنْ تطالهم، فلم يُظهِروا أنفسهم، وخلت كثيرٌ من المعابد منهم، ورأى كثيرون أنّ القيامة قامت أكثر من مرّة، قامت مع حرقِ نيرون لروما، وقامت مع حرق تيتوس لأورشليم، وقامت مع حرق المسيحيّين أنفسِهم في السّاحات العامّة وفي الحدائق، وقامت مع بركان إيزوف، وقامت مع حرق روما الثّاني، ومع كلّ هذه القيامات المُتعدّدة إلاّ أنّ المسيح لم يَعُد. لم يكنْ أحدهم يعلم أنّني لن أعود في حياتهم، سأعودُ في حياةِ آخرين. وأنّ قيامات أخرى في عصورٍ مُتلاحقةٍ ستحدث أيضًا قبل أنْ تأتي نهايةُ العالَم، وقبل أنْ يجيء يوم الدينونة. لقد أوصيتُهم بالصّبر، وأنْ يحفظوا أنفسهم، وما من نبيّ إلاّ أمر بالصّبر وحثّ عليه، وإنّ الصّبر جُهد القلب، واحتمال الجسد، ومعاناة الرّوح، وثمرتُه الحُلوةُ بعدَ طَعمِه المرير قد لا تكون في حياة مَن اضطُهِد، ربّما يتأجّل ذلك إلى زمنٍ آخَر، لكنّه في الأحوال كُلّها لا مَناصَ من الصّبر، ولا طَريقَ توصل إلى الدّينونة غيرُها، فاصبروا ها أنذا أقول لكم: اصبِروا أيّها المُعذّبون، اصبروا أيّها المُضطهَدون، إنّ النّصر لكم في النّهاية، وإنّ لحظةَ جزعٍ واحدةٍ تذهب بعمرٍ كامل من الصّبر وتمحقه، فإيّاكم أنْ يُصيبكم الجزع، إيّاكم أنْ يَمسّكمُ اليأس، وإيّاكم أنْ يتسرّب إلى قلوبكم الوَهَنُ أو الشّك، إنّ الشّك بانتصار الخير كُفر، إنّ الشّك بانتصار دعوتي ورسالتي كُفر، إنّ الشّك بأنّني لن أعودَ في آخر الزّمان فأُعِيدَ الحقّ وصَولَتَه، وأمحقَ الباطل وجولته، لَهُو كفر. وموعدنا غدًا ليس اليوم، فاصبروا على أذى اليوم ليأنسَ قلبُكم بفرح

الغد.

حمَلَ قلبَه والإنجيلَ وأحزانَه ومَضَى. كان يصعدُ في التّلال، يبحثُ عن كهفٍ يُبعده عن النّاس ويُقرّبه من الله. كهفٍ يجدُ فيه لذّةَ المُناجاةِ مع الخالق، وفرصةَ العُمر في إعادة إحياء الرّوح الّتي اضطربتْ بكثرة القتل، تحت هذه الجبال، وفي تلك السّهول على أيدي حُكّام القوّة والجبروت. ظلّ يوسفُ يصعد وروحُه التّوّاقة تدفعه إلى الأعلى، إلى أنْ وصل. كان يكشفُ كلّ ما دونه، ويكشفُ كلّ ما فوقه، ولا يعلوه شيء. أقام فيه. لا يأكل إلاّ مِمّا يجد، ولا يشربُ إلاّ ما تجود به السّماء. كان يريد الانقطاع عن كلّ شيءٍ إلاّ عن الله. لم يكنِ الوحيد الّذي فعل ذلك، كثيرٌ من الّذين فرّوا بدينهم من بطش الأباطرة فعلوا ما فعل. تركوا لهم الدّنيا، وركضوا إلى الآخرة كأنّ الدّنيا جَرَبٌ يُعدي. أراحوا أنفسهم من التّفكير بمشاغل المال والرّزق والنّشب والعَرَض، وعرفوا أنّه زائل، وانشغلوا عن ذلك بالرّوح والفكرة ومناجاة الرّبّ، وعرفوا أنّه باقٍ. أبصروا طريقَين، فاختاروا الطّريق الصّاعد إلى الجبال، وتركوا طريق الوديان الهابطة للنّاس يَهيمُون فيها وهم فَرِحون، كانوا يعرفون أنّ الدّنيا ثقيلة، فتخفّفوا من أحمالها ليستطيعوا الوصول القمم، لو أخذوها معهم لأبطأتْ سيرهم، ولعاقتْهم، ولتركتْهم لتعبهم يستريحون من وطأتها في كلّ حين.

عاشَ في الكهف أكثرَ من عشرِ سنين، يُصلّي ويبكي، ويرجو اللّحاق برفقائه، ويقرأ في إنجيل بطرس. ويأتيه روحٌ من الله فيربط على قلبه، فيصبر على ما فيه. وبعد السّنين العشر لحقه قومٌ فرّوا كذلك بدينهم، فقال لهم: كهوف الجبال كثيرة. فردّوا: ولكنّه لا عِلمَ فيها،

وإنْ خلونا إلى أنفسنا من دون علمٍ سهُلَ على الشّيطان أنْ يُعلّمنا، وأنْ يُزيّن لنا أعمالَنا. فرضيَ أنْ يُقرِئهم من الإنجيل في كلّ أسبوعٍ مرّة، حتّى يستقرّ في قلوبهم ما استقرّ في قلبه، فيكونوا على ردّ الأهواء والشّياطين أقدر.

بعد عشر سنواتٍ أخرى صار صعبًا عليه أنْ ينزل إلى الدّنيا الّتي تموج بالبشر وبالخطايا في الأسفل، لكنّه كان ينصح الّذين يُعلّمهم ألاّ يمكثوا طويلاً في الكهوف، وأنْ يعودوا إلى النّاس فإنّما يحيا العلم بنشره لا بكتمه في الصّدور، وإنّ المسيح ليُرضيه أنْ تَعُمّ رحمتُه في تعاليمه النّاسَ أجمعين. وتأسّست بذلك طائفة من اليوسفيّين الّذين أعادوا للمسيحيّة دورَها في الحياة في نهاية القرن الأوّل الميلاديّ. إنّه لولا الفهم العميق لبطرس، ومن بعده ليوسف لظلّت الشّعلة تخبو بموت من كان يحملها، إنّه لا بُدّ من إنتاجِ حَمَلةٍ جُدُدٍ للشّعلة حتّى لا تنطفئ بتعاقب السّنين.

هَرِمَ حتّى استحيث منه السّنون أنْ تبقَى تعمل في جسده، جسده الّذي تهالكَ حتّى لم يعدْ يقوَى على فِعلِ شيءٍ غير الصّلاة. كان يعلم أنّ اللّحاق بالصّالحين قد أزِف، يعلم ذلك من وجه السّماء الّتي صارت تُطالعه في الأيّام الأخيرة، إنّ المسيح ينتظره مع طائفة الصّدّيقين، وإنّ أرائكهم معروفةٌ بالاسم، مُهيّأةٌ لكلّ واحدٍ منهم، وإنّ مقعده ما زال شاغِرًا، يتزيّن له، ويتهيأ. وإنّه إلى لقائه لَمُشتاق.

أرادَ أنْ يكتبَ رسالةً إلى يوحنّا، لكنّ يوحنا لا يعرفه، وإنْ كان هو يعرفه كما كان يعرفُ مُعلّمَه بُطرس. أرادَ أنْ يقول له، إذا وصلتْ إليكَ رسالتي فصلِّ لروحي، فإنّك الرّسولُ الوحيدُ الّذي عرفتُ أنّ أنفاسَه

ما زالت تُعطّر هواء هذا الكون، وتَهَبُه البَرَكة. لكنْ ذلك لم يحدث. قال ذلك في عقله، واكتفى بأنْ يوحنا لا بُدّ أنْ تعمّه صلواته حتّى ولو لم يكنْ يعرفه من قبل.

كان بخطّ يده، مكتوبًا بعناية. وبصبرٍ شديد، وعلى مدى سنوات القلق، والمطاردة، والمعاناة، والإيمان المسيحيّ العميق، قبّله وأدام النّظر فيه، كأنّه لن يراه من بعد، وضمّه إلى صدره كأنّه سيفارقه فراقًا لا عودة منه، وتلمّسه كأنّه حبيبٌ على وشك الرّحيل من بين يديه، فأطال لَمَسَاتِه ودموعه تتحدّر على خدّيه اليابِسَين، شعر بحرارة الدّموع، وراح يمسحها وهو يحاول أنْ يرسم بسمةً بدلاً منها. الفراق بين جسدَين صعبٌ وأليمٌ لكنّه في النّهاية قد يُحتمل، لكنْ الفراق بين روحٍ وجسد هو الأكثر ألمًا في مستويات الألم الّتي قد يشعر بها إنسان، فكيفَ بقلبِ هذا العابدِ الجليل؟!

وضع الإنجيل في صندوقٍ كان قد طلبَ منذ سنواتٍ من أحد مُرِيدِيه أنْ يصنعه له، لم يكن من الحديد ولا من الخشب، كان من الرّخام، أراد لهذا الصّندوق أنْ يعيشَ أطولَ زمنٍ مُمكِن، ولهذا الإنجيل أنْ يُعمّرَ إلى زمن العثور عليه في مُستقبَلٍ لا يعلمه إلاّ الله. لفّ الإنجيل بغلافٍ من الجلد، وربطه ربطًا مُحكَمًا، وأودعه في الصّندوق الرّخامي، وقبّله القبلة الأخيرة، ثُمّ دفنه في الكهف عندَ موضع رأسه، وراحَ يتلو الصّلوات ودموعه تسبح فوق وجهه المُتغضّن. تعب. أرادَ أنْ ينام ليرتاح قليلاً، لكنّه عرفَ أنّ الرّاحةَ ليست هنا، بل هناك، وأنّ تعبَ اليوم وكلّ ما مرّ من تعبٍ عبر عمرٍ طويلٍ ستمحوه نفحةٌ واحدةٌ من نفحات الجنّة في لقاء الأحبّة، فآثر أنْ يظلّ راكِعًا يُصلّي، حتّى إذا اقتربَ الفجر، شعر أنّ طائرًا يرفرف

بجناحيه على باب الكهف، وأنّه يقف على الباب يستأذنه بالدّخول. دخل، لم يكنْ طائرًا، كان ملاكًا، هل كان يحلم من تعب الصّلاة وإدامة الرّكوع؟! ربّما. لكنّه أحسّ أنّه خفيفُ الجسد، وأنّ المَلاكَ قد حمله بين يدَيه، وحلّق به عالِيًا في السّماوات الّتي كانت النّجوم فيها تَلألأُ خفيفةً، كأنّها ترحّب به قادِمًا نحوها، وتأذن للفجر بالبزوغ.

١٢٠

كلمةُ الله تَسِيرُ في الأرضِ بقوّة السّماء

حكمَ أوغسطس وتيباروس وكاليجولا وكلوديوس ونيرون وفاسبازيان وتيتوس ودوميتيان، وماتوا جميعًا، وظلّ المسيح حيًّا. ماتت أفكارهم ولم يحتفظْ بها إلا التّاريخُ في متحفه، أمّا أفكار المسيح فلم تمتْ قطّ، حفظها التّاريخ، وحفظتْها القلوب. أمّا الأباطرة الّذين ضاقت بممالكهم وجيوشهم الأرضُ فقد ماتَ بعضُهم ببعض، وأفنى بعضُهم بعضًا، بالسّم أو بالانقِلاب أو بالنّحر، أو بالانتِحار. إنّ الظّالم ليقتُل نفسه قبلَ أنْ يشرعَ بقتل الآخرين، «لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ».

وكلمةُ الله، تَسِيرُ في الأرضِ بقوّة السّماء، تزرع الأمل في الدّروب، تُحيي الطّمأنينة في النّفوس، وتَعِدُ بالفوز بعد الضّنى، وبالنّور العميم رغم سجفات اللّيل السديميّ الكثيف.

ظلّ في قلبه، حتّى بعد أن ارتفع المسيح إلى السّماء، وظلّ واضِعًا رأسه على صدره على غرار اللّيلة الأخيرة، كان صدرُ المسيح ليلتئذٍ قد نثر في رأسه كُلّ البركات الّتي سترافقه قرنًا كامِلاً. حينَ كان يكتب إنجيله، لم يكنْ ليقول إنّه إنجيل يوحنّا، لأنّ يوحنّا يتعدّد، لكنّ حُبّ المسيح الّذي منحه له لا يمكن أنْ يتعدّد أو يتكرّر، ولذلك كان يختم إنجيله بهذا التّوقيع الّذي أغلى عنده من روحه: «التّلميذ الّذي كان يسوع يحبّه». كم هو شرفٌ أنْ تكون تلميذًا للمسيح، تلميذًا حقيقيًا، يصدر من مِشكاته، ويَقبِسُ من أنواره، لا كأولئك الّذين تكبّروا بما لديهم من العلم، فجعلوا تعاليمهم أعظمَ من تعاليم

المسيح، بل وبدا كأنّهم يجعلون المسيح نفسَه تلميذًا لهم، وأنّهم يُكملون رسالته بوحيٍ منه، وما كان وحيًا، بل كان وهمًا، واتّباعًا لخطوات الشّيطان.

كانت يد الشرّ قد استحكمت، وطالت كلّ برّ وتقيّ. وأوكل القيصر نفسه أتباعه أنْ يأتوه بيوحنّا، لقد قطع رؤوس السابقين وألقى بهم في النّهر، ولم يبقَ من رؤوس الفاسِدين في ظنّه إلا هو، فليُؤتَ به. كان ذلك التّلميذ - الّذي بدا شابًا يافِعًا فيما مضى - قد صار عجوزًا هدّه الهَرَم، وأنحل جسده فَتُّ الزّمان فيه، ومع ذلك جاء به الرّومان، ودعوا النّاس إلى أنْ يروا نهايته، فقد كانوا يستمتعون بالقتل، ويدعون النّاس إلى الاستمتاع به، وأُتِي بِقِدْرٍ كبيرةٍ تسع خمسةَ رجال، فمُلِئت بالزّيت، ثمّ أوقدت تحتها النّار حتّى صار الزّيت يغلي فيها، وصوتُ بَقْبَقاتِ فُقاعاتٍ يُسمَع من بعيدٍ، وبُخار غَلَيانه يتصاعَد أمام النّاظرين، ثمّ جيءَ بيوحنّا الرّسول مُقيّدًا، فلمّا اقترب الجنود الذين يحرسونه من القِدْر لم يُطيقوا حرارتَها، فابتسم، وقال لهم: فُكّوا قُيودي، ولا تُحمّلوا أنفسكم عناءَ دفعي، وأنا أُلقي بنفسي في القِدْر، وصدّقوه لأنّ الحواريّين لا يكذبون، ولا أشدّ معرفةً بصِدق المُؤمِنين من الكَذَبة المُنكِرين!! لكنّ الخوف يغلبُ الحقيقة. فمشى يوحنّا كأنّما يمشي إلى روضةٍ من رياض الجنّة، ووقفَ في القِدْر على رِجلَيه، وظلّ واقِفًا دون أنْ يصرخَ أو يتألّم أو يذوب، كأنّه يقفُ في النّعيم، ورُئِي من خلال غمامات البُخار المُتصاعد باسِمًا، وكأنّه مَحفوفٌ بالرّحمة والسّكينة، فتعجّبوا أيما تعجّب، وظنّوا أنّهم سُحِروا، ولم يُصدّقوا أعينهم، ثمّ لمّا طال به المُقام، قال لهم: «أما استحييتم، أما عندكم من وسيلةٍ أخرى تُقرّبونني بها من سيّدي؟!».

ثُمّ خرج من القِدْر يمشي لم يَمْسَسْه شيءٌ، ومرّ من أمامهم وهم ينظرون إليه دون أنْ يُحرِّكوا ساكِنًا، ولم يَدْرُوا أسُلِبتْ منهم إرادتهم فلم يقدروا على إلقاء القبض عليه من جديد؟! أم أنّ ذهولهم ربطَ أيديهم فلم يقدروا على الحركة شبرًا واحِدًا؟! لكنّ الحقيقة الّتي ظلّ يتحدّث بها الرّومان ويختلفون في تفسيرها: أنّه دخل القِدْر الّتي تفور بقدمَيه طواعية، وخرج منها سليمًا دون أنْ يُمسّ بأدنى أذى!!

وأُلقِي القبض عليه من جديدٍ، ولكنْ هذه المرّة لا لقتله، فقد علموا أنّ كلّ قوّة روما وبأسها لن يقدر على جسد هذا الرّجل الضّعيف، وأنّ سِحرَه لا يُبطله شيءٌ، فأرادوا أنْ يُبعِدوه عنهم حتّى لا يجتمع عليه النّاس، فنُفِي إلى جزيرةٍ في بحر إيجة، وهناك عرفَ أنّ يد القدر بعثت به إلى هنا ليتفرّغ لإتمام كتابة إنجيله ورسالته، ولكي يكون ذلك خاتمةً تليق بحياة رسولٍ ظلّ يفتخر بأنّه التلميذ الأقرب إلى قلب المسيح.

كان ذلك عام ١٠٠ م حينَ طلبَ منه الملاك الّذي طلبَ من يوسف أنْ يرافقه، لم يقلْ شيئًا، وضعَ يده في يده، وارتقيا معًا.

*****

لقد كانوا رُسُلِي إلى العالَم، الحواريّون لم يكذبوا بكلمة، أعرفُ أنّ آخرين فعلوا. الحواريّون ظلّوا أمناء على العهد حتّى آخر نبضٍ في قلوبهم، إنّني في نهاية هذا القرن أُباركهم، أجتمع بهم، كما أجتمع بكلّ مَنْ آمن بي دون أنْ يزيد على ما قلته شيئًا. إنّني من موقعي السّماويّ وُهِبتُ القدرة على أنْ أرى كلّ شيء، أسمع ما يدور، إنّني حيّ، كما هم كلّ إخوتي من الأنبياء والمُرسَلين. وهذا سببُ أنّني

في كلّ عصرٍ من عصور الضّلال أُثبّت المُؤمنين المُهتدِين لكي يبقوا شوكةً في حلوق الشّياطين، الشّياطين الّتي تلبش جلودَ آدميّين في أزمنةٍ مُختلفة. وسأبقَى معهم بروحي، إلى أنْ أجيء بجسدي وروحي في آخر الزّمان. الحربُ الّتي كانتْ بيني وبين الشّيطان على الجبل أيّام رسالتي الأرضيّة لم تنتهِ، ما زال الشّيطان يُبارِزُني ويُبارِزُ أوليائي، إنّها تتجدّد، وهي ما زالت قائمة، وستظلّ كذلك تقوم في عصورٍ مُختلِفةٍ إلى أنْ يجيءَ اليومُ الّذي ستنتهي فيه، ولن يكون ذلك اليوم إلاّ بنزولي من السّماوات في مَحفلٍ مَهيب، وها أنتم شهودٌ عليه.

السّلامُ على أرواح الصّادقين. السّلام على أرواح المُوحِّدِين، «والسّلامُ عليّ يومَ وُلِدتُ ويومَ أموتُ ويومَ أُبعَثُ حيّا».

تمّتْ

أيمن العتوم

سراييفو - البوسنة والهِرسك